



المركز الوطني للأمن وإدارة الأزمات

أطورييسكيون في المغرب

تأليف: غيرمو غوثاليس بوسنو
ترجمة: مروءة محمد إبراهيم
مراجعة وتعليق: جمال عبد الرحمن



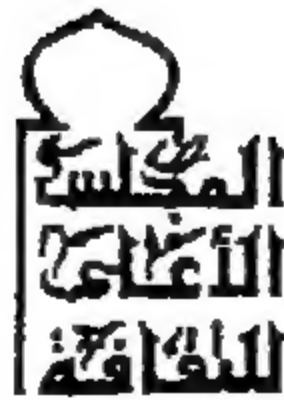
المشروع القومي للترجمة

الموريسكيون فى المغرب

تأليف : غييرمو غوثاليس بوستو

ترجمة : مروة محمد إبراهيم

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٥

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٢٦

- الموريسكيون فى المغرب

- غييرمو غوثالبيس بوستو

- مروة محمد إبراهيم

- جمال عبد الرحمن

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه هى ترجمة كتاب :

Los moriscos en Marruecos

By:

Guillermo Gozalbes Busto

© Guillermo Gozalbes Busto

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

7	تقديم المراجع:
17	مقدمة:
21	على شكل تمهيد : الموريسكيون فى المغرب
31	الفصل الأول: تطوان من قرن المندارى إلى قرن عائلة النقسيس
61	الفصل الثانى: المجتمع الغرناطى - النصرى فى المنفى
85	الفصل الثالث : دراسة موريسكية لأسماء الأشخاص فى المغرب
149	الفصل الرابع: المظاهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للموريسكيين فى المغرب ...
187	الفصل الخامس: التعايش اليهودى - الموريسكى فى المنفى
235	الفصل السادس: سجون تطوان
279	الفصل السابع: تطوان الموريسكية خلال القرن السابع عشر
399	الفصل الثامن: ردود فعل فى أندلوثيا على لحظة مخففة: غزو مملكة فاس
411	الفصل التاسع: صفحات من التاريخ
448	أشكال وصور الكتاب

تقديم المراجع

بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس - بل وقبيل السقوط - كانت الهجرة إلى بلد إسلامى تعد فى كثير من الأحوال هى الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور فى بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أى شىء يوقف زحف الملك الكاثوليكي.

بدأ الناس فى الهجرة ، وكانت لتلك الهجرة - كغيرها من الحركات الكبرى فى التاريخ - نتائج ملموسة ، سواء على الذين هاجروا ، أو على بعض البلاد التى هاجروا إليها . رحل الأندلسيون إلى تركيا ومصر وشمال إفريقيا وأوروبا ، بل وأمريكا التى كان قد تم اكتشافها منذ قليل.

لم تكن هجرة الأندلسيين ذات أثر بارز فى بلد كمصر، فالمهاجرون قد استقروا فيها وصاهروا أهلها ، وبعد فترة قصيرة لم يعد من الممكن التمييز بين المصرى والأندلسي(*)

لكن الوضع فى شمال إفريقيا كان مختلفاً تماماً، فقد أقام المهاجرون فى قرى ومدن خاصة، شيدوها على غرار المدن التى جاءوا منها، وظلوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم ، ولم يندمجوا فى المجتمعات المغربية التى هاجروا إليها إلا بعد زمن طويل.

(*) (راجع كتاب عبد الرحيم عبد الرحمن عن الأندلسيين فى مصر من واقع ملفات المحاكم الشرعية ، إصدارات مؤسسة التميمي للبحث العلمى بزغوان، تونس) ونظن أن الوضع لم يكن يختلف كثيراً فى بقية البلاد الإسلامية مثل تركيا.

كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربى ، فقد نقل الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ثقافتهم الخاصة ، بإيجابياتها وسلبياتها، كما سنعرض فيما يلى.

كانت إعادة تأسيس مدينة تطوان على يد المندارى، وهو نبيل غرناطى، هى أولى ثمار الهجرة الأندلسية إلى المغرب، والكتاب الذى بين يدينا يبرز الطابع الغرناطى الخالص الذى تمتعت به مدينة تطوان عند إعادة تأسيسها.

وصل الغرناطيون إلى شمال إفريقيا فأعادوا هيكلة الجهاد البحرى الذى تحول فى بعض الأحيان إلى وسيلة لكسب العيش، إن الجهاد - بشقيه: البرى والبحرى - قد جعل من تطوان قبلة للمسلمين المضطهدين فى أوروبا.

كانت هجرة نبلاء غرناطة المسلمين إلى شمال إفريقيا سبباً فى وضع حد للتوسع البرتغالى على حساب بلاد المغرب العربى، وقد استطاع المغاربة - بمعاونة الغرناطيين المنفيين - تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه بمفردهم، إن النصر على البرتغال فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ إنما ترجع أسبابه الرئيسية إلى معاونة الأندلسيين الذين وقفوا إلى جانب السلطان المغربى.

على أن ثمار الوجود الموريسكى فى المغرب لم تقتصر على الجانب الجهادى، فيكفى أن نتذكر أن الأندلسيين - بالإضافة إلى تقديم المحاربين الشجعان للجيش المغربى - كان من بينهم الوزراء ذوى الرأى ، وكان منهم المستشارون والصناع المهرة والجنود والتجار ، هذا إلى جانب المسائل الفقهية التى أثارها الوافدون الجدد إلى المغرب ، وإلى جهود الأندلسيين أنفسهم فى ترجمة العلوم الدينية، كل ذلك أسهم فى أن يلمع بريق الأندلس فى الشمال المغربى، والكتاب الذى نقدم له يبين الآثار المعمارية التى خلفها الموريسكيون فى المغرب والتى انعكست - دون شك - على الطراز المعمارى المغربى فيما بعد.

لا نستطيع أن نؤكد أن ترحيب أهل المغرب العربى بأولئك المسلمين المهاجرين كان ترحيباً بلا تحفظ، فقد كان القادمون الجدد يمثلون - فى نظر البعض - تهديداً للقيمة العيش من ناحية، وكان المغاربة ينظرون إليهم بعين الشك أحياناً حين يرون أنهم

يمارسون إسلاماً مختلفاً في شكله عن الإسلام الذي عرفه الناس في المغرب. وعليه فقد تعين على الموريسكيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد سكان البلاد الأصليين وضد البرتغاليين في آن واحد.

وقد أدى انهماك المسلمين الغرناطيين في المغرب في توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن أنفسهم ، ضد البرتغاليين من ناحية وضد سكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى، إلى نتائج منها اتجاه الوافدين الجدد إلى الجهاد البحري (ومن هنا أهملوا بقية الأنشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة)، كما انحصر النشاط الأدبي في كتابات دينية ضرورية.

ذكرنا أن الأندلسيين قد نقلوا إلى المغرب الطراز المعماري للمدن والبيوت التي كانوا يقيمون فيها في إسبانيا، وهذا أثر إيجابي. لكن الهجرة الموريسكية إلى المغرب كانت لها أيضا جوانب سلبية ترتبت عليها.

يشير المؤلف إلى تفكك دولة الخلافة في الأندلس وما ترتب عليه من ضعف أدى في النهاية إلى سقوط غرناطة الإسلامية، ويذكر كيف أن الصراعات الأهلية بين الغرناطيين أدت إلى ضياع نفوذهم في الشمال المغربي ، كما أدت في السابق إلى ضياع دولتهم في إسبانيا.

يتحدث المؤلف عن طبقة العامة في غرناطة والتي ظنت أن خلاصها من الظلم يكمن في تغيير الحاكم ، وثبت أن الأمر لم يكن بهذه البساطة. هل يعيد التاريخ نفسه؟ انهارت المؤسسات في غرناطة الإسلامية فسقطت الدولة في نهاية الأمر. هل يكف المؤرخون العرب الحاليون عن اتهام أبي عبد الله الصغير بالخيانة؟

لماذا يتخصص باحث إسباني مثل صديقنا الراحل غوثالبيس بوستو في تاريخ المغرب العربي؟ المؤلف نفسه يجيب على هذا التساؤل في أكثر من مناسبة: إن قراءة تاريخ ضفتي مضيق جبل طارق في القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربي - من قبل الباحث الإسباني - ليست من باب التعرف على الآخر، بل هي ضرورة للتعرف على الذات.

نلاحظ فى الكتاب نقد الذات: يعيب المؤلف على المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر عدم الاهتمام بمشكلة الإسبان المسلمين الذين عبروا المضيق واستقروا فى شمال إفريقيا. وتذكر هنا أن المستعرب الإسبانى سيرافين كالديرون فى القرن التاسع عشر كان قد نادى بدراسة الثقافة الموريسكية فى الشمال المغربى للتعرف على تاريخ إسبانيا بشكل كامل، ولتعرف على الجار المغربى (*).

يلفت النظر فى كتابات المؤرخين الإسبان رجوعهم إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون ، بالإضافة إلى ما خلفه الكتاب الإسبان المعاصرون لهما ، وقد اعتمد صديقنا الراحل غوثالبيس بوستو على وثائق كتبها مؤرخون عرب ، لكنه اعتمد كذلك على بعض ما كتبه مؤرخون إسبان فى القرن السادس عشر ، وهو يعلم أنها كتابات دعائية لا يمكن الاعتماد بها كثيراً، ومن ثم كان عليه أن يوضح ذلك للقارئ غير المتخصص. على أننا لانعفى المؤرخ العربى المعاصر للأحداث من المسئولية ، فمؤلف الكتاب يلجأ إلى المصادر الإسبانية وحدها عندما لا يجد بديلاً عربياً. إن تقصيرنا - فى الماضى والحاضر- فى كتابة التاريخ جعل الرؤية الغربية هى السائدة. هل من حقنا أن نلوم الآخرين إن هم اعتمدوا على كتابات أوروبية فى حالة عدم وجود مصادر عربية؟

الكتاب يتضمن فصلاً عن اليهود الذين طردوا من إسبانيا وأقاموا فى المغرب. من الطبيعى أن تنشأ علاقة طيبة بين المسلمين واليهود فى المنفى ، فالمجموعتان تربطهما علاقة الوطن المفقود وعلاقة اللغة الإسبانية التى كانوا يتحدثونها. إن الدور البارز الذى لعبه اليهود بصفتهم تجاراً ووسطاء فى المفاوضات التى كانت تجرى بين المسلمين والمسيحيين لابد أن يدرس بعناية. مبلغ علمنا أن عدد اليهود الذين رحلوا إلى المغرب كان ضئيلاً إذا ما قورن بأعداد المسلمين الذين اختاروا نفس المكان وطناً بديلاً. ورغم قلة عدد اليهود فإنهم قاموا بدور بالغ الأهمية فى المجال الاقتصادى وفى مجال

(*) جاء ذلك فى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة افتتاح قسم الدراسات العربية فى نادى مدريد الثقافى Ateneo ، وفى كتابه "دليل الضابط الإسبانى فى الغرب" انظر : *Seraf in Calderon : Obras Completas*, ed. Atlas, Madrid, 1955 (المراجع)

السياسة فى حوض البحر المتوسط. إن أهمية أمة ما لا تكمن فى عددها وإنما فى إيجابية مواطنيها واجتهادهم فى تحقيق أهدافها.

يتبين من الكتاب أيضاً الدور البارز الذى لعبه اليهود - على قلة عددهم - فى مفاوضات تحرير الأسرى الإسبان ، وربما يكون من المناسب أن تخصص دراسة مستقلة للدور الذى لعبه اليهود فى عالمنا العربى الإسلامى بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢ .

قام اليهود فى بعض الأحيان بدور بارز فى الترجمة ، ولعلهم بذلك عرفوا كثيراً من الأسرار واستغلوها لصالحهم ، ونتساءل الآن - بعد مرور خمسة قرون على تلك الأحداث - هل عجز حكام المغرب آنذاك عن العثور على مترجم كفء من بين الموريسكيين؟

الأمر الذى يعنينا فيما يتعلق باليهود أن مؤلف الكتاب يعترف أنهم عاشوا فى المغرب فى جو من الحرية والتسامح لم يتمتعوا بهما فى إسبانيا الكاثوليكية.

على أن اليهود لم يصلوا إلى المغرب ابتداءً من عام ١٤٩٢ حين طردتهم إسبانيا منها ، بل تدل الوثائق على وجددهم فى بلاد المسلمين قبل ذلك التاريخ بكثير وتوليهم مناصب مهمة وإساءتهم إلى من أحسن إليهم. أشير هنا إلى ما يذكره الدكتور عيسى الحريرى - نقلاً عن السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - فى كتابه عن دولة بنى مرين (ص. ١٨٦) وكيف أن يهوديا تولى الوزارة وكان سبباً رئيسياً فى انهيار دولة بنى مرين:

"واضطرم حقد السلطان على رعيته، فسولت له نفسه تعيين اثنين من اليهود هما هارون وشاويل فى منصب الوزارة تأديباً لرعيته وتشفيماً منهم. وأثار هذا التصرف كافة طوائف الشعب، لأنه تصرف يمس عواطفه الدينية ، وفقد السلطان عبد الحق تأييد شعبه خاصة وعامة ، ومما أذكى حقد الشعب على السلطان أن الوزيرين اليهوديين شرعوا فى "أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا فى الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته

رجلا يقال له الحسين لا يألو جهداً في العسف واستلاب الأموال ، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة" ... واقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة (المرينية)، ففي أحد الأيام قبض الوزير اليهودي على امرأة شريفة من البلدة - من أحياء فاس - "فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهيتهما السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمى اليهودي وكاد يتميز غيظاً من سماع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالإبلاغ في عقابها" وانتشر الخبر في المدينة فأسرع الناس إلى الاجتماع عند خطيب مسجد القرويين واتفقوا على خلع السلطان عبد الحق والبيعة للشريف أبي عبد الله الحفيد ، وهو محمد بن علي عمران الإدريسي من أهل البيت، وبايعوه في السابع عشر من رمضان (٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م) ، وهكذا انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية المشرقة بعد أن عاشت في بلاد المغرب بعطائها السياسي والحضاري الغزير زهاء مائتي عام (*) .

يتضمن الكتاب عدداً لا بأس به من الوثائق، وربما كان أهم ما تعرضه الوثائق في هذا الكتاب هو سعي حاكم مغربي إلى غزو أمريكا الجنوبية بمساعدة الإنجليز ، وقد جاء رد الملكة إيزابيل بالموافقة واشترطت تحمل المغاربة مبلغ مائة ألف جنيه مساهمة في نفقات الأسطول الإنجليزي. وتعرض الوثائق أيضاً محاولة جزائرية لغزو أمريكا بالتعاون مع الهولنديين. وهكذا نرى أن سعي أمتنا لاحتلال مكان لائق بين الأمم لم يتوقف عند سقوط غرناطة كما يحلو للبعض أن يردد.

الكتاب مفيد بلا شك، ونحسب أنه يمثل إضافة إلى مكتبتنا العربية الخاصة بتاريخ المغرب العربي وبالنتائج التي ترتبت على سقوط غرناطة الإسلامية ، وقد اجتهدنا في أن تصل المعلومات الواردة فيه كاملة إلى القارئ العربي، وحاولنا التغلب على بعض المشاكل التي صادفناها .

(*) بتصرف محدود ، نقلاً عن كتاب "تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني" تأليف د. محمد عيسى الحريري ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

كانت هناك مشكلة فى كتابة الأسماء العربية للشخصيات والعائلات المذكورة فى الكتاب لأن تسجيل بعض هذه الأسماء - كما أشار المؤلف - كان يتبع نظام اللهجة المغربية ، وبالتالي لم نتمكن فى بعض الأحيان من رصد الاسم العربى، كان الحل الأمثل هو الرجوع إلى الزملاء المغاربة ، لكننا ندرك أن الكتابة إليهم وانتظار الرد قد يستغرق وقتاً غير قصير. لذلك اجتهدنا فى التوصل إلى النطق العربى لبعض الأسماء المذكورة ، ويبقى أمام الباحث المتخصص أن يكمل الطريق ، فهو - دون شك - أقدر منا على القيام بهذه المهمة.

على أن الأسماء ذات الأصل الإشباني- وهى كثيرة - والأسماء المشتقة من اللغة العربية الفصحى - وهى كثيرة كذلك - لم تشكل أمامنا عائقاً ، ونحسب أننا قد كتبناها بشكل صحيح.

أما أسماء البلاد الصغيرة فهى تمثل مشكلة أخرى ، فالوثائق التى نطالعها كتبت فى القرن السادس عشر ، ولم يتبع الكتاب نهجاً واحداً فى كتابة أسماء المدن، لذلك رأينا أن نعالج المشكلة بوضع الاسم كما هو وأن نجتهد فى كل حالة. نعلم أننا أصبنا فى بعض الأحيان وأن الصواب جانبنا فى أحيان أخرى ، ونظن أن الباحث المتخصص سيمكنه تصحيح الأخطاء التى وقعنا فيها دون قصد.

لنا ملاحظة على الأرقام الموجودة فى الكتاب. إن المؤلف - فى أثناء حساب تكاليف عمليات الافتداء - يستخدم عند ذكر المعلومة أكثر من رقم: مرة يذكر التكاليف بعملة معينة ، ومرة يذكر ما يقابل ذلك بالعملات الأخرى. ندرك أن كثرة هذه الأرقام قد تشوش أفكار القارئ العادى، أما الباحث المتخصص فسيجد فيها معلومات مهمة عن قيمة العملات آنذاك.

سيلاحظ القارئ عدم انسيابية النص أحياناً، ومبلغ علمنا أن ذلك لا يعود إلى قصور فى طريقة عرض الموضوع ، وإنما لأن المؤلف يعتمد على وثائق متفرقة ، مختلفة المصدر والتاريخ، ويحاول أن يرسم من كل ذلك صورة للوضع آنذاك.

يبقى أمامنا أن نقدم مؤلف الكتاب ، وهو أحد أبرز المتخصصين في تاريخ المغرب ، وقد التقيته في مؤتمر علمي بتونس ، وكان قد تجاوز السبعين إلا أنه كان أكثر المشاركين حرصا على حضور جميع المحاضرات ، ولم يكن يدع محاضرة تلقى دون التعليق على ما جاء بها . استمرت العلاقة بيننا عن طريق المراسلة والهاتف، وكنت ألقى منه الكتب والمقالات التي ينشرها في المجلات العلمية، وكانت في مجملها تدور حول تاريخ المغرب العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يبقى كذلك أن أعبر عن جزيل الشكر والامتنان لكل من أرملة المؤلف وابنه الدكتور إنريكي غوثالبيس أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة على تعاونهما في إصدار هذا الكتاب .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

جمال عبد الرحمن

إهداء :
إلى تطوان
و
إلى غرناطة

مقدمة

كانت الواجهة الجنوبية لشبه جزيرة إيبيريا محكومة تاريخيا بالتغيرات التي ظهرت في موقعها الجغرافي. لكن هذه الأحداث كانت مهمة جدا وقاطعة لشبه الجزيرة كلها، حيث لا نستطيع أن نعرف جيداً تاريخ إسبانيا دون أن نفهم بالتحديد ما يحدث في الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق والذي وضع الشكل النهائي لهذه الواجهة الجنوبية.

خير مثال على ذلك المشكلة الموريسكية أو بمعنى أصح المأساة الموريسكية. تلك المأساة التي يبدو أنها بدأت عقب سقوط السلطة الإسلامية في إسبانيا، وامتدت طوال القرن السادس عشر وكانت لها نهايتها الظاهرية بقرارات الطرد التي نُفذت منذ عام ١٦٠٩ وحتى عام ١٦١٤ .

إنها نهاية ظاهرة لأن المشكلة المأساوية لم تنته عندما عبر الموريسكي المضيق. ولم تنته بالنسبة للبعض والبعض الآخر، لا بالنسبة للمنتصرين القدامى ولا بالنسبة للأقلية المهمشة.

إن التاريخ الإسباني لم يقم بدراسة ما حدث عندما استقرت هذه الأقلية في دول شمال إفريقيا إلا قليلاً وبانحياز. ومجمل القول إننا نجهل ماذا كان مصير الموريسكيين في المغرب، ممن هاجروا بكثرة وسراً طوال القرن السادس عشر، أو الذين وصلوا عندما حدث الطرد النهائي في القرن السابع عشر.

حقاً إن هناك بعض العوامل المهمة جداً شاركت في هذا الجهل من أهمها قلة المصادر المناسبة، وثانيها هي اعتقاد مؤرخ أحد الأطراف أو حتى الطرف المعارض أن الموريسكي فقد تاريخه عندما غادر إسبانيا، حيث أنه الآن لا يشكل شعباً

ولا حتى أقلية مختلفة. ليس لديه لا كيان ولا حدث. أحياناً يكون هناك خبر صغير يشير إلى وجوده، فقد اختفى غارقاً في مأساته الخاصة.

إن الذين أوجدوا حالة انعدام الأمان الرهيبة في أراضي ومياه البحر الأبيض المتوسط الغربى لم يكونوا موريسكيين، بل كانوا "قراصنة من البربر". ولم يكن الموريسكيون هم الذين أوقفوا، فى أكثر من فرصة حاسمة، الهجوم البرتغالى على مملكة "فاس"، بل كانت "القوات المغربية"، والتي قلما ساعدها بعض الأندلسيين(*)، ولقد يُنسى أنهم مؤسسو مدن فى مغرب غارق فى الفوضى عبر القرون. وهكذا، برغم هذا التغيير، يختفى تاريخ مشوق وأليم ولكنه لا يخلو من العظمة، بطله هو شعب فقد جذوره المادية، ولكنه تعلق بجذور روحية أخرى لكى يعيش ككيان مختلف.

الموريسكيون فى المغرب، هذا هو الموضوع الأساسى والوحيد تقريباً فى هذا الكتاب. إنه إسهام آخر فى تفسير هذا اللفز الذى بقى من تاريخ ذلك الشعب فى المنفى.

منذ أعوام، وبالتحديد فى عام ١٩٧٤، كتبت فى إحدى دراساتى شيئاً عن الموريسكيين فى الفترة الثانية من نفهم الإجمالى إلى المغرب، والذين أسسوا "الرباط" Rabat وحرّكوا عجلة تاريخ هذا البلد المغربى طوال ما يقرب من نصف قرن. هؤلاء الأورناتشيون hornacheros والأندلسيون أسسوا فى جنوب البلاد، كما هو معروف، جمهورية مستقلة فى القرن السابع عشر.

لم يكن يُعرف شىء، أو كان يُعرف القليل جداً، عن المنفيين فى شمال مملكة فاس، وبالأخص فى ذلك الجزء الشمالى المغربى والذى لعبت جغرافيته السياسية دوراً حاسماً جداً فى التحول التاريخى للصفة المواجهة.

(*) يريد المؤلف أن يعيد صياغة التاريخ وأن ينسب إلى الموريسكيين ما نسبته المؤرخون القدماء إلى غيرهم . (المراجع)

لقد أسهمنا فى التعريف بأولئك المنفيين الذين توجهوا إلى هذا المكان الاستراتيجى فى المرحلة الأولى بعد سقوط دولة الإسلام الإسبانية مباشرة، و قدمنا السيرة الذاتية للمندارى مؤسس تطوان. و اليوم نحاول بهذه الدراسة التى نقدمها أن نكمل رؤية المنفى الموريسكى لشمال المغرب، فى مرحلته النهائية، مع ربطها بالمعلومات التى لدينا عن الفترة الأولى.

و هذا ليس كثيراً، لأن التوثيق ليس فقط تاريخياً، و لكننا أردنا أن نستفيد منه بسبب المعلومات العديدة التى يقدمها. فنحن مقتنعون بأنه سيساعد بدرجة كبيرة فى معرفة تاريخ الموريسكيين فى المنفى، وفى هذه الحالة بالتحديد، فى معرفة نفس التاريخ فى المغرب. إنها دولة قريبة جداً و مع ذلك بعيدة جداً عن أذهاننا و بالأخص عن تلك التى تحاول تقصى الماضى و تقديمه للأجيال الجديدة. هذا الموضوع هو جزء من دراسة أطول، ليس هذا هو الوقت للحديث عنها.

ملاحظة أخيرة عن هذا الكتاب. من الفصول العشرة أو الأبواب التى تكون الكتاب، نجد أنها تشير كلها تقريباً إلى مدينة تطوان. فمن جانب يرجع هذا إلى أن المخطوطات التى بين أيدينا كانت تشير إلى هذه المدينة، و من جانب آخر أنه كان هناك احتياج فى شمال المغرب إلى دراسات أكثر للبحث فى هذا المجال.

فى تاريخ المغرب سنجد أجوبة للكثير من التساؤلات، و التى لا تزال مجهولة، من تاريخنا ذاته.

غرناطة فى ٣١ ديسمبر ١٩٩١

على شكل تمهيد: الموريسكيون فى المغرب(*)

(جوانب من الحياة فى المنفى)

توجد فترتان من المنفى الإشباني - الإسلامى فى شمال إفريقيا تسترعيان اهتمام المؤرخ، بصفة خاصة، أو ببساطة دارس التاريخ، وهما: سقوط مملكة بنى نصر فى غرناطة، وطرد الموريسكيين ١٦٠٩-١٦١٤ .

بالرغم من أنهما كانا حدثين أساسيين فى تحول الشعوب فى كلتا الضفتين من مضيق جبل طارق، ولكن كان ينظر إليهما بطريقة انحيازية وحزبية. حيث أخذت فى الاعتبار المظاهر الدينية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الأحداث، من وجهة نظر ناحية واحدة فقط، ألا وهى وجهة نظر المنتصرين.

بقى المنهزمون الذين تم تهمةهم فيما بعد دون تاريخ، كما يحدث عادةً فى كل أزمنة الأحداث الإنسانية.

ليس سبب هذا أن المنفيين لم يؤثروا كثيراً فى البلاد التى وصلوا إليها، ولكن لم يهتم أحد لا من هنا ولا من هناك بأن يبرز أفعالهم ولا بانتصاراتهم وفشلهم، بصعودهم وهبوطهم، بحياتهم التى اقتلعت فى النهاية بمنتهى القسوة من وطنهم ومن ثم من عائلاتهم ذاتها. سنعرض لخروج الإشباني المسلمين الجماعى عند سقوط مملكة غرناطة وكيف أن وصول هؤلاء المنفيين إلى المغرب كان فى غاية الأهمية

(*) ملخص لمحاضرة ألقيتها فى سبتة، فى ١٦ نوفمبر من ١٩٩٠، نظمها معهد الدراسات السبئية.

وكانت له نتائج أكثر من التي كتبت، ومن التي ما زال يجهلها المتخصصون في هذا المجال.

سوف نتناول - فيما بعد - هذه الأهمية وهذه النتائج المعروضة بطريقة موجزة جدا.

لقد كانت للمواجهة الإسلامية -المسيحية على امتداد العصور الوسطى في كلا الجانبين الشمالي والجنوبي، من البحر الأبيض المتوسط، عواقب خاصة في شبه جزيرة أيبيريا كما نعرف.

إن الثمانية قرون من الحرب والتي تأخرت فيها الممالك المسيحية في أن ترجع الكفة ناحية الحضارة الأوربية الغربية قد حددت، بشكل ما، خصائص الشعوب التي قاومت.

في الواقع كانت لهذه الحرب الطويلة والتي أطلق عليها المسيحيون "حرب الاسترداد" هذه الخاصية منذ البداية وامتدت حتى وقعت في أيديها كل الأراضي، أي حتى اختفت السلطة الإسلامية من شبه جزيرة إيبيريا.

وقامت قشتاله بالدور الأخير في إنهاء هذه المهمة.

وكانت البرتغال قد أنهتها مسبقاً.

لقد واصل الجانب البرتغالي المواجهة الحربية عندما ثبت قدميه في الضفة المواجهة لجبل طارق، باحتلال سبتة، عام ١٤١٥ .

كانت هناك صدمة عظيمة في العالم الإسلامي تجاه هذه الخسارة، بالرغم من أنه، وخلال فترة ما، كان هذا مجرد حادث عرضي مما كان يمكن أن تعاني منه البلاد الإسلامية في الشمال الإفريقي والتي كانت مهددة بالسقوط، تماماً مثلما حدث للممالك الإسلامية في شبه الجزيرة. كانت الدول المسيحية تريد أن تشمل حرب الاسترداد الشمال الإفريقي.

كان يبدو أن احتلال كل من القصر الكبير في ١٤٥٨ و أرسيلة و طنجة في ١٤٧١، أدى إلى نتيجة متوقعة و هي وجود محمية برتغالية في الشمال المغربي، قابلة للامتداد في فترة قصيرة لتشمل مملكة فاس.

لقد أوضح إيقاف هذه الحركة التوسعية صعوبة المحاولة وأن البرتغال بمفردها لن تستطيع تنفيذها. حدث هذا مع كارثة طنجة في ١٤٣٧ .

ولكن لم يكن هذا عائقاً، كما قلنا، لكى يتم الاستيلاء لاحقاً على الموانئ الساحلية والتحكم هكذا فى التجارة وخنق اقتصاد بلاد المغرب.

كان البرتغاليون يشنون، من قواعدهم، غارات مفزعة ويفرضون ضرائبهم على المدن الواقعة فى الشمال المغربى.

لم تنج من ذلك قبائل بعيدة جدا عن الحدود كبنى عروس Beni Arós أو بنى حسن Beni Hasan .

كانت أطلال تطوان المدمرة، التى أتلها جيش سبتة فى ١٤٣٧، تستخدم مرات عديدة كمكان لمبيت الجيش البرتغالى فى أثناء انتقالاته من وإلى الداخل.

لم تكن هناك قوة مركزية منظمة قادرة على مواجهة هذا الهجوم المسيحى بفاعلية. وكانت المغرب غارقة فى الفوضى، والكل كان يحارب بعضه بعضاً .

كان المرشدون الدينيون يتحولون بسهولة إلى رؤساء سياسيين وحرييين ويقسمون البلد إلى طموحات و سلطات متنازعة فيما بينها .

كان يبدو أن كل الأراضى محكوم عليها بالوقوع فى أيدي إيبيرية. هذه القوى الإيبيرية كانت تنهض بشدة فى الغرب الأقصى من البحر الأبيض المتوسط، وكانت تدفع الإسلام تجاه الجانب الآخر.

كان يبدو أنه لا يمكن إيقاف هجومها .

وحتى آخر قطعة أرض أوروبية صغيرة فى أيدي المسلمين كانت على وشك الاختفاء قرب نهاية القرن الخامس عشر.

ولقد تقاسمت نفس هذه القوى مناطق السيطرة فى العالم، فمملكة فاس كانت من نصيب البرتغال وكانت جزر الكنارى من نصيب قشتالة.

عندما سقطت غرناطة، دوى الحدث كصدى للنصر ولانتقام من سقوط القسطنطينية. إذا كان الإسلام قد كسب مراكز في الشرق، فقد فَقَدَ مركزاً في الغرب. كانت المسيحية، في الجانب الآخر من البحر المتوسط، تستطيع أن تحاول استرداد الأماكن المقدسة. وكانت المغرب تبدو غنيمة سهلة.

كانت حاميات أرسيلة و طنجة تنهب و تحرق ميناء العرائش Larache، و كانت تصل إلى موانئ القصر الكبير.

كانت قبائل سبتة تنتزه دون عقاب في جنوب المدينة، وفي فترات ليست قصيرة، كان لشعب سبتة مزارعه وماشيته في وادي نغرون Negrón .

وكانت المراكب، التي لها قواعد في سبتة، تسيطر على المضيق و كانت تغير على السواحل المغربية حتى ما بعد ترغة Targa، على بعد مائة كيلو متر، والتي نُهبَت عدة مرات.

كان سكان الساحل يبتعدون عن الشواطئ أو يذهبون للنوم في الجبال المجاورة لكي ينجوا من الضرر الذي يلحق بهم أثناء مواكب الفرسان أو الإنزال المفاجئ للركاب والبضائع من السفن.

كان يكفي، في نهاية حرب غرناطة، أن تتفق القوتان الإيبيريتان لكي تسقط في سلطتهم كل الممالك الشمالية - الإفريقية الصغيرة التي أنهكها التقسيم والفوضى، كما حدث جزئياً عندما بدأ فرناندو الكاثوليكي Fernando el Católico هجومه، في بداية القرن السادس عشر، والذي ترك كل الموانئ الرئيسية من شمال إفريقيا وحتى مصر في أيدي قشتالية.

ليست هذه رؤية افتراضية للموقف، ولكنها واقعية، تماماً كما كان يحدث في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر والأعوام الأولى من القرن السادس عشر والذي كان يغلق الفترة الأخيرة للعصر الوسيط.

ومع ذلك، كانت هذه النظرة تتغير بطريقة غير محسوسة، في الشمال المغربي، الذي كان مسرح لقاءات حربية مكثفة، والذي كان على وشك التحول إلى محمية برتغالية.

كانت مناطق شاسعة من نفس المنطقة، التي تحول سكانها إلى دافعي ضرائب للبرتغال، شهود حزينه على الإتاوات والحرائق والدمار من جانب المحاربين، الذين كانوا يمنعون هذا الاستسلام السهل للعدو الديني وكانوا يعاقبون من يُطلق عليهم اسم "مسلمى السلام".

لقد تحولت تطوان، التي ظلت أطلالها خاوية على مدى ما يقرب من نصف قرن، إلى مركز الحرب، الأرضية وأيضاً البحرية، التي وضعت حواجز لا يمكن اجتيازها للتوسع البرتغالي.

لم يعد أهل تطوان الآن ريفيين بائسين، مسلحين بالعصى والحجارة، ولكن أصبحوا آلافاً من المحاربين، الماهرين في تشغيل الأسلحة الخاصة بالعصر، وفي نفس الوقت، فرسان مهرة، وكانوا يتحدثون مع المقاومين القلائل الغزو المسيحي، وكانوا يغيرون مفهوم الحرب، وبالإضافة إلى ذلك، كان في تطوان مركز حرب بحرية أنشأه وطوره محاربون وبحارون ما عادوا مجرد صيادين فقراء في السواحل وغنائم سهلة للمقارع السبئية.

هؤلاء الخبراء والمقاتلون في البحر كانوا على وشك تحويل مياه الألبوران Alborán إلى مصدر خطورة لأي سفينة مسيحية، وتحويل سواحل شبه الجزيرة إلى شواطئ محفوفة بالمخاطر حيث كان يعيش فيها في خطر دائم من الوقوع في أسر العدو.

والآن كانت المدن الساحلية في مملكة غرناطة القديمة هي التي تهرب إلى الداخل، تاركة مساحة شاسعة بجوار البحر مهجورة وخالية.

كان الزمان يتبدل، إلى حد أن فرناندو الكاثوليكي ذاته، قبل وفاته بخمسة أعوام، أراد أن يوقف المستقبل السيئ الذي كان ينتج عن الموقف الخطير في الضفة الجنوبية

القريبة من المضيق واعتزم العبور إلى الضفة المواجهة بجيش قادر، محاولاً احتلال مملكة فاس.

منعت المشاكل الأوربية تنفيذ المهمة. ماذا حدث؟ من كان هؤلاء الآلاف من المحاربين الذين ظهروا في ساحة الحرب في شمال المغرب وكانوا يغيرون، كما يبدو، مجرى التاريخ؟

ببساطة كان المحاربون المنفيون من غرناطة هم أول من نراهم يتحركون في ساحة اللقاءات الحربية في شمال المغرب .

فلم يكن الشعب أو الفلاحون أو الحرفيون أو رجال القانون أو الفقهاء هم أول من هاجروا، بعد انكسار المملكة الإسبانية- الإسلامية المهزومة. إن الذين فتحوا مسيرة النفي هم المنتهزمون النبلاء الذين يمثلون نخبة جيش غرناطة.

كانوا هم " زهرة غرناطة " على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين.

كان الكثيرون منهم، وقد خُيبت آمالهم مسبقاً، أمام الهزائم المستمرة والنزاعات المدنية، يتحركون في جماعات وفي المقدمة رئيسهم، قبل سقوط عاصمة المملكة في أيدي مسيحية بأعوام. هذا ما حدث مع الثلاثمائة فارس، الذين أرسلهم الزعيم سى على المندارى Si Ali al Mandari والذين سوف يشيدون الأبراج والأسوار والبيوت من بين أطلالها في مدينة تطوان الخالية.

حدث ذلك في حوالى عام ١٤٨٤ - ١٤٨٥ وبالتأكيد في هذه الفترة لم يتبق لأبى عبد الله الصغير Boabdil ولا نصف هذا العدد من الفرسان لكى يواجه جيش الملك فرناندو القوى.

أيضاً لم تكن حامية سبتة مستعدة لمواجهة هذه الآلة الحربية القادرة.

ستظهر قريباً وبشكل ملموس هذه النواة العسكرية، المتماسكة والمدربة بصورة كافية، خلال الحروب التى ستنتشب فيما بعد.

لم يشكل وصول هذه المجموعة الموريسكية مجرد إيقاف مفاجئ لتنامى السيطرة البرتغالية على الأراضى و سلبها المتوالى و الذى أدى، إلى جانب ذلك، إلى اشتداد صلابة جزء كبير من الشعب المهزوم فى الطرف الآخر، محولين تطوان إلى بداية نهاية هذه السيطرة المسيحية والتي كانت تهدد باحتلال مملكة فاس.

منذ ذلك الحين، كانت المواقع العسكرية للحدود مضطرة إلى تقليل الهجمات أولاً، ثم اختصارها بعد ذلك، وأخيراً بقاء جنودها معزولين خلف الأسوار ذات الحصون المزودة بالمدفعية.

انعكس هذا الموقف فى أخبار العصر البرتغالية، حيث تروى بالتفصيل هجمات الجنود المسلحين الماهرين الغرناطيين من تطوان ومن الأندلسيين، الذين يحاصرون الآن الميادين القوية دون أن يحصلوا على نتائج ملحوظة بسبب نقص المدفعية.

نستخدم تعبير "دون نتائج ملحوظة" لأن، تأثيرات الهجوم الموجه ضد هذه الموانئ الحصينة لم تُنتج تغييرات مثيرة كما كان سيحدث لو سقطت سبتة و القصر الكبير وطنجة أو أرسيلة فى قبضة المهاجمين.

لقد بقيت كلها كنقط محفوفة بالمخاطر، لكنها فقدت فاعليتها العدائية المهولة ودورها كرؤوس جسور للقيام بأى غزو أو توسع أرضى.

مع الزمن ستكون تكلفتها عالية جداً على الملك البرتغالى، بالنظر إلى الفوائد القليلة التى تعود منها، وسيبدأ البرتغاليون فى إخلائها فى منتصف القرن السادس عشر.

لقد فشلت غايتها القصوى ومرادها الأعلى.

لقد فعل الغرناطيون المنفيون والموريسكيون الهاربون فى البلد المغربى ما لم تستطع القوات الإفريقية الوحيدة تحقيقه، وهو إيقاف الهجوم المسيحى الموجه لاحتلال الأراضى.

ليس من شأنا أن نحلل ما يمكن أن ينتج من إخضاع واستعمار لمملكة فاس إما من جانب البرتغال، أو من قشتالة، أو من اتحاد القوتين. فعلى الأقل نحن نعتقد أن الخيال التاريخي لا يجب أن يمثل مجالاً للبحث لأي باحث تاريخي.

لقد حاولنا ببساطة أن نشخص بعض الأحداث التاريخية لكي نوضح، بخطوط عريضة أنه لولا الهجرة الموريسكية إلى المغرب، ودعمهم للقوات المغربية، لاختلف الأمر اختلافاً جذرياً.

عندما قررت البرتغال المخاطرة عام ١٥٧٨، كان ذلك متأخراً جداً، بالإضافة إلى عوامل سلبية أخرى ليس هنا مجال لعرضها.

في أراضي القصر الكبير، أمالت القبائل الأندلسية ميزان القوة لصالح السلطان المغربي الذي استطاع أن يصد بسهولة نسبية تلك المحاولة، التي ليس أفضل من أن يقال عنها أنها متأخرة، والتي كانت قد فقدت فاعليتها منذ حوالي قرن على الأقل.

في الواقع، لم تكن المغرب منذ وقت طويل، الهدف الاستراتيجي الذي تريده إسبانيا، فقد تحولت السياسة الإسبانية الخارجية ١٨٠ درجة عند موت فرناندو الكاثوليكي واتجهت إلى نواح أخرى.

ترك حفيده، الامبراطور كارلوس el Emperador Carlos، تقريباً الجبهة الجنوبية المجاورة، بالكامل في يد قريبه، خوان الثالث Juan III ملك البرتغال، هذا الأخير الذي كان يستطيع بالكاد دعم القوات الموجودة في ممالك مراكش وفاس، بدأ استشارة كبار رجال المملكة لإبداء رأيهم في محاولة ترك الميادين الإفريقية القوية.

بدأت عملية الإجماع في فترة حكمه كما أشرنا، وكان خليفته الملك سبستيان D. Sebastián هو الذي انتهى بصورة مأساوية في معركة القصر الكبير.

نستطيع أن نطيل أكثر في الحديث عن تأثير الموريسكيين والأندلسيين، كقوة أسهمت في ميدان القتال بفضل الجهود والتضحيات.

لقد سال الدم الموريسكى بسخاء فى المغرب، وقد غمر الموريسكيون مساجد
المغرب بالفقهاء ومدارسها بالأساتذة، وحكوماتها بالوزراء، وكل وظائفها، بمستشارين
وقادة وفنانين وصناع وجنود وتجار وبحارين وأدباء وقضاة، إلخ، حتى تشربت حضارة
إفريقية بريق أندلسى.

الفصل الأول

تطوان من قرن المندارى إلى قرن عائلة النقسييس (من القرن السادس عشر إلى السابع عشر) (*)

مقدمة

لعبت مدينة تطوان، الواقعة على بعد ٤٠ كيلو متر من جنوب سبتة، إلى جانب هذه المدينة الأخيرة، دوراً حاسماً فى التغييرات التى حدثت فى مضيق جبل طارق فى كل العصور، ولكن بالأخص، بداية من إعادة تأسيسها على يد المنفيين الغرناطيين، حوالى عام ١٤٨٥ .

عندما خسر الغرناطيون الحرب ومعها آخر الممالك الإسلامية فى إسبانيا، فضلت نسبة كبيرة من نبلاء غرناطة النفى الإرادى حتى قبل أن يجربوا معاشة المنتصر.

ظهر قائد غرناطى، وهو أبو الحسن على المندارى Abu-l-Hasán Alf al Mandari على رأس المئات من الفرسان فى وادى نهر مارتين، وهو يحارب البرتغاليين فى سبتة. وحصل على إذن بالاستقرار فى تطوان، التى أعاد تأسيس أطلالها ومنازلها وأسوارها وأبراجها، واستقبل التوافد المستمر والمكثف، والجماعى أحياناً للمهاجرين الغرناطيين.

تكونت نواة مدينة، ذات كثافة عمرانية عالية، على بعد ١٠ كيلو متر من شواطئ البحر الأبيض المتوسط فى مصب نهر مارتين السابق ذكره، وكانت لها خصائصها

(*) وثيقة خطية مقدمة للمؤتمر الثانى حول مضيق جبل طارق، سبتة، نوفمبر ١٩٩٠ .

الذاتية، الموروثة من المدن الإسلامية فى شبه الجزيرة، ولكن هناك، فى الأراضى الإفريقية، كانت لها ملامح مختلفة جداً.

يكفىنا أن نوضح اثنين من هذه الملامح، أولاً: البيئة المحيطة، وثانياً: وسائل المعيشة.

بالنسبة للبيئة المحيطة، فنحن نشير أساساً إلى المحيط البشرى، حيث كان غرناطيوت تطوان محاطين بسكان ليسوا غرناطيين، ويتخذون موقفاً عدائياً من الذين وصلوا حديثاً ولذلك وجب عليهم العيش منغلقيين على أنفسهم لفترة كبيرة.

فيما يتعلق بوسائل العيش، كان هناك عنصر غريب فى شبه الجزيرة ولكنه ليس كذلك فى الشمال المغربى، وبالأخص، فى هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط، بالرغم من كونه ليس جديداً، بل كان على عكس ذلك، أعنى بذلك عنصر القرصنة، الذى كان يُمارس قبل ذلك عند وصول الغرناطيين إلى مصب نهر مارتين، ولكن، بعد وجودهم، أُعيدت ممارسته وتم تكثيفه، وبعد أعوام قليلة شكّل وسيلة العيش الأساسية لمعظم السكان الغرناطيين فى تطوان.

إن وجود هذه البؤرة الحربية، سواء البرية أو البحرية فى أيدٍ تكتنّ عداءً لمسيحيى شبه الجزيرة، سوف يشكل عاملاً ذا أهمية قصوى فى تطور كل الأحداث التى ستقع فى منطقة المضيق، من نهايات القرن الخامس عشر فصاعداً.

وستدوى تطوان فى مسامع كل الدول المسيحية الغربية بأصداء ليست واعدة.

على العكس، ستكون تطوان نفسها المقصد المأمول لآلاف كثيرة من البشر، مهمشين كأقلية منهزمة، تواقين لحريتهم السياسية والدينية، وهم المدجنون أولاً والموريسكيون بعد ذلك، هذا بجانب مجموعة لا يستهان بها من اليهود.

بالإضافة إلى ذلك، فإن ذريتهم التى تزايدت بسبب الهجرات المتتالية، سوف تتأخر وقتاً طويلاً فى أن تصبح عنصراً أساسياً من عناصر البلد الذى استقبلهم.

هناك، فى تطوان التى أعادوا تأسيسها، يبدو أن الشعور بنبضات قلب إسبانيا الأخرى يأخذ صورة أكثر قوة. إسبانيا الإسلامية التى حاربت لمدة ثمانية قرون لكى تفرض ثقافة باءت بالهزيمة فى نهاية الأمر.

من حين لآخر، يتجه هذا النبض بشكل ما إلى الضفة الأخرى التى يبدو أنها كانت توقظ حنيناً بعيداً. فى الحقيقة، الأمر يتعلق بتصورات تاريخية حقيقية جعلت، على سبيل المثال، أحد حكام تطوان يعتبر نفسه تابعاً للملك الإسباني.

إن الأهمية الاستراتيجية التى أعطاها الحكام الإسبان لتطوان كبيرة جداً، إبتداءً من فرناندو الكاثوليكي ذاته، حتى فيليبى الثانى، حيث كانوا يناقشون ويصممون خططاً، خلال أعوام كثيرة، لغزوها أو هدمها.

إن بطولة هذه المدينة، و التى كانت بؤرة القرصنة الإسلامية، قد تزايدت عندما احتل البرتغاليون المفتاح الإفريقى لمضيق جبل طارق فى أوائل القرن الخامس عشر، وقد انعكست أثارها فى الحكام الإسبان و امتدت لتشمل السلطة البابوية. و فى ٢٣ مايو عام ١٤٨٨، كتب البابا إينوتنتيو الثامن Inocencio VIII رسالة للملوك الكاثوليك، يقترح فيها توجيه أسطول دائم ضد القرصنة المسلمين^(١).

من الواضح أن الفكرة كانت تستهدف بشكل أساسى مياه المضيق، التى كانت مسرحاً أساسياً لأنشطة القرصنة.

تطوان لم تنج فقط من انهيار و سقوط آخر، كالذى حدث فى ١٤٣٧، عندما هدمها برتغاليو سبته، ولكنها نمت وتطورت أيضاً، بصورة كبيرة لدرجة أنها سوف تؤثر بشكل واضح فى غالبية الأحداث، التى تجرى فى محيط مضيق جبل طارق.

إن فحص الأحداث المتعلقة بكل ضفة على حدة يشير إلى أن تاريخ الضفتين لا يمكن فصلهما و ذلك من خلال ازدواجية كلٍ من سبته و تطوان.

ومن هنا يجب الأخذ فى الاعتبار بحث تاريخ تطوان، على غرار البحث فى تاريخ سبته.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك مظهر من مظاهر التاريخ الإسباني، لم يُبحث بعمق، وهو مصير المنفيين الذين توجهوا إلى السواحل المقابلة، عبر المضيق.

لقد تحدثنا عن القرن الأول بعد أن أعاد الغرناطيون بناء تطوان. وهو القرن الذي يمكن أن نطلق عليه قرن المنداري.

سنركز دراستنا على فترة ما بعد موت مؤسسها، وورثة زوجته، ست الحرة Sit al Hurra ، وأحد أحفاده السياسيين، أحمد حسن، Ahmed Hasan، الذي وصلت أخباره حتى ١٧ سبتمبر ١٥٥٧ .

منذ قرن المنداري وحتى ظهور عائلة النقسيس كحكام لتطوان حوالي عام ١٦٠٠، في فترة طويلة من التاريخ التطواني، سنجد فترة انتقالية غامضة إلى حد ما، سوف نحاول إلقاء الضوء عليها في هذه الدراسة.

نعتقد أنه من الواجب القيام بذلك قبل الشروع في محاولة التعرف على قرن عائلة النقسيس في تطوان.

حروب غرناطة الأهلية في تطوان

عرضنا، في دراسة سابقة، الفترة التي تلت المنداري مباشرة، حتى اختفاء القائد أحمد حسن بشكل غامض، وكان ذلك القائد رئيساً لحكومة تطوان.

من الممكن أن تكون آخر وثيقة ظهر فيها اسمه هي الرسالة التي كتبها حاكم سبتة، فرناندو دي مينسيس Fernando de Menses، إلى الملك البرتغالي سبستيان، والتي قال له فيها، بين أشياء أخرى، إن لديه أنباء من بلاد البربر Berbería على وجود ملك فاس في حملة عسكرية^(٢).

"dizen que hee para vir sobre Tetuao, por Acem recolher nele navlos de Turquos sem sua liçença".

إن تاريخ الرسالة، ١٧ سبتمبر ١٥٥٧، يضعنا في العام الذي اغتال الأتراك فيه السلطان محمد الشيخ Muhammad as Salj ، مؤسس السلطة الملكية السعدية. ربما يكون هذا الأخير نفسه هو الذي هدد القائد حسن لتواطؤه مع الأتراك الذين كان يكرههم ويخاف منهم.

كل من حسن في تطوان، أو محمد بن راشد Muhammad ben Rashid في شاون، وهم الملاك الحقيقيون للشمال المغربي، قد ساعد السعديين في مواجهة الوطاسيين، وهم يعتقدون أنه يمكن أن يستمروا في التمتع بالاستقلالية الفعلية. ولكنهم سريعاً ما ندموا، بعدما اقتنعوا بالعكس. وكانت أفعالهم معارضة تماماً لأي محاولة لترسيخ سلطة مركزية كالتى كان السعديون على وشك تنفيذها.

قبل الوثيقة التى فحصناها نجد أثراً لثورة فى الشمال ضد السلطة السعدية المستجدة، حدثت فى عام ١٥٥١ . لا نعرف ما إذا كان قادة تطوان و شاون قد أيدوا هذه الثورة، ولكن إذا كانوا فعلوا ذلك، فقد أخفوه لأنهم استمروا فى مناصبهم عدة سنوات أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الثورة لم تتركز فى مدينتى تطوان و الشاون نفسها، ولكنها كانت فى "جبل بالقرب من تطوان"، إن الأمر، بالتالى، يتعلق بسكان جبليين والذين، وفقاً للأخبار التى جُمعت فى الثانى من أغسطس ١٥٥١، هزموا العديد من القادة الذين أرسلهم الشريف^(٢).

كان يجب على الشريف أن يفعل الكثير لكى يعرف بشكل مباشر ما إذا كان قادة الشمال يتبعوه بإخلاص أم لا. على الأقل ساعده واحد منهم، وهو حاكم الشاون، بقواته الخاصة عند حصار فاس، والآخر كان يقدم طاعته صورياً.

كان التطوانى حسن، الأكثر مكرراً وحذراً، يلعب على الجانبين: جانب تقربه إلى إسبانيا، (فى ذاك العصر الامبراطورى الذى كان يعمى فيه بريق الملكية بسلطته وامتداده)، و جانب إخلاصه للسلالة الملكية الجديدة التى قامت أكثر قوة من السلالة الوطاسية المحتضرة.

منذ عام ١٥٤٢ تربع حسن، البسطى القديم، على رأس حكومة تطوان إثر انقلاب فى القصر، وقد أدار شئون المدينة والقرصنة وكل ما يتضمنه ذلك المجتمع الغرناطى - التطوانى الذى تكون فى المنفى. كان يحسب له التفاف طبقة النبلاء الغرناطيين حوله، وكانت هذه الطبقة نواة المركز المدنى للشمال المغربى^(٤).

لا نعرف فى الحقيقة، ما إذا كان الشريف مولاي الشيخ قد طرد أحمد حسن من الحكومة التطوانية أم لا. كانت مشاكل السلطان كبيرة جدا فى ذلك الوقت بحيث نشك فى تنفيذه لحركة فعلية ضد القائد.

من ناحية أخرى، فإن عمر أحمد حسن كان يحتمل أن يكون متقدماً جداً فى أواخر عام ١٥٥٧، إذا أخذنا فى الاعتبار أنه ولد فى باثا Baza وأنه أتى مع الهجرة التى تلت حرب غرناطة أو بعد ذلك بقليل.

لا نتعجب، إذاً، من وجود شخص آخر يقود مصائر المدينة فى بدايات عام ١٥٦٢.

نعرف القليل جداً عنه. كان يُدعى سيدى حامو Sidi Hamu وتمرّد علناً على الشريف مولاي عبد الله، وكان يأمل فى مساندة الأتراك له^(٥).

لقد تعارض بالفعل تاريخ ٦ مارس ١٥٦٢، فى أحد الوثائق التى تذكر القائد حامو، مع تاريخ آخر تالى ذكره المؤرخ الإسباني مارمول كاربخال.

فى الواقع، يحدثنا مارمول أيضاً عن القائد حامو، ويروى بعض الظروف التى يهمنى عرضها. ينقلنا نص المؤرخ إلى غرناطة فى الأعوام الأخيرة للسيطرة الإسلامية، الممزقة بسبب الانقسامات والاضغتيالات والصراعات القبلية المستمرة، ومع ذلك فإن تطوان كانت موقع الأحداث.

"فى هذا الوقت كان فى مدينة "تطوان" حزبان: حزب أولاد بو على Bu Alls وحزب أولاد بو حسن Hassenes Bu. بعد ذلك طرد أولاد بو على أعداءهم بالقوة، فى عام ١٥٦٧، فى اليوم الذى تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية بعيد الجسد Corpus Christi، وكان حسن قائد المدينة غائباً عنها، ودخل سيدى حامو قائد الحزب المعارض إلى

المدينة وقتل كل نسل بوعلى، واستولى عليها. وفيما بعد، و عندما علم الشريف ملك فاس بذلك، أرسل قائداً يدعى بن حليفة Ben Holifa ، ومعه ألف فارس على ظهور الخيل، والدوغيلي Dogueyli الأندلسي، مع ألفين من الجنود المشاة من حملة البنادق الأندلسيين، فدخلوا بسلام في تطوان واعتقلوا سيدي موسى Sidi Musa وأرسلوه محبوساً إلى فاس، وطردها أولاد بو حسن من المدينة وبقي فيها بنو حليفة، ورحل الدوغيلي إلى المغرب، عندما كان الشريف عبد الله Abdela موجوداً هناك، وهكذا انتهت سيادة عائلة المنداري^(٦) .

لا يتفق، كما رأينا، تاريخ عام ١٥٦٧ الذي ذكره مارمول، مع تاريخ ١٥٦٢ المذكور في الوثيقة الموجودة، ويجب أن نرجح، من وجهة نظرنا، صحة هذا التاريخ الأخير.

هناك أمر آخر لا يبدو واضحاً وهو ما إذا كان "الحسن" الذي ذكره مارمول، والذي ساعد غيابه عن المدينة في وقوع انقلاب حامو، هو نفسه أحمد حسن، خليفة الحرة، أم أنه واحد من أبناء حسن الذي ذكره المؤرخ، أو أن يكون من نسله.

ما نستطيع أن نستنتجه، طبقاً للمؤرخ القشتالي، هو أن سيدي حامو هو الذي طرد حزب أفراد الحسن من الحكومة التطوانية.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أحزاب وصراعات بين الغرناطيين أنفسهم، ومنذ التدخل المركزي، لن تكون القيادة في تطوان حكراً على الأندلسيين، و سيعينهم السلطان خلال الفترة الزمنية التي امتدت، على الأقل حتى حكم عائلة النقسيس في القرن التالي.

وجدنا اسم قائد تطواني، وهو على غودوبش "aligudubex" أو على غودوبيرا "allgudubera" ، بجانب أحد الحكام من عائلة النقسيس، في مخطوط افتداء أسرى، مؤرخ في عام ١٦٠٧^(٧) .

هناك مصدر آخر، ليس أقل أهمية من مصدر مارمول، وفي رأينا له نفس القيمة، وهو الذي قدمه المؤرخ التطواني العظيم محمد داود Muhammad Dawd . لم يحتو

كتابه عن تاريخ المدينة على مجرد أخبار معاصرة، كالموجودة في كتاب "مصادر جديدة عن تاريخ المغرب"، ولكن هناك أيضاً أخبار ترد في كتب كل من مارمول وليون الإفريقي. علاوة على ذلك، يقدم لنا أخباراً وأحداثاً، وردت في مؤلفات الكتاب العرب عامة والمغاربة بوجه خاص، ولم يبحثها أو يجمعها الأوروبيون، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة. إن ما يقدمه لنا الكتاب من أشياء قيمة، وما يتمتع به من دقة علمية بالغة، استثنائية في كاتب من عصره، قد جعل من استخدام الكتاب أمراً عظيم الفائدة. وبعد تلخيص نص مارمول وإيضاح ما يعتبره داوود فراغات في معلومات المؤرخ، يضيف أنه لا توجد تفاصيل كثيرة عن هذه الصراعات الأهلية في الكتابات العربية.

يذكر لنا أنه في تاريخ السلطان عبد الله يمكن قراءة معلومات عن الحملة التي وجهها في ٩٦٩ هـ / ١٥٦١-٢م إلى المنطقة الجبلية الشمالية، حيث وصل إلى مدينة الشاون، والتي طرد منها بني راشد Banu Rasid. وفقاً لما نراه، كان هذا التاريخ هو الذي سار فيه مولاي عبدالله ضد سيدي حامو، الثائر في تطوان.

من الجائز جداً أن يكون السلطان قد سار مباشرة في حملة ضد الشاون وبعد ذلك أرسل الجنود مع القادة ضد القائد التطواني الثائر.

ولكن بالإضافة إلى ذلك سوف يستمر تضارب التواريخ.

كان للصراعات الأهلية في تطوان تأثيرها في المؤرخين المغاربة. وسوف يذكر لنا داوود بعضاً منهم: ابن القاضي Ibn al Qadi و إسكيري Esquirey و إيرهوني Erhuni، على سبيل المثال.

يقدم لنا ابن القاضي، وفقاً لداوود، معلومات عن يوم وشهر وسنة الحدث الأخير لهذه الظروف.

" في ٩ من محرم من ٩٧٥ (الموافق ١٦ يوليو من ١٥٦٧)، طرد الأمير أبو محمد عبد الله الشريف الحساني القائد حسين، كقاضى لتطوان" (٨). يفسر داوود ما حدث: ثار بعض سكان تطوان، والذين كان يرأسهم القائد حسين، ضد القائد الشرعى،

والذى كان يُسمى الحاج على الديب Hayy Ali ad Dib وطرده. انتقل على الديب إلى جزء آخر من المدينة، طالعة Tal'aa، و التى من اسمها يُحتمل أن يكون موقعها فى الجزء الأعلى من منحدرات جبل درسه Dersa . هناك جمع مؤيدين له، و تمكن بعد ذلك من هزيمة الحسين، و طرده من المدينة، و عاد إلى حكمها. لكن، فى غياب الديب، غزا القائد حسين المدينة مع أتباعه، وقام بمذبحة عظيمة بين أعضاء الحزب المعارض. عندئذ أتت قوات السلطان وسجنوا القائد حسين وحملوه إلى فاس^(٩) . الآن، وبالإضافة إلى التواريخ، نعانى من تشويش أكثر عند قراءة الأسماء المختلفة التى استعملها الكتاب بالعربية للحديث عن أبطال الأحداث.

أول خبر مؤرخ عن القائد حامو كان من عام ١٥٦٢ . وحتى الآن لدينا هوة وثائقية منذ ١٧ سبتمبر ١٥٥٧ وحتى ٦ مارس ١٥٦٢ . أربعة أعوام وأكثر من خمسة شهور قليلاً بدون أخبار عن القائد التطوانى. ربما يمكن تغطية هذه الهوة الزمنية شيئاً ما إذا لجأنا إلى رسالة أخرى مؤرخة فى ٢٨ مايو ١٥٥٩ فى طنجة، وكتبها حاكم هذه المدينة إلى الملك البرتغالى، معلماً إياه بأخبار بلاد البربر، ومن بينها، هجوم على هذا المكان قام به " ثلاثة حكام لتطوان والشاون وترغة Targa". من المنطقى أن نظن أنه، عندما ظهر بارأيشا Barralxa كقائد للشاون، كان أحمد حسن نفسه أو أحد أقاربه من عائلة بو حسن هو حاكم تطوان، لأن ابن راشد ينتمى إلى عائلة المندارى وكان يتفق مع قريبه السياسى، أحمد حسن، الذى نتصوره بصعوبة فى حلف مع عدو له، وهو حامو، والذى وصل إلى حد تنظيم مذبحة للحزب الحاكم القديم^(١٠) .

إذا كان أحمد حسن قد مات فى فترة الهوة الوثائقية أو خُلع وجاء مكانه على الديب أنف الذكر، فهذا تساؤل لا يمكن لنا الآن الإجابة عليه. بالرغم من أنه مسموح لنا أن نعتمد، بالنسبة للأسماء، على ترجمة مارمول، والتى تضع على رأس الحزبين كلاً من حامو وحسن، دون تغيير الاسم الأول إلى حسين كما هو موجود فى الكتب المغربية.

وقد زاد من التشويش أن يطلق المؤرخان التطوانيان، إسكيرى وإيرهونى، اسم وسيج Wasij على حسين السابق ذكره، و أضاف المؤرخان أن وسيج هذا حكم تطوان

حتى موته. وقد ذكر إيرهوني خليفة آخر لوسيج في حكومة تطوان، وهو محمد الزبان Muhammad az Zaban ، والذي لم يذكره إسكيرى.

نستنتج من الترجمات المختلفة ومن التناقضات الموجودة، أنه كانت هناك فترة فوضى عاشها المجتمع الغرناطى فى تطوان، وقد كرر الغرناطيون فى المنفى قصة انقساماتهم وصراعاتهم الأهلية. هذا فى لحظة طويلة إلى حدٍ ما، وحين سمح لهم ضعف السلطة المركزية المغربية بحياة مستقلة بالفعل.

هناك ملحوظة لداود، فى الصفحة ١٢٨ من كتابه المذكور آنفاً، تدعونا إلى التفكير أكثر من أى نص طويل. تقول إن الأندلسيين كان لديهم أحزاب: منهم نبلاء ومنهم من ليسوا كذلك. كان النبلاء وأفراد عائلة الديب مناصرين للمندراى أو لعائلته، الغمارى gumarls .

وبما أننا نعلم أن المندراى و أنصاره كانوا من حزب بنى سراج فى غرناطة، فإننا نجد أن روح العصبية ذات العواقب الوخيمة فى شبه جزيرة إيبيريا كانت قد انتقلت إلى المنفى، و ستكون لها هناك نفس العواقب: الضعف ثم ضياع الاستقلال الذى كان يحظى به الغرناطيون عند تأسيس هذا التجمع العمرانى.

توجد معلومة أخرى فى ملحوظة داود تجعلنا نفكر فى تشكيل الحزب الآخر، المنافس لنبلاء بنى سراج. كل البيانات تجعلنا نتأكد من أنه فى هذا التاريخ زاد سكان تطوان بطريقة مفرطة بسبب الموجات الكبيرة من المهاجرين الذين كوّنوا حزباً شعبياً كبيراً جداً، والذي اختلط فيه العنصر الغرناطى، مع الغماريين، وهم سكان القبائل المجاورة.

وكذلك فإن الحالة العامة للموقف، والمنعكسة فى وجود الصراعات الأهلية، تجعلنا نفكر فى تبريرات اقتصادية كأساس لتلك المشاكل. نريد القول إن الثروات الضخمة التى تجلبها القرصنة كانت تبقى فى أيدي قليلة والتى كانت دائماً نفس الأيدي: النبلاء الغرناطيون.

هناك ملاحظة أخرى لداوود فى منتهى الأهمية فى هذا الصدد. يقول داوود إنه لا يوجد شك فى أن تطوان فى ذلك العصر كان يسكنها المحاربون والجنود المشاة والفرسان، ولم يكن من الممكن لأى شخص أن يتولى الحكم إذا لم يكن على رأس المحاربين^(١١).

لقد كان أفراد عائلة بنى سراج المحاربين- وهم المؤسسون الحقيقيون للمدينة والذين شكلوا غالبية السكان فى البداية- يفقدون تفوقهم العددي، وذلك يرجع إلى الهجرة المكثفة والمستمرة، والتي لم تتوقف حتى بداية القرن السابع عشر. ولم يعرف أبناء هذه العائلة ولم يريدوا مواجهة المشاكل التي كان يطرحها النظام الاجتماعى بأى طريقة أخرى غير استخدام القوة. وكان هذا هو الأمر التقليدي. لقد أدت الحروب الأهلية فى غرناطة إلى السقوط الكامل للدولة الإسلامية الإسبانية. وأدت الصراعات الأهلية فى تطوان إلى اختفاء الطابع الغرناطى الصافى الذى كان يميز المدينة، وقد أدى ذلك إلى الإسراع فى ذوبان العنصر البشرى لشبه الجزيرة فى العنصر البشرى للشمال الإفريقى.

وعموماً كان من المحتم- كما حدث فى مناطق أخرى من المغرب- أن يذوب المنفيون الأندلسيون، لكن ليس بتلك الطريقة السريعة.

قرن المندارى الذى بدأ بحدث ملحمى حقاً فى التاريخ، كتأسيس مدينة، قد انتهى للأسف بطريقة دامية، مع أسوأ المشاهد التي يمكن أن يقدمها سكان المدينة نفسها.

ربما كانت النتائج الأكثر حزناً والتي ترتبت على ذلك هى اضمحلال تأثير الثقافة الأندلسية على الوسط الذى نشأت فيه.

إن الفترة التي ندرسها لم تكن كلها صراعات أهلية. بل كانت توجد أحداث أخرى، إما فى تطوان نفسها، أو خارجها، مع ردود فعل يجب أخذها فى الاعتبار.

هجوم إسباني على القرصنة التطوانية

تولى السلطان مولاي عبدالله الحكم حتى موته، في ١٥٧٤ . كان هو، كما أثبت مارمول، من أطفأ نيران الحروب الأهلية التطوانية والذي عين مباشرة الحكام الجدد. شخصية هؤلاء ومدى أهليتهم أو عدم أهليتهم، كل ذلك شكل فجوة في تاريخ تطوان، قلما تم تغطيتها بأسماء مشكوك فيها.

قال إيرهوني إن محمد الزبان هو الذي خلف وسيج.

لم يقل إسكيري شيئاً عن الزبان هذا. مع ذلك يتفق المؤرخان في ذكر إسم القائد محمد بوردان Muhammad Burdan، كحاكم لتطوان بعد وسيج وفقاً لإسكيري، وبعد الزبان وفقاً لإيرهوني. لم يقلوا شيئاً عن حكومته ولا عن الأحداث التي كانت موجودة خلال فترة حكمه، والتي يقال إنها امتدت حتى موته. حدث نفس الشيء مع القائد عبد الرحمن العلي Abd er Rahman al Aly، والذي امتد حكمه أيضاً حتى موته، ولكن دون أن يقول إيرهوني ولا إسكيري شيئاً آخر عنه. يذكر داوود أن هؤلاء الحكام الأربعة هم الذين وجهوا مصائر تطوان في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري و الذي نحدده من ٨ يوليو ١٥٦٧ وحتى ١٩ أكتوبر ١٥٩١ (١٢).

هناك شيء آخر جديد يمكن أن نقدمه، فيما يتعلق بحكام تطوان بين التواريخ المذكورة، من الغريب، أننا قد وجدنا في هذا اللغز أسماء بوردان والزبان، ولكن في مرحلة زمنية أخرى غير التي ذكرهما فيها إيرهوني وإسكيري.

في المقام الأول، وفيما يتعلق بفترة الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، فإن لدينا مصادر تقدم لنا أخباراً جديدة عن سبته، بجانب وثائق أخرى، أيضاً جديدة، ووثيقة أخرى، بالرغم من عدم كونها جديدة، ولكنها كذلك بالنسبة لهوية الشخصية التي تذكرها.

وفقاً للترتيب الزمني سنبدأ بالحاكم حامو Hamú، ونؤكد وجوده على رأس حكومة تطوان في عام ١٥٦٢، النص الذي يؤكد ذلك هو التالي:

فى أغسطس عام ١٥٦٢ عاد السيد فرناندو دى مينيسييس إلى حكومته / فى سبتة/ وشرع فى اشتباك شجاع مع سيدى حامو، أخو قائد تطوان... (١٣) .

بعد ذلك سجلت نفس الوثيقة وجود قائد تطوان السابق ذكره فى الموقع الإشباني، والذي هرب من فاس وعاد إلى سبتة فى عام ١٥٧٠ ونزل فى مركب كوسمى لوريتشو وذهب إلى طنجة، فى مركب آخر كان معه... (١٤) .

لا نعرف الآن شيئاً آخر عن القائد حامو بعد هروبه، ووفقاً لما رمل فإن حكم حامو لتطوان استمر عدة أعوام، على الأقل منذ عام ١٥٦٢ وحتى ١٥٦٧ حين خلع وأرسل مسجوناً إلى فاس.

فى أثناء تلك الفترة حدث هجوم الملك ألبارو دى باثان D. Alvaro de Bazan على خور نهر مارتين، والذي سنتحدث عنه لاحقاً، ولكن يبدو أن قوات السلطان هى التى واجهت هذه الهجمة الحربية. قصة هذه الواقعة ليست واضحة تماماً. نفس الخبر يحكى قصة حملة حربية أخرى ضد سبتة قام بها القائد سيدى موسى فى ١٥٧٧ . إنه القائد الذى يمكننا تحديد موقعه فى تطوان لأنه يتحدث عن هجوم برى وبحرى بمراكب شراعية وسفن تركية (١٥) .

علاوة على ذلك، فقد عُن سيدى موسى كحاكم لتطوان، منذ ذلك التاريخ على الأقل، كما ورد فى وثائق أخرى سوف ندرسها فيما بعد.

من المحتمل أن موسى كان قائداً فى الثامن عشر من مارس ١٥٧٦، عندما خاطبه الملك عبد الملك Abd el Malik، دون أن يسميه بأكثر من اسم وظيفته، وعندما خاطب أحمد مفضل Ahmed Mufadal بعبارة "أمين خزاننا، حفظه الله" (١٦) .

أفضل من "أمين خزان" يمكن أن نترجمها "جابى الضرائب"، وهى الوظيفة التى سوف نجدها مع أحمد مفضل هذا فى وثائق سوف نراها فى الحال.

مفضل هو سليل أحد الحكام الغرناطيين القدماء، و كان رفيقاً للمندارى فى إعادة بناء تطوان. ظهر مفضل والمندارى فى مخطوط من عام ١٥٢٣ كملاك للعبيد، وعندما مات القائد المؤسس فى ١٥٤٠، ظهر مفضل آخر كقاضى للمدينة فى نص من عام

١٥٤٨، ونفترض أنه ابن مفضل الأول. نعتقد، كذلك، أن مفضل هذا الذى ظهر فى عام ١٥٧٦ ليس هو نفسه الذى ظهر فى عام ١٥٤٨. فقد استمرت الثروات والمناصب السياسية تورث فى هذه العائلة الغرناطية المقيمة فى تطوان.

من المؤكد تقريباً أن مفضل الذى ظهر فى عام ١٥٧٦ هو نفسه محصل الضرائب الأكبر ذاته والذى ذكر كما هو فى إحدى مخطوطات عام ١٥٧٩. وهنا يتحدث عن أحد قادة تطوان، ويغفل اسمه، برغم ذكر اسم أحد أخوته (بوايا Buaya)، وتذكر عدة وظائف، كسيدي جمعة Sidi Juma، قائد القصر وشيخ دريس Saij Dris، المقدم والحارس الأكبر لريف تطوان ومفضل جابى الضرائب الأكبر لملك فاس^(١٧).

و نظراً لتغيير الملك السابق ذكره بعد موت عبد الملك فى معركة المخازن Mejacen وانتصار أخيه أحمد المنصور كنتيجة لذلك، يسترعى انتباهنا القدرة العظيمة التى كانت لعائلة مفضل لى تتجاوز الصراعات الأهلية والملكية. إنها قدرة سوف تجعلهم يستمرون، كحكام أغنياء، حتى انتهاء النصف الأول من القرن السابع عشر.

فى نص من عام ١٥٧٩ لم يكن أفراد عائلة النقسييس قد ظهوروا بعد كرؤوس بارزة للبرجوازية التطوانية. هذا المقدم، سيدي دريس، لا يبدو أن له علاقة بهم، بالرغم من أننا نعتقد بأن لقب "الحارس الأكبر لريف تطوان"، يمكن أن يشير إلى احتياج المدينة لحمايتها من الريفيين فى الجوار، وهو الأمر الذى سبب نجاح أوائل أفراد عائلة النقسييس.

مخطوط آخر من عام ١٥٨٣ يتحدث عن القائد التطوانى، دون أن يقول لنا من يكون. مع ذلك فإنه يذكر حامد مفضل، هكذا باسمه، والذى استمر فى كونه جابى ضرائب وثرياً من جرأ القرصنة^(١٨).

و هكذا فإن عائلة مفضل كانت تلفت الانتباه أكثر مما يحتكره القادة والمقدمون حتى بالنسبة للحزب الآخر. كان يمكن أن تُنسى أسماء القادة، حتى فى رسائل الملك، ولكن دائماً كانت تظهر عائلة مفضل.

إن مخطوط سببته المشار إليه يذكر، من حين لآخر، هذه الأسماء المنسية، وبالأخص عندما تُبرز أحداث خطيرة هجمات الفرسان التطوانيين و النتائج المأساوية للحامية المسيحية.

في الأول من أبريل عام ١٥٥٨، وجه حامد بن بكر Hamet Bembucar حاكم تطوان هجوماً عنيفاً.... وعند انتهاء العام، وبالتحديد في ٩ ديسمبر، ألحق كمين القائد التطواني خسائر ضخمة، حيث أحمى أربعون قتيلاً ومائتان وثلاثة أسيراً^(١٩).

تُعزى المصادر المغربية هذا الانتصار للمقدم أحمد بن عيسى النقسي، والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل في هذا الكتاب، لكن هذا لا يتعارض مع أن يكون القائد هو بن بكر أو مفضل الشهير، والذان ظهرا في هذه المناصب في العام التالي في المفاوضات التي أجريت لإنقاذ الأسرى^(٢٠).

نفس الأخبار التي تفيدنا بخلافة مفضل لابن بكر في قيادة تطوان، ذكرت اسم حامد بن عبدالله Hamed ben 'Abd Allah تقول إنه "قائد القصر وتطوان"، في عام ١٥٩٤^(٢١). هذان المكانان، المنفصلان بأكثر من ١٠٠ كم، أحدهما على البحر الأبيض والآخر على المحيط الأطلنطي، يجعل افتراض وجود سلطة فوق العادة لشمال البلد، في هذا التاريخ، صحيحاً. بالرغم من أننا نعتقد أنه مقياس مؤقت، بسبب هذه السمة المعقدة لهذه المنطقة من الشمال المغربي وأن تطوان، في عام ١٥٩٤، كان يمكن أن تكون تحت التأثير السياسي العسكري لأول فرد من عائلة النقسي.

فيما بعد سنلتقى بوثيقة أخرى، لعام ١٦٠٧، وسنجد فيها شخصاً يدعى النقسي Anacazis المقدم، بالإضافة الى أحد القادة وهو على غودوبر All Gu-duber^(٢٢).

ولكن هذه هي بداية عصر آخر وملك آخر وحكام آخرين وشخصيات أخرى وأوضاع أخرى، وبالتالي، ظروف أخرى يجب أن ندرسها منفصلة.

في الفترة منذ عام ١٥٦٧ حدثت، مع ذلك، أشياء كثيرة لا يمكن أن نتجاوزها في صمت. لأنه يوجد حدثان أثر كل منهما بصفة خاصة في تطوان: واحدٌ بطريقة مباشرة

والآخر بطريقة ليست مباشرة جداً، فقد أثرا بوضوح شديد فى السياسة المغربية، بل فى التاريخ العالمى كله.

بالرغم من ذلك فنحن نجهل اسم القائد الذى كان يحكم المدينة. مع ذلك، وبغض النظر عن اسمه، لانهتقد أن التطوانيين -الغرناطيين قد أوقفوا أبداً أنشطتهم الحربية، سواء عبر البحر، مصدر الموارد التى لايمكن استبدالها، أو عبر البر ضد منافسيهم من البرتغاليين فى سبتة.

إن القوة المحركة لذلك المجتمع، الذى كان يعيش فعليا على القرصنة والغنائم، لم تكن لتتوقف، حتى مع فقدان ذلك المجتمع للحكم الذاتى الذى كانت تتمتع به تطوان من قبل، وحتى لو أصبح القائد غير غرناطى ويتعين عليه تقاسم الغنائم مع السلطة المركزية. هناك، مع ذلك، حدث لا يمكن أن نتركه دون أن ينتبه إليه أحد: مدينة تطوان، والتى أعيد إنشاؤها ودمرت عدة مرات على مر العصور، لديها الآن هوية متماسكة والتى تُبنى بقدرتها على العيش فى المستقبل. فهى يرمز إليها بالأسطورة التى جمعها إسكيري، والتى ترجمها ثيردييرا Gerdeira بعد ذلك، وهى ظهور النبى محمد (فى المنام) للمندارى مؤسس تطوان، عندما كان يتفقد أعمال إعادة البناء حيث قال له ألا يقلق، فعندما يصل ضرر الآخرين إلى عنقهم سيصل فى تطوان فقط حتى الركبة، وعندما يصل خير الآخرين إلى ركبهم، سيملا تطوان حتى العنق^(٢٣). وأكثر من ذلك، ستذوب بمنتهى السهولة، كل الخطط التى صُنعت لتدميرها، مع أن نشاط القرصنة بالذات كان مزعجاً، وقد زاد منذ أن أرسل الأتراك، المسيطرون على الجزائر(العاصمة)، سفنهم الكبيرة والصغيرة، ناحية غرب البحر الأبيض المتوسط للصراع فى البحر.

لقد تدخل الأتراك سريعاً جداً أيضاً فى الصراعات بين الوطاسيين والسعديين، فى المعركة التى دارت بينهم عام ١٥٤٤، استخدم كل فريق منهما أتراكاً مرتزقين، وعند فوز الشريف سعدى، احتفظ بأترك جيش العدو^(٢٤).

قبل ذلك، وكان فرناندو الكاثوليكي لا يزال حياً، خطط كونت تنديلا Tendilla والملك نفسه فى عدة مناسبات إحدى الهجمات إما ضد المدينة نفسها، وإما ضد الخور والذى كان أسطول القرصنة يحتوى بين تعرجاته، عندما يكون ملاحقاً أو عندما كان

يحتاج إلى التموين أو إلى وضع بضائعه في سوق العبيد الشهيرة في تطوان^(٢٥) . في إحدى المناسبات، عام ١٥٤٥، قامت حامية سبتة بهجوم على تطوان تحول إلى هجوم على قرية بنى مدن Beni Madan، حيث كان هناك ميناء المراكب ذات الغاطس الصغير والتي كانت تركب الخور من البحر. في هذه المناسبة دُمر الكثير من سفن القرصنة، والتي أحرقها فرسان سبتة، واعتقد السيد ألفونسو دي نورونيا don Alfonso de No-rona، حاكم سبتة، أنه صوب ضربة قاضية للقرصنة وهذا ما أبلغه في رسالة إلى الملك البرتغالي، لكن هذه الحركة كانت معركة أخرى من المعارك القائمة في الحرب التي شهدتها ضفتا البحر الأبيض المتوسط خلال قرون ...^(٢٦) .

لم تتوقف القرصنة، واستمرت سلطات شبه الجزيرة في التفكير في كيفية تدمير وكر الحرب البحرية هذا، الضار جدا بالنسبة للبحارة في مياه المضيق والذي كان ذا خطر واضح بالنسبة لسواحل الجنوب الإسباني.

لقد تلقى الملك فيليبي الثاني معلومات من السيد غاريثا دي توليدو don Garfa de Toledo، بمعنى أنه بعد احتلال مضيق بيليث Penón de Vélez والذي قام به هذا القائد في السادس من سبتمبر عام ١٥٦٤، كان يتبقى للقرصنة فقط ملجأ في السواحل المواجهة لشبه الجزيرة وهذا الملجأ كان خور نهر مارتين^(٢٧) .

كان السيد غاريثا دي توليدو ينصح ببساطة بسد مصب نهر مارتين. طلب الملك فيليبي النصيحة كذلك من الأمير ألبارو دي باثان، وجاء رده متفقاً مع وجهة نظر غاريثا دي توليدو. ولذلك أذن الملك بالمشروع، وأمر باثان بتنفيذه، في رسالة وجهها إليه من مدريد في ٢١ نوفمبر ١٥٦٤: " ألبارو دي باثان، مستشارنا لشئون السفن التي تبحر في المضيق ... لقد ارتحت لفهم أن ما كتبناه لكم بخصوص سد مصب نهر تطوان، حتى لاتستطيع أن تدخل فيه سفن الأعداء، قد لقي استحسانكم ... عندما ترون أن الوقت مناسب، اذهبوا ... لكي تنفذوا الأمر السابق ذكره ... " ^(٢٨) .

لقد رأى ألبارو أن الوقت المناسب هو يوم ٩ من مارس ١٥٦٥، فنفذ فيه المهمة، وفقاً لما ورد في رسالة بعثها إلى الملك في اليوم التالي، من سبتة: " لقد أغلق النهر وسدت القناة ... " بعدة سفن مليئة بالحجارة^(٢٩) .

أرسل السلطان مولاي عبدالله - الذي تم إخباره باختصار عن إحدى الهجمات على واحد من الجرفين الرمليين، جرف العرائش أو جرف تطوان- إمدادات لكلتا المدينتين. وتعقلت لذلك الحركة الإسبانية.

لسوء الحظ لم يُذكر لنا في أى مصدر اسم القائد التطوانى، والذي يجب ان تكون قد أوكلت إليه مسئولية صد الهجوم الإسباني.

على الجانب الآخر لم يوضح لنا داوود شيئاً بهذا الصدد. فقد نقل القصة المختصرة لكتاب "المصادر الجديدة لتاريخ المغرب" وقال إنه لا يوجد شيء عن هذه الواقعة عند الكتاب العرب، وأضاف: "ولانعرف من هي الشخصية التي كانت تحكم تطوان في هذا التاريخ"^(٣٠).

هذا الهجوم الإسباني على القرصنة التطوانية كان له أثر محدود جدا في الزمن. إن التيارات والشكل الخاص لنهر مارتين، الذي يجرى في تعرجات واسعة عبر الوادى، قد غيرت مصب النهر بطريقة طبيعية عدة مرات على مر القرون^(٣١). ربما كان للعامل النفسى أثراً يفوق الجانب الواقعى واستمرت القرصنة ووجدت لها في تطوان سريعا واحدة من قواعد الاساسية من تموين ومرفأ.

جعل السلطان مولاي عبد الملك، فى عام ١٥٧٦، بعد انتصاره الذى وضعه على العرش، من ميناء تطوان أو خور مارتين، قاعدة للمراكب التى كان يفكر فى إرسالها إلى السلطان التركى مع الهدايا، شاكرًا المساعدة المقدمة^(٣٢).

مرت عشرة أعوام دون أن يُعيد التطوانيون استخدام الميناء الذى كان يوهب لهم الحياة.

و جدير بالذكر، أنه بين القادة القتلى فى المعركة، التى انتصر فيها عبد الملك، كان يوجد بن شكرا Ben Xacra وبن زيكريم Ben Zequerim من تطوان. لا نعرف ما إذا كان أحدهما أو كلاهما كان يحكم المدينة فى هذا التاريخ. على كل الأحوال نجد أسماء

وأسماء أخرى يمكن أن تضاف إلى روايات كل من إسكيرى وإيرهونى، ومؤلف آخر،
يجهله داوود.

كنا سنقارن اسم القائد التطوانى، إذا كان قد ذكر فى نسخة الرسالة التى
وجهها عبد الملك إلى "قائد تطوان مدينتا" و "صديقه العزيز" فى ١٨ مارس ١٥٧٦، قبل
ثلاثة أشهر من المعركة المشار إليها، التى قامت فى ٧ يوليو من نفس العام. وللأسف
فقد أغفل الاسم فى الوثيقة المشار إليها^(٣٣).

والذى يبدو فعلاً مؤكداً هو أن عبد الملك عين قائداً جديداً لتطوان، فور انتصاره
أو بعده بقليل جداً، وقد ذكر اسم هذا القائد فى الوثائق المتعلقة بحكومة تطوان، على
الأقل فى عام ١٥٧٧^(٣٤). إنه سيدى موسى، وهو شخصية مهمة جداً، ربما كان
السلطان قد أرسله لى يقاوم التأثير التركى المتغلغل فى مدينة مارتين، حيث أنه فى
٢٤ من أبريل ١٥٧٦، أبلغ ملك إسبانيا، فيليبى الثانى، بوجود قائد تركى فيها وبخروج
١٧ سفينة متجهة إلى تطوان من الجزائر(العاصمة)، حاملة على متن إحداها زوجة
القائد السابق ذكره لى تنضم إليه^(٣٥). هل يمكن أن يكون هذا القائد التركى هو ابن
زيكيريم Zequerim الذى مات فى المعركة التى دارت بين مولاي محمد ومولاي
عبد الملك؟ لقد ترك سيدى موسى حكومة تطوان فى بدايات عام ١٥٧٨ أو أواخر
١٥٧٧، لتعيينه كنائب ملك فى فاس. هذا الخبر أرسله حاكم أرسيلة Arcilla، السيد
دوارتى دى مينيسيس don Duarte de Meneses، إلى الملك سبستيان^(٣٦).

لا نجد أيضاً سيدى موسى مذكوراً عند الكتّاب المغاربة الذين تحدثنا عنهم من
قبل، وقد تولى سيدى موسى المنصب فى فاس لفترة قصيرة، لأنه فى نفس عام ١٥٧٨
ظهر فى البرتغال هارباً من البلاط السعدى، كما سنرى لاحقاً.

هناك احتمال أن بعض الأسماء المذكورة فى وثائق وروايات المؤرخين المحليين هى
لنفس الشخص، مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى بعض هذه الوثائق يمكن أن يُذكر الاسم
فقط وفى البعض الآخر يُذكر اللقب أو ببساطة اللقب الذى كان يعرفه به الشعب.

وهكذا، يمكن أن يكون حسين هو وسيج Wasiح، وأبو على الذى ذكره مارمول هو على الديب، أو على اللوبو(*) Ali el Lobo، وبهذه الطريقة فإنه يمكن توضيح هذا التشويش فى الأسماء بظهور أحد الأخبار، التى ما زلنا نجهلها حتى الآن.

إن عدم التوافق الواضح بين الوثائق الأوربية والمغربية قد يزيد، ليس فقط من مشكلة الأسماء هذه والأحداث، فبعض الوثائق توليها أهمية قصوى، بينما تتجاهلها الوثائق الأخرى تماماً. هذا ما يحدث، على سبيل المثال، مع الواقعة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل، والخاصة بالهجوم الإسبانى على القرصنة التطوانية.

سنرى حدثاً آخر، بالرغم من أنه من الناحية الظاهرية لا يؤثر على تطوان فى هذه الفترة، إلا أنه سيكون مشهوراً، ليس فقط فى التاريخ المغربى القومى، ولكن فى التطور التالى لسياسة البحر الأبيض المتوسط الغربية وأيضاً لكل السياسة الأوربية لذلك العصر.

تطوان حتى نهايات القرن السادس عشر

كانت المغرب تُرى، عندما بدأ العصر الحديث، كغنيمة سهلة نسبياً لدول شبه جزيرة إيبيريا التى كانت ترغب فى امتداد الاحتلال على الشاطئ الآخر للبحر المتوسط. كانت مملكة فاس، والتى يرغب فيها البرتغاليون والقشتاليون، غارقة فى تغييرات مفاجئة فى الحكم، وفى حالة فوضى من جراء الصراعات الداخلية. لقد اعتقد بعض أصحاب الراى أنها كانت اللحظة المناسبة لتحقيق المهمة الكبرى. كان ملك البرتغال، سبستيان، واحداً منهم وسعى إلى إنشاء مملكة مسيحية فى شمال إفريقيا، دون أن تُردعه الخبرات السابقة^(٣٧)، ولا النصائح العظيمة، كنصيحة عمه نفسه، فيليبي الثانى Felipe II^(٣٨). ولم يلتفت أيضاً للأصوات ذات الخبرة، كصوت سيدى موسى ذى التأثير الكبير، والذى تحدثنا عنه منذ قليل، كقائد سابق لتطوان ونائب الملك السابق

(*) كلمة lobo فى الإسبانية معناها ذئب أو "ديب". (المراجع)

لفاس، دُعى سيدى موسى أثناء هروبه فى إيبورا Evora ، لكى يقول رأيه حول الحملة التى كان يعد لها الملك البرتغالى. قال كلاماً حقيقياً لم يعره الملك أى أهمية، لأنه كان يعارض رغباته. كان موسى يؤكد أنه لم يكن ضروريا أن يذهب الملك بشخصه، وإنما يكفى إرسال قائد على رأس سبعة أو ثمانية آلاف رجل. فذهب الملك شخصياً كان يعنى النية فى الاحتلال وحينئذ سيجد كل المغاربة وأيضاً أترك الجزائر(العاصمة) ضده. كان احتلال المغرب مستحيلاً، "برغم توافر نهر من النقود وآخر من الرجال لدى الملك". لقد أنهى تحذيراته قائلاً إن الملك يسير إلى خطر أكيد^(٣٩). فى الواقع، كان الملك سبستيان وجيشه متفككين بصورة خطيرة فى معركة القصر الكبير و المخازن Mejazen ، أو الملوك الثلاثة، والتى سميت هكذا لأنه مات فيها ملكان مغربيان والملك سبستيان^(٤٠). هذه المعركة التى حقق فيها المغاربة انتصاراً ذائع الصيت جعل البلد فى موقع مشرف بين أمم ذلك العصر.

استفاد أحمد المنصور، السلطان المنتصر، الذى زاد ثراؤه من جراء الافتداءات وسيل الذهب الذى وصله من السودان^(٤١)، من كلا العاملين لكى يقوى دعائم الملكية، فكان يميل إلى واحدة أو أخرى من دول القرن الكبرى والتى كانت تبحث عن مساعدته. فقد كان يميل إلى إسبانيا ضد الأتراك، أو إلى إنجلترا ضد إسبانيا، ولهذا فقد جعل البلد فى حقيقة الأمر فى عزلة. أدى موته، فى عام ١٦٠٣، إلى فترة أخرى من الفوضى والحروب الأهلية، وهذا يوضح لنا أن الانتصار المغربى قد أثمر عن منافع قليلة أو أنه لم تتم الاستفادة منه كما كان يجب.

تطوان، منذ أن جعلتها خلافاتها الداخلية تفقد استقلالها الذاتى، لم تظهر كثيراً فى الأحداث التى وقعت قبل وبعد معركة القصر الكبير. بالتأكيد كانت ستلعب دوراً مهماً، لو أن الملك سبستيان قد وافق على العرض الذى قدمه له السلطان عبد الملك، الذى قدم اقتراحات للملك البرتغالى، عندما كان الأخير موجوداً فى معسكر قرب أرسيلة. وكان يدرك أن السيطرة على السواحل المغربية كانت خلال فترة كبيرة هى الهدف الاستراتيجى للبرتغال، وقد جعله هذا يعرف أن تطوان والعرائش وكابو دى غوير أو أغادير ستتخلى عنه، إذا لم يستمر فى التقدم فى مشروعه. الأخبار عن هذا الالتزام تلقاها فيليبى الثانى بتاريخ ٢٥ يوليو عام ١٥٧٨، أى قبل المعركة بعشرة أيام.

قال "يهودى من تطوان" فى نفس الخبر، إن قوات السلطان قد مرت بالفعل من سلا Salé وأن عددها بلغ ٧٠ ألف رجل، و من جانب آخر " قدم اليهودى بشائر اتفاق، لأنه قال إنه يوجد فى القصر أحد قادة الملوك muluk لديه صلاحيات لكى يعطى للملك الإسبانى تطوان والعرائش و أغادير، قبل أن تصل الأمور إلى تمزق أكثر^(٤٢) .

فى ٥ أغسطس، أجاب فيليبى الثانى بأنه لم يكن عليه أن "يقبل العرض الذى نقله إليه اليهودى و المتعلق بالاحتلال السلمى لتطوان والعرائش و أغادير"^(٤٣) . لو كان قد نفذ ذلك، كان سيضع كل التجارة المغربية فى أيدٍ برتغالية. وأيضاً فهو ضمان لاختفاء القرصنة، سواء الغرناطية أو التركية، والتي كانت تضر ضرراً بالغاً بالملاحة والسواحل البرتغالية والقشتالية فى جنوب شبه الجزيرة. كانت تطوان تشكل مركزاً لتموين الأساطيل التركية الصغيرة والتي كانت تمثل صلة السلطة التركية فى الجزائر بالشئون المغربية. لدينا دليل على ذلك فى الأخبار التى تلقاها فيليبى الثانى، من سبتة، فى ١٣ من أغسطس، و التى حذرت من أن قائد جيش عبد الملك التركى أرسل على جناح السرعة "مركبين تركيين، كانا فى نهر تطوان، لتحذير ملك الجزائر"، مما كان يحدث فى القصر الكبير، شارحاً له وضع المغرب، المناسب وفقاً له، لتدخل تركى مسلح^(٤٤) . كان الملك الإسبانى منتبهاً لذلك الخطر التركى وفى الأيام الأولى من أغسطس أرسل أسطولاً، من قرطاجنة Cartagena، لمراقبة المضيق. قدم السيد ألبارو دى باثان تفاصيل عن عملياته فى رسالة كتبها إلى الملك من جبل طارق فى ١٦ أغسطس، يخبره فيها بخروج عشرة سفن صغيرة من تطوان^(٤٥) . فى هذا الوقت كان يمكن أن ينتبه البحار الإسبانى إلى عدم فائدة الحركة التى شرع فيها قبل ثلاثة عشر عاماً والتي كانت تهدف إلى سد مصب نهر مارتين.

وصلت تفاصيل عن معركة القصر الكبير إلى ملك إسبانيا عبر بعض الأسرى من تطوان، بعد أيام قليلة جداً من المعركة، بالرغم من أننا نعرف أنه كان هناك تشويش كثير، حتى فى التفاصيل ذات الأهمية. فعلى سبيل المثال، كتب القائد التطوانى، والذى لم يُذكر اسمه إلى حاكم سبتة، ليخبره بانتصار ملك المغرب "ملوك"، مضيفاً أن الملك سبستيان كان مسجوناً. هذا الخبر جعل فيليبى الثانى، وكانت لديه معلومات أخرى أكثر دقة، يصيح قائلاً: " ياليت السجن يكون حقيقة"^(٤٦) .

لابد وأن يكون قد وصل إلى تطوان القليل من الأسرى، وعلى الأخص هؤلاء الذين قبض عليهم سكان الجبال الموجودة حول تطوان وشاون، والذين اشتركوا في المعركة. لابد أن يكون الأمر هكذا حيث أن الجزء الأساسي من الغنيمة تشكله "الغنيمة البشرية"، كما أعلن واحد من المشاركين في القتال.

"Os despojos que os enemigoos alcançarao do campo forao muy pocos, tirando a presa dos cativos, porque erao tantos que a muitos nan coube mais hum pedaço de tenda" ^(٤٧).

إن الدليل على تجمع العبيد في تطوان تقدمه لنا الوثيقة الخاصة بافتدائهم، والذي قام به رجال الدين الرهبان، في العام التالي للمعركة، أي في عام ١٥٧٩، كان تحت تصرف الرهبان مبلغ كبير بلغ ٢٥١, ٤٦٣, ٧ مرابطين. وهي أكبر ثروة مجمعة لعملية افتداء واحدة فقط رأيناها في مخطوطات من هذا النوع.

من قائمة الأسماء التي كانت ستحرر بهذا المبلغ نجد ٥٢ اسماً من تطوان وأكثر بقليل من ٣٠ في فاس. في مراكش البعيدة ظهر ٢٢ اسماً، و اسمين من القصر الكبير، واسمين من سلا Salé واسم واحد في مكناس Mequínés واسم آخر في تلمسان Tremecén وآخر في سفن الجزائر، ولكن كان من المعروف أنهم كانوا يذهبون إلى تطوان. لذلك ترجع إلى تطوان نسبة ٥٠٪ تقريباً من عدد الغنائم، كانوا كلهم إسبان ومتفرقين جداً، كما نرى، في كل مملكة المغرب. لا نتحدث عن عبيد برتغال، اتخذ تحريرهم طرقاً أخرى. فنحن نفترض أن كثيراً منهم، الأغلبية من أندلويا، والذين سوف يتم افتدائهم في هذا العام ١٥٧٩، هم أيضاً غنائم في معركة القصر الكبير. في المقام الأول هم شباب، استدعاهم أبائهم وأجدادهم. في المقام الثاني هم ليسوا من أماكن ساحلية، الأمر الذي يبعد احتمال أن يكونوا نتيجة عمليات ترحيل كالتى أخلت أماكن ضفاف أنهار كثيرة^(٤٨). كانت تطوان، بعدما مرت بعض الشهور على ذلك اليوم ٤ أغسطس ١٥٧٨، مسرحاً لحدث سيئ متعلق بالبرتغاليين المأسورين في القصر الكبير. منح السلطان، بناء على طلب فيليبي الثاني، الحرية لابن أخيه "دوق بارثيلوس Duque Barcelos" ^(٤٩). هذا الأخير، بالاتفاق مع أسرى مفتدين آخرين، رحل من

المغرب ناحية سبتة، و أعد قافلة وصلت إلى تطوان بعد أربعين يوماً من الرحيل. كان التحرير وشيكاً، ولكن قام اثنا عشر يهوديا انضموا إلى القافلة في فاس، باحتجاز بعض الأسرى لأنهم كانوا يدينون لهم بنقود كثيرة، ومر البرتغاليون بلحظة سيئة حتى جاء نبيل آخر كان لديه تعاملات كثيرة مع اليهود وضمن ديونهم.

وأخيراً خرج دوق بارثيلوس وباقي النبلاء البرتغاليين من تطوان إلى سبتة، ووصلوا إلى المكان المسمى نيفرون Negrón ، حيث أبحر كثير منهم في سفن ماركيز سانتا كروث، التي كانت في هذه المياه، بينما واصل دوق بارثيلوس سيره في نفس اليوم مع نبلاء وسادة آخرين، حتى دخل في سبتة، حيث عمت الفرحة الجميع^(٥٠).

تحدثنا عن سكان جبال مناطق تطوان والشاون كعناصر حربية ذات أهمية في الحرب المشار إليها، فهم سوف يكونوا أبطال الأحداث التي مرت بتطوان في الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر.

في الواقع هناك عاملان أساسيان سوف يساعدان في إعادة ظهور شخصية زعيم بجوار القائد الحربي في تطوان، وهو القائد الذي تعينه القوة المركزية. يتضح لنا الوضع الحقيقي في المغرب، الذي يسيطر عليه بصورة ملحوظة ملك ذو نفوذ وقوة.

العامل الأول سوف يكون الاحتياج إلى بقاء مجموعة من المحاربين في المدينة لمواجهة الحملات البرتغالية المنطلقة من سبتة التي تهاجم هذا الموقع. العامل الثاني هو الضغط المرهق الذي يمارسه سكان الريف على سكان المدن، بالهجمات والنهب والاحتجارات، التي أجبرت السكان على التسليح لمواجهةهم. وجه داود انتباهنا لكلا العاملين، مقدماً نص لكتاب "الاستقصاء" للناصرى:

" في هذا العام ١٥٨٨ / ٩٩٦ في شهر ذو الحجة، سافر المنصور إلى فاس، وبينما كان في الطريق، (بعد بداية عام ٩٩٧)، وصله خبر هجوم مسيحي من سبتة. كان قائد المسلمين هو المقدم أحمد بن عيسى النقسييس التطواني، مع مجموعة من الفرسان من المكان. خرج المسيحيون مع أتباعهم. وتدخل النقسييس بينهم وبين سبتة. التقوا وانتصر المسلمون. فرح المنصور بذلك الخبر..."

تاريخ اللقاء واستشهاد كاتب آخر يحدده لنا داوود أيضاً:

" يقول سيدى مفضل إنه كان فى يوم جمعة ٢٢ من محرم ٩٩٧ (٩ ديسمبر ١٥٨٨) عندما وقع حدث جدير بالذكر أو حركة حربية ضد مسيحيى سبتة، نفذها المقدم أحمد النقسيىس، والذي يحمل اسمه شارع المقدم فى تطوان"^(٥١) . يعطينا مؤرخ ثالث تاريخاً مختلفاً. يقول لنا العفرانى Al Ufrani أن الحدث وقع فى شهر ذى القعدة ٩٩٦، من ٢٢ من سبتمبر إلى ٢٢ أكتوبر ١٥٨٨ . "رئيس الحملة الموجهة ضد الخونة، أحمد النقسيىس، نصب كميناً على رأس مجموعة من الفرسان. خرج السكان من مدينتهم، مع أبنائهم وأقاربهم: كان المسلمون بين المسيحيين وسبتة، وهم على وشك الاستيلاء على المدينة"^(٥٢) . لكن لم يكن يكفى عداء سبتة، صانعة الكثير والكثير من محاربين هذا الحزب أو ذاك، لتأسيس ظهور رئيس مطلق أو طبقة قادة محاربين. أضيف إلى ذلك واحداً من أسوأ الأضرار المستوطنة فى هذا المغرب للقرن السادس عشر: الفوضى السياسية والاجتماعية.

لم تحرر تطوان ولا ميناؤها من سلب ونهب سكان القبائل المجاورة^(٥٣) . إن إيرھونى وإسكيرى يصفان هذه الفوضى هكذا:

" كان سكان القبائل المجاورة لتطوان، وأولها وادراس Wadras ، ثائرين فى ذلك العصر. كانوا يهاجمون الطرق ويسلبون الممتلكات ويؤذون الناس بأضرار بالغة. كان محمد النقسيىس، المنتسب إلى قرية بنى حوسمار Husmar ، جارة تطوان، حينئذ طالباً يتابع دراساته فى المدينة. وعندما رأى غطرسة سكان الجبال، اجتمع مع أعيان تطوان وطلب منهم الدعم لى ينهى، بمساعدة قبيلته، سطوة سكان الجبال. لم يروا ضرراً فى الاستجابة لرغباته و أعطوه إمكانيات وفيرة لى يحقق ذلك". يقول ثيرديرا، و يكمل داوود، إن القائد محمد هذا طلب مساعدة أحد أقاربه، وهو المقدم أحمد النقسيىس، رئيس المحاربين البارزين فى مواجهة سبتة، وافق على طلبه وفى وقت قليل، أنهى الثورة الجبلية، مسيطراً بأمان وهدوء على البلد.

حكم القائد محمد تطوان وإقليمها حتى موته، وورثه ابن عمه القائد محمد بن عيسى النقسيىس فى عام ١٦١٠^(٥٤) .

يبدأ، إذن، ما أسميناه بقرن النقسيس في تطوان، نهاية المرحلة التاريخية التي بدأناها بالصراعات الأهلية التي حدثت عند اختفاء عائلة المنداري، لكن قبل أن ننهي حديثنا، يهمننا أن نوضح قليلاً ما وجدناه عن هذه الشخصيات التي ذكرها كل من إيرهوني وإسكيري: القائد محمد بوردان Muhammed Burdan والحاكم محمد الزبان Muhammed Az Zaban، واللذان كانا، وفقاً لداوود، يحكما المصائر في تطوان في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، (من ٨-٧-١٥٦٧ إلى ١٩-١٠-١٥٩١). لانعرف ما إذا كان حامد بوردان حاكماً أم لا، ولكن بالفعل ظهر شخص بهذا الاسم، في وثيقة لعام ١٦٠٩، لبائع للعبيد^(٥٥)، ومستمرّاً في هذا النشاط في وثائق أخرى لأعوام ١٦١٢^(٥٦) و ١٦١٤^(٥٧) و ١٦١٥^(٥٨). لا بد أنه لم يفعل الكثير في السياسة، لأنه كان مع النقسيس عندما كان الأخير هو الحاكم الرئيسي، واستمر في وجوده معه عندما هرب النقسيس، وكان عليه أن يمنح المنصب لبودبيرا Budebira، والذي عينه السلطان الشيخ قائداً و حاكماً، وعاد بوردان للظهور عندما رجع النقسيس من منفاه المؤقت، شاغلاً منصب المقدم من جديد.

أما بالنسبة لمحمد الزبان، فكان هناك بالفعل شخص يُدعى زبان، حاكماً لتطوان. كان يُدعى إبراهيم الزبان، في النص الذي حرره كاتب العدل التابع للملك، فرانثيسكو غارثيا دي ليون Francisco García de León، وهو نص يتعلق بتأمين مرور موقع من الحاكم نفسه. أُعطى التأمين في ٢٥ من يناير ١٦٣٦ لكي يستطيع الآباء المفتدون، وهم الراهب أغودو Agudo والراهب نيكولاس دي كاستانييدا Nicolás de Castaneda مع كاتب العدل المذكور المرور إلى تطوان لكي يفتدوا الأسرى وصدّق عليه سكرتير هذا الحاكم على سوريا Ali Sorla^(٥٩).

بطبيعة الحال لم تلعب أي من هذه الشخصيات أي دور في العصر الذي ذكره المؤرخون التطوانيون و أيضاً في التواريخ التي أُشير إليها فيها، وسوف نعود إليهم في دراسات أخرى. ما سوف نبجته الآن هو عصر آخر بظروف مختلفة وأبطال مختلفين، سواء كانت فردية أو جماعية.

الهوامش

- (1) SUÁREZ FERNÁNDEZ, Luis. Política internacional de Isabel la Católica. Valladolid 1966. Pág.458.
- (2) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal 1.a serie. Tom. V.P.65.
- (3) S.I.H.M. España.1.a serie. Tom.I. P.606.
- (4) لكل عصر المنداري، أنظر
- GOZALBES BUSTO. Guillermo Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada, 1988.
- (5) S.I.H.M. España.1.a serie. Tomo.III. P.18.
- (6) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del. Descripción general de África. Libro Cuarto. Granada 1573. Fols. 131 y 131vt.*
- (7) كتاب وصل و نفقات كتبه الأب الراهب ماتياس دي كوييار، مفتدى الأسرى لمقاطعة قشتالة، جمعية السيدة العذراء، في عام ١٦٠٧، والذي نُفذ في ممالك فاس والمغرب وتطوان
- Mss. 2791 de la Biblioteca Nacional de Madrid.
- (8) التواريخ متناقضة في:
- COATTENAZ, Tables de concordance des eres Chretienne et Hegiriennne. 3.a edic. Rabat 1961.
- (9) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. Tetuán 1959-1379, parte 1.a Pp.127 y sigs.
- (10) S.I.H.M. Port. 1.a ser. Tom. V. P. P. 69.
- (11) DAWD. Op. cit., P. 129.
- (12) DAWD. Op. cit., P. 132.
- (13) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Ceuta...Mss.9741 de la B.N.Madrid, Fol. 71.
- (14) Mss.9741 de la B.N. Fol. 75.

- (15) Id. id. Fol. 77 vt*
- (16) S.I.H.M. France 1.a ser. Tom. 1. Pág.348.
- (17) Mss.6569 de la B.N.
- (18) Mss.3538 de la B.N.
- (19) Mss.9741 Fol.83 vt.* y 85.
- (20) Mss.9741 de la B.N. Fol.84 vt.*
- (21) Id. id.Fol.86 vt*
- (22) Mss.2791 de la B.N.
- (23) فى رواية مأخوذة من إسكيري بواسطة ثيرديرا، كليمنتى، فى مقاله عن نفس الرواية (23)
la Revista Hispano Africana, enero de 1923, año II, n.* 1. Pág. 18.
- (24) TORRES, Diego de. Relación del origen y suceso de los
Xarifes... Sevilla, 1586. P. 158.
- (25) MENESES GARCÍA, Emilio. Coorespondencia del
Conde de Tendilla. Tom. II. Madrid, 1974.
Véanse, sobre todo Pp. 110-120-122-123-139-
328-329-341 y 375.
- (26) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "Ceuta y el corso". El
Cuadernos del Archivo Municipal de
Ceuta. N*. 5.
- (27) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a I. Pp. 79 y 83.
- (28) S.I.H.M. España. 1.a III. Pp. 98-99.
- (29) S.I.H.M. Id., Id., Id., P.130.
- (30) DAWD. Op. cit. P.127.
- (31) لقد كنا شاهدين على بعض هذه التغييرات، من بلدة نهر مارتين الحالية حتى مكان سيدى السلام البحار،
بالإضافة إلى الجنوب ،
- (32) S.I.H.M. España. 18- III-234.
- (33) S.I.H.M. Francia. 1.a I- 348.
- (34) S.I.H.M. España. 1.a III-374.

(35) S.I.H.M. España. 1.a III-360.

(36) S.I.H.M. España. 1.a III-362.

(37) كان الملك سبستيان في طنجة عام ١٥٧٤، حيث وجب عليه أن يسمع جملة : "لا يُترك عمل الملك للقيام بعمل القائد .

V. S.I.H.M. España 1.a III Pp . 190-98 .

(38) كان الملك الإسباني معارضاً لحملة ابن أخيه، كتب عند معرفته بالهزيمة قائلاً: "حدث ما كان يُخشى من ملك البرتغال".

Cfr. S.I.H.M. Inglaterra, 1.a I. P.30-4.

يوجد الكثير من الروايات عن هذه المعركة و نختار منها ما قدمها الطبيب اليهودي الذي كان يراعى المريض مولاي عبد الملك الذي مات فيها.

Cfr.S.I.H.M. Inglaterra,1.a I. P.312-321.

(40) MELO LOPES, David de, Historia de la expansión portuguesa en el Mundo. La expansion en Marruecos.

S/a. S/p. S/c. P.204.

منذ عام ١٥٩٠ غزت حملة مغربية السودان، مكونة و مرسلّة من قبل الأندلسيين، فاتحةً هكذا طريق الذهب .

(42) S.I.H.M. España. 1.a III.437.

(43) S.I.H.M. 450.

Jornada de AFRICA: Lisboa 1607.FOL.14V.* يذكر هذا التخلي خيرونيمو دي مندوثا، في عمله:

(44) S.I.H.M. España. 1.a III.455.

(45) S.I.H.M. España. 1.a III.462.

(46) S.I.H.M. España. 1.a I. 310.

(47) MENDOZA, Jerónimo de, Op.cit. Fol.55. v.*

يعترف مندوثا نفسه أن حتى بعض الشرفاء، oficialmente "el lote" del sultán قد بقوا في القصر الكبير و تطوان، Cfr. OP. cit. Fol.66.

حسابات لجنة المجلس الملكي التي قدمها السيد غاسبار دي كوييار إلى الراهب أرثي و الراهب لويس دي ماتيينثو، من جمعية السيدة العذراء، وكانت اللجنة مكلفة بافتداء الأسرى في سبتة و تطوان عام ١٥٧٩ . أنظر مخطوط رقم ٦٥٦٩ في المكتبة الوطنية بمدريد .

(49) S.H.I.M. Inglaterra. 1.a I. 375.

(50) S.H.I.M. Inglaterra. 1.a I. 375.

(51) DAWD. Op.cit., 133.

(52) Al UFRANI, Nuzhat al Hadi..., Tr. O. Houdas, París 1889, P. 265.

قام أحد القادة الإنجليز، مينورنج، في رسالة إلى ملك إنجلترا، و متحدثاً عن تطوان، بالإشادة

(53) بمينائها و مياهها، ولكنه حذر من أنه يجب وضعها تحت الحراسة بسبب الفوضى الموجودة.

Cf. S.I.H.M. Inglaterra 1.a Il. P.507.

(54) DAWD. Op. cit.,P. 176.

(55) B.N. Mss. 4390.

(56) B.N. Mss. 3762.

(57).Arch. Hist. Nac. Cod. Lib 124/B

(58) B.N. Mss. 3870.

(59) A.H.N. Cod. Lib.129/B Fol.55v.*

الفصل الثانى

المجتمع الغرناطى- النصرى فى المنفى(*)

إن الغزو المسيحى لشبه الجزيرة، والذي كان على وشك الانتهاء تقريباً فى القرن الثالث عشر إبان حكم فرناندو الثالث، قد تجمد وامتد مع خلفاء فرناندو حتى وصل إلى نهاية القرن الخامس عشر.

ففى أكثر من قرنين كان يُعانى، سواء فى مجال أو آخر، من تغييرات وصلت للمجتمع بأكمله، المسيحى من جانب والإسلامى من الجانب الآخر.

سوف يتطور المجتمع المسيحى وسيبقى فى الأراضى التى يسيطر عليها ويملكها، أما المجتمع الإسلامى فسيتوقف و سينحصر فقط فى نطاق مملكته التى كانت تتناقص.

سيكون من الإطالة شرح الدوافع والظروف التى تجعل مجتمعا ما يتطور بتقدم متزايد، بقدر ما يخرج من العصور الوسطى، بينما يبقى الآخر فارغاً ويتشكل فى قوالب قديمة.

كان ابن خلدون يقول: "كل سلطان يجب أن يُبنى على قاعدتين، الأولى هى القوة، أى الجيش، والثانية هى المال. إن الانحطاط يستنفذ هاتين القاعدتين ويستولى على قوة العائلة الملكية، ويهاجم بعد ذلك موارد الدولة ويدخلها"^(١).

(*) منشور فى:

la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, n. 3-2.a

Ep.1989-Pp.165a 180.

يبدو أنها طريقة بسيطة جدا لعرض الأمور، ولكن كان الأمر هكذا منذ ميلاد المملكة النصرىة الغرناطىة ذاته.

و كورىثة لمالك الطوائف، استطاعت، مثلم، أن تحصل فى فترةٍ ما على سراب من السلطة والاستقلالية، ولكنها مثلم أيضاً، كان محكوماً عليها منذ ميلادها بأن يمتصها من هو أكثر قوة.

كان ملك غرناطة يجب أن يكون راعى إبل فى إفريقيا أو راعياً للخنازير فى قشتالة، كان هذا هو المصير النهائى والذى لا يمكن تفاديه.

فى هذه الأثناء كان المجتمع الإسلامى الغرناطى يتعايش بروح مواجهة أسوأ ما هو متوقع، كانوا يعرفون ذلك منذ القرن الحادى عشر: "يا أهل أندلس، شدوا رحالكم، فما البقاء بها إلا من الغلط"^(٢).

فقدت القوة منذ نفس لحظة تقسيم الخلافة، و الموارد أيضاً، وبالأخص عندما كان يجب الخضوع لدفع "الجزية"، حتى لا تختفى.

قال ابن الخطيب، متذكراً مملكة يوسف الأول، إنها كانت فترة سلام وسعادة، تتميز بالإعفاء من الضريبة السنوية الواجبة للمسيحيين، الأمر الذى كان يعتبر حدثاً نادراً و غير عادى فى عائلة بنى نصر^(٣).

نشأت مملكة غرناطة بهذا الضعف المزدوج من الجيش والمال، و هو الضعف الذى سوف يظهر بسبب الخصائص الذاتية للمجتمع النصرى، وسينتهى بتفككه النهائى.

ماذا كانت تلك الخصائص التى لم تتحمل المواجهة عندما أصبح وجود هذه المواجهة قاطعاً؟

كان المجتمع الغرناطى مؤسساً على سيطرة الأرستقراطية الحربىة القائمة، بدورها، على تسلط بعض العائلات على الأخرى، "... وهكذا، أدت العصبىيات إلى التدمير والركود فى البلد، بالرغم من أنها قد صنعت له أساساً لبنائه الاجتماعى والسياسى^(٤).

كان الأمير فى قمة السلطة الحاكمة، فهو التجسيد الأعلى لحكومة البلد، من خلال رؤساء الجيش وعلماء الدين والزعماء الدينيين الذين كانوا يؤثرون جدا فى العامة.

إن هؤلاء الأوائل بملكيتهم للحاميات العسكرية والمعاقل فى المدن و القلاع فى المناطق المدنية، وكذلك الآخرون، كانوا يستحثون ويوحدون السكان كل مرة بصورة أكبر ضد العدو المسيحى، وكانوا يشكلون عناصر أساسية ذات تأثير، واستمرت تلك العناصر موجودة حتى ما بعد الهزيمة النهائية. عندما حدث ذلك، تزود الملك فرناندو بكل الوسائل، وانتصر عليهم، وأزال سلطة بعضهم وسبب أذى للآخرين.

والآن سوف نلقى نظرة على الطبقات الاجتماعية الأخرى.

حدد ابن الخطيب، قبل قرن من زمان المجتمع الذى نبخته، ستة طبقات اجتماعية، وتشمل الخامسة منها طبقة العامة، الرجل العادى^(٥).

فى الواقع، إن تصنيف المؤرخ الغرناطى العظيم كان عبارة عن نظرة سياسية أكثر من كونها اجتماعية. ويمكن أن تشمل طبقة العامة التى تحدث عنها ابن الخطيب كل ما هو ليس أرستقراطية السيف أو الحق، المحارب والقاضى والذين يعتبرونها، كما فى كل بلد إسلامى، رجال قانون ورجال دين.

فى طبقة العامة هذه يمكن أن نفرق بين الوظائف المدنية والصناعية والتجارية والخدمية، للسكان الريفيين، والذين يمكن أن يضم إليهم الملاحين والصيادين فى المناطق الساحلية.

تختلف أيضاً طبقة العامة، وفقاً لما إذا كنا سنتحدث عن العاصمة وعلاقتها بالمدن الكبيرة فى المملكة، أو عن المدن الكبيرة وعلاقتها بالقرى أو الضياع.

فتحن نعتقد أنه من الواضح أن نفرق بين أهل المدينة وأهل الريف وأنه لو استطعنا أن نجد رسماً أولياً للطبقة الوسطى، فسوف نجده فى أهل المدينة، الذين يتمتعون بمستوى معيشة أعلى من العالم الريفى. هذا العالم، المستغل من قبل من هم فى الوسط ومن هم فى الطبقة العليا، اعتقد فى بعض اللحظات من حرب غرناطة الأخيرة، أن تحريره سوف يكون فى تغيير الملاك.

لم يكن السلاطين، فى الواقع، يستطيعون إلغاء الضرائب، لدرجة أنهم كانوا يخرقون قوانينهم الدينية(*)، و ذلك لكى يستطيعوا دفع الجزية الباهظة، ولدعم الجيش اللازم ضد قشتالة وكأداة للسلطة، ولتحمل نفقات الدولة، والتي كانت تختلط فى أحيان كثيرة بنفقاتهم. و فى آخر الأمر فإن الريف هو الذى كان يتحمل العبء الأكبر، دون أن تستطيع التجارة والصناعة، والتي تزداد ضعفاً شيئاً فشيئاً، أن تخفف من أعباء الريف الضريبية التى لا يمكن تحملها^(٦).

قال أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين عن والد أبى عبد الله الصغير إنه " أثقل البلد بالجزية و أثقل الأسواق بالضرائب. و كانت تسلب الأملاك... " ومع كل هذا فقد فرض، ضرائب جديدة وزاد من قيمة الضرائب الموجودة^(٧).

إن الاستياء، الظاهرى أو الخفى، من السهل استنتاجه من هذا الوضع للأشياء. إن استثمار هذا الاستياء كان منطقياً، وكنتيجة لكل هذا، ضعف الدولة نفسها ونقص القوات والمال، وهما المحركان اللذان وضعهما ابن خلدون كأساس لبقاء المبنى.

تلك هى الخطوط العريضة للرؤية الشاملة للمجتمع الغرناطى، فى العقود الأخيرة من وجوده كمجتمع حر، و كنموذج للدولة الإسلامية الوحيدة التى كانت على وشك السقوط، فى شبه الجزيرة الإيبيرية.

لكن هل انتقلت تركيبة هذا المجتمع فى الأراضى الإفريقية، عندما ساعدت الهجرة، فى خلق جماعات ذات حكم ذاتى ومستقلة فعلياً، مع إنشاء مدن ذات طابع غرناطى واضح؟

كيف كان هذا المجتمع الغرناطى فى المنفى؟

للأسف تنقصنا المصادر، سواء الإسلامية أو المسيحية، التى تفيدنا فى الإجابة على هذا التساؤل. المصادر المسيحية لأنها تجاهلت المنهزمين عندما اجتازوا المضيق،

(*) هذا ما أشار إليه ميكيل دى إيبالثا: عندما اضطر الملوك لدفع المال إلى المسيحيين استخدموا مصطلح "نفقات حرب" بدلاً من كلمة "جزية" حتى يتفادوا معارضة الفقهاء. (المراجع)

وقد تجاهلته المصادر الإسلامية لأن فقر المصادر التاريخية فى تلك البلاد و المشاكل السياسية و الاقتصادية التى كانت تعاني منها البلاد التى وفد إليها الغرناطيون، لم تجعل من الممكن الاهتمام بالغرناطيين.

إن نموذج هذا المجتمع الغرناطى شكَّله المجتمع المكون من جماعة المنفيين التى أسست مدينة تطوان فى الشمال المغربى، على بعد ٤٠ كم، من جنوب سبتة، أى من مضيق جبل طارق.

نعرف شيئاً آخر عن هذه المجموعة المهاجرة بفضل ثلاثة أسباب رئيسية:

أولاً: بسبب العقبات التى قدمتها المدينة الجديدة والمحاربون المستقرون فيها، عند التوسع الاستعمارى من أجل السيطرة على الشمال المغربى، والذى سوف ينعكس فى الأخبار البرتغالية لهذا العصر.

ثانياً: البعث والإحياء السريع للقرصنة- السرقة وفقاً للبعض، والحرب المقدسة فى البحر وفقاً للبعض الآخر- بداية من إعادة إنشاء تطوان، والتى اكتسحت السواحل الإسبانية والبحار المتاخمة عندما انشغل الحكام بشدة فى شبة الجزيرة بكل ما يترك آثاراً فى الأخبار والوثائق القشتالية.

ثالثاً: لأن الأخبار الإسلامية أيضاً أحدثت صهياً، بطريقة ما، عن الشكل الدينى والقومى للصراع الذى قام به الغرناطيون لى يصدوا المسيحية الفازية للسواحل المغربية، عندما كانت السلطة المركزية غارقة فى فوضى خطيرة من أجل بقاء الدولة المغربية ذاتها.

يحدثنا أحد المؤلفات التاريخية، التى يمكن أن نسميها إسلامية، والمعاصرة تقريباً للتأسيس، وأحد المؤلفات التاريخية القشتالية الأخرى، والذى ينقل كثيراً عن الكتاب السابق، عن إعادة بناء تطوان و عن الغرناطيين الذين أتموا ذلك.

كاتب المؤلف الأول، وهو الزيأتى، az Zayyati ، زار المدينة، والتى كان مؤسسها قد مات مؤخراً^(٨).

يقدم لنا مارمول، المؤرخ القشتالي، معلومات مماثلة، ولكنه يقدم أيضاً معلومات مختلفة، سوف تكون مفيدة لنا^(٩).

من الغريب أن البرتغاليين، الأكثر قرباً للزمان والمكان، لأنهم عانوا في داخلهم من ضربات الحامية السبتية المقيمة تقريباً على أبوابها، لم يحدثوا عن أى شىء بالنسبة للتأسيس أو بالنسبة لأساسيات صراعهم ضد هؤلاء المنفيين.

سنبدأ بالزيّاتى، لأننا سنجد فيه أصول وشكل هذا المجتمع الغرناطى المميز فى المنفى.

يقول الزيّاتى الإفريقى، بعدما أوضح لنا كينونة المدمرين الحقيقيين "للمدينة الصغيرة التى أنشأها الإفريقيون القدامى"، هذا التدمير الذى أرخته لنا الأخبار البرتغالية بمنتهى الدقة فى عام ١٤٣٧^(١٠)، إن هذه المدينة بقيت ٨٠ عاماً مهجورة، وفى نهاية هذه الأعوام جدها قائد غرناطى، كان قد قدم متأثر خلال حرب غرناطة. كان البرتغاليون يطلقون عليه المندارى وحصل على إذن لإعادة حكومة المدينة والانتفاع منها. و أعاد بناء الأسوار و أقام قلعة وأحاط هذه وتلك بالخنادق. حارب البرتغاليين باستمرار، مسبباً الكثير من الأضرار البالغة للحاميات العسكرية فى سبتة و القصر الكبير وطنجة. كل هذا بمجموعة من ٣٠٠ فارس، كلهم غرناطيون، والذين كانوا "زهرة غرناطة"^(١١).

هنا توجد، بطريقة مسجلة جيداً، الخصائص الأولية التى ميزت المجتمع الذى سوف يحاول الغرناطيون إعادة بنائه فى الأرض التى استقبلتهم.

يوجد رئيس حربى تجمعت تحت قيادته مجموعة من النبلاء الغرناطيين والذين، كما ابتعد رئيسهم، ابتعدوا هم أنفسهم عن أى حرب أهلية لا يقتنعون بها وأى حرب دينية أخرى يعتبرونها خاسرة.

لدينا كل المعلومات لكى نشكل بعض مظاهر بذرة المجتمع الغرناطى هذه:

(أ) شخصية المندارى،

(ب) رد فعل السكان المحيطين،

(ج) تدفق المهاجرين،

(د) إحياء القرصنة التطوانية.

يمثل المندارى الشخصية الأساسية فى قمة هذا المجتمع، وفقاً للبناء المعمول به فى غرناطة: القائد و الأمير.

إن القائد السابق لقلعة بينيار Pinar ، المنتمى لطبقة الأرستقراطية فى العاصمة، قد حمل معه، عندما رحل إرادياً إلى شمال المغرب، هبة موروثة ومكتسبة وضعته، منذ اللحظة الأولى، على رأس باقى المنفيين. فهو ينتمى إلى حزب بنى سراج، وينتمى لنفس الحزب بالتأكيد، النبلاء الفرسان الذين رافقوه.

اتفق المؤرخون المغاربة على رأى واحد عندما اعتبروا أبا الحسن على المندارى الغرناطى رئيساً للغرناطيين الذين أسسوا تطوان الجديدة، هذا هو المندارى الذى ذكر فى الأخبار البرتغالية والقشتالية^(١٢).

حاولت مؤخراً عمل سيرة ذاتية لهذه الشخصية غير العادية^(١٣).

بدأت النخبة الحربية تعمل فى الجانب الآخر من المضيق على غرار طبقات المجتمع الغرناطى. من الحقيقى أنه هنا، فى تطوان، كان يجب على السيف أن يتقدم على أى عنصر آخر، لأن الجار، القريب نوعاً ما، كان متزعزعاً بسبب حملات الفرسان وغزوات الحاميات العسكرية البرتغالية من سبتة و القصر الصغير وأرسيلة و طنجة. فلو احتلت هذه المواقع الرئيسية، لكان الشمال المغربى كله تحت رحمة الغازى المسيحى.

للأسف لم يكن البرتغاليون بالنسبة للغرناطيين هم الوحيدون فى مواجهتهم، فقد وجب عليهم أن يتعاملوا بأكبر قدر من المثابرة مع المعارضة والعداء الواضح العنيف فى البداية لسكان البلاد الأصليين، الغيورين على أراضيهم ومراعيهم. إلى هذه الدرجة

كان الوضع وفقاً للمؤرخين التطوانيين المحليين، حتى أنه بعدما أنشأ المنفيون المساكن الأولى، كان سكان القبائل يدمرونها^(١٤).

عموماً، أُلْمَ بتقديم ما هو حربي على ما هو مدني في المملكة النصرية^(١٥).

أول شيء يجب أن تفعله عناصر هذه المجموعة من المنفيين هو تحصين أنفسهم وأن يحيطوا أنفسهم بالأسوار والخنادق، التي تعطيهم قدراً من الأمان. من المؤكد أنهم لن يأخذوا عائلاتهم حتى تنتهي هذه العملية بشكل مرضٍ. تقريباً في مدة ثلاثة أو أربعة أعوام. نفس الأعوام التي مرت منذ رحيل المنداري من غرناطة، ووصوله إلى الأراضي الإفريقية، حتى قرر الزواج من إحدى قريبات الملك أبي عبد الله ونقلها إلى مدينة، أعيد بناؤها و محاطة بأسوار يمكن الدفاع عنها جيداً.

هذا الزواج، أو على الأقل مشروعه، يمكن تأريخه في عام ١٤٩٠ ويوضح لنا الوقت الذي زاد فيه الغرناطيون، بعد بناء مساكنهم وأخذ عائلاتهم، من عدد مجموعة المحاربين المهرة الذين كونوا النواة المبدئية^(١٦). هناك حدث يجعلنا نفكر في النتائج التي أدت إليها ذلك، إن السكان الريفيين المجاورين، منذ البداية وحتى وقت طويل، كانوا معارضين تماماً، كما قلنا، لإقامة هؤلاء الغرباء في أراضيهم.

هناك نتيجتان اجتماعيتان لهذا التصرف. في المقام الأول، عزز من التزاوج والذي سوف يمتد عبر الزمن، بكل ما يعنيه هذا.

في المقام الثاني سوف يؤمن قطاع الخدم نفسه بالمهاجرين، موسعين هكذا الطابع الغرناطي للمجتمع الموجود في مرحلة التطور.

يقود هذان المصدران اللذان بُحِثا، إلى جانب الظروف السياسية للبلد، الفارق في الفوضى، إلى الحكم الذاتي، أي الاستقلالي، الذي يساعد على التنمية العادية للمجتمع الغرناطي، والذي ينمو فعلياً بدون عراقيل لكي يستطيع أن يُحاكي النماذج الخاصة بشبة الجزيرة. هذا يشكل مركزاً للجذب، يرحب كل مرة أكثر، بعدد أكبر من اللاجئين.

إن تدفق المهاجرين، الذي كان يتزايد كلما أشرفت حرب غرناطة على نهايتها، جعل من تطوان مدينة غرناطية محضة. حدث ذلك، ولكن مع مرور الأيام ومع استقبال كل أنواع المنفيين، بنفس المشاكل الضخمة للمجتمع الغرناطى فى الأعوام الأخيرة والصراعات الأهلية.

إن الوحدة، تحت تهديد السيف، قد ساندت كل حياة القائد العجوز، المندارى، والتي كانت طويلة، وعند موته قلما استطاع أقاربه المقربين، و من بينهم زوجته نفسها، ست الحرة، الشهيرة، أن تسندهم حكومة هربت من أيديهم وهلكت نهائياً بين الصراعات العائلية المتكررة، فى الأراضى الإفريقية. سنعود لذلك فيما بعد.

المظهر الرابع الذى يجب أن نبحثه، يتعلق بالقاعدة الثانية التى كان ابن خلدون يعتبرها ضرورية للوجود المحض للدولة، وفى هذه الحالة، لمجتمع مستقل، كما كان المجتمع الغرناطى فى المنفى: الأموال والنظام الاقتصادى.

لا يمكن أن يقال شئ آخر عن المجموعة الحربية الصغيرة التى كانت تحيط بالمندارى إلا أنها كانت تعيش فوق البلد. كانت هجمات فرسانهم وحركاتهم الحربية يمكن أن تكون، فى الأعوام الأولى من ظهورها فى وادى نهر مارتين، مخيفة جداً للبرتغاليين و السكان الأصليين ذاتهم. هناك معلومات تلتفت نظرنا فى هذا الاتجاه: الأولى، والتي أشرنا إليها من قبل، هى عدوانية السكان الأصليين عند استقرار الغرناطيين فى أراضهم.

بالإضافة إلى الاستقبال الجيد من قبل السلطات للقوة المركزية ولبعض الطبقات الاجتماعية الكارهة للأجانب علناً، كطبقة "الشُرُفا" surfa التى كانت فى صراع دائم مع البرتغاليين، فإن غالبية السكان، فى هذه المنطقة من الشمال المغربى، الريفيين بشكل واضح والذين يعيشون بشكل بائس فى جماعات قروية، كانوا فقط يرغبون فى العيش فى سلام. وكانوا يشترون هذا السلام من المسيحيين، بثمن غالٍ جداً بالتأكيد، وبسرعة كان يظهر أجانب آخرون كانوا أيضاً يطالبونهم بالجزية. وإذا كانوا يعطون الجزية للبعض كان يعاقبهم الآخرون، وأصبحت الضرائب المزدوجة بالنسبة لهم

لا يمكن احتمالها. لدرجة أنهم توصلوا إلى أن يتفوقوا مع البرتغاليين لكي يطردوا الغرناطيين .

استمر العيش على حساب أهل البلد ومن الحرب خلال فترة طويلة، ولكن عندما زاد السكان، لم يعد هذا كافياً.

كانت البلد تستطيع أن تتحمل، بجهد جهيد، مجموعة متطفلة غير نافعة ولكن لم تكن تتحمل شعباً متطفلاً بأكمله.

و على الجانب الآخر فإن المهاجرين الذين كانوا يلجأون إلى هذه المنطقة المتنازع عليها، والأقل هدوءاً حربياً إلى حدٍ ما عن داخل البلد، كانوا يجلبون معهم تعطشاً إلى الانتقام لا حد له . لقد فقدوا أماكنهم ووصل الأمر إلى أن يترك بعض منهم عائلاتهم في السواحل المواجهة، مع الشوق الناجم عن ذلك لكي يأخذوهم ويحضروهم معهم إلى الأراضى الإفريقية، "دار الإسلام" (١٧) .

بدأ هؤلاء الرجال نشاطاً كان يُمارس دائماً كلما أمكن في مصب نهر مارتين، ولكنه انقرض تقريباً، بسبب العقوبات القوية التي فُرضت في بدايات القرن الخامس عشر، ولم يكن غريباً في تلك البحور. نقصد حرب القرصنة، حرب قرصنة أحيائها ونفذها الغرناطيون، الذين كان لديهم تبريران أساسيان: الرد الحربى والثراء.

نشأ الأول كنتيجة منطقية للهزيمة التي عانى منها المسلمون الإسبان و التي أدت إلى توقف الملاحة العادية بين سواحل المملكة النصرية القديمة، مع التوقف التام للتجارة.

التبرير الثانى للقرصنة الغرناطية هو الإثراء وهو النتيجة المنطقية للنشاط الذى بدأوا فيه، و الذى سوف يشكل المظهر الأكثر ملاحظة فى مجتمع المهاجرين النصرين التطوانيين، بحيث أنه عبر قرون طويلة، ظل اسم تطوان مرتبطاً، فى العقول القشتالية وحتى الأوربية، بمفاهيم صعبة وقاسية، كالقرصنة والسجون المظلمة تحت الأرض وعمليات الافتداء والعبيد والمرتدين، إلخ.

تتحدث المصادر الأكثر قدماً عن ثلاثة آلاف أسير مسيحي، كان يوظفهم المنداري في تحسين الدفاع عن المدينة.

ولكنها أعداد تقريبية، فهناك شك في هذا الرقم، ولم يكن الدور الحقيقي للأسرى هو العمل اليدوى الثقيل الذى كانوا يقومون به، ولكنها الثروة التى كانت تجنيها عملية الافتداء^(١٨).

كانت هذه الثروة وهذه التجارة كبيرة بحيث اتجهت الغالبية العظمى من طبقة النبلاء الغرناطيين، سواء النواة البدائية أو الذين كانوا يصلون إلى هذه الطبقة بالتتابع، إلى التسليح بسفن القرصنة. كانت السفن ترحل مع رؤساء وطاقم ملاحه غرناطى لأن ابن البلد الغمارى لم يكن مطلقاً يهوى الملاحة وبالكاد كان يتجه إلى الصيد عند ضفاف النهر^(١٩).

استطاع المنداري ذاته أن يمتلك سفينة حرب هامة كان يوجهها للقرصنة والهجمات على الشواطئ المسيحية لشبة الجزيرة^(٢٠).

فى أحد المؤلفات يأتى الحديث عن سفينة حربية ملكية وخمس مراكب شراعية، مارة من العرائش والتى كانت، بجانب تطوان، المراسى الوحيدة التى تعتمد عليها المراكب المغربية فى الشمال المغربى، بالإضافة إلى ترغة Targa التى كانت خليجاً مفتوحاً، ليس به مأوى.

اختفت وأهملت القرصنة البرتغالية، التى كانت قوية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر، المتزامن مع احتلال سبتة عام ١٤١٥، وبدأت تُفرض القرصنة الغرناطية فى المضيق والمياه المجاورة، مع هذا التمازج الغريب من الانتقام والرغبة فى الربح، الأمر الذى يحدث عادةً مع المنهزمين.

بدأت تطوان فى الثراء بفضل القرصنة، وسريعاً تشكلت طبقة حاكمة من الملاك، ليس من الملاك الريفيين الثابتين أو المدنيين، ولكن ملاك العبيد.

هذه الطبقة الحاكمة برزت فيها، منطقياً، قبيلة المنداري العائلية وبعض المحاربين الذين رافقوه في المنفى، هناك وثائق مختلفة عن افتداء الأسرى، موجودة حتى الآن ومؤرخة في فترات مختلفة من حياة وحكومة القائد الغرناطي ذاته^(٢١) .

هكذا، إذن، تحولت المدينة إلى سوق كبير للعبيد وبالتالي نالت شهرة سيئة، حتى العصور الحديثة.

وبسبب ثرائها وضيافتها كانت تطوان تحمي عدداً كبيراً من المهاجرين لم يكن من بينهم فقط، كما في الماضي، نبلاء وطبقة حاكمة، فقد تكس فيها صناع وتجار وقضاة وكل سلسلة الطبقة الوسطى المدنية تقريباً من الملكة النصرية، والتي هي الآن في يد المنتصر، في المدينة الجديدة. وقد التزموا بإعادة بناء سورها المحصن وإنشاء أحياء جديدة أكبر سعة في الغرب والجنوب.

لم يتشابه هذا المجتمع في شيء تقريباً مع المجموعة العسكرية الأولى، التي تمركزت حولها تطوان الجديدة. كانت هناك رغبة في التشبه بالمجتمع الذي تعين عليهم أن يهجروه في أرضهم الأندلسية، وأرادوا أن ينتجوا تصميماته التي كانوا يحفظونها حية في أذهانهم، لكن الظروف لم تكن مطابقة، ولا حتى متشابهة. ربما تشابهت الطبقة الحاكمة في تبرير أهدافها التي ظلت كما هي السيطرة والثراء، ولكن في أراضٍ بعيدة لم يكونوا يستطيعون أن ينالوها بنفس الطرق.

كان عليهم أن يحاربوا برا وبحراً للحصول على الغنيمة والتي كان الجزء الجوهري فيها يشكله الأسرى. كان أولئك الأسرى يتركزون في أيادٍ قليلة كانت تشتريهم لإعادة بيعهم أو استخدامهم لمنفعتهم الخاصة.

كانت كل الطبقات الاجتماعية الأخرى تدور حول هذه التجارة، لأن الصانع، على سبيل المثال، لم يكن يتعامل مباشرة مع هذه التجارة، بل كان يعمل لأجل هؤلاء الذين كانوا يشتغلون بها.

نشأ، إذن، مجتمع استرقاقي يصعب فيه جدا تكوين أي رأس مال لا يقوم أساساً على المكاسب التي توفرها القرصنة.

توجد دلائل على أن الأمور وصلت إلى هذا الحد. كانت هناك فترة هدنة بين مملكة البرتغال ومملكة فاس، تكلف التوصل إلى إقامة نظام حكم فى تطوان جهداً عظيماً، كانت الطبقة الحاكمة تريد البقاء على هامش الهدنات المذكورة لكي تستمر فى نشاط القرصنة. لقد أظهر ذلك الحاكم البرتغالى لأرسيلة أمام ملكه، وانتقد تصرف مولاي إبراهيم، الوزير الأول لمملكة فاس، والذي كان يحكم تطوان حينئذ عن طريق أخته، و كان يقوم باللعبة المزدوجة من توقيع بعض الهدنات فى بعض النواحي والاستمرار فى الأنشطة الحربية المربحة للبعض الآخر (٢٢).

يجب الأخذ فى الاعتبار أنه لم يكن ممكناً تكوين إقطاعيات كبيرة، أصل ودعامة طبقة النبلاء الغرناطية، و أن نتصور أن ربح القرصنة هو المصدر الأكثر أهمية لثراء نفس هذه الطبقة المنغرس فى الأراضى المغربية.

بعد ذلك كانت هناك مجموعة كبيرة من الناس، والتي، من ناحية، لم تكن تستطيع ولم ترد التشتت فى الحقول، و من ناحية أخرى، كانت تظل متركزة فى المدينة حيث كان يجب عليها أن تبني كل شئ من جديد، من إعادة تصنيع الأقمشة والأحذية حتى التزود بالغذاء الضرورى للحياة اليومية.

كانت الصعوبات تزداد بنفس معدل وصول اللاجئين الجدد، فى موجات كبيرة أحياناً. لأن تطوان قد تحولت إلى أرض الميعاد التى يشترق إليها كل الغرناطيين وليس فقط النبلاء الميسورين، كما كان الحال فى الأعوام الأولى من هزيمتهم. ولكن الآن، فى بدايات القرن الخامس عشر، كان يشترق إليها كل السكان. حتى الريفيين الأكثر تواضعاً فى البشرات Alpujarra والصياد الذى يحلم بأن يعبر إلى الجانب الآخر، كما كان يعترف كونت تنديلا Tendilla ذاته والذي عرف هؤلاء الريفيين جيداً (٢٣).

نعتقد أنه ربما تبرمت أكثر من مرة بعض عناصر ذلك المجتمع الغرناطى فى المنفى، الذى خلق لى ينمو مع بعض القوالب الثقافية والتي كانت تريد تماماً الخلود مع هذا المنفى، ولكنه تحول بفعل قوالب أخرى مختلفة إلى كتلة مختلطة، مزيج من بحر وبر، من اشتياق وكره، من رغبة فى الحرب وحنين إلى السلام، من ذكريات الماضى والتشوق إلى مستقبل أفضل.

لا، ليست تلك هي غرناطة، ولا رنده Ronda ولا باثا Baza ولا أيضاً مدينة بحرية، مثل ملقة أو ألمرية، بالرغم من أنها على الأقل لم تكن أيضاً بلداً مسيحياً وكان سكانها يتمتعون فيها بحرية العيش.

كان يجب أن ينسوا ما تركوه في بلادهم ويفكروا في الوضع الجديد.

كانت الأصول موجودة في غرناطة، لكن الأفرع الجديدة كانت تنمو في بلد غريبة وكان يجب عليهم مراعاة هذه الأجيال والعمل على بقائها.

كان من الصعب نسيان ما ترك، فقد ذم القاضي المغربي الونشريسى Wansarisi كل المنفيين المسلمين في ذلك العصر في المغرب لشوقهم إلى الوطن المفقود^(٢٤).

في غرناطة تركوا منزلاً أو قصراً، شارعاً وميداناً ومسجداً ونهراً وشوارع عريضة وجبالاً، وتركوا أيضاً عائلةً ونسلاً وعلاقات إنسانية متشابكة في الزمن، في تطوان بذلوا الكثير من المحاولات لإعادة هذا البيت أو ذلك القصر والمسجد وشارعه، أو ذلك الميدان؛ كان هناك النهر والجبال؛ كان هناك سهل أو وادي نهر مارتين الصغير، لكن لم يكن شيئاً مشابهاً. كان كل شيء يخرج صغيراً جداً ومتعجلاً، وأصبحت الطبيعة نفسها تقليداً لسلاسل الجبال المثلجة الهائلة وللأنهار الغزيرة، للغوطة الخصبة ولوديان نهر شنيل Genil والمنصورة Almanzora المروية؛ كيف نعيد قصر الحمراء أو حتى قلعة من القلاع الكثيرة التي أجبرت على الاستسلام، مثل سالوبرينيا Salobre-na أو جبل فارو Gibralfar .

كيف يحرثون بنفس همّة حرث الأراضي الخصيبة جداً التي ولدوا وتربوا فيها، وهذه الأراضي الأخرى في وادي نهر مارتين، المحاطة بالقبائل المعادية المفتقرة لأي نظام رى؟

قدمت لهم القرصنة، التي امتصت طاقات الكثير من الغرناطيين، في الواقع، وسيلة حياة وأيضاً مخرجاً لرغباتهم في الانتقام، لكن، على العكس عطلتهم عن القيام بأنشطة أخرى.

نستطيع أن نؤكد أن الأنشطة الوجدانية كانت مقتصرة على ممارسة الواجبات الدينية. هذا على الأقل لا يمكن أن يكون هكذا حيث كانت هذه الاعتقادات الدينية بالتحديد هي أفضل ما مثل الأشكال السلفية للحياة الثقافية، والتي حاربوا من أجلها والتي فضلوا، بسببها في النهاية، أن يهجروا وطن أجدادهم.

اقتصر باقى المجال الثقافى الواسع على حفظ القليل جدا والذي أمكن نقله من الوطن المفقود. امتص الجهاد فى مرحلتيه، البحرية والبرية، طاقات أصحاب الرأى العظماء.

لم تكن القصور أو المعابد هى التى برزت فى مجال الهندسة، ولكنها كانت الأبراج والأسوار، فهو مجتمع وُلد من الحرب ونما فيها.

هذه السمة وتوظيف أيدى العبيد كانتا واضحتين جدا فى الأبراج التى تزين السور المحيط و التى لا تزال محفوظة من عصر حاكم بينيار السابق. ويمكن رؤيتهما بوضوح أكثر فى قصر الشاون فى المدينة الشقيقة التى تمثل، كذلك إبداع طبقة "الشرفا" Surfa الغرناطية. قصر وأبراج ذات تأثير قشتالى وبرتغالى واضح.

تعتبر المرافق العامة الأولى التى تُعزى إلى المؤسس، سيدى على المندارى- منزله والحمام أو المسجد- من الآثار المتواضعة، التى إذا ما قورنت بأى مدينة أخرى فى شبه الجزيرة وبالعاصمة الغرناطية، فسوف تكون المقارنة مثيرة للسخرية.

يُعلى من شأن هذه الأماكن فقط ذكريات مؤسسها والعمل الضخم الذى قام به حتى لا تفقد تلك الأمة، على الأقل فى حياته، الهوية التى تجعلها متماسكة، وفى نهاية الأمر، تجعلها بطولية.

تمثل ذكرى "أندلس تطوان" فى الأخبار البرتغالية حديثاً بالنسبة لتاريخ كلتا ضفتى مضيق جبل طارق. الأسطورة ليست أكيدة، وكتبت بتكرار، و تقول إن كل المهاجرين كانوا يحفظون مفاتيح بيوتهم فى غرناطة، لحين عودتهم، كى يفتحوا منازلهم من جديد. ولكن روح هذه الأسطورة حقيقية^(٢٥).

والأكيد أنه من الصعب تجنب الحنين الهائل للمنفى والسراب العظيم الذى يتراءى لذلك الشخص الذى رحل من وطنه لسبب أو لآخر.

إذا لم يكن الأمر كذلك فكيف نفسر أن هذه العائلات التطوانية من سلالة مملكة غرناطة لا زالت تتذكر، ليس فقط بفخر ولكن أيضاً بحنين لا يقاوم، أنهم وارثو ذلك الماضى؟

كان المندارى، المعمر إلى حد ما، فى الأيام الأخيرة لشيخوخته الممتدة، وبعد أكثر من نصف قرن من كونه قائداً لهذه الأمة، يتأثر عندما يتحدث يومياً عن الوطن المفقود وتقريباً كان يميل إلى تحقيق أعظم تضحية شريطة أن يعود لى يراه^(٢٦).

وكثيرون كانوا سيقومون بهذه التضحية إذا كانوا يستطيعون. بعد ذلك بقرون كتب أهل هورناتشوس الخائفون فى قصبة الرباط إلى ملك إسبانيا، أنهم مستعدون للخضوع لحكمة التفتيش شريطة أن يعودوا إلى وطنهم^(٢٧). لم ينس الغرناطيون وذريتهم أصولهم أبداً. هذا، إلى جانب ضعف القوة المركزية المغربية، هو الذى حدد خاصية أخرى اجتماعية لهذه الأمة التى لمست فى نفسها، منذ بدايتها، قوى كافية لى تحكم نفسها، بدون تدخلات غريبة عندما كانوا هم الغرباء.

كانوا محاطين، بالإضافة إلى ذلك، بفلاحين بؤساء ومتخلفين، كساكنى الجبال فى جباله Yebala وأنيرا Anyera والهاوس el Haus أو بنو حوسمار Banu Husmar وبنو حسن Banu Hassan، وكانوا غير قادرين، على الجانب الآخر، على مواجهة القوات المسيحية الغازية، وقد أعلنوا أنفسهم أبطال "الجهاد" ضد هؤلاء الغزاة، وليس غريباً أن يخلقوا فيهم عقدة الاستعلاء. وقد ساعدتهم رغبتهم فى عدم فقد هويتهم لى يخافوا عليها خلال أعوام كثيرة.

يمكن القول أن القرن الأول لإقامتهم فى تطوان الجديدة والذى أطلقت عليه قرن المندارى، كان يشكل فترة ذات طابع غرناطى صافى، فيما عدا العلاقات المتفرقة مع طبقة "الشرفا" los surfa فى البلد، والتى كان واحداً منها، ربما، على المندارى ذاته^(٢٨).

حتى فى البلاد التى لم يكن تكوينها غرناطيا تماماً، كما حدث فى مدينة الشاون، فإن تأثيرها فى المدينة، التى تأسست مؤخراً أيضاً فى تلك التواريخ، كان حاسماً بدرجة كافية لى تطبعها بالطابع الخاص الذى ما زالت محتفظة به.

لم ينم المجتمع الغرناطى فى المنفى دون تغييرات ومخاطر. إن جسامه تلك التغييرات لم تجعل تطوره يسير بشكل طبيعى، بالرغم من أن ما هو طبيعى كان يمكن أن يكون ذوبانه السريع والمألوف فى المجتمع المغربى الذى اندمج فيه. كما حدث فى أجزاء أخرى من المغرب.

إن الموقف السياسى والحربى للبلد لم يسمح له بالاندماج السريع، فقد وجدت مجموعات كبيرة من المنفيين فى أرض يجوبها الأعداء الدينيين ولا تقدم لها سلطات الملكية الوطاسية الحاكمة حينئذ فى المغرب الحماية الكافية. يجب أن يضاف إلى كل هذا عامل حاسم، وهو الاستقلال الفعلى لكل الشمال المغربى تقريباً، بقيادة الشريف سيدى على بن راشد، أمير الجبل ومؤسس الشاون. كان الدعم الذى قدمه لكل الهاربين من مملكة غرناطة كبيراً(*) لدرجة أننا نستطيع القول إنه بدون، كان تاريخ المنفى الغرناطى سيتطور بطريقة أخرى مختلفة تماماً. يجب أن نذكر أنه زوج ابنته للمندارى.

فى بدايات القرن، نحو عام ١٥١١، اختفى ابن راشد، بعد ذلك، و بمرور الأعوام حتى منتصف القرن السادس عشر، اختفت الشخصيات الرئيسية فى الشمال المغربى: المندارى وزوجته ست الحرة، وصهره مولاى إبراهيم وحتى السليل الثانى فى حكومة تطوان، القائد أحمد حسن.

مع عدم وجود هؤلاء الحكام الكبار والذى يتزامن، بالإضافة إلى ذلك، مع أوقات توطيد الملكية الجديدة السعدية، فى فاس، عادت المنافسات والحروب القديمة بين السلالات للظهور فى المدينة الغرناطية فى تطوان.

(*) هذا ما فعله أبو الغيث القشاش فى تونس . (المراجع)

عندما نقرأ لمارمول يبدو لنا أننا نعيش مرة أخرى صفحات منسية، من غرناطة ذاتها.

"فى هذا الوقت كان يوجد فى المدينة (تطوان) حزبان، بوعلى ويوحسن. بعد ذلك طرد أفراد بوعلى أعداءهم بالقوة خارج المدينة فى عام ١٥٦٧ الميلادى... وعندما كان الحسن حاكم المدينة غائباً عن تطوان، دخل سيدى حامو، قائد الحزب المعارض، وقتل كل سلالة بوعلى واستولى على المدينة. وقد علم الشريف ملك فاس بذلك، وأرسل بعد ذلك حاكماً يدعى بن حليفة، على رأس ألف فارس، والدوغيلى، الأندلسى، مع ألفين من جنود المشاة الأندلسيين الذين يحملون البنادق، والذين دخلوا سلمياً فى تطوان واعتقلوا سيدى حامو وأرسلوه محبوساً إلى فاس وطردوا من المدينة أفراد عائلة بوحسن واحتلها الشريف... وهكذا انتهت سيادة ونسل المندارى" (٢٩).

هل أيقظت المكاسب المفرطة الأطماع والطموحات؟ على الأقل كان هذا، كما يبدو، هو سبب الهجوم المفاجئ الذى خطف الحكم والثروات من أجل أرملة المندارى وخليفته المباشرة.

إن النبلاء الغرناطيين، ومن بينهم الكثيرون الذين ينتمون إلى عائلة بنى نصر الملكية، استطاعوا أن يهاجروا بجزء زهيد من ممتلكاتهم.

"إن الذين قرروا العبور، كما يقول مؤلف مجهول، بدأوا يبيعون مزارعهم وممتلكاتهم وبيوتهم. كذلك كان يجب عليهم أن يبيعوا بساتينهم وأراضيهم الزراعية ومنازلهم الريفية وحقولهم بسعر أرخص بكثير من سعر الفاكهة... وكانوا يتصرفون بطريقة مشابهة فى الجواهر والأموال" (٣٠).

هكذا كان الجو العام فى الطبقات العليا فى المجتمع الغرناطى، وفقاً لما نقله لنا المؤرخ الإسلامى. من تلك الثروات الكبيرة، لم يحملوا معهم سوى ما هو ضرورى لإعالة الاحتياجات الملحة الفورية. ما هى المصادر الأخرى للثروة التى كان يستطيع أن يستغلها هؤلاء النبلاء الميسورون، المعتادون على العيش من الإيرادات الضخمة والتمتع بكل ما هو متميز مما كان يقدمه لهم الريف والتجارة والصناعة الغرناطية؟

لم يبق أمامهم سوى شن الغارات، إذا كانوا من الفرسان، أو القرصنة إذا لم يكونوا كذلك.

كانوا ينفقون ثروتهم القليلة أو الكثيرة في تسليح السفن من أجل الحرب المقدسة في البحر، و كان لهم حق في جزء من الغنيمة التي تُسلب.

لكن علاوة على الأطماع التي استيقظت، فقد ساهمت القرصنة أيضاً في الشهرة العالمية الأكيدة للسكان التطوانيين الذين بدأوا هكذا في إزابة وجودهم الأندلسي بطريقة ما وبدأوا في الاندماج في الوسط البشري الذي كان يحيط بهم، الأمر الذي لم يكن في الإمكان حدوثه.

ساعدت القرصنة على وجود عامل يُضاف إلى انتشار الأتراك من الجزائر عبر مياه المضيق، بعد بداية العقد الثاني من القرن السادس عشر بقليل^(٣١).

كان للأتراك، سواء في تطوان أو في العرائش، بعض القواعد الإدارية التي استمرت بعض الوقت، و لكن كانت هناك في تطوان قواعد أكثر بكثير من الموجودة في العرائش^(٣٢).

كانت أسواق العبيد في تطوان والجزائر متصلة بعمق، يكمل أحدها الآخر، و كان سوق تطوان بطبيعة الحال هو الذي يقدم للجزائري النصيب الأفضل والأكثر من البضاعة المرغوب فيها^(٣٣).

بالنسبة للعوامل الأخرى فنحن نعتمد على كتابات داوود.

"أخيراً استقر في تطوان عدد كبير من الريفيين وساكني الجبال، إلى جانب إخوانهم الفرناطيين، وسكن معهم أناس من فاس، تصاهرت العائلات واختلطت الاهتمامات، وصل هكذا العصر الذي نُسيت فيه الاختلافات بين العائلات لمعظم الأشخاص. بعد الذين وصلوا إلى تطوان من فاس أو من القبائل الريفية والجبلية المختلفة، أتى عرب و أشخاص آخرون أيضاً من أماكن أخرى متعددة، قلدوا العادات الغرناطية في طريقة معيشتهم و في ملابسهم و في مآكلهم و في طريقة التحدث، تطبع الجميع بالصبغة التطوانية الخاصة، حتى أصبح من المستحيل التفريق بدقة بين من هو

من أصل غرناطى و من هو من أصل فاسى أو ريفى أو جبلى، لكن حكم تطوان وقيادتها الروحية والاجتماعية كانت، غالباً، فى أيدي العائلات الغرناطية" (٣٤).

شئ قليل آخر يجب أن نقوله عن المجتمع الغرناطى فى المنفى.

بقيت الذكرى وعاطفة غرناطة التى تبعد كل مرة أكثر ولكن أيضاً بقى شئ آخر. ربما قليل و ربما كثير وفقاً لكيفية النظر إليه، ولكن هذا القليل أو هذا الكثير ما زال حياً فى المجتمع التطوانى. وهو حى لأنهم عملوا على عدم اختفاء هذه العناصر من المجتمع و من العائلة التى قليلاً ما صُورت و قليلاً ما وردت فى الأخبار والتاريخ. هى الشخصية التى عانت بصورة أكبر من كل التضحيات، ومع ذلك، كانت هى التى يجب الاعتماد عليها ساعة الإقدام على المنفى. نحن نشير، كما هو واضح، إلى المرأة الغرناطية فى المنفى، إلى الرفيقة فى الحروب الكثيرة، إلى الأم و الأخت والزوجة والإبنة.

لكن موضوع المرأة الغرناطية فى المنفى هذا نعتقد أنه يستحق اهتماماً أكبر وسوف نتحدث عنه قريباً.

الهوامش

- (1) IBN KHALDUN: Discourse sur l'Histoire Universelle (al Muqaddima). Tr. Vincent Montell. Beyrouth 1968. T. II, pág.59.
- (2) El siglo XV en primera persona...Tr. E. Levi Provençal y E. García Gómez. Madrid 1980. Nota 2 Cap. VII, Págs. 212-213.
- (3) ARIE, Rachel: L'Espagne Musulmane au temps des nasrides. (1234-1492). París 1973, pág. 185.
- (4) LADERO QUESADA, Miguel Ángel: Granada. Historia de un país islámico. (1232-1571). Madrid 1969, pág.34
- (5) HOENERBACH, Wilhelm: "El historiador Ibn al Jatib: pueblo-gobierno-estado. I. Granada 1980, pág. 54 y s.
- (6) LADERO QUESADA, Miguel Ángel: Granada después de la conquista. Granada 1988, págs. 261 a 271;
- لاديرو يصف الضرائب " بمصلحة ضرائب الأمراء القاسية".
- (7) Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes Nazaritas. Pr. Y Tr. Bustani, Alferdo y Quirós, Carlos: Larache 1940, pág. 7.
- (8) L'AFRICAIN, Jean Leon: Descripción de l'Afrique. Tr. Epaulard. París 1956, pág. 268.
- (9) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del: Descripción general de África. Granada 1573. Libro 4: Fol.131.
- (10) AZURARA, Gomes Eanes de: " Chronica de Conde D. Pedro de Meneses y Chronica D. Duarte". Colleção de Livros Ineditos de l'histoire portuguesa, de José Correa de Serra. Lisboa MDCCXCII.
- (11) L'AFRICAIN: Op.cit., pág.268.
- (12) DAWD, Muhammad: Tarij Titwan. Titwan 1379/1959. Tomo 1.a, pág.90.

- (13) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada 1988.
- (14) DAWD: Op. cit., pág. 97.
- (15) LADERO: Granada H.a de un país Islámico..., pág. 65.
- (16) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Op.cit., págs. 65 A 70.
- (17) DAWD: Op. cit., pág. 97.
- (18) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "Las mazmorras de Tetuán". Estudios de Historia y de Arqueología Medievales. III y IV. Cádiz 1984, Págs.247 a 264.
- (19) BRUNOT,L.: La mer dans les traditions et les industries indigenes de Rabat-Sale. Paris 1921, pág. 241.
- (20) GOES, Damiao de: Chronica d'el Rei D. Manuel, Lisboa 1909. Vol.III, pág.16.
- (21) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari..., págs.94 a 97.
- (22) Sources Inedites de l'Historie du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal. 1.a serie. Vol. III, Pág. 109-11. También GOZALBES BUSTO, Guillermo: "Sit al hurra, gobernadora de Tetuán (siglo XVI)". Actos I Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar. Ceuta 1987, pág. 461 a 479.
- (23) MENESES, Emilio: Correspondencia del Conde de Tendilla. II Madrid MCMLXXIV. Pág.41.
- (24) GASPAR REMIRO, M.: "Granada en poder de los Reyes Católicos. Primeros años de su dominación". Rev. del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino. N.º 4-1911-. Tomo I, Págs. 222-223.
- (25) ينفى مؤرخ تطوان الشهير، محمد داود، متحدثاً عن أسطورة المفاتيح، أن أحداً كان يملكها. أنظر كتابه: Tarij Titwan. Tetuán 1379-1959. Tomo 1.º, pág.88.
- (26) ARANDA, Gabriel: Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692, pág. 507 y 516.
- (27) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La República andaluza de Rabat en el siglo XII". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. Núms. 9-10. Tetuán. Junio-Diciembre 1974.
- (28) GOZALBES BUSTO, G.: Al Mandari, el granadino..., págs. 70 a 72.
- (29) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del Libro Quarto, del Reino de Fez... de la descripción general de África. Granada 1573. Folio 131 y 131 vuelto.

(30) Fragmento de la época... ya citado pág. 50.

(31) RODRIGUEZ, Bernardo: Anais de Arzila... Lisboa 1915. pág. 227.

(32) S.I.H.M. España 1.a-1, págs 1 y 2.

(33) S.I.H.M. España 1.a-1, págs 79-80. Portugal. 1.a-3, págs. 113-126, 499-500 y Portugal 1.a-4, págs. 52, 79, 85, 92, 130.

(34) DAWD: Op. cit., pág. 98.

الفصل الثالث

دراسة موريسكية لأسماء الأشخاص في المغرب (قيد البحث)

من المؤلف، عندما نتحدث أو نكتب شيئاً عن الموريسكيين في المغرب، وبالأخص عن هؤلاء الذين سكنوا تطوان، أن نذكر بعض الأسماء القشتالية من عائلات كانت ولا تزال موجودة في المدينة التي أسسها الغرناطيون.

أنا نفسي، منذ وقت ما، جمعت ١٦٩ اسماً لعائلات أندلسية، عاشت وما زالت تعيش في تطوان، وجمعتُ كذلك المعلومات التي أطلعنا عليها بعض الدارسين المغاربة المعاصرين^(١).

برغم هذه المعلومات كان يوجد حينئذ انطباع بأن هذا الرقم لم يكن كاملاً وإنما كان مجرد رقم بياني لهذا العدد الهائل من العائلات الإسلامية الإسبانية التي استقرت في المغرب بعد عبورها مضيق جبل طارق.

في المقام الأول، حتى دخول القرن العشرين لم تكن هناك نية لجمع أسماء العائلات في مدينة تطوان يمكن أن تكون مرشداً للدراسة التي تهمنا.

مرت، إذن، خمسة قرون منذ أن بدأ الغرناطيون الهجرات الجماعية إلى المغرب.

في هذه الأثناء فقد الكثير من الأسماء الأصلية. وفي البحث الذي قام به المؤرخ التطواني في عام ١٩٢٥، ظهر الكثير من الأسماء مع هذه العبارة: "غير موجود الآن"

هذا بالنسبة للذين تركوا أثراً ما، ولكن الكثيرين سوف يختفون دون أن يتبقى أى أثر لوجود تلك العائلات أو هؤلاء الأفراد.

فى المقام الثانى، كما يمكن ملاحظة ذلك فى استشهادات هؤلاء الباحثين المحليين، أن بعض هذه الأسماء، وليست كلها، عبارة عن أسماء مُقَشَّتَلَة -castellani- zodos . هذا يمثل صعوبة إضافية للباحث الذى لا يجيد لغة سامية، وهى استطاعة التحقق من كون اسم عائلة ما موريسكىاً أو مغربياً. فى هذه الحالة يجب أن نقوم بجهود حقيقية فى المطابقة فى الزمن وفى الظروف، لكى نتأكد من أن اسماً ما حملة فى شبه الجزيرة إسبانيّ مسلم أو موريسكىّ أو أن الاسم ينتمى إلى مغربى أو إلى عائلة أخرى من باقى العالم الإسلامى.

مع ذلك، فإن الاستخدام القليل للقب بين المسلمين المغاربة، سواء فى العصر الوسيط أو الحديث، يسهّل الأمور إلى حدٍ ما. مثال توضيحى لاسم عائلة ليس قشتالياً: لو أن لدينا اسم بوعلى، بن على، وهو اسم جارى الاستخدام جداً فى العالم الإسلامى، وبطبيعة الحال، فى المغرب أيضاً، ويظهر فى وثائق الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر أو الأعوام الأولى من القرن السادس عشر، فى تطوان المؤسسة مؤخراً، فمن الواضح أننا نقصد به شخصاً غرناطياً، رفيق للمندارى، مؤسس المدينة.

هكذا فى افتداء الأسرى، المثبت فى عام ١٥٢٣ فى تطوان، يوجد اسم خوان راميرث من سان لوكار دى باراميدا San Lucar de Barrameda، والذى ظل أسيراً فى تطوان على مدى ٢٣ عاماً، فى قبضة "سيدي حامد بوعلى".

كان لابن على ونسله أكبر الأثر فى التاريخ التطوانى، وليس هناك مجال للشك فى انتمائه إلى الطبقة الارستقراطية الغرناطية المهاجرة مع المندارى، حيث أنه كان موجوداً فى تطوان عام ١٥٠٠ وكان لديه عبيد فى هذا التاريخ.

من المحتمل أن يكون ابن على هذا هو الذى يحدثنا عنه مارمول كاربخال عندما حكى عن الصراعات الموجودة فى المدينة عند موت المندارى.

يقول إنه كان فى الميدان حزبان، حزب بوعلى وحزب بو حسن، طرد أفراد الحزب الأول معارضيه من المدينة عام ١٥٦٧ . بعد ذلك جاء سيدي حامو ودخل المدينة وقتل كل أفراد عائلة حسن الذين استطاع أن يجدهم ... إلخ^(٢) . كان يمكن أن تنتهى حرب

السلالات و الأحزاب بموت عائلات بأكملها، وكان يمكن أن تختفى أسماؤها للأبد. مات أحد أحفاد ابن علي (الذي عرفناه في وثيقة لعام ١٥٢٣) مقتولاً في عام ١٦٣٥، عندما كان حاكماً لتطوان، وذلك على يد الموريسكيين الثائرين. لم يتكرر اسمه مرة أخرى في وثائق تالية، ولا حتى بقيت ذكراه، وقد استمرت مسيرته السياسية أكثر من قرن كما استطعنا أن نثبت ذلك في وثائق تم بحثها. مثلما حدث مع المنداري أو علي، سنجد آخرين من النوع نفسه حيث أننا نعرف أن المجتمع الغرناطي في المنفى قد استمر في المصاهرة خلال وقت طويل وذاب في قومية البلد بطريقة متأخرة وبطيئة^(٣).

إن استخدام اللقب في المغرب ربما انتشر بعد الأحداث التي قام ببطولتها الموريسكيون الإسبان بكثير.

ولذلك يمكن أن نجد الكثير من أسماء عائلات تنسب إلى البلاد، في القرنين السادس عشر والسابع عشر وليست مقشلة، وهي عائلات موريسكية بالرغم من أنه يصعب التمييز بينها وبين أسماء أخرى أقل أو أكثر تشابهاً مع العالم الإسلامي. في المقام الثالث، وبالنسبة لهذه النقطة الأخيرة، فهناك احتمالان. الأول، أن المنفيين احتفظوا بالأسماء التي تلقوها عند تعميدهم. الثاني، أنهم غيروها عند الوصول إلى أراضي الإسلام.

هناك الكثير من الأسماء التي حفظها المهاجرون والتي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، ولكن هناك أيضاً حالات عديدة غيرت فيها العائلات أسماءها بالكامل لكي تبتعد بذلك عن أي ذكرى للحضارة التي ظلمتهم.

لدينا وثيقة دقيقة مؤرخة في عام ١٥٣٧ أكدت لنا هذه النظرية.

نحن بصدد رسالة مؤرخة في ١٦ يناير من عام ١٥٣٧، مرسلة من مدينة أزموور Azemur، الواقعة في الساحل الجنوبي الأطلنطي المغربي، وكانت موقعاً برتغالياً قوياً، وبعث هذه الرسالة إستيبان ريبو دي ألميدا Esteban Ribeiro de Almeida، إلى خوان الثالث ملك البرتغال.

يقول النص الذى يوضح لنا كثيراً القضية التى نتناولها:

سيدى، يوجد فى هذه المدينة بعض الأشخاص الذين تلقوا ماء التعميد والآن يعيشون هنا، متزوجين جهرًا بمسلمات ويعيشون طبقًا للديانة التى كانوا يعتنقونها قبل ذلك، ويتسمون بأسماء مسلمة، وهكذا بعض اليهود، الذين كانوا أيضًا مسيحيين والآن هم متزوجون بيهوديات ويتسمون بأسمائهم اليهودية. لقد سألت القائد، كيف كان يوافق أن يعيش هؤلاء المسلمون هنا بطريقة علنية جدا، حيث أنهم كانوا مسيحيين. قال إنه كتب إلى سموكم يسأله عن كيفية وجود هؤلاء المسلمين وهؤلاء اليهود هنا وأنه أجابه بأن يتركهم موجودين، و ألا يضايقهم.

ننتظر أن ترسل سموكم إلى هنا محاكم التفتيش المقدسة التى يمكن أن تكون ضرورية جدا لأننى علمت أن الناس يعيشون هنا فى حرية، دون الحفاظ على وصايا عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، حيث أنها واجبة، والتحذيرات التى أقولها لهم لا تكفى ولا تؤثر فيهم. لذلك فإن محكمة التفتيش المقدسة سوف تصدر أحكاماً لكى شيء .

بالنسبة لهؤلاء الذين، بعد تناولهم ماء التعميد أصبحوا مسلمين أو يهود، تفضل سموكم بإرسال توضيح بما يجب فعله معهم^(٤) .

لو عدنا لتاريخ عام ١٥٣٧، أى خمسة عشر عام قبل ذلك، كما يؤكد ريبيرودى الميدا، سنتقابل مع جيل قريب كان عليه أن يتقبل التعميد الحتمى أو الهجرة. أى أنه جيل يحمل استياءً لا يزال حياً.

لذلك فإن كل الذين كانوا يعبرون إلى الجانب الآخر لم يكونوا يحتفظون بالأسماء القشتالية. بالأحرى يمكن الشك فى أنه كان يتوفر العكس، لأنه إذا كان هؤلاء، الذين يشار إليهم فى رسالة رئيس كنيسة أزمو، يغيرون أسماءهم، وأيضاً حالاتهم وطريقتهم فى الحياة، لأنهم يعرفون أنهم مراقبون من قبل مجتمع مسيحي فإن الذين أقاموا فى مجموعات اجتماعية إسلامية تماماً سيفعلون ما هو أكثر من ذلك.

يجب أخذ عامل فى الاعتبار و هو عدد المنفيين الغرناطيين قبل عام ١٥٠٢، أى قبل الإجبار على التعميد أو الهجرة.

لم يكن لأحد من أفراد عائلة المندارى أو حسن أو ابن على أو مفضل، والذين ظهروا فى وثائق، منذ عام ١٥٢٣، أسماءً مسيحية أبداً، وملاً هؤلاء المهاجرون قرى ومدن المغرب، بالإضافة إلى تكوين مجموعات مستقلة. هاجروا إلى تلك المدن، الكبرى بالأخص، حيث لم تكن تستخدم أسماء عائلات مغربية، إلا فقط فى العائلات ذات النسب الشهير. لسنا فى حاجة إلى أن نذكر أنه فى القرى لم يكن يوجد شيء من هذا.

نجد أنفسنا، بالتالى، أمام مهمة ليست سهلة، ولذلك يجب أن نستفيد، كالمعتاد، من الوثائق غير المشكوك فيها. هذه الوثائق هى التى سوف نستخدمها اليوم لنزيد عدد أسماء العائلات الموريسكية التى نعرفها حتى الوقت الحاضر.

من الغريب أن نلاحظ - وهو ما حدث معى فى المغرب - أن العائلات تحتفظ بذكرى أسلافها الإسبان و ذكرى الوطن البعيد، المتلاشية الآن إلى حد ما، دون أن تفقد إسماً مسيحياً كما فى توريس Torres أو موراليس Morales أو بايثا Baeza أو غارثيا Garcia والذى لا يرتبط بأى مضمون دينى أو عنصرى، ولا يفصله عن إسلامه العميق أو عن مغربيته الذاتية. كذلك كان هؤلاء، الذين يذكرون أسلافهم الإسبان، فخورين بأصولهم العربية. وأكثر من هذا، فإن مجرد حمل لقب أندلسى، المنتشر جداً، يشكل تبريراً بسيطاً للإحساس بالفوقية على بقية الناس. وبالنسبة للقب "الأندلسى"، يجب أن نوضح ملاحظة مهمة: هذا اللقب كان يجب أن تحمله، وإلى الآن تحمله، عائلات من أصول مختلفة، دون صلة أو أصل مشترك. من المحتمل أن يكون قد حمله الكثير من الموريسكيين الذين-عندما تركوا أسماءهم المقتتلة المفروضة عليهم فى التعميد الإجبارى - فضلوا أن يميزوا أنفسهم ببساطة مستخدمين اسم الوطن المشترك المهجور، وهو الأندلس.

نجد ذلك مكتوباً بطرق متعددة بها فى كثير من الأحيان أسماء أعلام مختلفة.

عرفت شخصياً في تطوان عدة أفراد كانوا يلقبون بلقب "أندلسي"، الذي كان ينطق بنبرة حادة. يمكن أن يحدث المثل، بصورة أقل، مع ألقاب مثل المالكي (*) al Mali- qui من ملقة Málaga ، وكاثيري Caceri من كاثيريس Cáceres وفورناتشو Fornacho من هورناتشوس ولوركي Lorqui من لوركا Lorca وريكيينا Requina من ريكيينا Re- quena وتشيليتشي Chelichi من خيريث Jerez ... إلخ.

تبقى كلمتان عن الموقف السياسي في المغرب عند وصول المنفيين، في الواقع كان الموقف سيئاً جداً في الفترتين اللتين حدثت فيهما الهجرة الجماعية. أولاً، فترة سقوط مملكة غرناطة والتي تتزامن مع الأسيرة الملكية الوطاسية الضعيفة والتي كانت على وشك الاختفاء، وبعد ذلك، الطرد أو سلسلة قرارات الطرد من ١٦٠٩ إلى ١٦١٤، والتي تتزامن مع الصراعات الأهلية التي تسببت في انحطاط الملوك السعديين، في الواقع فإن هؤلاء الإسبان المسلمين الذين دخلوا في المجتمع المغربي - الذي لم يكن مستعداً لاستقبالهم و كانت لديه مشاكل كثيرة - قد شكّلوا أكثر من عنصر خلل في البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للبلد. وبالمصطلحات الطبية، يمكننا القول أنه كانت هناك أعراض رفض لهذا الجسم الغريب، الذي دخل، مع ذلك، بترحيب من السلاطين وجزء من السكان.

عندما استطاعوا التجمع في مجموعات مستقلة، فإن حظهم قد بدا، في البداية، مواتياً، كما حدث في تطوان، في عهد أوائل حكامهم الإسبان المسلمين ومجتمعها الغرناطي^(٥)، وكما حدث في الرباط، بعد ذلك، مع الهورناتشيين والأندلسيين^(٦).

وقد استفاد الموريسكيون من هذه الفوضى، وشكلوا مدناً - دولاً مستقلة وحقيقية، ذات تاريخ خاص. مع ذلك، وكقاعدة عامة، فإن تاريخ باقي المنفيين قد فُقد، عندما امتصهم القاع العنصري للبلد الذي استقبلهم، مع بقاء أسماء بعض العائلات كإشارة على الهوية، بينما اختفى الكثير منها.

(*) هناك فرق بين المالكي (من أتباع مذهب الإمام مالك) والملقى (المنتسب إلى إقليم ملقة الأندلسي) ونظن أن عدم إجادة اللغة العربية يؤدي إلى الخلط بين اللفظين . (المراجع)

ان الحالتين السابق ذكرهما، تطوان والرباط، هما اللتان احتفظتا، حتى يومنا هذا، بأكبر عدد من إشارات الهوية هذه، و التي اكتملت باستخدامات وعادات خاصة وكونت التقاليد القوية، حتى اليوم.

إن اختلاط القوميات المدنية، و هي الظاهرة التي أثرت كذلك على المدن المغربية فى الأعوام الأخيرة، إلى جانب زيادة السكان ومظاهر أخرى من الاتجاهات الخاصة بالهجرة الداخلية من جنوب إلى شمال البلد، يمكن أن تكون أسباباً لفقد الكثير من ذكريات الأسلاف، سواء التطوانيين أو الرباطيين.

وقد قدمنا هذا العمل حتى لا يُنسى كل شيء تماماً، حيث أننا مقتنعون بأنه بتسجيل تاريخ الموريسكيين المنفيين فإننا بذلك نسجل جزءاً من تاريخنا ذاته فى الخارج(*).

فهارس ومصادر:

نربط، من جديد، بين أسماء العائلات المغربية من أصل "أندلسى" أو، من أسلاف إسبانية إسلامية، مع تحديد المصدر أو الوثيقة التي تظهر فيها فى كل حالة.

يجب أن نذكر أنه الآن، لا تُذكر العائلات التطوانية فحسب، ولكن أيضاً العائلات المغربية كلها، بالرغم من أن العائلات الأولى كانت موجودة بأعداد كبيرة، مع الأخذ فى الاعتبار أن الوثيقة المستخدمة كانت تشير إلى تطوان أو توجد فيها. سنتبع ترتيباً أبجدياً إسبانياً معروفاً. نعرف أن الأبجدية العربية لا تتشابه مع الإسبانية، و بالإضافة إلى ذلك فإن اللغة العامية المغربية التي تعبر بها هذه الأسماء فى الزمن وتستمر فى التعبير بها، لا تتشابه كثيراً مع الأبجدية العربية.

(*) لاحظ الهدف من دراسة تاريخ الموريسكيين بالنسبة للباحث الأوربي: إنه فى المقام الأول يكمل دراسة تاريخ إسبانيا. هذا ما نادى به المستعرب الإسباني سيرافين كالديرون فى القرن التاسع عشر. (المراجع)

يكفى أن نذكر أن الـ P هي (پ) بثلاث نقاط بالأسفل، أو الـ GUE هي (ك) بثلاث نقاط بأعلى، وهي حروف غير موجودة في اللغة العربية الفصحى. ولذلك أكرر أننا قد فضلنا أن نتبع ترتيباً أبجدياً إسبانياً، مع مطابقتها مع النطق المتشابه إلى حدٍ ما مع الأسماء المغربية.

إن المصادر التي خدمتنا هي التالية، وفقاً لترتيب زمني بسيط. الأول هو إيرهوني.

أحمد الرهوني Ahmed Al R'honi، كما كُتب في الترجمة الإسبانية لمؤلفه، الذي كتب في تطوان، وترجمه محمد بن عزوز، في ١٩٥٣. الأسماء المأخوذة من هذا المصدر تحمل حرف (E) ^(٧).

الثاني هو محمد داوود، والذي يجمع كتابه "تاريخ تطوان"، في نفس الوقت، أسماء عائلات تطوانية عديدة من أصل إسباني ^(٨). نعرف عن طريق مصادر موثوق بها، أن السيد داوود عند موته كان يكتب عن هذا الموضوع. أسماء العائلات التي ذكرها تحمل حرف (D).

مصدر آخر يأتي من السيد جبور عدي Yebbur Oddi، والذي ذكر في إحدى محاضراته أسماءً ستحمل حرف (Y) ^(٩). نشر السيد عزوز حكيم مؤخراً قائمة طويلة من الألقاب التطوانية ذات أصل إسباني، في مجهود يستحق الشكر لإنقاذ تأثير الهوية الإسبانية في الأراضي المغربية من النسيان ^(١٠).

تعتبر هذه القائمة، والتي ستحمل أسماؤها حرف (A)، وثيقة مهمة لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة الموضوع.

القليل من الأسماء يأتي من الدراسة التي قمنا بها عن جمهورية الرباط الأندلسية في القرن السابع عشر، والتي ستحمل حرف (G).

وبالرغم من قلة الأسماء، فهناك أسماء أخرى أخذت من وثائق افتداء الأسرى المحررة عام ١٥٤٨، والتي نُشرت عام ١٩٥٨ في إحدى المجلات ^(١١).

هناك وثيقة افتداء أخرى للأسرى من عام ١٥٢٣، والتي نستخلص منها أسماء موريسكيين ذُكرت فيها، و نحدد العام فقط^(١٢) .

لقد استخدمت المقال الذى ذكر هذا الافتداء الأخير فى كتابى عن المندارى الذى ظهر كقائد للمدينة التى أعاد بناءها.

بالنسبة للوثائق غير المنشورة والتى يركز عليها إسهامنا الأساسى، فهى تتكون من المخطوطات الموجودة فى المكتبة الوطنية، وتتعلق بوثائق على جانب كبير من الأهمية خاصة بافتدائات الأسرى فى أعوام مختلفة من القرنين السادس عشر والسابع عشر. يُذكر فيها بكثرة أسياد العبيد المحررين، والذين دُفعت إليهم الفدية. كانت الغالبية العظمى عبارة عن افتدائات دُفعت فى تطوان، بالرغم من أن هذا التفصيل ليس ذا أهمية، لأن المدينة كانت السوق الأساسى التى يتوقف فيها أسياد باقى المدن والأماكن من المغرب، لبيع العبيد. بهذه الطريقة، على سبيل المثال، نفهم أنه فى وقت معين كانت توجد مستعمرة موريسكية مهمة فى القصر الكبير أو أن ملك بيليث دى لا غوميرا Vélez de la Gomera كان يرسل أيضاً "بضاعته" إلى السوق التطوانى لجمع المكاسب المربحة التى كانت توفرها الصدقات والهبات، التى كان يحملها رجال الدين المفتدون، وأشياء أخرى أكثر من ذلك.

ولكن هذه التفاصيل وتفاصيل أكثر بكثير ستكون موضوعاً لدراسات تالية تخرج الآن عن موضوع دراسة أسماء العائلات التى نقدمها.

ستتبع الأسماء المأخوذة من هذه المخطوطات بالعام الذى حدث فيه الافتداء، بجانب رقم المخطوط. هكذا فإن رمز R.1579/Mss. 6569 يعنى أن اللقب يظهر فى افتداء عام ١٥٧٩، والموجود فى المخطوط رقم ٦٥٦٩ فى المكتبة الوطنية. سنكتب فى الاستشهاد الأول فقط العام ورقم المخطوط، ونحذف هذه المعلومة الأخيرة من باقى الاستشهادات التى حدثت فى نفس العام للاختصار بقدر المستطاع.

توجد مجموعة أخرى من المخطوطات عن افتداء الأسرى فى القرن السابع عشر، فى الأرشيف التاريخى القومى (A.H.S.). من الغريب أن الغالبية العظمى من

الافتداءات التي تراها في المكتبة الوطنية تنتمي إلى الافتداءات المثبتة من قبل جمعية السيدة العذراء. في هذه الجمعية الملكية الحربية يتوافر التوثيق الموجود في المكتبة الوطنية، كما هو مذكور في الكتب المهداة إليها. وعلى النقيض، ففي الأرشيف التاريخي القومي تشير مخطوطات الافتداءات إلى مخطوطات جمعية الثالث المقدس.

كان أنصار الجمعيتين يتنافسون، ليس فقط في الأسبقية، ولكن أيضاً في التفرد بعملهم الإنقاذي، وكان يجب عليهم التوصل إلى توقيع اتفاقيات في هذا الصدد. في الواقع، كانت تتزامن هذه الاتفاقيات مرات عديدة في نفس العام وفي تطوان نفسها، بالرغم من أنه للأسف كان هناك أسرى للجميع.

نعرف المخطوط رقم ٣٨١٩ من المكتبة الوطنية، المتعلق بافتداء ذي أهمية تم عام ١٦٣٣، وآخر من الأرشيف التاريخي القومي من نفس العام، من الكتاب رقم B/١٢٩ من قسم المخطوطات.

لكن ليس هدفنا، الآن، الوصف والتفريق بين الوثائق الموجودة في أحد أكبر مراكز البحث الإسبانية أو في مركز آخر.

كما عرفنا مخطوطات المكتبة القومية، يجب أن نوضح كيف نتعرف على تلك المخطوطات الصادرة من الأرشيف التاريخي.

الأسماء المأخوذة من هذه المؤسسة الأخيرة ستحمل أيضاً العام، ويتبعه رقم كتاب قسم المخطوطات الموجود بها. على سبيل المثال B 144 / R.1677 يعني أن هذا المخطوط يتبع افتداء حدث في عام ١٦٧٧، الموجود في الأرشيف التاريخي القومي، قسم المخطوطات، كتاب رقم ١٤٤ B. لن نكرر، لذلك، الاختصارات A.H.N ولا أيضاً الكلمات "مخطوط" و لا "كتاب"، معتقدين أنه يكفي وضع رقم الكتاب بعد السنة متبوعاً بحرف B لكي نميزهم عن مخطوطات المكتبة الوطنية (B.N).

لا نستطيع هنا، في الأرشيف التاريخي القومي، أن نختصر كثيراً، كما فعلنا في المكتبة القومية، بأن نذكر فقط عام الافتداء، إلا في الأسم الأول، لأننا بذلك سنخلط بين المصادر، ويبدو لي مهماً جداً ترك المصدر واضحاً.

إجمالاً، فقد جمعنا أسماءً ظهرت في ٢٩ وثيقة، يوجد منهم أربعة فقط تنتمي إلى القرن السادس عشر، اثنتان تم نشرهما و اثنتان جديدتان . أما الخمس وعشرون الباقون فهي مخطوطات: عشرة مخطوطات منها من المكتبة الوطنية وخمسة عشر من الأرشيف التاريخي القومي^(١٣) .

إن مجموع التسع وعشرين افتداء تتضمن الفترة من عام ١٥٢٣ إلى ١٦٧٧، أي أكثر من قرن ونصف بقليل.

إذا أحصينا فقط مخطوطات القرن السابع عشر، سيكون لدينا معدل افتداء واحد لكل أربعة أعوام. هذا المعدل يكون أقل، إذا أخذنا في الاعتبار أنه، بداية من فترة حكم مولاي اسماعيل، أو تقريباً منذ عام ١٦٧٧، وهو عام آخر افتداء اطلعنا عليه، كانت رحلات رجال الدين لافتداء الأسرى صعبة ونادرة، بالإضافة إلى أنها لم تكن تنفذ في تطوان ولا في سلا، لكن كان السلطان هو المالك الوحيد للعبيد والوحيد الذي يتدخل في مبادلتهم أو تحريرهم. لذلك اختفت أسماء مورييسكي تطوان أو سلا من وثائق افتداء هذه المرحلة من نهاية القرن السابع عشر. هكذا، إذن، من دراسة الخمس وعشرين وثيقة تتعلق بالثمانين عاماً الأولى من ذلك القرن، نجد أن الافتداءات كان لها معدل أكثر بقليل من ثلاث أعوام من الفترة التي توجد بين افتداء وآخر. إن تقارب دراساتنا، سواء في دراسة أسماء الأشخاص هذه أو دراسات أخرى، لهو ملحوظ وحقيقي.

إن أسماء سادة العبيد تعطينا، في نهاية الأمر، مقياساً لوضع اجتماعي وسياسي محدد، و سيوثر لأسباب أو أخرى في مستقبلهم وأيضاً في وجودهم الفردي والعائلي.

كان لدى بعض "السادة" عبيد أكثر من الآخرين و كانت بعض الأسماء تتكرر في أعوام متتالية. كان يمكن أن توجد، بالتالي، برجوازية لديها نقود حاضرة ودورية للتجارة، و آخرون لديهم نقود أقل، وأخيراً، كانت هناك مجموعة ذات عدد أكبر ليس لديها المال وفي هذه المجموعة، عبر الزمن، فُقدت الكثير من الأسماء التي كانت معروفة.

بالنسبة لهذه المجموعة الأخيرة، فقد أضفنا كلمة "موجودة" بجانب تلك الأسماء المعروفة التي، وفقاً لما يقرره السيد عزوز، ما زالت تعيش في تطوان، والذين تعايشوا مع الكثير منهم خلال إقامتي الطويلة في هذه المدينة.

النسبة التقريبية للأسماء التي ما زالت موجودة هي نسبة ١٥٪ والتي يمكن أن تطبق على المدن المغربية الأساسية، والتي كانت مكاناً لتمرکز الموريسكيين، مثل فاس والرباط وتطوان نفسها أو الشاون.

نعرف القليل جداً عن هؤلاء الموريسكيين الذين انتشروا في الأرياف وفي المدن، بالرغم من قلة نسبة الذين أقاموا في المدن^(١٤).

من حين إلى آخر، يتحدث مؤرخ ما مثل مارمول، عن المجموعات الموريسكية التي أقامت كريفيين، يقول مارمول في وصفه لمدينة مراكش، في جنوب البلد، إن المسلمين الأندلسيين، الذين مروا من أورخيبيبا Orgiva وتابرينا Tabernas وأماكن أخرى من مملكة غرناطة، قد أنعم عليهم الشريف بقطع من الأراضي^(١٥).

يوجد شبه تأكد من أن كل الأسماء المأخوذة من الافتداءات هي أسماء موريسكية، لأن المفتدين أنفسهم وكاتب الافتداء، عندما يصادفون أحد سادة العبيد دون ألقاب، كانوا يعبرون عنه بالإشارة إلى أصله أو وظيفته. نرى، على سبيل المثال، أسيراً لأحد الحلاقين، أو لأحد شيوخ ترغة، وبوضوح أيضاً عندما يكون أجنبياً: "تحت قبضة كارا مامي Cara Mami وهو تركي الأصل".

يضيف بعض الكتاب صفة "أندلسي" أو "موريسكي" إلى اسم البائع. كانت صفة "موريسكي" موجودة بالأخص عندما امتلأت تطوان بالمطرودين منذ عام ١٦٠٩ فصاعداً.

ليس هناك مجال للشك، إذن، في أنهم موريسكيون إسبان : شانييث الأندلسي Xaniz من عام ١٦١٥ و بنداس، مسلم أندلسي Bendac من ١٦٢١ أو فرج، مسلم أندلسي Farache من عام ١٦٣٣ أو حاج موريسكي Hache من ١٦٤٦ .

وقعت كل الافتداءات التي تمت دراستها، فيما عدا اثنتين منها، فى تطوان، وكانت كل الأسماء الموريسكية التي تُذكر من نفس المدينة، وعندما يأتون من أماكن أخرى فإن موثق الافتداء كان يوضح ذلك.

اعتاد الموثقون أيضاً أن يضيفوا عبارة "من مواطنى تطوان" إلى اسم مالك العبد، إذا لم يكن من مكان آخر، وبذلك نستطيع أن نتأكد من أن غالبية الأسماء المسجلة تأتي من مدينة تطوان .

وحتى فى القرن السابع عشر، نشك أن الاسم الوحيد الذى ليس موريسكياً والذى ظهر فى افتداءات تطوان ، هو اسم قائد المدينة أو، فيما بعد، الحاكم الذى يعينه السلطان.

نذكر أنه حتى القوات التى أرسلها الملك الحاكم لكبح الصراعات الأهلية التطوانية كانت مكونة من أندلسيين وهم الذين أرسلوها.

هناك بعض الأسماء التى سببت لنا بعض الشك، لأن محررى المخطوطات لم يكونوا على دراية باللغة العربية، أو على الأقل بدرجة كافية لكى ينقلوا الأصوات التى كانوا يسمعونها بطريقة صحيحة. فى هذه الحالات لم يكونوا دائماً شديدي الدقة وبالمثل عندما كانوا ينقلون الأصوات التى كانوا يسمعونها إلى اللغة الإسبانية و كان البعض منهم، حتى فى نفس الخطوط، يكرر الإسم بطريقة مختلفة، بإضافة أو حذف حروف.

لقد حاولنا التعرف على هذه الأخطاء، وفى بعض الأحيان لم نضع أسماء يبدو لنا أنها متشابهة مع أسماء أخرى مكتوبة بالفعل.

فى أحيان أخرى، وفى حالة وجود نسبة من الشك، فضلنا أن نكتب نفس الشخص أو العائلة مرة ثانية. نسبة الخطأ هنا تبدو لنا قليلة.

من الممكن جداً أن يكتب بعض الموريسكيين اسمه، و كان ذلك يسهل مهمة الكاتب العام الذى كان يوثق الافتداء. وصل الأمر حتى الحالة الغريبة التى حدثت فى افتداء عام ١٥٧٩، وهى أن مالك الأسير، و هو شخص يدعى أبينا Abena ، قد كتب رسالة

دفع للافتداء باللغة "الموريسكية والقشتالية"، مؤرخة فى يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٥٧٩ فى تطوان^(١٦).

ليس من المؤكد جدا ماذا يعنى القول باللغة الموريسكية، لأنه يمكن أن يعنى أن الرسالة كتبت بالعربية، أو بالإسبانية المختلطة بتعابير عربية، لكنى أسجل الفقرة لغرابتها.

لا نحاول أن تكون القائمة التى نقدمها نهائية، بل على العكس، نعتقد أنه يمكن أن تخرج أسماء أخرى، كلما عرفت وثائق جديدة بها أسماء موريسكية.

يمكن أن نعتبر هذا العمل، ببساطة، عبارة عن معلومات من أجل دراسة أسماء الأشخاص الموريسكيين فى المغرب وكقاعدة لمعرفة اجتماعية أفضل لهذه الأقلية المهمشة.

أسماء مغربية من أصل إسباني(*)

Aacher عاشر	(D)
Aater عاطر	(E) (D) Aliatar segun (A) Existe
Aatitar عاطيتار	(E) (D)
Abarri أباري	يقول داوود إن هذه العائلة من نسل بنى أمية (D)
Abbez عباس	(G)
Abdela عبدالله	R. 16114/124 B y R. 1645/Mss. 4365.
Abdum عبدوم	(G)
Abena أبينا	R. 1579/Mss. 6569
Abllacs أبو العزيز (عبد العزيز)	R. 1579
Abrayin ابراهيم	R. 1579
Abril أبريل، شهر/إسم عائلة	(E) (D) (A)
Abrofen أبروفين	R. 1.523
Acrich أقريش	(A) Interpreta Acriz. Existe
Acsis أقسيس	R. 1640/Mss. 6160
Achaach عشاش	(A) Existe
Ache عاشى	R. 1645/Mss. 6160 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B
Acheli اشيلي	R. 1646/134B
Afi عافى	R.1645
Agtas أغطس	(A)

(*) لكتابة الأسماء باللغة العربية رجعنا إلى دراسة محمد بن عزوز حكيم المنشورة فى مجلة "أوراق" رقم ٩، ١٩٨٨، مدريد، ص ١٠١ - ١٢٣. (المراجع)

أغيلار، اسم عائلة Aguilar	R. 1625/Mss. 3634 y R. 1625/127 B y R. 1621/121B
أغزول Agzul	(E) (D) y (A) que interpreta Gazule. Existe
أحداوى Ahadaui	(D)
أحمر Ahmar	(E) Ben al Ahmar en (A) que Int. Alhamar
أينام Ainam	R. 1621/126B
آخر Ajer	R. 1633/Mss. 3.819
ألافا (ألفة) Alafa	R. 1609/Mss. 4.390 اسم لفتاة
الاسقر (الأشقر) Alascar	R. 1614/124B
الاثار Alazar	R. 1583/Mss. 3588
البان Alban	R. 1633
البودي Albudi	R. 1635/Mss. 3628
القاقان Alcacan	R. 1633/129 B
القاقارى Alcacari	R. 1633/Mss 3819
الكافى Alcafi	R. 1579
الكافى Alcafi	R. 1633/129B
القاموسى (الجاموسى) Alcamusi	R. 1640
الكانت Alcant	(A)
الكانتارا (القنطرة) Alcantara	(A)
الكارفيل Alcarfil	(A)
الكاثر (القصر) Alcazar	R. 1625
الكاثرين (تصغير قصر) AlcazarIn	R. 1639/131B
الفانخير (*) Alfangero	R. 1637/130B y R. 1645/Mss. 4365 y R. 1646/134B
الفاراخى (الفرج) Alfarage	R. 1649/131B
الفونسيرو (من ألفونسو) Alfonsero	R. 1645
الغواثيل (الوزير) Alguacil	R. 1632/128B y R. 1640

(*) اسم مهنة، ربما اشتق من alfanje وهو نوع من الخنجر، وعليه يكون Alfangero هو صانع السكاكين أو الخناجر . (المراجع)

الحاج Alhaje	R. 1548
الهامار (ابن الأحمر) Alhamar	R. 1625
الحيفا (الحجة) Alhija	R. 1548
على كامبي Alcampi	R. 1579
عليثيتي Alicete	R. 1674/143B
الماكرون (المقرون) Almacrun	(A)
المادن Almaden	R. 1654/137B
المائسي Almaise	R. 1632/123B
المالكي (الملقي) Almalqui	(A) int. malagueno
المانسا (المنزه) Almansa	(A)
المنصور Almanzor	R. 1579 .
الماوشي Almauxi	R. 1579
الميدا Almelda	R. 1640/Mss. 6160
الميشي (الماشى) Almexi	R. 1579
الميرانتي Almirante	R. 1636/129B y R. 1645 y R. 1646/134B y R.1.648/Mss. 3631
الموغاراثين Almogarracen	R. 1579
المورايطو (المرايط) Almorabito	(A)
الموروش Almoroch	(A)
المورون Almoron	(A)
ألبارو (*) Alvaro	(D)
أليس Alvis	(D)
أمايور. Amador (**)	R. 1579
أمارو Amaro	R. 1579
أماترات Amatrat	(D)

(*) اسم عائلة إسباني . (المراجع)

(**) اسم شخص إسباني . (المراجع)

Amer عامر	(G)
Amete أميتى	R. 1640
Amgani أمغانى	(A) Existe
Amigasi أميغاسى	R. 1579
Amor عمور	R. 1656/136B
Amuda أمودا	R. 1674/143B
Amudi أمودى (عمودى)	R. 1583
Andaluce ××× أندلثى	R. 1633
Andalusi أندلسى (من الأندلس	R. 1633 - Con al en (A) existe
بشكل عام)	
Andaluz (*) أندلوث (الأندلسى ، الأندلوسى)	R. 1579 y R. 1639/131B
Anl أنى	R. 1583
Ansar أنصار	R. 1648
Anuar أنور	(E) (D) (A)
Araez الريح (الرئيس)	R. 1.583
Aragon أراغون (اسم إقليم إسباني)	(Y) R. 1632/128B y R. 1635/Mss 3628 y R. 1637/130B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B y R. 1674/143B Existe
Aragones أراغونيس (من أراغون)	R. 1625
Araxal أراشال	R. 1656/136B
Arbi أربى	(D)
Argaz أرغات	(A) In. Orgaz. Existe
Armaz, al الأرمث	(A) Existe
Artillero (*) أرتييرو	R. 1625

(*) أندلثى أى من أندلوثيا وهى منطقة فى الجنوب الإشباني تشمل عدة محافظات منها غرناطة وإشبيلية وقرطبة . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "مدفعى" . (المراجع)

Aruxeia أروشييا	R. 148 Es nombre femenino
Ascar أسكار (عسكر)	(G)
Asor أسور	R. 1637/130B
Ast أسط	(D)
Atal أطلال	R. 1656/136B
Atla عطية	(G)
Atif عاطف	R. 1633/129B
Atiman عاطيمان	R. 1523
Audala عبدالله	R. 1607 y R. 1625 y R. 1637/130B y R. 1674/143B
Audalazis عبد العزيز	R. 1625 y R. 1656/136B
Audar أودار	R. 1579
Avlla أبيلا (مدينة إسبانية)	R. 1625
Ayana أيانا (أجانا)	(A) In. Ayala. Existe
Ayat أيات	(D)
Azam أاثام (أعظم)	(A) Int. Aceme. Existe
Azanat أاثانات	R. 1646/134B
Baall باعلى	R. 1523
Baessa o Balza بايثا	(E) (A) Baeza en (Y) R. 1639 / 131B. Existe
Baile بايلي (كلمة إسبانية بمعنى رقص)	R. 1674/143B
Ballen بايلين	(D)
Baina o al Balna باينا (البايته ، بيته)	(A) Int. Baena
Bainia, al الباينيا	(A) Int. Bonilla
Bairan بايران	(G)
Baiu بايو	(A) Int. Bello
Baiz بايث (بايص)	(A) Int. Baez.
Balafiqui بالافيقى	(G)
Balancu بالانكو	(A) Int. planco

Balanes بالانيس	(A) int. blanes
Balazca بالاثكا	(A)
Balensianu باليشيانو (شخص من فالنسيا)	(E) (A)
Balenyina بالينيينا	(A) Int. Balalcena
Balenzuela بالينثويلا	R. 1635 Banuzuila en (A)
Balius باليوس	(A)
Banbus بانبوس	R. 1635/Mss. 3628 y R. 1639/131B
Baquerin باكرين	R. 1656/136B
Baraca بركة	(E) Hay un Barac en R. 1633
(*) Barbero باربيرو	R. 1645
Barbu باربو	(A)
(**) Barchina بارشينا (بارشينة)	(A) Int. Barrachina
Bargach بارغاش o ****Bargas	(A) (G)
باراغاس	
Barhun برهون	(A) Int. Barahona. Existe
Barirech باريريش	(A) Int. Barreiors
Barlu بارلو	(A) int. Barrero
Barls باريس	R. 1674/143B
Barka بركة (أى قارب)	(A)
Barquita باركيता	(A)
O Ben Raquita بن بركيता (تصغير)	
كلمة قارب أو مركب	
Barrada برادة	(A)
Barsina بارسينا	(A) Int. Barcena

(*) اسم مهنة (حلاق) ، (المراجع)
(**) اسم عائلة إسبانية ، (المراجع)

Bartal, al البارتال	(A) int. Partal
Baryi (بارجي) باريي	(A) int. Borgi
Batauri, al الباتوري	(A)
Baxel باشيل	R. 1625
Bayda بايدا	R. 1579
Bayu باجو	(A) int. Bayo
Bazis بائيس	R. 1674/143B
Bebur بيور	(g)
Becerra (*), البشري	
Bechari بيشاري	(D) existe
Belaxcu بيلاشكو	(E) (A) Aque int. Blasco
Belium بيليوم	(A) int. Bellon
Bena بينا	R. 1648/Mss. 3631
Benacas بيناكاس	R. 1614/124B
Benacor (بن عاشور) بيناكور	R. 1633
Benagatas بيناغاتاس	R. 1633
Benaguas بيناغواس	R. 1640
Benala بينايا	R. 1648/Mss. 3631
Benalse بينالسي	R. 1654/137B
Benamar (ابن عمار) بينامار	R. 1674/143B
Benani بيناني	R. 1583
Benasacor بيناساكور	R. 1625/127B y R. 1639/131B y R. 1646/134B
Benasar (بن ناصر؟) بيناسار	R. 1615
Benascar (ابن عسكر) بناسكار	R. 1615/Mss. 3860
Benasu بيناسو	R. 1612/Mss 3862
Benatas بيناتاس	R. 1674/143B

(* اسم عائلة إسبانية . (المراجع)

Benaudalla بن عوض الله	R. 1523
Benavides ابن بيدس	(D) (A) R. 1669/142B y R. 1677/144B
Benazalo بيناثالو	R. 1656/136B
Bencald بنقيد (بن قائد)	(G)
Bencalde بنقايدى	R. 1583
Bencala بنقالا	R. 1579 y R. 1583
Bencalema بنقاليم (بن سليمة)	R. 1625
Bencarte بنكارتى	(G)
Bencaslr بن قصير	R. 1656/136B y R. 1677/144B
Bencasuba بن قسوبا	(A)
Bendaal بندال	R. 1632/128B
Bendac بندااق	R. 1621/126B
Bendacar بندااقر	R. 1632/128B
Bendahac بن ضحاك	R. 1633 y R. 1635 y R. 1639/131B y R. 1645
Bendall بندالى	R. 1625
Bendanabu بنداناو	(A) Int. Maldonado "مالدونادو"
Bendejaque بنديخاكي	R. 1637/130B y R. 1674/143B
Bendibla بنديبيا	(A) Int. Valdivia "بالديبيا"
Benduza بيندوئا	(A) Int. Mendoza "ميندوئا"
Benflue بنفلوى	(A)
Benhamat بنحامات (بن أحمد)	(G)
Benhania بنحانيا (بن هانية)	R. 1548
Beniala بنيال	R. 1579
Beninu بينينو	(A)
Bennamar بن عمار	(G)

Benquiqui بن كيكي	(A)
Benraquita بن راقيتا	(A) existe
O Berkita بر كيتا	(A) int. Barroso
Benrusu بنروسو	R. 1645 y R. 1648 y R. 1646/134B y R. 1669/142B y
Bensacor بنساكور (بن شكور)	R. 1677/144B.
Bentagui بنتاغي	R. 1621/126B
Bentalha بن طلحة	(A) Existe
Bentamai بن تامايو	(A) Int. Tamayo
Benyaco بن ياکو	R. 1656/136B
Benyamua بنياموا (بنی أموا)	(A) Int. BenJumea
Benzaid بنثيد (بن زايد)	(E) El mismo Bencalde.
Berambus بيرامبوس	R. 1677/144B
Berberi, al البريري	(A) Int. Berbera
Berblل بيربل	(A) Int. Berbel
Berbilla بيربيليا	(A)
Berenylna "بيرينخينا" (*)	(A) Int. Berengena
Berlanu بيريانو	(A) Int. Beriano
Beriberi, al البيرييري	(A)
Berka بيركة	(A)
Bermejo بيرميجو (**)	R. 1609 y R. 1621/126 B y R. 1645
Bermlyu بيرميو (***)	(E) (Y) con al en (A) El mismo anterior?
Bernal بيرنال	(A)

(*) كلمة إسبانية بمعنى باذنجان ، (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى أحمر ، (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى أحمر ، (المراجع)

Bernat برنيط	(A)
Berni, al البيرنى	(A)
Bernit بيرنيت	(A) Int. Bernet
Batauri, al الباتورى	(E) (A) Existe
Bexarri, al البيشرى	(E) (A) int. Becerra. Existe
Bexer بيشير	(G) y R. 1633
Bilin بيلين	(A)
Billnu بيلينو	(E)
Bira بيرا	(A) int. Vera
Birra بيررا	(D)
Blscalno بسكاينو(من إقليم	(G)
بيثكايا الإيبانى)	
Bluxln بيوشين	R. 1677/144B
(*) Blanco (بالانكو)	(A) (G) R. 1625 y R. 132/128B y R. 1635
Blanquo بلانكو	(G)
Blasco (اسم شخص إيبانى)	(D) (Y) (A)
Boalsa بو عائشة	R. 1523
Boall بو على	R. 1523 y R. 1583 y R. 1632/128B y R. 1633 y R. 1633/129 B y R. 1635
Bolcacln بولكاثين (بلقاسم)	R. 1625/Mss. 3634
Bolfete بولفيتى	R. 1523
Bordan (اسم عائلة إيبانية)	R. 1609 y R. 1615/Mss. 3870
Botaete بوتاييتى	R. 1614/124 B y R. 1615
Botalbo بوتاييو	R. 1607/Mss. 2791 y R. 1583 y R. 1612/Mss. 382 y R. 1614/124 B y R. 1615
Botayo بوتايو	R. 1579 y R. 1583

(*) كلمة إيبانية بمعنى أبيض . (المراجع)

Bote البوطى ، بوطى	(D) Al Buti en (A) Existe
Boyaer بويابر	R. 1614/124B
Brabu برابو	(A)
Brada برادا	(A) int. Brada. Existe
Breda بريدا	(D)
Brianu بريانو	(A) int. Beriano
Briso بريسو	(D) Existe
Bru برو	(A) int. Berro. Existe
Bruk, al البروك	(A)
Bucis بوئيس	R. 1674/143B
Buchito بوشيتو	R. 1632/128B
Buchta بوشتا	(A) Buceta. Existe
Buda بودا	R. 1633
Budaran بوداران	1. 674/143B
(*) Bueno بوينو	(D) A
Buller بويلر	(D) Existe
Bujarez بوخاريت	(A) Existe
Bullein بويلين	R. 1612/Mss. 3862
Burbaxe بورباشى	R. 1625
Burdan بوردان	R. 1612 y R. 1614
Buredan بوريدان	(D)
Buriat بوريات	R. 1677/144B
Buryl, al البورى	(A) int. Borge
Caaseres كاسيراس (اسم مدينة إسبانية)	(A) int. Caceres

(*) كلمة إسبانية بمعنى طيب . (المراجع)

(*) Cabexa كابيشا	R. 1679
(**) Cablyu قبيو ، قبيو	(A)
Cabrera كبريرا	(D) R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1635 y R. 1636/129B R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1646/134B y R. 1648 y R. 1654/137B y R. 1656/ 136B y 1674-143B في هذه المخطوطة الأخيرة يظهر اسم كابريرو الصغير ونظن أنه من نفس العائلة .
(***) Cabrero القبريرو ، القبرير	R. 1635 y R. 1645
Cabrlech كابريش	(A) Int. Cabrerros
Cabrit كابريت	(D) R. 1633
Cabriru كابريرو	(E) (A) El mismo Cabrero?
Caceri كاثيري (من مدينة كاثيري)	(G) Cacereno
Cacerin كاثيرين	R. 1625 y R. 1674/143B
(****) Cacerro كاثيرو	R. 1625
Caces كاثيس	R. 1579
Cacld كاثيد	R. 1579 y R. 1645
Cacime كاثيمي (قاسمي)	R. 1579
(*****) Caciri كاثيري	R. 1645

(*) ربما تكون مشتقة من كلمة cabeza بمعنى رأس . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى شعر . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى راعي الماعز ، (المراجع)

(****) ربما يكون الاسم نطقاً لكلمة casero أى منزلى أو بيتى . (المراجع)

(*****) ربما يكون النسب - على الطريقة العربية - من مدينة كاثيريس . (المراجع)

Cachcach كشكش	(A) Int. Cascajo
Cache كاشى	R. 1646/134B
Cachnir, al الكاشنير	(A)
Cachuchu كاشوشو	(A)
Cadimi قاديمى	R. 1625 y R. 1635
Caid, al القائد	(A) Alcaide
Caide قايدى	R. 1548
Caitibur, al القايتيبور	(A)
Calafat, al القلفاط	(A)
Calema كاليما	R. 1669/142B
Calln, al الكالين	(A) Int. Conejo
Calina كالينا	(A) Int. Conejero
Calitu, al الكاليتو	(A)
Calman كالمان	R. 1648
Calsera كالسيرا	R. 1646/134B
Camar قمر	(D) (A) y R. 1625
Camaril كمريل	(A)
Camarin كمرين	(A)
Cambili كامبيلي	R. 1654/137B y R. 1637/130B
Camlcha, al الكاميشا	(A)
Camiru كاميرو "غاميرو"	(A) Int. Gamero
Camucha كاموشا	(A)
Camus كاموس	R. 163/129B
Canbi كانبى	R. 1633
Canbrana كانبرانا	R. 1625
Cancha, al الكانشا	(A) Int. Concha
Cancho كانشو (سانشو)	(D)
Candil قنديل	(D) (A)

Candila قنديلة	(A) int. Candela
Cant, al الكانت	(A) Int. Conte
Cantari, al الكانتارى (القنطرى)	(A) int. Alcantara. Existe
(*) Cantillana كانتيانا	R. 1633 y R. 1635 y R. 1636/129 B y R. 1639/131B y R. 1640
Car, al الكار	(A) int. Caro. Existe
Carar "كورال"	(A) Int. Corral
Carasi كاراسى	(E) con al en (A) Existe
Carascu كاراسكو (اسم عائلة إسبانية)	(A) Int. Carrasco
Carazu كرازو	(A)
Carcanada كاركانادا	(A)
Carconada كاركونادا	(D)
Cardenach كارديناش	(D) (A) R. 1615 y R. 1640 y R. 1645
Cardenas قردناش ، قرضناش	(Y) Poslb. El mismo. Aparece en R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1625/127B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1648 y R. 1669/142B y R. 1674/143B y R. 1677/144B
Cardusa قردوشة ، قردوسة	(A) Int. Cardosa
Carlich كاريش "كاريثو"	(A) Int. Carrizo. Existe
Criban كريبان	(A)
Carir "كاريو"	(A) Int. Carrero
Carit كاريث	(A)
Cariu "كاريو"	(A) int. Carrillo
Carium "كارون"	(A) int. Carron

(*) قد يكون نطقاً لسانتيانا وهى اسم لعائلة إسبانية شهيرة . (المراجع)

Carmuna (اسم عائلة إسبانية) قرمونة	(A) int. Carmona
(*) Carpintero كاربنتيرو	R. 1625
Carracas كاراكاس	R. 1633/129B
Carrasco كراسكو، كراشكو (اسم عائلة إسبانية)	R. 1625
Carrillo كاريو ، قريو	R. 1648/Mss. 3631 y R. 1645 y R. 1674/143B y R 1677/144B
Carrion كريون ، قريون (اسم مدينة إسبانية)	(A)
Carriz كاريث	R. 1669/142B
Caser كاسير	R. 1645
(**) Casero كاسيرو	R. 1648
Casi كاسي	R. 1645
Casibi كاسيبى	(D)
Casiri كاسيرو	R. 1645
Casit كاسيت	R. 1654/136B
Casman كاسمان	(D) (A)
Cassen كاستين	R. 1646/134B
Castal, al الكاستال "كاستانو"	(A) Int. Castano
Castali, al القسطلى	(A) Int. Castaneda
(***) Castillo قشتاليو ، قشتاي	(D) (Y) (A) R. 1633/129B y R. 1635 y R. 1646/ 134B y R. 1645 y R. 1656/136B Existe
Casus كاسوس	R. 1655/144B
Cauli كاولى	R. 1648
Cautin كاوتين	R. 1579

(*) أى نجار، وهو اسم عائلة إسباني كذلك . (المراجع)

(**) كلمة بمعنى (شيء مصنوع فى البيت) أو "رجل يحب أن يتعلق بالبيت" . (المراجع)

(***) كلمة بمعنى قلعة، وهو اسم عائلة إسباني كذلك . (المراجع)

Cavixa كابيڤشا	(G)
Cayde كايدى	R. 1583
Cebarbero ثيباربيرو	R. 1645
Cebtuni ثيتونى	(A) Aceituno. Existe
Cecri زكرى	(E) (A) int. Cegri. Existe
Ceitun (زيتون) ثيتون	(A) Int. Aceiton
Cedive ثيديبى	R. 1645
Celln ثيلين	R. 1625
Ceraire ثيرايرى	R. 1645
Ceralxe ثيرايشى	R. 1640 y R. 1559/142B
Cerlda ثيريدا	(A)
Ceron ثيرون	(G) R. 1625
Cerquid ثيركيد	(A) Existe
Cilan ثيلان	R. 1633
Cludala ثيودالا	R. 1625
Clavicho كلابيشو	(G)
Cocaln كوكاين	R. 1633
Cocerta كوثيرتا	R. 1639/131B
Cocile كوئيلي	R. 1625
Colaitan كولائتان	(G)
Coralde كورايدى	R. 1648
Corcon كوركون	R. 1607
Cordoban قوردويان	R. 1625
Cordobes القرطبى	(G)
Coria كوريا	R. 1625 y R. 1645
Cortibi قورطيبي (قرطبى)	R. 1607
Cortobi قرطبى	(D) (Y) con al en (A)

Cote قوطى	R. 1579
Coto القوطى ، القويطى	(D) (Y)
Crasi كراسى	(E)
Cuas, al القواس	(A) Int. Cacuas
Cub كوب	(A) Int. Cobo
Cuete كويتى	(D)
Cuitl, al الكويتى	(A)
Cuitibum كويتيوم	(A)
Curfi, al الكورفى	(A) Existe
Curian كوريان	R. 1625
Curron كورون	R. 1637/130B
Cuti قوطى	(E) con al en (A) Int. Coto
Cuzman قزمان	(E)
Chaachu شاشو	(A) Existe
Chabu شابو	(A)
Chacara أشكار Achcara مشاكرا	(A) Existe
Chacur, al الشكور	(A) Int. Chacon. Existe
Charma شرما	(A) Int. Chamorro
Charlan شاريان	(A)
Charlfi شريفى	R. 1669/142B
Charit شريت	R. 1656/136B
Chat شات	R. 1645
Chate شاتى	R. 1674/143B y R. 1669/142B
Chaua شواخ	(A)
Chaudery شاوديرى	R. 1677/144B
Chaudri شاودرى	(D) (E) Posib. El mismo
Chaves شابيس (اسم عائلة إسبانية)	(D) (E) (A)

Chevenalo شيبينالو	(D) (E)
Chiar شيار	R. 1669/142B
Chibu, al الشيبو "شيبو"	(A) int. Chivo
Cholo o Chulu شولو	(E) (D) (A) Existe
Chorbi شوربي	(E) (D) con al en (A) Existe
Chorti, al الشرطي	(A) Existe
Chrit شريط	(E) (D)
Chuen شوين	R. 1677/144B
Chuevis شوييس	R. 1677/144B
Chulcher, al الشوشر	(A)
Daes دايس	R. 1646/134B
Dahar داهار	(G)
Daiz دايت	(E)
Damus, al الداموس "أداموس"	(A) int. adamuz. Existe
Daud داود	(E) (D) (A) Existe
Daudar داودار	(D) R. 1633 R. 1654/137B y R. 1674/143B y R. 1677/144B
Daza داثا	R. 1625
Decale ديكالي	R. 1648
Deiz ديبث	R. 1579
Delasit ديلاسيت	R. 1654/137B
Del-ilru ديل-ليرو	(E) (D) con al en (A) Existe
Derrij ديريج	(D)
Díaz دياث (اسم عائلة إسبانية)	(G)
Dib ديب	R. 1667/142B
Diba ديبا	R. 1645
Dibu ديبو	(A)

Dinla دینیا	(A) int. Denla
Diudu دیودو	R. 1656/136B
Doblon دوبلون	(D)
Dogueli دوغلی	(G)
Drif دریف	(D)
Dris دریس	R. 1640
Duci دوٹی	R. 1669/142B
Duduceo دودوٹیو	R. 1648
Duque (دوق) دوقی	(G)
Durry دوری	(E)
Dutor دوتور	R. 1656/136B
Duz دوٹ	R. 1579
Ellvir إلیبیر	R. 1635
Embarque إمبراکی	R. 1579
Enriquez (اسم عائلة إسبانية) إنریکیث	(G)
Enunar إنونار	R. 1633/129B
Erkalna إرکاینا	(Y)
Escobar (اسم عائلة إسبانية) إسکوبار	R. 1635 y R. 1645
Esquerba إسکربا	R. 1674/143B
Esquerdo إسکیردو	(G)
Exlar إشیار	R. 1639/131B
Fadrique (اسم شخص / عائلة إسباني) فادریکی	R. 1648 y R. 1646/134B y R. 1656/136B
Fagi فاخی	R. 1646/134B
Fahal, al الفحال	(a)
Fajel فاخیل	1645
Fajjar فخّار	(E) con al en (A) Existe

Fajos فاجوس	R. 1614/124B
Flache فلاشى	R. 1656/136B
Famenchazar فامينشاثار	R. 1648
Fanicas فانيكاس	(A) Int. Vanegas " بانيفاس "
Fanyiru فانيرو	(A)
Farachi فاراشى	R. 1633/129B y R. 1645 y R. 1654/137B
Faradeza فاراديثا	R. 1645
Faray (فرج ، فريج)	(A) Int. Farage
Faraya فارايا	(E)
Fardal, al الفاردال	(A)
Fardeza فارديثا	R. 1645
Fares فارس	(A) Int. Alferez. Existe
Farraj (فراج)	(D)
Farraxe فاراشى	R. 1645
Fartut فارتوت	(E) (D) (A) y R. 1677/144B
Farun, al الفارون "فيرون"	(A) int. ferron. Existe
Fasi فاسى	(Y) Los hace descendientes de los Banu ay Yadd el Fehri de C?rdoba
Fate فاتى	R. 1523
Federico (اسم فدرىكو ، فدرىك)	(D) (A) R. 1645 y R. 1648 y R. 1654/137B y R. 1669/142B
(شخص إسباني)	
Felu, al الفيلو	(A)
Felul فيلول	(A)
Felun فيلون	(A) Existe
Fenis فيرنيس o Fernnich فيرنيش	(E)
Ferdel قيرديل	(D)
Feri فيرى	(R) 1632/128B

Fernacho فيرناشو	(D)
Ferrais فيرايس	R. 1633/129B
Ferreira فيريرا	R. 1637/130B
Ferrera فيريرا	(D)
Fexar فيشار	R. 1645
Fezzancari, al الفيثانكارى	(A)
Fezzari فيثارى	(Y) (A) Existe
Fezzecari فيثيكارى	(E) (A) Existe
Forchado فورشادو	(A) Int. Fajardo
Fornacho فورناشو	(A) Int. Hornachos
Fornela فورنيلا	(A)
Fortunado فورتونادو	R. 1656/136B
Fote فوتى	R. 1523
Fraguane فراغوانى	R. 1639/131B
Fraque فراكى	R. 1646/134B
Fraxel فراشيل	R. 1645
Fraxi فراشى	R. 1656/136B y R. 1674/143B
Frixe فريشى	R. 1645
Fuentes فوينطش ، فونطش (اسم عائلة إسبانية)	(D)
Fuldel فويديل	R. 1607 y R. 160
Fuintech فوينتتش	(A) Int. Fuentes El mismo del (D)
Fukay فوقاي	(E) (A) Existe
Fute فوتى	R. 1579
Gacel غاثل (غزال)	R. 1523
Gacela غاثيلا (غزالة)	R. 1579
Gacelete غاثيليتى	(G)
Gacl غاثل (غازى)	R. 1559/142B

Gagu غاغو	(A) int. Gago
Gallan غيلان	(E) (D) (A) Existe
(*)Galan غالان	(G) R. 1625 y R. 1632/128B
Galefa غاليفا	R. 1579
(**)Gallu غاييو	(A) int. Gallo. Existe
Galvan غلبان (اسم عائلة إسبانية)	R. 1525
(***)Garbancero غاربانتشيرو	R. 1646/134B
Garces غارثيس	R. 1632/128B
Garcia غارثيا (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) (G) y R. 1624/126B Existe
Garit غريت	(A) int. Garet
Garmas, al الغرماس	(A) Existe
Garnati غرناطي	(E) (D) con al en (A)
Garsa, al الغرسة	(A) Existe
Gatar غاتار	R. 1612/Mss. 3862 y R. 1614/124B
Gatas غاتاس	R. 1615
Gatls غطيس	(A) Existe
(****)Gayyu غجو	(E)
Gazulet غاثوليت	R. 1636/129B
Glad خياد	R. 1633
Gltre خيتري	R. 1614/124B
Gobelt غوبايت	R. 1645

(*) كلمة إسبانية بمعنى مغازل أو لطيف، وهو اسم عائلة كذلك . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى ديك .

(***) كلمة إسبانية معناها متعلق بالحمص .

(****) تحريف لكلمة gallo ومعناها "ديك" . (المراجع)

Gordo غوردو (*)	R. 1632/128B
Granada غراناڊا (**)	(G)
Granda غراناڊا	(D) con al en (A)
Grandi الغرنڊى ، الغراندى	(D) con el en (A)
Grantl غرانتلى	(D)
Guali غوالى	R. 1632/128B y R. 1640
Guayed غوايد	R. 1612
Guesus غيسوس (عيسى)	(D)
Guiar غيار	R. 1645
Gulrsa غيرسة	(G)
Guzman قزمان (اسم عائلة إسبانية)	R. 1614/124B y R. 1621/126B y R. 1632/128B
Hacen حثن (حسن)	(G)
Hache حاشى (الحاج)	R. 1645 y R. 1646/134B
Hachls حاشيس	R. 1614
Hadri, al الحَضْرى	(E) (A) Existe
Hamet حامد	R. 1579
Hameteni حاميتينينى (حمدانى)	R. 1625
Hamirla هاميرلا	R. 1523
Haudi حوى	R. 1673/134B
Hatrl, al الحطرى	(A)
Hernando هرننو ، هرننو (اسم عائلة إسبانية)	(A) R. 1523
Herrado إيرآدو	(G)

(*) كلمة بمعنى سمين ، (المراجع)

(**) هذا هو النطق الإشباني لاسم غرناطة ، (المراجع)

إرّادور Herrador (*)	(G) R. 1607
إيرّاندو Herrando	(D)
إيرّاس Herras	R. 1648
إيرّاتي Herrate	R. 1648
إيريرا (اسم عائلة إسبانية) Herrera	(G)
إثاريوس Hezarios	(G)
إثوتي Hezote	R. 1632/128B
إيار Hiar	R. 1645
هلال Hllal	(D)
حثين (حُسَيْن) Hucain	(G), Husain
إريس (إدريس) Irres	R. 1615
إسماعيل Ismail	R. 1621/126B
خابي Jabl	R. 1579
خابونيرو Jabonero (**)	R. 1545
خايفور Jalfor	(G)
خايني Jaini (***)	R. 1669/142B
خالابي (شلبى) Jalabi	R. 1579
خالار Jalar	R. 1545
خانينو Janino	R. 1677/144B
خاكي Jaque	R. 1612
خاريفي (شريفى) Jarifi	R. 1635
خاسيفا Jasifa	R. 1614 / 124B
خاريت Jarret	R. 1646 / 134B

(*) اسم مهنة ، أى من يحرق الأرض ، (المراجع)

(**) أى بائع أو صانع الصابون ، (المراجع)

(***) النسب - على الطريقة العربية - من مدينة جيان الإسبانية ، (المراجع)

Jarrub, al الخروب	(A) int. Algarrobo. Existee
Jatib, al الخطيب	(A) Existe R. 1674 / 143B
Jaudi خاودي	R. 1673/143B
Jayin خائين (*)	(D)
Jenadi خينادي	R. 1656/136B
Jerevi خيريبى	R. 1548
Jiar خيار	(D)
Jimenes خيمينيث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1621/ 126B
Jocure خوكورى	R. 1523
Jomi خومى	(D)
Joralque خورايقى	R. 1621 / 126B
Juabi خوابى	(G)
Juan خوان (اسم عائلة إسبانية)	R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1645
Juma خوما (جمعة)	R. 1579
Jundl خوندى	R. 1632 / 128B
Jurs خورس	(E)
Jusepe خوسيبى	R. 1607 y R. 1612 y R. 1614 / 124B y R. 1625 / 127B
Kalkonada كالكونادا	(E)
Kerllch كيرليش	(E)
Kirfi كيرفى	(E) (D) con al en (A) Existe
Kisibi كيسيبى	(E)
Kisota كيسوتا	(E) (D)
Lacaraque لاكارايقى	(R. 1678
Lafia لافيا	R. 1646/134B
Laizar لايثار	R. 1674/143B

(*) الاسم الإسباني لمدينة جيان الأندلسية . (المراجع)

Laluxi لالوشى	(E)
Lancaron لانكارون	R. 1579
Larachi لاراشى (العراش)	R. 1632/126B
Lasso لاسو (اسم عائلة إسبانية)	(D) y R. 1640
Layzar لايتار	R. 1674 / 143B
Lazaro لاثارو (اسم عائلة إسبانية)	R. 1625 y R. 1632 / 128B y R. 1639/ 132B y R. 1677/144B
Lebaris ليباريس	(A) Existe
Lebbadi لبيادى (العبادى)	(E) (Y) con al en (A) b Existe
Lebat لبيات	(D) con al en (A)
Leburi ليورى	(D)
Lecanti, al الليكانتى	(A)
Lecuti, al الليكوتى	(A)
Lelsarte ليسارتى	R. 1677/ 144B
Leluchi ليلوشى	(A)
Leon(*) ليون	(D) Lion en (A) y R. 1635 y R. 1637/130B y R. 1639/144B
Leqanti, al الليكانتى "الكانتى"	(A) Int. Alicante
Levanti لبيانتى	(D)
Liquen ليكن	R. 1583
Lirini, al الليرينى "بيرينا"	(A) Int. Llerena
Liser ليسر	(A)
Lochi لوشى (من لوشى)	(D) con al en (A). Lojeno
Lopes لوبيس (اسم عائلة إسبانية)	(G)

(*) اسم إقليم إسباني . (المراجع)

Loraybe لورايبي	R. 1523
Loria لوريا	R. 1523
Lurayeri لوراييري	(E) (A) Existe
Lub لوب "لوبو"	(E) (Y) (A) Int. Lobo o Lupu
لوكس ، لوقش ، الوقاش (اسم شخص إسباني) Lucas	(E) (D) (Y) (A) R. 1669/142 B y R. 1674 /143B y R. 1677 /144B Existe. Segun (Y) son los ultimos descendientes de los Omeyas.
لوكاسات Lucasat	R. 1640
لوشا "لوقا" (اسم مدينة إسبانية) Lucha	(A) Int. Loja
لويس (اسم شخص إسباني) Luis	R. 1632 / 128B
لوق Luk	(A) Int. Luque
لوخاري Lujari	(D)
لونا Luna (*)	R. 1632 / 128B
لوركي "لوركينو" Lurqui	(A) Int. Lorqueno
ماثوتي Macote	R. 1640
ماكوس Macus	R. 1609
الماكروس Macrus, al	(A)
ماشان "ميرشان" Machan	(A) Int. Merchan. Existe
مدريد (اسم مدينة إسبانية) Madrid	R. 1645/ 137B
مالاكياس Malaquias	R. 1579
ابن ضناو ، ملضناو ، ملضناضو	(D) (A) (G) R. 1633/129B y R. 1640 y R. 1645 y
(اسم عائلة إسبانية) Maldonado	R. 1645 / 137B
مالي Mall	R. 1632 / 128B
مامي Mami	(A) Existe
مانكانو Mancano	R. 1677/144B

(*) كلمة إسبانية بمعنى قمر، وهو اسم عائلة إسبانية كذلك . (المراجع)

Mancira منسيرة ، منصيرة	(A) Int. Mancera
(*)Manco مانكو	(D)
Mandari مندارى	(E) (A) Fundador de Tetuan. R. 1523 Existe
Mandusa ماندوسا	(E)
Manfarrat مانفارات	R. 1523
Manino مانينو(معنينو)	(G)
Mank, al الملك	(A)
Mankeu, al المانكيو	(A)
Manun, al المانون	(A)
Maquida مكيدة ، مكيدا	(A) Int. Maqueda
Maracahí ماراكاهي	R. 1648
Maramillo ماراميلو	R. 1677/144B
Marbillia "ماربيليا" (اسم مدينة إسبانية)	(A) Int. Marbella
Marcos ماركوس(اسم شخص إسباني)	R. 1633 y R. 1639/131 B y R. 1648
Marchena مرشينة	(D) (Y)
Marljuana ماريخوانا	R. 1646 / 134B
Marin مارين(اسم عائلة إسبانية)	(D) (Y) (A) (G) R. 1645 y R. 1677/ 144B Existe
(**)Marini, al المارينى	(A) Int. Marinia Existe
Marino, al المارينو	(A)(G)
Maroto ماروتو	R. 1621/126B
Marquez ماركيث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1625 y R. 1677/ 144B
Marsebil مارسيبيل	(A)
Marsu مارسو"مارثو"	(A) Int. Marzo. Existe

(*) كلمة إسبانية بمعنى مقطوع الذراع . (المراجع)

(**) ربما كان اسم شخص ينتسب إلى بنى مرين . (المراجع)

Martil مارتيل	(D) (A) Existe
Martin مرتين (اسم شخص إسباني)	(Y) Existe
Maruch ماروش	(D)
Mascatar ماسكاتار	R. 1674/ 143B
Māsus ماسوس	(A) Existe
Mata ماتا	R. 1677/ 144B
Matrach ماتراش	(D)
Mauan ماوان	(A) Existe
Maxan ماشان	(E)
Mayu مايو	(A) Int. Mayo Existe
Mazus ماثوس	R. 1607
Mecud ميثود	(G)
Mechkaker ميشكاكير	(A)
Mechkltu ميشكيتو	(A)
Medanes ميدانيس	R. 1677 / 144B
Medina مدينة (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) R. 1579 y R. 1645 y R. 1656/ 136B y R. 1669 / 142B y R. 1674/ 143B y R. 1677 / 144B Existe
Medira "ماديرا"	(A) Int. Madera
Medur, al الميدور	(A) Existe
Megara ميفارا	(A) Existe
Megarú "ماكارو"	(A) Int. Macarro. Existe
Meherez ميحيريث (محراث)	R. 1548
Melaluz ميلالوث	R. 1646/134B
Meleani ميليانى	R. 1648
Melhesi ميلحيسى	R. 1648

Melin "مولين"	(A) Int. Molin
Melina "مولينا"	(A) Int. Molina
Melirum, al "مليروم"	(A) Int. Melero
Mellado مبيادو	R. 1632 / 128B
Mendarien مينداريين	R. 1625 / 126B
Mendez (اسم عائلة منديس)	(D) (A)
(إسبانية)	
Mendoza مندوزة ، منصوصة	(E) (D) (Y) R. 1632/128B y R. 1633/129B R. 1648
(اسم عائلة إسبانية)	y R. 1656/136B y R. 1647/143B
Menfor مينفور	R. 1632/128B
Mengualli مينغوالى	R. 1677/ 144B
Menno مينو	(G)
Mensah, al "المنساح" المنسا	(A) Int. Almansa
Menani مينانى	R. 1633
Mensure منصورى	R. 1669/ 142B
Merun, al "مارون" الميرون	(A) Int. Marron Existe
Merasu ميراسو	(A)
Merendeque ميرينديكى	R. 1632 / 128B
Merln ميرين	R. 1579
Merino مرين	(G)
Mesah مساح	R. 1632/ 128B
Mesbah مصباح	(E)
Metrach متراش	(A)
Metrich "متريس" متريش	(A) Int. Matres
Metrun, al "الميترون"	(A)
Mexxia ميشيا	R. 1633

Michet ميشيت	R. 1632 / 128B
Milimoli ميليمولى	R. 1632/ 128B
Mocadal موكادال	R. 1579
Mocadar موكادار	R. 1637 / 130B
Mocadem مقدم	(G)
Mocoso موكوسو	R. 1656/136B
Mochachu موتشاتشو (*)	(A)
Mofadal مفضل	R. 1523
Moharrek محرك	(D)
Molai مولاى	R. 1579
Molato مولاتو	(E)
Mollna ملينة ، ملينا ، منينة	(E) (D) (Y) R. 1645/137B y R. 1656 /136B y
(اسم بلدة إسبانية)	R. 1674/ 143B
Monbal مونبال	R. 1639/131B
Mondafal منفضل	R. 1579 y R. 1583
Monfadal منفضل	R. 1523 y r. 1607 y R 1615 y R. 1621/ 126B y R. 1645 R. 1646/ 134B y R. 1656/136B
Monforte مونفورتي	R. 1633
Monjadaí مونخادال	R. 1548
Monleon	R. 1636/ 129B
Montalbo منطلبو ، بنطلبو	(A) Int. Montalvo
Montemayor منطميور ، ابن	(D) (Y) (A) R. 1633 y R. 1648 y R. 1674/143B y
طميور (اسم عائلة إسبانية)	R. 1677 / 144B
Montil مونتيل	r. 1635
Montiro منطير ، منطير (اسم عائلة إسبانية)	(A) Int. Montero

(*) كلمة إسبانية بمعنى فتى ، (المراجع)

Montoro مونتورو	(A) R. 1645 y R. 1645/ 137B y r. 1656/ 136B y R. 1669/ 142B y R. 1674/ 143B y r. 1677/ 144B
Montutu مونتوتو	(A) Int. Montoto
Montuya منطوية ، ابن طوية ، بنطوية	(A) Int. Montoya
Mora مورا	R. 1612
Morales مراريش ، مراليش	(Y) R. 1632/128B y R. 1635 y R. 1640 y R. 1645 y R. 1637/ 130B y R. 1656/ 136B
Moran مران	(A)
Moranu مرانو"مورينو"	(A) Int. Moreno
Morarix موراريش	(E) (A) Existe, Otra transcripotlon de Morales?
Morat مورات	(G)
Morato مولاطو ، ملاطو ، الملاطو	(D) (Y) R. 1635
Mordafay موردافاي	R. 1579
Moren مورين	R. 1669/142B
Moreno مورينو	R. 1625
MorIn مرينو ، المرينو	(A) Int. Merino
Morinu مورينو	(A)
Morlsco موريسكو	(D)
Moron مرون	(A) R. 1674/143B Existe
Muca موكا(موسى)	(G)
Mucelque موثيكي	R. 1645
Muchkater موشكاتير	(A)
Mudi مودى	R. 1677/144B
Mufaq, al الموفق	(A) Existe
Mufaray موفاراي"الموفري"(مفرج)	(A) Int. Almofrey
Mugulra موغيرا"الموغيرا"(المغيرة)	(A) Int. Almoguera
Mumen مومن(مؤمن)	R. 1615

Muofak موفق	(E)
Mula مولا (*)	R. 1632 / 128 B y r. 1645
Mulatu مولاتو "موراتو"	(D) (A) Int. Morato
Muley مولاي	R. 1645
Mural مورال	R. 1635
Murcia مرسية ، مرسية (اسم مدينة إسبانية)	(D) (A) Existe
Murchik مرشق	(A)
Murchina مورشينا "مارشينا"	(A) Int. Marchena. Existe
Muribtu, al الموريبتو	(A) Existe
Mursina مورسينا "ماراثينا"	(A) Int. Maracena
Murta مورتا	R. 1635 y R. 1637 / 130B
Muruch, al المروش	(A)
Musa موسى	R. 1614 / 124 B y R. 1625 y R. 1637/130B
Musere موسيري	R. 1645
Naqsis, al النقسيس	(E) (A) R. 1607 -9-14-15-21-25-45-54-56-61-64
Narvaez ناربايث (اسم عائلة إسبانية)	(G) (A) Existe
Nasar, al النصار	(A) Int. Anaya Existe
Naya, al النايا "أنايا" (النجاة)	(D)
Nedichi نيديشي	(D)
Niara نيارا	(A) Existe
Nuino, al النوينو	R. 1621/126 B
Nuzena نوثينا	(G) R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1632/ 128B y R.
Ollvares أوليباريث (اسم عائلة إسبانية)	1633/129B y R. 1637/130B

(*) كلمة إسبانية بمعنى "بغلة" . (المراجع)

Paasa, al الباشا	(A) Existe
Pachani باشاني	R. 1612 y R. 1614/ 124B
Padya بديّة	(A) Int. Padilla
Paes o paez بايڤس	(E) (D) (Y) (A) Existe
Palafres بالافريس	(G)
Palomar بالومار	R. 1523
Palomino بالامينو، الالامينو(اسم عائلة إسبانية)	(A)
Pantoja بانتوخ(اسم عائلة إسبانية)	(G) R. 1656/136 B
Panzi, al البانثي	(E) (A) Existe
Pardal بردال	(A) Int. Pardal
Pargan بارغان	R. 1614/ 124B
Parpane بارباني	R. 1615
Partil بارتيل	(A)
Penla, al بنية ، الننية	(A) Int. pena
Penlda بينيدا	(A) Int. Pineda
Peralta بيرالتا	R. 1635 y R. 1636/ 29B y R. 1637/ 130B y R. 1640
Perdan بيردان	(E)
Perez بيريس (اسم عائلة إسبانية)	(G)
Pertil "بورشيل"	(A) Int. Purchil
Pinalossa بينالوسا	(G)
Pinar بينار	R. 1632/ 128 B y R. 1648
Pinta بينتا	(G)
Pinto بينتو	R. 1632/128B y R. 1648
Rires بيريس	(A)
Piru بيرو	(A) Int. Pero
Pizarra بيثارا	R. 1674/ 143 B

Pobre (*)	بوبرى	R. 1640 y R. 1645 y R. 1656/136B
Polo	البولو	(E) con al en (A) Existe
Ponce	البنزى (اسم عائلة إسبانية)	(D)
Ponde	بوندى	(E)
Portal	بورتال	R. 1579
Poypor	بويپور	R. 1523
Prad, al	البراد ، البرد	(A) Int. Prada
Pratil	براتيل	(A)
Pras	براس "بوراس"	(A) Int. Porras
Prido	بريدو "بريدا"	(A) Int. pereda
Provinciano (**)	بروينثيانو	(D) (G)
Prua, al	البروا	(A)
Prubi	بروبى	(E) con al en (A) Existe
Puerto (***)	البويرطو	(E) con al en (A)
Puns	بونس	Int. pons
Purt	بورت "بورتو"	(A) Int. porto
Puyatu	بوياتو	(A)
Querbal	كيربال	R. 1648
Querrix	كيريش	(E)
Quexia	كيشيا	R. 1523
Quinato	كيناتو	R. 1523
Quirfi	كيرفى	(E)
Rabbai	راباى	(D)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "فقير" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "إقليمى ، ريفى" . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "ميناء" . (المراجع)

Racaa راکا	R. 1645
Radils راديس "روديليس"	(A) Int. Rodiles
Rafael رافايل (اسم شخص إسباني)	R. 1639/131 B y R. 1645 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B
Rafal رافاي	(D)
Ragun راغون	(E) (A) Existe
Raina راينا	(E)
Rais, al الرئيس "أرايس" (الرئيس)	(A) Int. Arraez Existe
Ralz رايت	R. 1646/134 B
Rajal راخال	R. 1645 y R. 1645 / 137B
Ramlres الراميرس ، الرميريس (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) con al en (A) y R. 1645
Ramlrez راميريث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1633 y R. 1636/ 129B y R. 1637/ 130B y R. 1640 y R. 1645y R. 1648 y R. 1646/134B
Ramiro رميرو ، الرمير	(A) y R. 1645
Ramis, al الراميس	(A)
Ramon الرامون (اسم شخص إسباني)	(E) (D) con al en (A)
Ramuz, al الرموز ، الراموش	(A) Int. Ramos
Rasimu راسيمو	(A)
Rasis راسيس (الرازي)	R. 1548
Ratut, al الراتوت	(A)
Rayd رايد	(G)
Recaina ريكاينا	(E) Puede ser el Erkaina de (Y)
Recini ريثيني	R. 1645
Redondo الرضوندو ، الرضدزو (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) con al en (A) y R. 1633/129B y R. 1674/143B

(*) Reina الرينة	(D) (Y) con al en (A)
Rendan ريندان	R. 1625/127B
Requina, al الريكينا "ريكيننا"	(A) Int. Requena. Existe
Resi ريسى	R. 1654 / 137B
Rettut ريتوت	(E)
Rexal, al الريشاي	(A)
Rlfe ريفي	R. 1621/126B
(**) Rlos ريوس ، الريوس	(D) (A) (G)
Riyan ريان "ريان"	(A) Int. Rellan
Roca الركة (اسم عائلة إسبانية)	(A)
Rocach روكاش	(D) Existe
Rochal روشاي	(D)
Rodrigo رودريغو (اسم شخص إسباني)	(D)
Rojani روخاني	(D)
Rojas الروكاس (اسم عائلة إسبانية)	(G) R. 1633 y R. 1633/129 B y R. 1645
Roman, al رومان ، الرمان	(A) Int. Roman
Romano رومانو	R. 1640
Rond, al الروند	(A) Aranda
Ronda الرندة ، الرندي (اسم مدينة إسبانية)	(D) con al en (A) y R. 1632/128 B
(***) Rondl روندي	(D)
Rosado روسادو	R. 1645
Roxas روشاس	(G)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "ملكة" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "أنهار" . (المراجع)

(***) النسب - على الطريق العربية - من بلدة رونده . (المراجع)

Ruan روان	(A) Int. Roan. Existe
Ruano روانو	(A) Int. Ruano
Ruas رواس	(A) Existe
Rubio الروبيو ، الروبي (*)	(A)
Ruda رودا	(A) Int. Roda
Ruiz o Ruich الرويز (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) y R. 1615 Existe
Ruck, al الروك	(A) Int. Roque
Rukas, al الروكاس "روخاس"	(A) Int. Rojas
Ruks, al الروكس "روس"	(A) Int. Ros
Ruxa, al الروشا "روسا"	(A) Int. Rosa
Ruxu, al الروشو "روخو"	(A) Int. Rojo
Sabaha صباحة	R. 1632/128 B
Sabban صبان	R. 1633 y R. 1674/143 B y (D)
Salabata صالاباتا	(A) Int. Zapata. Existe
y Chalabata شالاباتا "ثاباتا"	
Sacol ساكول	R. 1677/144B
Safi صافي	R. 1640
Sahaf صحاف	(D)
Salas صالص ، صالش	(E) (Y) Existe
Salazar سالاثار (اسم عائلة إسبانية)	R. 1615 y R. 1621/126B
Salitan ساليطان	R. 1579
Salmon سلمون	(A) Int. Salmon
Saltillo سالتيو	R. 1648
Sammar سامار	(D)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "أشقر" وهي اسم عائلة كذلك . (المراجع)

Sancho (اسم شخص إسباني)	R. 1646/134B
Santiago (اسم شخص إسباني)	(G) R. 1625
Sana سانا	R. 1688 / 142 B
Sara "سيرا" Chara	(A) Int. Serra
Sarbi (اسم شخص إسباني)	(A) Int. Sorbas. Al Sarbe en R. 1645
Sardina ساردينا	R. 1583
Sardira "سارديرا"	(A) Int. Cerdeira
Sarray "سراج" (اسم شخص إسباني)	(E) (A) Int Abencerraje. Existe
Savet (ثابت)	R. 1635
Saya "ساريا" Charia	(A) Int. Sarria
Sastre (اسم شخص إسباني)	R. 1645
Settat ستات	(D)
Seba سيبا	R. 1674/ 143B
Sebida "سبييدا"	(A) Int. Acevedo. Existe. He oido pronunciar Es-bida
Secundu, al (اسم شخص إسباني)	(A) Int. Segundo
Secura (اسم شخص إسباني)	(A) Int. segura
Chacura "شاكورا"	
Sefan سيفان	R. 1669/142B
Sell (اسم شخص إسباني)	(A)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "خياط" وهي اسم عائلة كذلك . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "الثاني" . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "آمنة ، مطمئنة" . (المراجع)

Selis	سيليس	o Chelich	(A) Int. Jerez
	شيليش	"خيريث"	
Selisi	سيليسي	o al chelichi	(A) Int. Jerezano
	شيليشي	"خيريثانو"	
Senadi	سينادي		
al chenadi	الشينادي		(A)
Sendir	سيندير	o Chendir	(A)
Sentil	سنتيل	o Chentil	(A) ?Gentil?
	سنتيل	"ختيل"	
Serblra	سيربيرا	"ثيربيرا"	(A) Int. Cervera
Serqulq	سيركيك		(A) Existe
Seron	سيرون		(G)
Serrano	سرانو ، شرانو		(D) (A)
Setun	سيتون	o al Chetun	(A)
Slar	سيار		R. 1668/142B
Sini	سيني	o al Chini	(A) ?Chino?
Sira	سيرا	o Chira	(A) Int. Sierra
	شيرا	"سيرا"	
Soba	سوبا		R. 1674/ 143B
Sollman	سليمان		R. 1645
Soralque	سوراكي		R. 1633
Sordo	الصردو ، الصوردو		(E) (A)
Sordur, al	السوردور	"سيرا دور"	(A) Serrador
Sorla	شورية (اسم مدينة إسبانية)		R. 1635 y R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1645 y R. 1646 / 134B y R. 1648
Sorti	سورتي	o al Chorti	(A)
Sorian	سوريان	o Churian	(A) ?Soriano?
	الشوريان	"سوريانو"	

(*) كلمة إسبانية بمعنى "أصم" ، (المراجع)

Squirech سكيريش	(D)
Sullah سويلاح	(D)
Sulami سولامى	(G)
Suleitan سوليتان	(G)
Sulta سولتا	R. 1646/134B
Suzer سوثر	R. 1646/134B
Tabbib تابيب	(D)
Tabbin تابين	(E) con al en (A) Existe
Tabyina تابينا	(A)
Tacon تاكون	R. 1677/148 B
Tacher تاشير	R. 1645 y R. 1674/ 143B
Tagall تاغالى	R. 1579
Tagarino تاغارينو (*)	(G) R. 1125 y R. 1635 y R. 1639/131B y 1640 y R. 1645
Talfor تايفور	R. 1637/130B
TYajar تاخار(تاجر)	R. 1669/142B
Talha طلحة	(E)
Tall تالى	(D) R. 1677/ 144B
Tallu تاليو"تايو"	(A) Int. Tello
Taller تايير (**)	R. 1645
Tanana, al التانانا	(E) (A) Existe
Tanasa تاناسا	(A) R. 1677/144B
Tania تانيا	(E) (D) (A)

(*) كلمة مشتقة من كلمة ثغر ، وهى هنا بمعنى ثغرى ، وكانت تطلق على المقيم فى الموانئ الإسبانية على البحر المتوسط ، (المراجع) .

(**) كلمة إسبانية بمعنى "ورشة" (المراجع)

Tansa تانسا	(A)
Tarifa طريفة	(A)
Tarse تارسي	R. 1656/136B
Taudi تاودي	R. 1677/144B
Tello تليو	(G)
Temin تيمين	R. 1669/ 142B
Tenaza تيناذا (*)	R. 1677/144B
Tesso تيسو	R. 1646/ 134B
Tintorero تينتوريرو (**)	R. 1636/129B
Tohalri توحيري	(G)
Tomas توماس (اسم شخص إسباني)	R. 1674/143B
Topal توبال	R. 1637/130B
Torlru تورلرو "تورلرو" (***)	(A) Int. Torrero
Tormo, al التورمو "تورمو"	(A) Int. Tormo
Torres الطريس (اسم عائلة إسبانية)	(E) (Y) con al en (A) R. 1614/ 142 B y R. 1615 Existe
Tramaci تراماخي	R. 1669/142B
Travesy ترابيسي	R. 1674/143B y R. 1677/144B
Trlnln ترينين	R. 1674/143B
Tripol تريبول	R. 1648
Troya ترويا	R. 1648
Tunes تونس	R. 1645
Turtuchi, al التورتوشي "تورتوسا"	(A) Int. Tortosa

(*) كلمة إسبانية بمعنى "كماشة" ، (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "صباغ" ، (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "مصارع الثيران" ، (المراجع)

Usir, al "الأوسير" الغواثيل	(A) Int. Alguacil Existe
Vacher بشير	(G)
Valenzuela ابن صويلة ، بنو صويلة	R. 1636/129B y R. 1639/131B
Vallejo بايخو (اسم عائلة إسبانية)	R. 1625
Vanegas بيناغاس (اسم عائلة إسبانية)	(G)
Vargas بارغاس برقاش (اسم عائلة إسبانية)	(G) R. 1625 y r. 1640
Vejales بيخاليس	R. 1640
Venutan بينوتان	R. 1640
Vizcaino بيتكاينو (من إقليم بيتكاي)	R. 1640
Xabenlalu شابيتيالو	(A)
Xaniz شانيث	(E) R. 1615
Xarife شريفى	R. 1579 y R. 1674/143B
Xarif شريف	R. 1640
Xarrete شريتى	R. 1579
Xati شاتى (شاطىء)	R. 1639/131B
Xauan شاوان	R. 1637/130B
Xeral شيرال	R. 1640
Ximili o Alaximile شيميلى	R. 1583
الاشيميلى	
Xura شورا	(A)
Xurbi شوربى	(E) (A)
Yaiyani جيجانى (جيانى، أى جيان من جيان)	(Y) Anade Seffar
Yanino جنينو	(E) (A) Existe
Yebli جبلى	(A) Int. Jabali
Yebur جبور	(A) Existe
Yian جيان	(A) Int. Jaen

جودير Yuder	(G)
جوريو Yurio	(A) Int. Jorio
جوسو Yusso	R. 1637/130B
زايدى Zaide	R. 1523
زيدون Zaidun	(A)
ثالدور Zaldur	(A)
ثاليث "سالاس" Zalez	(A) Int. Salas. Existe
ثامبورينو Zamborino	R. 1635
الثانتو "سانتو" Zantu, al (*)	(A) Int. Santo. Existe
سباطة ، شلباطة Zapata	R. 1639/131B y R. 1646/134B
ثارال Zaral	R. 1646/134B
ثاركيك Zarkik	(E)
ثاراغيت Zarraget	
ثاتانى Zatani	R. 1646/134B
ثاتي Zate	R. 1625
ثيكرى (نكرى) Zecri	(E) (A)
ثيلاودي Zilaudi	R. 1674/143B
ثوفحي Zofaihi	R. 1645
الثوردو "سوردو" Zordu, al (**)	(A) Int. Sordo . Existe
ثورون Zurron	R. 1635
ثوت o ثوتو "سوتو" Zutu	(A) Int. Soto. Existe

(*) كلمة إسبانية بمعنى "القديس" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "أصم" . (المراجع)

من فحص بسيط للقائمة التي انتهينا من تقديمها نستخرج بعض الملاحظات ذات الأهمية.

لم يتجه كل الموريسكيين إلى تجارة العبيد، فهناك الكثيرون الذين لم يظهروا في أى من الوثائق المختارة، هذا يعنى أنهم يمكن أن يظهروا فى وثائق أخرى لا نعرفها حتى الآن، لكن العينة مستفيضة وموضحة بشكل كاف لكى نستطيع التأكد من أن الموريسكيين لن يظهروا فى أى وثيقة أخرى. يجب الأخذ فى الاعتبار أن هذا النموذج يتضمن فعلياً كل القرن السابع عشر.

لذلك نستطيع فى نفس الوقت حساب نسبة الذين كانوا يشتغلون أو الذين اشتغلوا فى إحدى المرات فى بيع الأسرى، على العكس يوجد البعض الذين توارثوا تجارة العبيد من الآباء للأبناء. وهناك آخرون كانوا ينتمون إلى عائلات ذات نسل غرناطى عريق، كانوا يظهرون منذ ١٥٢٣ حتى ١٦٣٥، أى أكثر من قرن، ظهر الكثيرون فى مبيعات عام ما ولم تعد أسماءهم للظهور فى الافتداءات، فهم تجار عارضون.

فى القائمة التى كتبناها، و التى تتضمن ١٠٢٨ اسماً، لم يظهر عدد ٥٢٢ منهم فى مخطوطات الافتداء، هذا يعنى أنه من المحتمل جداً أنهم لم يتجهوا إلى عمليات شراء وبيع العبيد أو أنهم إذا كانوا يفعلون ذلك فإنه يكون بطريقة أخرى غير الامتلاك المباشر للأسرى المسيحيين، عددهم أعلى بقليل من نسبة ٥١٪ من مجموع الأسماء، ومن نسبة ٤٩٪ الباقية أو من ٥٠٦ اسماً، ظهر عدد كبير آخر من الموريسكيين، ٤١٢، مرة واحدة فى تجارة العبيد و بذلك يكون لدينا نسبة ٤٠٪ أخرى لم تكن تتجه لهذه العملية إلا عرضاً. لو أننا حذفنا من هذا العدد أسماء من ظهرت عائلاتهم مرتين فى سوق العبيد، على مدى قرن ونصف من الزمن، وهم ٣٦، فسوف يتبقى لنا ٩٧٠ شخصاً من ١٠٢٨ لم يقوموا، فعلياً، بأى عمل متعلق بالأسر، نستطيع أن نقول إن عدد الذين اشتغلوا بتجارة العبيد تقريباً معدوم، إذ لا يتعدى نسبة ٥٪ من المجموع.

ما زلنا نستطيع أن نصفى الحسابات لتخفيف نسبة ٥٪ هذه، لكن يكفي ذلك لكى نستخلص نتيجة من نوع اقتصادى سياسى، نظراً لكون ثروات القرصنة المصدر الأساسى الذى كان يغذى الخزائن التطوانية، نرى بوضوح أن تلك الثروات كانت فى أيدي أقلية مكونة من الحكام و أقاربهم وأتباعهم الأكثر قرباً.

كان الفتات الذى كان يتقاسمه باقى المدنيين قليلاً وغير ثابت، لأن كون الغالبية العظمى من الذين ظهروا فى قائمة الأسماء لم يوجدوا كتجار عبيد، فإن هذا لا يعنى أنهم لم يكونوا متضمنين فى هذه القائمة، بطريقة أو أخرى، لأنه إذا كان الحاكم لديه عبيد أكثر، فليس سبب ذلك أنه كان يقبض عليهم، لكن لأنه كان يشتريهم من قبطان المركب و معاونه، أو بوجه خاص قد أقتناهم بأسعار معتدلة من الشخص الأول الذى قبض عليهم أو، ببساطة، من السوق الذى كان يعمل فى تطوان كسوق لأى بضاعة أخرى. كان الحاكم يمكنه شراؤهم بأسعار زهيدة، و تخزينهم فى السجون بتكاليف أقل من الاحتفاظ بهم ثم يعيد بيعهم بعد ذلك عندما تأتى الفرصة فى شكل رجال دين محملين بالنقود والبضائع.

يتضح ذلك فى المخطوطات حيث كان القادة و المقدمون و الحكام يفرضون مسبقاً بيع عبيدهم و كانوا يرون أن أحد البنود الأولى التى يجب أن يصل إليها المفتدون هى تحديد عدد الأسرى الإجباريين الذين يجب أن يشتروهم من الحكام، لكى تبقى لها أموال كافية لافتداء بقية الأسرى. كان هذا التوزيع غير المتساوى للثروة سبباً لأكثر من فتنة وثورة. لكن الموقف تغير فقط عندما تولى مولاي إسماعيل بنفسه، فى نهاية القرن السابع عشر تقريباً، كل ما يتعلق بالأسرى المسيحيين.

وبعد أن أوضحنا إلى حدٍ ما نسبة الأسماء التى تظهر بطريقة أو أخرى، نجد ملاحظة أخرى مهمة تتعلق بالعائلات الموريسكية التى اختفت بمرور الوقت، لأسبابٍ أو أخرى. يقول السيد عزوز حرفياً، فى ملحوظة مهمة فى نهاية دراسته:

"من باب الإسهاب أن نشير إلى أن عدد العائلات التطوانية ذات الألقاب الإسبانية كان ٣٦٥، انقرض منهم ٢٥٨، غالبيتهم بسبب مرض الطاعون الذى اجتاح تطوان عام ١٠٨٨هـ (١٦٧٧م) حيث لم تبق فى الواقع أكثر من ١٠٧ عائلة، والتى نجد من بينها عائلة مؤسس المدينة، المندارى".

لقد أحصينا ٧٩ عائلة مختفية فى عام الطاعون، ١٦٧٧، و من الغريب أن تظهر عائلة واحدة، عائلة فيديريكو Federico ، فى أربع وثائق افتداء لأعوام ١٦٤٥ و ١٦٤٨

و ١٦٥٤ و ١٦٦٩ : و فى ثلاث افتراءات أخرى فى وثيقة وحيدة و دائماً لبيع أسير واحد فقط، لم يكن لأى عائلة من العائلات التى ماتت بالطاعون فيما يبدو جزء من الثروة التى كانت توفرها القرصنة . هل نستطيع أن نترجم قراءة هذه المعلومات كاختفاء للطبقات الأكثر فقراً من السكان فى هذه الأوبئة؟ و هذا يعتبر حدثاً حقيقياً فى حد ذاته، لكن هنا يمكن إضافة تعليق ما . ربما كان لتكدس السكان المورييسكيين فى مدينة تطوان نتائجها المأساوية، فى أثناء تفشى المرض، والتى تجتذب الظروف فيها السكان الأكثر ضعفاً.

هكذا اختفت فى العام المأساوى، ١٦٧٧، ألقاب إسبانية مثل بايو Bayo وبرابو Bravo وبرنال Bernal وبنخوميذا Benjumedá وبالمينو Palomino وسيرانو Serrano وثيرديرا Cerdela و تشامورو Chamorro و هيرناندو Hernando وتيو Tello وراميرو Ramiro وروبيو Rubio وموران Morán وأمانسا Almansa وغوثمان Guzmán وكابيو Cabello ومونتيرو Montero وجراندى Grande حتى اسم العائلة التاسع والسبعين.

لا يقول لنا ابن عزوز شيئاً عن الأسباب التى أدت إلى انقراض عائلات مورييسكية أخرى كثيرة، و ما زلنا نتحدث عن القرن السابع عشر، كتلك العائلات الثلاث التى اختفت فى عام ١٦٣١ أو العائلات الخمس التى اختفت فى عام ١٦٦٩ . الحقيقة أن الصراعات الأهلية التى زعزعت المجتمع المورييسكى على طول القرنين السادس عشر والسابع عشر، ربما تكون قد تسببت فى اختفاء عائلات كثيرة.

إذا تأملنا الفترات الزمنية التى حدثت فيها بعض الافتراءات، يتضح أن اسم الشخص الذى ينفذ عمليات البيع لا يدل على شخص واحد . فعلى سبيل المثال، ليس من الممكن أن يكون النقسيس الذى ظهر عام ١٦٦٤ هو نفسه الذى ظهر فى عام ١٦٠٧ .

بهذه الطريقة من الممكن لنا أن نفرق بين بعض العائلات و بين الأشخاص المنفردين . عائلة بن ساكور Bensacor أو بنا ساكور Benasacor من عام ١٦٢٥ إلى ١٦٧٧، مع اثنين وخمسين عاماً منذ "المؤسس" الأول، لدرجة أننا لا نعرف من أى جيل

كان الذين قاموا بصفقات فى ٨ أعوام مختلفة. عائلة كابريرا Cabrera التى باعت بالتوالى عبيداً من عام ١٦٢١ حتى ١٦٧٤ . عائلة أراغون Aragón التى ذهبت إلى السوق ٨ مرات منذ عام ١٦٣٢ حتى ١٦٧٤ . عائلة مفضل، رفيق المندارى الغرناطى، الذى شارك معه فى أولى عمليات الافتداءات المعروفة من عام ١٥٢٣ و التى استمرت نريته فى بيع الكثير من العبيد حتى عام ١٦٥٦ ، على الأقل.

هناك ملاحظة أخيرة فيما يتعلق بدراسة أسماء الأشخاص: توجد ألقاب مثل بيرالتا Beralta و ماركوس Marcos ولاثارو Lázaro وفادريكي Faderique وكانتينا Cantillana وأوليباريس Olivares و تاغارينو Tagarino و الميرانتيي Almirante وألفانخيرو Alfangero وأغيلار Aguilar وآخرون من أصول إسبانية واضحة جدا والتى ظهرت فى الافتداءات كمواطنين من تطوان ولم يسجلها السيد بن عزوز فى كتابه والتى تجعلنا نشك أنه مازال هناك الكثير لفحصه وبحثه لزيادة الأسماء الموجودة فى هذه القائمة فى مجموعة "الجانب الآخر" مثلما نحن متأكدون من تحقيق إسهامات جديدة فى المستقبل القريب.

تبدو لنا الآلاف من أسماء العائلات الموريسكية دليلاً بسيطاً على عشرات الآلاف التى ألقاها مد وجزر التاريخ فى الأراضى المغربية.

الهوامش

- (1) GOZALBES BUSTO,Guillermo. "Notas sobre la tradición oral morisca en Tetuán". Anales del Colegio Universitario de Almería. Letras.Año 1982. Pp.101 a 104.
- (2) Mármol Carvajal, Luis del. Descripción general de África.Libro Cuarto. Granada 1573.Fol.131 y 131Vto.
- (3) GOZALBES BUSTO,Guillermo. "La sociedad granadina-nasrí en el exilio". Revista del Centro de estudios históricos de Granada y su reino.N.* 3. Nueva época.1989. Pp.165 a 181.
- (4) Sources Inedites l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal A.a Serie. Tomo III.
- (5) GOZALBES BUSTO,Guillermo, Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada. 1988.
- (6) Hornacheros y andaluces fundaron Rabat.Cf. GOZALBES BUSTO,Guillermo."La república andaluza de Rabat en el siglo XVII" Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. 9-10. Tetuán 1974.
- (7) تحمل دراسة سيدى إيرمونى عنوان عمدة الراوئيين فى تاريخ تطوان و هى محفوظة فى المكتبة العامة والأرشيف فى تطوان وقام محمد عزوز بكتابة ملخص لها باللغة الإسبانية، نُشر تحت عنوان "تاريخ تطوان". أنظر صفحات من ١١٨ إلى ١٣٢ من هذا العمل.
- (8) DAWD,Muhammad, Tarij Titwan. (En árabe). Tetuán 1958.
- (9) YEBBUR ODDI, Abd- Errahim. Una ojeada sobre la historia de Tetuán y sus familias oriundas del Andalus. Tetuán-1948.
- (10) IBN AZZUZ HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuaníes de origin español". Revista Awraq. Vol.II-1988. Pp. 101 a 123.
- يوجد الجزء الأساسى الذى تبعناه من دراسة الأستاذ عزوز باللغة العربية تحت عنوان " فهرس".
- (11) FRÍAS, Duque de. " Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2. 1958. Pp. 483 a 514.
- (12) "Rescate de veinticinco cautivos". Revista Mauritania, N.* 182 Enero de 1943 . Pp. 9 a 12 y n.* 183 Febrero de 1943. Pp.43 a 45.

عرفنا سيرانو إي سانت Serrano Y Sanz بمخطوطات المكتبة القومية وقد نشر بعض المقالات عنها (13) وفيما يتعلق بالأسر في حد ذاته و"العمل الخيري" الذي نفذته جمعية السيدة العذراء، ومؤخراً استخدمها فريدمان FRIEDMAN في نطاق الأسر ذاته ومثلما استخدم مخطوطات الأرشيف التايخي القومي، وذلك في دراسة إحصائية اجتماعية - اقتصادية شيقة جداً، أنظر:

SERRANO Y SANZ, Manuel. "La redención de cautivos por los religiosos mercenari-
os durante los siglos XVII y XVIII", en Revista Contemporánea. Madrid 1893 y 1893.
V. también FRIEDMAN, Ellen, G. Spanish Captives In North Africa In the Early Mod-
ern Age. University of Wisconsin. 1983.

كان بعض أصدقائي الأطباء في تطوان يؤكدون أنه كان يصل أناس من القرى، القريبة إلى حد ما، (14)
لاستشارتهم، وكان لهم القاباً أندلسية.

(15) MÁRMOL. Op. cit. Fol. 33 del Libro 3.*

(16) Biblioteca Nacional. Manuscrito N.* 6569. Fol. 99 vto.

الفصل الرابع

المظاهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

للموريسكيين في المغرب(*)

ملاحظات أولية:

يجب التمييز بين فترتين في دراسة الموريسكيين في المغرب تتزامن مع أكبر حدثين أثرا فيهم، الحدث الأول يتعلق بسقوط آخر مملكة إسلامية إسبانية، والثاني هو الذي فرض نهاية المشكلة الموريسكية في شبه الجزيرة، بالطرد أو سلسلة قرارات الطرد الصادرة من عام ١٦٠٩ حتى ١٦١٤ .

في كلتا الفترتين كان يُرحب بهم بحفاوة في الأراضي المغربية، بالرغم من ظهور بعض مظاهر الرفض وعدم التكيف، في كلتا اللحظتين وجد المنفيون، الذين يمثلون توجهات فوضوية سياسية، والذين سهّلوا إقامة مجموعات مستقلة من الموريسكيين، ومن ناحية أخرى، ربما صعبوا مسألة اندماجها السريع جدا، ولم ينتفعوا بالثروة البشرية التي كانوا يمثلونها.

إن تاريخ هذه المجموعات بوجه خاص، وتاريخ الموريسكيين بوجه عام في الأراضي المغربية، خاصة في المغرب، لم يتضح حتى الآن.

من الممكن أن يكون عدم المعرفة هذا واحداً من النتائج التي أسمىتها في أحد أعمالي "هجر الواجهة الجنوبية من قبل عائلة أستورياس الملكية"، أي عدم الاهتمام بكل ما كان يحدث على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق.

(*) تم عرضها في المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية في تونس، ديسمبر ١٩٩١ .

منذ زمن ما وحتى الآن حدث تاريخ الموريسكيين الأليم، مع رغبة في اكتشاف
المأساة الكبرى التي هزت المجتمع الإسباني خلال قرنين طويلين.

حتى وقت قريب انتهى هذا التاريخ عندما عبر الموريسكيون حدود شبه الجزيرة
الإيبيرية. كما لو كانوا عند قيامهم بذلك سيفقدون فجأة وجودهم الإسباني وسيكونون
"تاريخاً آخر".

من الغريب أن المؤرخين عندما يشيرون إلى القرصنة المنظمة التي كان يقوم بها
الغرناطيون كرد على معركتهم الخاسرة في شبه الجزيرة و كانوا يهاجمون سواحل
وطنهم القديم ويحصلون على الغنائم في بحار المضيق، كانوا يطلقون عليها قرصنة
همجية. في حقيقة الأمر كانوا لا يريدون التعرف على هؤلاء القراصنة ولا على
الموريسكيين ولا على الغرناطيين المنفيين على الإطلاق. فقلما يحدثنا مؤرخٌ ما، مثل
مارمول، عن مغامرات ومعارك القبائل "الأندلسية" والقادة مؤسسي المدن، كالمنداري،
أو القادة الحاسمين في تعيين الملوك الجدد كالدوغيلي، أو غزاة إمبراطورية أخرى، مثل
جودير Yuder .

من كان يعرف حياة الجمهورية الأندلسية القوية بالرغم من أنها عابرة والتي
أقامها الهورناتشيون في الرباط عام ١٦٢٧؟ كثفت الدراسة عن الموريسكيين في
أراضي المنفى شيئاً فشيئاً، وأطلعتنا هذه الدراسات على القوة الحيوية الرهيبة لتلك
الأقلية الإسبانية التي شكلت، في أحيان كثيرة، بناءات اقتصادية واجتماعية وسياسية
في البلد الذي كان يؤيهم.

مع ذلك يُعرف القليل جدا عن الموريسكيين في المغرب، مع الأخذ في الاعتبار أنه
وصلت إلى هذا البلد الغالبية العظمى من المنفيين، لأسباب جغرافية واضحة.

ربما اليوم، ترجع قلة الاهتمام بهذه الدراسة إلى قلة المصادر، فلا يوجد في
التاريخ الإسباني، ولا المغربي، عناصر كافية تساعدنا على معرفة كيف تطورت حياة
الموريسكيين في وطنهم الجديد.

يجب، إذن، أن نستفيد من أى توثيق، وإن بدا لنا غريباً، بهدف استخراج المعلومات التى تجعلنا نكون مخطئاً سليماً، لنظرة صحيحة للموضوع الذى يشغلنا.

هذه هى حالة الدراسة الحالية، حيث استخدمنا مخطوطات ومطبوعات أخرى، غير معروفة إلى حدٍ ما حتى الآن، ومازال استخدامها قليلاً كقاعدة بيانات لبحث المجتمع الموريسكى فى المنفى. تقدمها لنا الكتابات والحسابات المتعلقة بافتدائات الأسرى، التى نفذت غالبيتها العظمى فى المغرب، وبالتحديد فى تطوان. هذه المدينة التى أسسها الموريسكيون و التى كانت سوقاً نشطاً للفنائم التى تجلبها القرصنة و التى كان ينفذها أساساً المنفيون الغرناطيون.

يجب أن نذكر ما يقوله ابن خلدون عن القرصنة. كان كثير من الأفراد ينفقون أموالهم فى استئجار السفن والتسلح وتحمل نفقات إحدى السفن فى القرصنة، وكانوا يوزعون بعد ذلك المكاسب التى يحصلون عليها. وبوجه عام كان هؤلاء الرأسماليون الصغار يبيعون الأشياء أو العبيد بسرعة إلى أفراد آخرين كانوا أكثر قدرةً وكانوا هم الحكام المحليون. كان هؤلاء الحكام يمكنهم أن يتحملوا النفقات التى كان يفرضها امتلاك الأسرى، بينما كانت مجموعة المفتدين تصل ومعها نقودها وبضاعتها لافتدائ الأسرى. حينئذٍ، كان هؤلاء الذين يحتكرون العبيد يعوضون عن رأس المال والوقت الذى استثمروه.

لقد رأينا افتدائات تمثل فيها النقود التى يكتسبها شخص محلى ما ثروة مهمة.

ولما كان سكان تطوان فى مجملهم تقريباً يشكلهم الموريسكيون المنفيون، فإن المعلومات التى توفرها لنا المخطوطات والوثائق عن الافتدائات تقدم لنا مظاهر كثيرة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وستكمل بعض الكتابات الجديدة - نوعاً ما - دراستنا. سوف نقسم دراستنا إلى جزئين، يتعلق الجزء الأول بالقرن السادس عشر ويتعلق الثانى بالقرن السابع عشر، وهما الفترتان اللتان قلنا إنه يمكن تأملهما عند دراسة القضية الموريسكية. فلكل فترة فيهما خصائصها الذاتية. إن الموريسكى الذى يهرب من الإسلام الذى هزمته الأسلحة، ولكنه حارب للحفاظ عليه فى شبه الجزيرة، لا يساوى الموريسكى المطرود بقوة القرار، وقد عاش الكثير منهم بسلام

على مر القرون، وقد تكيفوا بدرجة أو بأخرى مع انحطاطهم الاجتماعى والاقتصادى. يمكن التعمق فى الموضوع، بالرغم من أننا لا نجد أن هذه هى اللحظة المناسبة للقيام بذلك.

سنقتصر على البحث و التعليق على المصادر الموجودة التى تشير إلى افتداءات القرن السادس عشر، وسننتهى بمصادر افتداءات القرن السابع عشر والتى تتزامن مع الهجرة الجماعية الأخيرة للموريسكيين.

سنبدأ فى عام ١٥٢٣ - عندما كان مؤسس تطوان، سيدى على المندارى، لا يزال حياً - بافتداء حدث فى عصر الامبراطور كارلوس Carlos وسننتهى بافتداء آخر حدث فى عام ١٦٧٧ فى فترة حكم كارلوس الثانى. فترة طويلة مدتها قرن ونصف اختلفت فيها موجات الموريسكيين، التى صبت فى شمال إفريقيا، كما ذكرنا. وكانت الظروف العالمية التى ظهوروا فيها مختلفة أيضاً بطبيعة الحال وكذلك كان البلد نفسه الذى استقبلهم.

وجد أوائل المنفيين أن عائلة الوطاسى حاولت، دون نجاح، مد سلطة بنى مرين. أدت الكارثة التى سببها الغزو البرتغالى للموانئ المغربية إلى تزايد القادة الدينيين الذين كانوا يُعتبرون فى الحال قادة سياسيين و حربيين، بحجة الحرب ضد عدو الإسلام. وقد أسهم أوائل "الأشراف"، السعديين، الذين أقاموا الملكية الجديدة، فى الفوضى العامة و حاولت كل سلطة محلية التحول إلى سلطة إقليمية ثم إلى سلطة قومية. لم يجد المنفيون فى الشمال صعوبات كثيرة لتكوين جماعات ذات حكم ذاتى ومستقلة فعلياً خلال أعوام كثيرة وحررة لكى تنمى بناءاتهم الذاتية. سوف تكون تطوان، فى الحقيقة، مدينة مؤسسة ومشكلة ونامية تحت تأثير ما هو غرناطى. من غرناطة التى سقطت فى أيدي المسيحيين. فقد جعلهم الحنين ينشرون هذا البريق عبر القرون.

بالنسبة للموريسكيين المنفيين فى القرن السابع عشر، فإن الأمر كان مختلفاً جداً، سواء بالنسبة لجانب أو لآخر. حيث أن الموريسكى الذى خرج من إسبانيا فى

القرن السابع عشر لا يشابه الموريسكى الذى خرج فى القرن السادس عشر، إلا فى رغبته فى التعلق ببعض أشكال الحياة التى كانت تحفظ هويته عبر الزمن. كان من بين أشكال الحياة هذه نظرتة المختلفة للطريق الدينى.

ما يفاجئنا فى هذه الحالة هو أنه عندما وصل هؤلاء الرجال إلى بلاد الإسلام - نشير بالأخص إلى الأخبار التى لدينا فى المغرب - وجدوا إسلاماً "خاصاً" مختلفاً كثيراً عن الدين الذى كانوا يحاولون ممارسة سرّاً فى شبه الجزيرة.

لقد وصل الأمر إلى أن يسمونهم "مسيحيى قشتالة"، وفى الواقع، تعرض بعضهم للاستشهاد، كما أثبت لنا ذلك كاتب معاصر للأحداث وشاهد على الحياة فى المنفى، وهو خوان لويس دى روخاس Juan Luis de Rojas فى كتابه "روايات عن بعض الأحداث الأخيرة فى بلاد البربر"، المنشور فى لشبونة Lisboa فى عام ١٦١٣، والذى يتحدث فيه عن الموريسكيين المساكين الذين سرقت السلطات نفسها أمتعتهم والذين كانوا مسلمين فى إسبانيا و مسيحيين حقيقيين فى بلاد البربر، كما يظهر ذلك من خلال أقوالهم وأفعالهم، وقد حاولوا العودة إلى المسيحيين، حتى على شكل عبيد، كما أكد الكثيرون ذلك بدمائهم، فى استشهاد دائم، وكانت تطون شاهداً على ذلك، كم من الرجال أحرقوا أحياءً لاعتراضهم على العقيدة وكم جرحوا وماتوا بالعصا والدبابيس... (ظهر الصفحة ٦٠) (*) .

لقد نسوا اللغة العربية، وكانوا يلبسون على الطريقة الأوروبية، وبطبيعة الحال كانت عاداتهم تتغير، بطريقة جوهرية، إلى عادات الوطن الجديد.

كان هناك الكثير من صعوبات التكيف خلال الفترة الأولى، ولكن لأنهم وجدوا بلداً

(*) لنا أن نبدي كثيراً من التحفظات على ما ورد فى هذا الكتاب بل وفى الغالبية العظمى من كتابات القرن السادس عشر، فقد كانت كتابات دعائية إلى أقصى حد، صحيح أن الموريسكيين قد وجدوا إسلاماً أكثر تشدداً فى البلاد التى هاجروا إليها، لكن ذلك لم يدفعهم إلى كراهية الإسلام وحب المسيحية ولم يحدث أبداً أن أحرق الموريسكيون أحياءً فى البلاد التى هاجروا إليها. (المراجع)

مشابهاً في ما هو فوضوي، على رأسها العائلة السعدية التي كانت على وشك الاحتضار، من جراء الحروب الأهلية، فقد استطاعوا التمرکز في جماعات مستقلة وممارسة طريقتهم في الحياة لبعض الوقت.

يمكن أن يعطينا تأسيس الهورناتشييين للرباط نموذجاً لما كان عليه المنفى في هذه الفترة الثانية.

و بعدما أعلن الهورناتشيون أنفسهم جمهورية مستقلة و اشتغلوا بالقرصنة، مثل أقرانهم في تطوان، كانوا شبه دولة في نظر الدول الأوروبية، التي توصلت معهم إلى توقيع معاهدات وتعيين سفراء، إلى أن كانت الخلافات بينهم وبين باقي الاندلسيين المنفيين وإنشاء سلطة مركزية قوية سبباً لإنهاء الحكم الذاتي الموريسكي.

يمكن أن تكون تطوان في الشمال والرباط في الجنوب أمثلة للمنفى الموريسكي في المغرب. لم يحظ هذا المنفى بكثير من الدراسة حتى يومنا هذا ولذلك سنسمح لأنفسنا في هذه الدراسة أن نقدم عدة مظاهر لم تبحث حتى الآن.

القرن السادس عشر. النصف الأول

إن الوثيقة الأولى التي نستطيع أن نستخلص منها معلومات مهمة هي عن عملية افتداء أسرى حدثت في عام ١٥٢٣ .

خصص كونت بينابينتي Benavente ، السيد ألونسو بيمنتيل -Alonso Pimlen-، بعض الصدقات لافتداء الأسرى، وقد نفذ العملية شخص يدعى خوان أورتيث دي كويار Juan Ortiz de Cuéllar، وهو الذي جمع عدة وثائق للمبالغ المدفوعة و للأسرى المفتدين مع الأسماء الخاصة بكل منهم وتكلفة افتداء كل واحد منهم، وقد بلغ المجموع ١,١٨٥,٠٠٠ مرابطي، بالإضافة إلى نفقات الافتداء^(١). يجب أن نضع أنفسنا في سياق تاريخ المغرب عامة، وتطوان خاصة، لكي نفهم الشخصيات المتواجدة وأهمية كل واحد منها.

مازال مؤسس المدينة، سيدي علي المنداري، حياً، وكان القائد الغرناطي السابق لبينيار Pinar، والذي ترك الحرب و معه ثلاثمائة محارب من أفضل النبلاء الغرناطيين، قبل عام ١٤٨٥، وهاجر إلى المغرب و أعاد بناء أطلال تطوان. تزوج، في الأراضي المغربية، من ابنة حاميه وصديقه المفضل، سيدي علي بن راشد، مؤسس الشاون. كانت هذه الزوجة، ست الحرة تتدخل في شئون الحكومة التطوانية في غياب القائد. نراها في وثائق عديدة تقرر أعمال القرصنة، وفي الواقع فإنها حكمت المدينة خلال شيخوخة المنداري التي استمرت طويلاً وكان المنداري بالإضافة إلى ذلك، كفيلاً.

مات ابن راشد في عام ١٥١١ ، وخلفه ابنه مولاي إبراهيم في حكومة شاون ومنطقة جبلية واسعة في شمال البلد. سريعاً ما تحول هذا الابن إلى الشخص المفضل عند السلطان مولاي شيخ الوطاسي الذي ساعده على أن يعتلي العرش.

كان مولاي إبراهيم عن طريق أخته ست الحرة هو المالك الحقيقي للمصائر في تطوان حتى وفاته عام ١٥٣٩ . كان اسم سيدي علي المنداري العجوز غير التقدير على رأس الحكومة التطوانية لكن، في الحقيقة، كانت زوجته هي التي تحكم، تحت حماية سلطة وتأثير صهره، الوزير الأول في بلاط فاس.

في عام ١٥٢٣ طفى عمران المدينة التطوانية البدائية على الأسوار الأولى للمنداري، وزاد عدد السكان بالموريسكيين الذين كانوا يبدأون في الخروج من إسبانيا، بشكل سرى ولكن بأعداد كبيرة. ومع ذلك، فإن المؤسسين، (هؤلاء المئات من المحاربين الذين صاحبوا المنداري، والذين أهلك الحروب ونكبات أخرى، دون شك، الجزء الأكبر منهم)، كانوا يشكلون الصفوة الاجتماعية ولن نجد، في هذا الوقت، أكثر من أسماء قليلة مقشّلة. كان المحاربون الغرناطيون القدماء، وكلهم من بني سراج، مثل حاكمهم، الذي كان نصيراً وفيّاً لأبي عبد الله الصغير، يحافظون على أسمائهم الغرناطية التي تعود إلى العصر الإسلامي. بالطبع كان البعض الذي يشغل مناصب سلطة من المناصرين الأكثر ولاءً للحاكم ولعشيرته المقربة. من الممكن أن يكون الحكام مرتبطين ببعضهم البعض بروابط مصاهرة. يؤكد لنا مارمول وجود سلالتين تورطتا في صراعات أهلية فيما بعد.

هذا التاريخ المكثف لتطوان، فى شخصياته، مهم لمتابعة المعلومات التى سوف نستخلصها من المصادر بدقة أكثر.

فى وثيقة لعام ١٥٢٣ يوجد فقط ١٧ مالكا للعبيد، يتوزع بينهم المليون ومائتين ألف مرابطى، و هو المبلغ الذى سوف يتكلفه اقتداء الأسرى، كان السبعة عشر مالكا هؤلاء -إذا تحدثنا بمصطلحات تجارية - هم تجار الجملة فى السوق، إلى أن يصل المسيحى المقبوض عليه كغنيمة إلى سلطة التجار فإنه يمر عبر أيدي رئيس أو قائد قارب القرصنة، الذى كان يجب عليه أن يبيعه فى الحال لكى يدفع نفقات السفن وملاحيها. كان يظهر بين المشتريين هؤلاء التجار أو بالأحرى الوسطاء الذين كانوا يعيدون بيعهم، إما فى سوق تطوان ذاته، أو كانوا يُنقلونهم إلى الجزائر، إذا لم يكن السوق التطوانى مناسباً بسبب الهدنات أو لأسباب أخرى، هناك بين التجار ثمانية فقط جمعوا قيمة بيع تزيد عن ٨,٠٠٠ مرابطى، وإذا استثنينا ملك بيليث، الذى كان يرسل أيضاً بضاعته إلى سوق تطوان، فسبقى سبعة رأسماليين أقوياء، سنرى من هم.

أولهم هو مولاي إبراهيم الذى حصل على ضعف ما حصل عليه صهره، المندارى، القائد الإسمى لتطوان، (و قد أوضحنا من الذى كان السيد الحقيقى للموقف). تجاوزه بقليل صهر آخر للقائد، ويدعى ابن على، يليه أحد أعمام مولاي إبراهيم واسمه على فرنانديث Alf Fernández أو مارتينو النصرانى Martino Elche كما كان يسميه المؤرخون البرتغاليون لذلك العصر. الحكام الآخرون الذين حققوا مبيعات بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ مرابطى، هم الحاجب سعيدى Salde وشيخ ترغة، و هى ميناء الخروج من منطقة الشاون، حيث كان بالتاكيد من أقرباء مولاي إبراهيم. و شخصية ثالثة، مفضل، وهو غير معروف كلياً حتى الآن بالنسبة لنا، أول مرة نرى فيها اسمه كانت فى وثيقة مرتبطة بالأسرة الحاكمة من تطوان، لن تكون هذه هى المرة الأخيرة، وستسجل مناصبه والتطور السياسى والاقتصادى لأفراد ذريته والذين ظهروا كعائلة قوية.

مفضل، و ابن على، هما اثنان من النبلاء المحاربين القدامى الذين صاحبوا مؤسس تطوان فى منفاه، توجد إشارة متعلقة بالثانى، ابن على، والذى باع عبداً،

يدعى خوان راميرث Juan Ramírez ، وظل فى حوزته على مدى ٢٣ عاماً . هم، إذن، مؤسسو تطوان البدائية.

من بين الخمسة وستين عبداً الذين تم افتدائهم، كان ما يقرب من ٢٥ ٪ يخص المتحكم فى سياسة مملكة فاس، كان لديه عبيد فى إقطاعيته فى الشاون، وفى بلاط فاس وحتى فى سلا، وقد حصل تقريباً على ثلث الذى دفعه المفتدون.

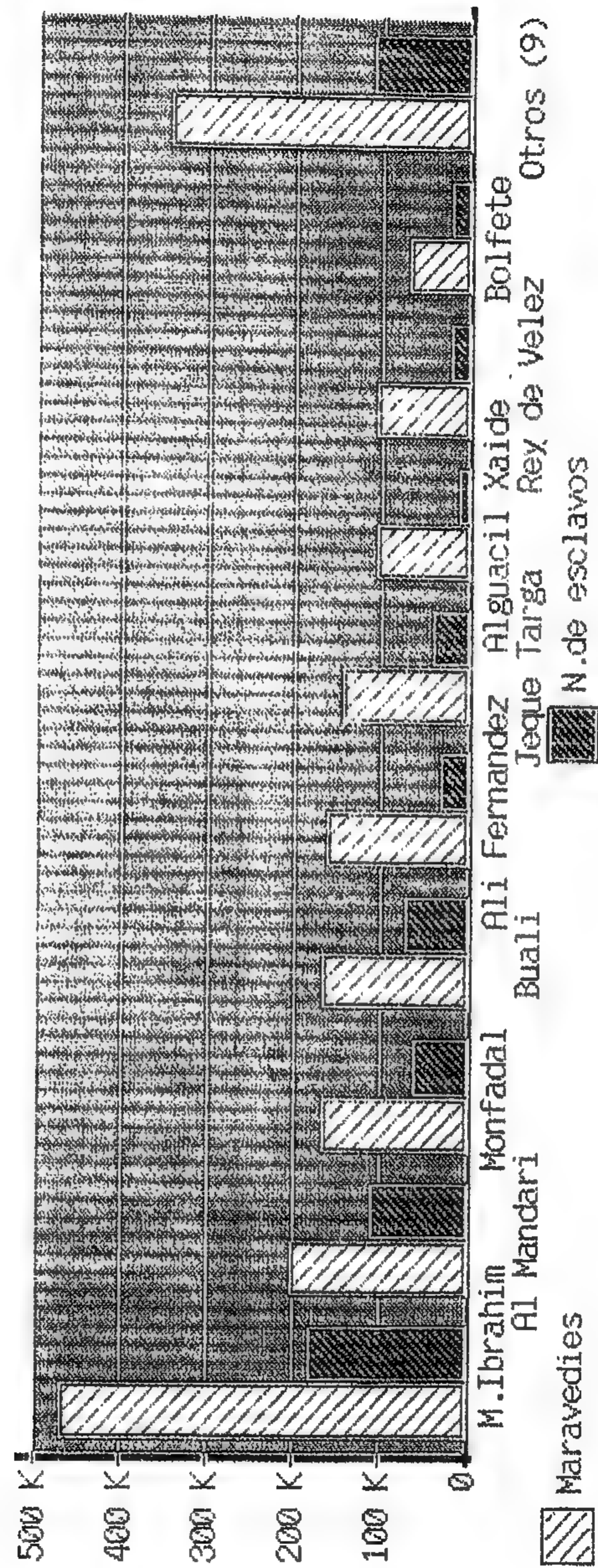
يلى ذلك أفراد عائلته: المندارى، الذى يُذكر حتى الآن على أنه قائد تطوان، وابن على، قائد أفراد بوعلى، والذين ذكرهم مارمول كواحدة من العائلات الحاكمة فى المدينة، وهو بالتاكيد من عائلة المندارى ومفضل الذى، إذا لم يكن من العائلة فهو قريب منها.

نجد فقط اسماً مقشراً، عيسى بالومار Isa Palomar ، ربما يكون موريسكياً دخل متأخراً فى المجتمع التطوانى، وكان لديه عبد واحد فقط قدم له ٥٠ أوقية من الفضة الموريسكية، عندما كانت الأوقية فى هذا الوقت تعادل ٣٢٠ مرابطيا، وبذلك فإن سعره يصل إلى ١٦,٠٠٠ مرابطة . على نفس المستوى باع الرئيس غزالى Gacel عبداً آخر، هذا الرئيس هو واحد من قادة سفن القرصنة الكثيرين الذين كانوا يستولون على غنائمهم لإحضارها الى سوق تطوان.

لقد شككنا فقط بوضوح فى أحد سادة العبيد الذى لم يكن موريسكياً، والذى وُصف بكلمة بربرى، كان بالتأكيد أحد ساكنى الجبال المحيطة بالمدينة.

كتلخيص للملاحظات المستخرجة من هذا الافتداء، تجدر الإشارة إلى أنه فى عام ١٥٢٣، والذى لا يزال المندارى يحكم فيه، على الأقل إسمياً، كانت توجد أقلية صغيرة من الغرناطين تشكّل السلطة الاقتصادية، والى كانت تشارك السلطة السياسية، لأن المدينة كانت، بكل تأكيد، فى أيديهم. لم تستطع الأسرة الوطاسية المتهاكمة والضعيفة أن تصل الى السيطرة المباشرة على ميدان القرصنة، خاصةً بينما كان مولاي ابراهيم حياً. كون حكم الأقلية الغرناطى هذا نفس النبلاء الذين شكلوا النواة المؤسسة، والذين يتميز من بينهم اسمان، بجانب المندارى: مفضل وابن على.

Redención de 1523



شكل (أ)

من الصعب جدا حساب عدد سكان تطوان، تضاف العديد من الهجرات المستمرة إلى تسجيل مبدئي من ١,٥٠٠ إلى ٢,٠٠٠ نسمة، بحيث قارب عدد السكان عند بداية القرن السادس عشر على ٣,٠٠٠. يشير مؤرخ برتغالي في عام ١٥١٦ إلى وجود ٢٠,٠٠٠ شخص في تطوان، ومع افتراض أن يكون نصف المدنيين فقط من المدينة، فهذا يعطينا ١٠,٠٠٠ نسمة، هذا الرقم كان يوجد فقط في المدن الكبرى في هذا الوقت. ومن بين الـ ١٠,٠٠٠ نسمة هؤلاء يوجد ١٧ فقط يبيعون عبيداً و ٩ فقط يعتبرون أثرياء جداً. تعتبر نسبة ١٧٪ و ٠,٨٪ على التوالي، كما هو ملحوظ، نسبة صغيرة جداً. هل يعنى هذا التفاوت في توزيع الثروات، أن الأساس هو أصل الاضطرابات والانقسامات التي مزقت المجتمع الموريسكى؟

فقد امتزج عاملان في اعتقادنا: الأول هو الجماعات أو السلالات التي ظهرت مرة أخرى في المنفى، والآخر هو سوء الأحوال الاجتماعية التي أدى إليها التوزيع غير المتساوي تماماً للمكاسب التي يتم الحصول عليها من نشاط القرصنة، المصدر الاقتصادي الأساسي للمدينة.

الوثيقة التالية، بعد خمسة وعشرين عاماً، لم تفعل أكثر من تأكيد شكوكنا؛ حيث أنها تتناول افتداء أسرى لعام ١٥٤٨.

أتاحت لنا وصية ماركيز بينا Villena الثاني، السيد ديفغو باتشيكو Don Diego Pacheco، رؤية تالية لموت المنداري، الذي حدث عام ١٥٤١.

فلكى ينفذ رغبة والده، خصص السيد ديفغو الوريث مليون ونصف مرابطة لدفع افتداء الأسرى فقط، بالإضافة إلى تحمل النفقات المرتبطة بكل ما يترتب على نشاط الافتداء. نفذ الافتداء في عام ١٥٤٨.

هنا نجد شخصية غريبة، تستحق فقرة منفصلة لأسباب كثيرة، لكن من بينها، تلك التي تتصل بالعلاقات مع القادة التطوانيين، والتي ستجعلنا نبحت بإيجاز مظهراً سياسياً مهماً للمنفى الموريسكى في هذه اللحظة من القرن السادس عشر.

قرر الماركيز الشاب أن ينفذ رغبة أبيه الأخيرة ولذلك أراد، وهو عالم قبل أى شىء، أن يضع كل ثرواته وثقته فى الأب فرناندو كونتريراس P.Fernando Contreras . كتب إليه رسالة فى تطوان، راجياً إياه أن يتحمل مسئولية الافتداء . اعتذر الأب كونتريراس مستنداً إلى أسباب قوية، بعضها مشروح والآخر غير مشروح. هذه الأسباب ستجمله، ليس بعد أيام كثيرة، إلى إشبيلية، حيث مات.

لم تكن أعذار الكاهن قليلة الأهمية. فقد كتب له الأمير فيليبي Felipe عن بعض الشئون التى تحتاج إلى مقابلة شخصية، والتى من أجلها كان مضطراً إلى الرحيل إلى إشبيلية، ولذلك، لم يكن يستطيع البقاء فى تطوان لتنفيذ الافتداء، كما رجاه الماركيز^(٢).

الذى لم يشرحه، ولا حتى ذكره الأب كونتريراس، هو نوع الأعمال الذى كان يحتاج إلى لقاء شخصى، بين الأمير فيليبي والأب، وهذا هو، بالتحديد، ما يهمنا الآن إظهاره، سنسعى إلى تقديم أخبار عن هذا الأمر بإيجاز.

قضى الأب كونتريراس عدة أعوام فى تطوان فى المهمة الصعبة والمؤلة جداً لافتداء الأسرى، ولكن لم يكن هذا النشاط فقط هو المنتشر فى المدينة، لقد تعرف على المؤسس، سى على المندارى، العجوز جداً، والذى كانت له معه علاقات صداقة حميمة، حتى أنه ضمن للحاكم ثقة الكاهن، وقد حاول الكاهن، فى الشهور الأخيرة من حياة القائد، السعى إلى محادثته، من المحتمل أيضاً فى بحر المحادثات المستمرة واليومية تقريباً، بين الكاهن والحاكم، أنهم كانوا يتناولون موضوعات سياسية. كان على المندارى يذكر أيامه كمحارب مؤثر فى بلاط أبى عبد الله الصغير وكان كونتريراس يحدثه عن إسبانيا مختلفة؛ وهى إسبانيا الامبراطور كارلوس. كان الكاهن يفكر فى جمع ثمار هذه المناقشات عند عودته من إحدى افتدائه، فى عام ١٥٤١، عندما كان عائداً إلى تطوان، عبر إشبيلية، وعرف أن المحارب العجوز قد مات قبل شهور قليلة^(٣).

مع ذلك فقد ترسخت علاقات المفتدى بالطبقة الحاكمة الغرناطية، مالكة المصائر فى تطوان، لأننا نراه، عبر وثائق متعددة محفوظة، له علاقات حميمة جداً، مع أحمد حسن، الذى تولى سلطة المدينة بعد موت المندارى بقليل.

وفقاً لهذه الوثائق التي ليس هذا وقت تفصيلها، كان حسن يعرض على الإمبراطور كارلوس سلسلة من الاختلافات، منذ أن استسلم بكل بساطة للقوات التي بعثها الإمبراطور، حتى أنهم بعثوا له جيوشاً لكي يغزو هو نفسه مملكة فاس من أجل إسبانيا.

كان الأمر يأخذ مأخذ الجد من قبل حسن والأب كونتريراس، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمناصب العليا الإسبانية التي كانت تعتقد أن تلك المشاريع غير معقولة^(٤).

قبل موت الكاهن بقليل، في عام ١٥٤٨، وقع هذا الحدث المعلن في عملية الافتداء التي ندرسها، أي رسائل الأمير فيليب إلى الأب كونتريراس لكي يتقابل الاثنان في إسبيليه.

لذلك، فمن المؤكد أن الاجتماع بين الكاهن والأمير كان له هدف، وهو إعلام الأخير عن المحادثات والاقتراحات التي قدمها القائد التطواني للدولة الإسبانية.

غير أنه، سواء أكانت هذه المشاريع خيالية أو واقعية، فإن ما نعرضه هنا الآن يشكل بالنسبة لنا لغزاً، تطلعات ورغبات حسن، هل هي نموذج فقط لاقتراح شخصي أم أنها تلبى رغبة جماعية للأمة الموريسكية التطوانية؟

كان النبيل الفرناطي القديم يبدو متأكداً جداً من غزو مملكة فاس، لكونه تابعاً للإمبراطور، ولأنه كان يعتمد على النخبة الحربية التي كانت تبقى في السلطة.

على الجانب الآخر، عندما نقراً واحداً من اقتراحاته لكي يوصلوه إلى الجنوب - أي إرساله إلى أراضٍ أخرى يُعتقد أن بها منازعات أقل - نتحقق من وجود أغلبية موريسكية لم يكن يُعتمد عليها في أي مشروع. إذا استطعنا أن نستخلص نتيجة صحيحة، فستكون أنه كان هناك اتجاهان في قلب الأمة الموريسكية التطوانية: الأقلية الأرستقراطية، (ربما كانت هي طبقة النبلاء الفرناطية القديمة، أو ذريتهم، الذين بحثوا عن سبل اتفاق مع الإسبان حتى يطمأ هؤلاء الإسبان مملكة فاس بمساعدهم).

والغالبية الأخرى التى كان يشكلها صناع وتجار وبحارة ورجال دين والطبقة الوسطى من الشعب، والذين هربوا وكانوا يستمرون فى الهروب من شبه الجزيرة، مع علمهم بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى الهابط الذى كان للموريسكيين هناك، وأنهم لم يكونوا يريدون العودة فقط، بل كانوا ينفرون من فكرة السقوط تحت سيطرة حكومة مسيحية.

بطبيعة الحال كان يوجد أنصار لكل فريق، ولكن كان هناك مجالان متنافسان فى الجماعة الموريسكية التطوانية. يثبت لنا مارمول ذلك وتؤكدده لنا مصادر أخرى سوف نراها تباعاً.

فيما يبدو، بينما استمرت النواه الحربية متماسكة، لم توجد سلطة أخرى فى تطوان غير سلطة المندارى وخلفاؤه المباشرين، ست الحرة وحسن.

زاد عدد السكان الموريسكيين، ليس من قمة الهرم السكنى، ولكن من قاعدته، وقد جلبت هذه الزيادة، فى بعض الأحيان، اختلالات اجتماعية اقتصادية، انعكست آثارها فى السلطة السياسية. إذا أضفنا إلى ذلك الظروف الخارجية، المنبثقة من التقلبات السياسية للملوك المغاربة، الوطاسيين والسعديين، فسنجد أنه لم يكن من السهل أبداً متابعة تقلبات المجتمع الموريسكى، لا فى تطوان، ولا فى أى جزء به مجموعات مستقلة، ولا فى جماعات مرتبطة إلى حدٍ ما كمجموعات الأندلسيين التى كانت فى خدمة الشرفاء.

ظهر فى وثيقة افتداء عام ١٥٤٨، تقريباً، نفس عدد ملاك العبيد الذى ظهر فى عام ١٥٢٣ وتبين بالطبع، نفس تركيز البيع على شخصيات مركزية، كالقائد حسن ومفضل، بالرغم من أن بعضهم اختلف مؤقتاً، كابن على.

بما أن حسن كان يعتبر هو ذاته من أصل مدينة باثا، فهذا يجعلنا نفترض أن مفضل أو منفضل هذا هو نفسه صاحب الافتداء السابق، يعنى، أن جزءاً من الجيل الذى ذهب إلى المنفى كان لا يزال موجوداً، عندما قامت الحرب الغرناطية. ذكر مفضل هنا فى منصب القاضى، ربما كان الثانى فى الأهمية بعد حسن، كصاحب الأمر والنهى فى التأثير على البعض والبعض الآخر.

هناك أمر جديد فى هذا الافتداء يستحق الملاحظة، وهو وجود عدد من اليهود، وهذا يدلنا على وجود مستوطنة عبرية بجانب الجماعة الموريسكية، تتعايش معها ولها تأثير ما على السلطة الاقتصادية، وجدت هذه المستوطنة العبرية، من اليهود الغرناطين، منذ الأعوام الأولى لتأسيس المدينة، لكن ظهر نشاطها حينئذ فى عملية شراء وبيع العبيد، وكما هو طبيعى، فى الثروات التى كانت تحت تصرفها. يمكننا التأكيد، على الأقل فيما يتعلق بتطوان والشاون، أن كلتا الأقليتين، العبرية والموريسكية، قد تعايشتا فى المنفى دون مشاكل كبيرة، ربما بمشاعر أكثر أخوية عن تلك التى كانوا يشعرون بها فى شبه الجزيرة.

بالنسبة لبعض التفاصيل الاقتصادية للافتداء، يبدو أن أكثرها أهمية هو ما يلى: فى المقام الأول، كان للقائد حسن أكثر من ٢٠ عبداً ومليون مرابطى. قارب نصيبه من المنافع ٤٩٪ من المجموع الكلى. وهو جزء يقترب من نصيب الأسد، لأن من تلاه، القاضى مفضل، لم يصل حتى إلى نصف هذه النسبة، فقد وصل بالتحديد إلى نسبة ١٧,٧٪.

كان الباكون بعيدين جدا عن هذه النسب، يوجد يهوديان، اسحق بن فريمى Isaac Ben Frime، رئيس الجماعة اليهودية، بنسبة ٧٪ وشخص يدعى كانانيو Cananeo بنسبة ٦٪. يصل يهودى ثالث، روتى Rute - الذى ظهرت مغامراته كمترجم ودبلوماسى فى وثائق عديدة- إلى نسبة ٥٪ تقريباً. نشأ، إذن، يهود آخرون بجانب الرأسماليين الموريسكيين، وقد انتفعوا بكل ما استطاعوا من أعمال القرصنة والافتدات. فى هذا الافتداء كان للعبريين نسبة تقترب جدا من ٢٠٪ من قيمته، وصلوا إلى هذه النسبة ليس فقط بالعبيد المملوكين لهم ولكن ببيعهم، كسماسرة، للأسرى الذين يُنقلون من أماكن أخرى، على سبيل المثال، فى القصر الكبير، حيث يبدو أنه كانت هناك مجموعة موريسكية وأخرى يهودية ذات أهمية أكيدة.

استطاع باقى أسياد العبيد اقتناء ثلاثة عبيد كحد أقصى، وأحياناً كان يشترك شخصان فى ملكية نفس العبد.

كان هذا الأمر غير نادر بسبب صفات البضاعة التي كانت للأسرى. وقد باع أحد الفقهاء صبيًا بسعر مرتفع، حيث كان يعده لغرس عقائد الإسلام.

باعت امرأة، تدعى أروسيا Aruxela، عبدها التابع لها. هذا هو الافتداء الأول الذي تظهر فيه امرأة مالكة للرقبة. و بالنقود التي حصلت عليها من بيع عبدها الوحيد و تبلغ ١٢٢ أوقية محولة إلى ٧٥ دوقية حيث أن نسبة الدوقية إلى الأوقية المتعامل بها في ذلك الوقت كانت ١٣/٨، كانت أروسيا تستطيع شراء بيت متوسط بسعر ٢٨, ١٢٥, ٧٧ مرابطى، أو أن تنفق، خلال عام، ٧٧ مرابطياً يومياً في العيش بمستوى أكثر رخاءً، أو أن تنفق النصف فقط خلال عامين دون أن ينقصها ما لا يمكن الاستغناء عنه. كانت أروسيا - إلى جانب شخص يدعى خالوى Jalul - أكثر ملاك العبيد تواضعاً.

يمكن لبعض الأسعار المأخوذة من عام ١٥٥٠، أو بعدها بعامين، أن تخدمنا كدليل لى قدر أهمية امتلاك العبيد. كان يمكن شراء زوج حذاء بسعر ٦٧ مرابطى، وزوج حذاء ذى كعب عال بسعر ٢٣٨ مرابطى، وحذاء من كتان بسعر ٣٨ مرابطى، ومعطف قصير بسعر ٥٧٨ مرابطى وقميص بسعر ٢٠٤، كان السروال المنقوش يتكلف ٤ ريالاً حيث يساوى الريال ٣٤ مرابطى فيكون ثمنه ١٣٠ مرابطى. كان يلزم للأكل يومياً ١,٥ ريال، أى ما يساوى ٥١ مرابطى، بالرغم من أنه كان يمكن تغطية نفس الاحتياجات بمبلغ أقل، حتى بالنصف، و ندرك، على سبيل المثال، أن فطيرة شعير وزنها نصف كيلو كان يمكن شراؤها بسعر ٢ مرابطى. إذا كانت ممتلكات أروسيا ثمرة معاشها كأرملة، أو من إرثها عن أبيها أو شىء مشابه، فليس هناك مجال للشك أن المبلغ كان يمثل شيئاً طيباً بالنسبة لها.

كان رئيس المجموعة اليهودية التطوانية، بن فريمى، والذي كانت تُمدح إنسانيته فى التعامل فى صفقات العبيد، يمكن أن ينفق فى عام واحد أكثر من ٥٠٠ مرابطى يومياً، وهذا ما كان يسمح له بالعيش فى مستوى السادة العظماء.

لا نقول شيئاً عن الممتلكات التى يكتنيتها مفضل أو حسن. هذا الأخير كان يستطيع شراء اصطبيل رائع وجميل فيه أكثر من ١٣٠ حصان بتكلفة ١٠ آلاف مرابطى^(٥).

يجب الأخذ في الاعتبار، بالإضافة إلى ذلك، لكي نفهم فيض الثروات التي كانت تدخل البلاد، من أن الافتداءات كانت تتكرر كل عامين أو على فترات أقل. وفي بعض المرات، كالحالة التي تدرسها، كانت هناك عدة افتداءات في نفس العام. هنا يُذكر بعض أعضاء جمعية "الثالوث المقدس" الذين كانوا يفتدون في تطوان، عندما وصل الأشخاص الذين أرسلهم الماركيز والذين أدلوا بشهادتهم لكي يثبتوا النقود التي دفعوها، في هذا الافتداء سمح حسن للمفتدين أن يحرروا من يرغبون، ولكن لم يكن الأمر هكذا دائماً. بعد ذلك سنرى المبالغة التي أظهرها قادة آخرون حيث كانوا يشترطون أن يكون عبيدهم هم أول من يتم افتداؤهم، مهما كانت جنسيتهم أو حالتهم. بل أكثر من ذلك، فلم تكن البضاعة في حالات جيدة دائماً وكانت تؤخذ افتداءات عن رجال مرضى أو على وشك الموت، دون أن تتسبب وفاة هؤلاء التعسفين في إرجاع المبالغ المحصلة.

سوف نتأمل دراسة مختلفة لبنود الافتداءات المتتابعة، حيث أن الافتداءات نفسها تؤثر في أشكال الحياة لحكام وشعب الأمة الموريسكية التي كان مصدر الثروة الرئيسي لها في تطوان يتمثل في القرصنة ومشتقاتها.

قُدمت لنا بالخطوط العريضة بانوراما للموريسكيين التطوانيين في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهي الفترة التي حكم فيها المنداري وأتباعه الغرناطيون المدينة وأعطوها صفاتها الخاصة.

لدينا وثيقتان أخرتان للنصف الثاني من القرن السادس عشر، هذه المرة منشورتان، و تتحدثان بالمثل بين السطور، عن كيفية تطور المجتمع الإسباني - الإسلامي المهاجر، حتى وصلت الموجة النهائية من المطرودين. وقعت أحداث محددة بين هاتين الوثيقتين، البعض منها حاسم، وبالأخص لوقف أو استمرار الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به الموريسكيون في المدينة التي أسسوها.

كانت هذه الفترة، من الربع الأخير للقرن السادس عشر، مشوشة إلى حد ما، فيما يتعلق بالأخبار عن الأمة الموريسكية. يقدم لنا كاتب عصر النهضة، مارمول

كارباخال، بعض المعلومات، حيث يتحدث عن الصراعات الأهلية التي تفجرت في تطوان بين أفراد بوعلی وأفراد بوحسن^(٦) .

حصل سيدي حامو، قائد أحد الأحزاب، على السلطة أخيراً، و أباد معارضييه، حتى أن السلطان أرسل قائداً موريسكيًا آخر، الدوغيلي، مع ألفى جندي أندلسي مسلح أطاحوا بسيدي حامو وأعادوا إرساء السلام في تطوان.

يحتفظ مصدر آخر غير منشور بآثار هذه الأحداث، مؤكداً أخبار مارمول، إنه تاريخ سبتة، الموقع البرتغالي القوي الذي كان قريباً من مسرح الأحداث، وبالتالي فهو شاهد على الكثير من الأحداث وسجل للشخصيات التي تتحرك على الحدود التطوانية، قام كوريبا دي فرانكا كاتب هذا التاريخ، الذي كتبه في منتصف القرن الثامن عشر، بتعريف ووصف إعادة إنشاء تطوان بواسطة المنداري وأتباعه الغرناطيين، وذلك في طبعة مارمول، لكنه - كمؤرخ سبتى - يضيف المشاهد البارزة التي حدثت في الموقع، عاماً بعد عام، والتي لم يصل أى منها أو يستطع الوصول إلى مسامع مارمول كاربخال بسبب صدها المحلي الضيق؛ على سبيل المثال، لجوء الحكام التطوانيين إلى سبتة عندما كان يقترب منهم الخطر المميت، إنها حالة كثيرة التكرار، كما سنرى، في التاريخ السياسى المغربى المضطرب.

يذكر المؤرخ السبتى، ناقلاً عن مارمول، لأول مرة سى حاموس (sic) Si Hamus كحاكم لأحد الأحزاب، وبعد ذلك يتحدث عن تطوان قائلاً: "كانت مأهولة بالكثير من اليهود التجار والمسلمين الأندلسيين من عائلات بألقاب كارديناس Cárdenas و كابريرا Cabrerias ومندوثا Mendozas ولوكاس Lucas وبايس Paes وأوليباريس Olivares وآخرين كانوا يحتفظون بأدوارهم وأوراقهم، على أمل أن يصل الوقت الذى يساعدهم فى امتلاك منازلهم، والتي يقولون إن المسيحيين احتلوها ظلماً"^(٧) .

تُنقل المفاتيح الشهيرة، التي حفظها الموريسكيون لبيوتهم الإسبانية، هنا فى الوثائق التي تثبت ملكيتهم إياها .

فيما يتعلق بالمغرب وبالتحديد بتطوان، كان المؤرخ التطواني الشهير محمد داوود يؤكد أنه لم ير مطلقاً هذه المفاتيح، ولم يعرف أنها كانت لدى أحد. نحن نضيف أنه من الممكن أن يكون لدى بعض العائلات وثائق أو أوراق، كالتى أظهرتها لنا ذرية الحضرى فى الشاون، ولكن ليست مفاتيح. من الغريب أن هذه الأوراق التى نعرفها هى صلوات مكتوبة باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية. هل كانت اللغة الأعجمية aljamiado تستعمل بين الموريسكيين المنفيين إلى تطوان والشاون؟ لم نستطع أن نكشف وثائق أخرى غير المعروضة قبل ذلك ولا آثاراً أكثر أو خبراً يفيد استخدامها، بالرغم من أننا نفترض أنه فى حالة وجودها سيكون الموريسكيون هم من فعلوا ذلك فى الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية^(*). يذكر كورييا دى فرانكا مرة أخرى حامو كقائد تطوان فى أغسطس ١٥٦٢^(٨).

يظهر كل من تاريخ ١٥٦٢ وحامو القائد التطواني كذلك فى وثيقة من ذلك العصر^(٩). ولدينا أخبار عن حسن، وريث المندارى، فى نهايات عام ١٥٥٨^(١٠). لذلك فإن الصراعات الأهلية التى حكى عنها مارمول حدثت بين عامى ١٥٥٨ و ١٥٦٢ وليس فى عام ١٥٦٧، كما يؤكد كاتب عصر النهضة.

بقى سيدى حامو عدة أعوام حاكماً للأمة الموريسكية الغرناطية التطوانية، وربما كان عام ١٥٦٧ هو تاريخ خلع ونفيه إلى فاس، كأسير للشرىف. يعطينا فرانكا أخباراً غير مسبقة عن الشخصية: سيدى حاموس (هكذا ورد الاسم) Zidi Hamus هرب من فاس وجاء إلى سبتة، فى عام ١٥٧٠ وركب سفينة كوسمى لورينثو Cosme Lorenzo وعبر إلى طنجة، فى سفينة أخرى كانت معه، لم يبلغ أمر مفاوضاته إلى أنصاره المقربين^(١١).

تبدو لنا جديدة كذلك المعلومات التى أدرجها كورييا فرانكا فى الخبر السابق وهى: ... فى عام ١٥٦٩، الذى أبحرت فيه السفن والمراكب الشراعية التى طلبها مسلمو

(*) ليس هذا الاحتمال بعيداً، فالموريسكيون الذين حرموا من التحدث بالعربية فى إسبانيا كانوا يجيدون الإسبانية فقط وقد درسوا الفقه الحنفى فى تونس مترجماً إلى اللغة الإسبانية. أنظر المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية، (المراجع)

مملكة غرناطة، من تطوان بأمر ملك فاس لكى تحرض موريسكى جبل روندا Ronda والبشرات Alpujarra لكى يحدثوا شغباً فى نفس الوقت... (١٢) .

تتناول، كما نستطيع أن نرى، المساعدة التى طلبها الموريسكيون الثائرون فى نهايات عام ١٥٦٨ والتى حاول إخوانهم من تطوان إعطاءهم إياها، عبر الطريق البحرى باستخدام سفن القرصنة التى لديهم. سوف يُذكر اسم رئيسين أو قائدين لهذه المراكب بعد ذلك: الرئيس كالاتات Calafat المرعب والرئيس روخو الشجاع Rojo (١٣). كلاهما ذورنين إسباني إسلامي واضح فى أسمائهم.

نترك حالياً تاريخ سبته الذى كتبه فرانكا، لكى ندخل فى وثيقة أخرى جديدة تقدم معلومات أكثر عن المجتمع الموريسكى، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر.

هى الأوراق التى تقدم حسابات الافتداء الذى تم فى تطوان عام ١٥٧٩ ، حيث كانت المدينة لا تزال مليئة بالموريسكيين، لكنهم لم يكونوا يختارون سلطتهم العظمى، بل كان يقيمها الشريف سعدى حاكم البلد.

النصف الثانى من القرن السادس عشر.

إن افتداء عام ١٥٧٩ فريد لأسباب متعددة، ففى المقام الأول هو أول افتداء يتحقق فى المغرب بعد هزيمة الملك سباستيان D.Sebastián فى معسكرات القصر الكبير، فى أغسطس عام ١٥٧٨ . فى هذه المعركة لم يسقط سجناء محاربون برتغاليون فحسب، ولكن سقط آخرون، من جنسيات أخرى وبطبيعة الحال، من الإسبان الذين كانوا يرافقون الجيش المهزوم، وقبض عليهم المغاربة، وقد ملأ العبيد المسيحيون المدن، وبالأخص العواصم الأساسية. شهدت مراكش وفاس وبالأخص سوق تطوان تدفق ثروات كبيرة من المال والبضائع كئمن للافتداءات المتعددة. جمع افتداء عام ١٥٧٩ أحد الأرصدة الأكثر أهمية فى تاريخ الافتداءات، ووصل مجموع الإيصالات فقط للمبالغ المدفوعة إلى ٦٨,٤٩٨ أوقية من "عملة إفريقية"، أى ما يعادل ٤ ريال قشتالى

للواحدة، أى ٢٧٣,٩٩٢ ريال أو ٧٢٨,٣١٥,٩ مرابطة. والذي يجب أن يضاف إليه تكاليف السفريات والإقامة والانتقالات، إلخ .

كان حقيقياً وجود نوع من المراجعة للحسابات المقدمة من قبل رجال الدين، لكن حتى مع خفض تُسع هذا المجموع، فالقائمة مازالت جدية بالاحترام، من ٦٥ سيدياً تقريباً، كان هناك ثمانية من فاس و واحد من القصر الكبير، و هو ما يشير إلى أسبقية تطوان كسوق وكبيرة أساسية للافتدائات فى ذلك الوقت.

مع ذلك نلاحظ استمرار وجود أمة مورييسكية فى القصر الكبير، كما لاحظنا فى وثيقة سابقة.

وصل عدد ملاك الرقبة الآن إلى ٦٥، فى مقابل السبعة عشر مالكا الذين ظهروا فى أول افتدائين. و الحقيقى أن عدد السكان كان يزيد بطريقة غير قياسية، ولكن أيضاً من المؤكد أنه أهلكته كل أنواع المصائب، من بينها الأوبئة الرهيبة.

لدينا مثال على ذلك، و هو مرض الطاعون الذى عانى منه التطوانيون فى عام ١٦٧٧، والذي انقرضت بسببه ٧٧ عائلة مورييسكية فى المدينة.

اختفت ١٩ عائلة أخرى على طول القرن السابع عشر^(١٤) . و مع ذلك، ففى النصف الثانى من القرن، كان يجب أن يكون التكتل المدنى ذا أهمية. يتحدث بعض شاهدهى العيان عن ذلك، حُمل أحد البرتغاليين أسيراً فى معركة القصر الكبير، إلى تطوان، و قد وصف المدينة هكذا : "... هذه البلاد هى الأكثر قذارة فى البلاد الموجودة اليوم. لا توجد حظيرة مواشى مثلاً، والمنازل عامة حقيرة جداً. إن جموع الناس كبيرة جداً لدرجة أنه لا يوجد ثقب دون حشد من الناس..."^(١٥) .

مع ذلك لم تكن طرق الإنتاج تزيد بمعدل زيادة السكان.

يجب تذكر ما قلناه فى مناسبة أخرى عن " طريقة حياة " التطوانيين، التى كانت تدور حول القرصنة.

الآن نرى أنه يبدو أن قاعدة الهرم للملك الرقبة قد اتسعت، مقارنة بالافتدائين السابقين، لكن نعتقد أن هذا فقط كان اتساعاً خادعاً، لأن هذا الافتداء حدث بعد انتهاء الحرب الأهلية التالية لثورة البشرات العظيمة والتي سببت نزيفاً فى السكان الموريسكيين عند عبور عائلات كثيرة : "إلى الجانب الآخر" وأحياناً أصبحت قرى بأكملها خاوية.

غذى سيل الهجرة الوافدة بالأخص ريف ومدن المغرب. كانت خطوات الهجرة عامة سرية، بقوارب ذات حمولة صغيرة، وبالتالي كان السفر للسواحل المواجهة محدداً حتمياً بمسافات صغيرة وهى تلك الموجودة بين المملكة الغرناطية القديمة وسواحل المغرب. مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هروب الموريسكيين، وأغليبتهم من الأندلسيين، إلى بلاد البربر كان مستمراً إلى حدٍ ما ومتزايداً بداية من توارىخ محددة فى القرن السادس عشر وأنه، قبل ثورة ١٥٦٨، زادت أحوال الاستبداد التى كانوا يعيشون فيها من رغبات الأقلية المهمشة فى تغيير البيئة، إلى بيئة أخرى أكثر توافقاً مع معتقاداتهم الدينية.

ظهر فى أرشيفات الحمراء الغرناطية، فى عام ١٥٢٩، أول سند لماركيز مونديجار Mondéjar يقضى بتخصيص الممتلكات المصادرة من موريسكيين هاجروا إلى بلاد البربر للاحتياجات العسكرية للدفاع عن مملكة غرناطة. كانت الهجرة إلى بلاد البربر تعتبر جريمة و لهذا فإن ملفات القضايا الخاصة بتلك الجرائم كانت تحفظ فى الأرشيف المذكور، و يلاحظ وجود حالات متفرقة من الهجرة فى النصف الأول من القرن السادس عشر، و قد تزيد الحالات فى العدد كلما مرت أعوام النصف الثانى من القرن، بحيث أنه، على سبيل المثال قبل ثورة ٦٨ بقليل، أى فى عام ١٥٦٠ والأعوام التى تليها، كثرت قضايا ومصادرات عابري الحدود، بمجموع عدة عشرات فى ١٥٦٠، والتى يجب أن يضاف إليها الأشخاص الذين لم تُسجل تحركاتهم لعدم تركهم ممتلكات للمصادرة فى أى دعوى مكتوبة. هذا يعنى بوضوح زيادة السكان الموريسكيين فى المغرب القريب، وقد انعكس ذلك، بطبيعة الحال، فى الأنشطة التى مارسوها ومن بينها القرصنة فى تطوان.

لا يجب أن نتعجب، إذن، أنه من السبعة عشر مالكا في عملية الافتداء الأولى، تجاوز العدد الآن إلى أكثر من ٦٥ مالك رقبة، بالرغم من تمركز غالبية نسبة الثراء في أيدي قليلة كالمعتاد.

في هذا الصدد يجب علينا أن نوضح أن عائلة المفضل، الأب والابن والابنة، قد نالت في هذا الافتداء نسبة ٢٣٪ من المجموع الكلي، وقد تجاوزوا بذلك القائد نفسه وأخاه، اللذين وصلا فقط إلى نسبة ١٤٪. قويت عائلة المفضل، بناءً عليه، كحكام أساسيين في تطوان، عند اختفاء قادة الأحزاب التي كانت تتنازع الحكم في المدينة، وهم أفراد أبوحسن وأفراد أبو علي، كما يدعوهم مارمول. من المسموح لنا أن نفترض أن مفضل هذا ليس هو نفسه، لكنه سليل لذلك الشخص الذي نجده في افتداء عام ١٥٢٣. تابع مفضل نجمه الطالع خلال أعوام كثيرة. وقريباً، في الثلث الأخير من القرن السادس عشر، سنسجل اقتناؤه، في افتداء واحد، لثروة حقيقية، تقدر بـ ١١,٥٤٥ أوقية أو ١,٥٧٠,٠٠٠ مرابطة، دون الاعتماد على الـ ٤,٠٠٠ أوقية تقريباً والتي منحها لأولاده والتي يبلغ مجموعها أكثر من ٢ مليون مرابطة، أودعت في خزائن العائلة. إنها ثروة حقيقية، بالنظر لتكلفة الحياة آنذاك.

إن القائد التطواني ذاته لم يكن موريسكيًا في ذلك التاريخ، وقد عينه أحمد المنصور، الذي - على الأخص بعد انتصاره على البرتغاليين وتعزيز مكانته الأدبية أمام أقرانه - لم يتساهل إزاء أى رغبة استقلالية. هذا القائد، بجانب أخيه، كان له ١٤٪ من المجموع. وكان للحاكم ذاته إلى جانب ذلك مجموعة من ٣٦ أسيراً مناصفةً مع مفضل.

نتفق، لذلك، أن مفضل كان الرجل الأكثر نفوذاً في المجتمع التطواني، ربما أكثر من الحاكم نفسه. لكن لما كان المجتمع التطواني يتميز بالنشاط الحربي سواء في البحر، أو في البر ضد البرتغاليين من سبتة، فيمكننا أن نفترض بحق أن عائلة مفضل هذه كان بها محاربون متميزون. سنؤكد فيما بعد هذا الافتراض.

يوجد موريسكى آخر، بوتايبو Botalbo، حصل على أكثر من ١٠٪ من مجموع الافتداءات. تجاوز الـ ٩٠٠,٠٠٠ مرابطة. استطاع كل من بوتايبو ومفضل، النجاة

بعد الصراعات الأهلية، التي أنهكت أفضل طاقات الموريسكيين الإسبان في المنفى، والحفاظ على ثرواتهم وقدرتهم السياسية. سوف يكون لدينا أيضاً أخبار عن بوتاييو هذا في أعوام متتالية.

كان لمفضل في الافتداء الحالى فى عام ١٥٧٩ منصب محصل الضرائب الأكبر لملك فاس. لم يكن لبوتاييو أى منصب بالرغم من أنه يبدو أنه يتصرف كممثل حقيقى. ربما كان لدى هؤلاء الموريسكيين بمناصبهم سلطة تنفيذية أكثر من الحاكم المعين من قبل البلاط الذى كان يعتبر مشرفاً بحثاً ومراقباً لرغبات الموريسكيين الاستقلالية.

طوال استمرار سلطة و مكانة المنصور ستخفى تطوان و الموريسكيون المقيمون بها رغباتهم فى الاستقلال.

ليس مفاجأة فى عام ١٥٧٩ أن نتقابل مع اليهود فى أعمال الافتداءات، حيث كانوا يشاركون بنسبة ١ إلى ٨ مع زملائهم فى المنفى. يوجد شخص يدعى بوكايتى Bocaite جمع ٢٧,٤٪ من مجموع المبالغ التى دفعها المفتدون وهو ما يساوى ٣٩٦,٨٠٠ مرابطى. هناك يهودى آخر، واسمه بيمينتا Pimienta حصل على ٢١٧,٦٠٠ مرابطى، بالإضافة إلى العمولات التى كان يقبضها كسمسار، حيث كان يعمل فى بيع المسيحيين لحساب أسيادهم الموريسكيين.

يُظهر لنا خمسة يهود آخرين وخمسون من الموريسكيين كأقلية برجوازية تحارب من أجل التفوق.

بعض المؤشرات الاقتصادية تكفي لنا لى نُقدّر حجم الثروات العظيمة التى كانت تُجمع من بيع العبيد والدخول الخالصة التى ليس عليها ضرائب.

تم إثبات ٣٦ ريالاً فى أحد كشوف الحساب أنفقهم كاتب الافتداء وأحد المغاربة، خلال اثنتى عشر يوماً فى تطوان، أى ما يساوى ثلاث ريالاً يومياً للثنتين و ٥١ مرابطاً يومياً لكل منهم^(١٦).

يشرح كشف حساب آخر أن الأب لويس، أحد المفتدين، سقط مريضاً، وبسبب ذلك كان يتبع نظاماً غذائياً خاصاً، بتكلفة ٥٢ مرابطى يومياً. حصل الطبيب على ٢ ريال يومياً، أى ٦٨ مرابطى^(١٧).

نتخيل القوة الشرائية لمحصل الضرائب مفضل، بالمليون ونصف مرابطة التي دخلت في هذا الافتداء، من الحقيقي أن الفرصة غير العادية لكثرة القصر الكبير قد وقعت كهدية من السماء، و قدمت افتداءات كبيرة سواء من الجانب البرتغالي أو القشتالي. لكن هذا السيل توقف، ففي عام ١٥٨٣ هناك وثيقة افتداء أخرى يقل فيها عدد ملاك الرقبة بدرجة محسوسة^(١٨). عشرون بالكاد: ثلاثة منهم من فاس وثلاثة آخرون من القصر الكبير. هذه البلدة التي حدثت في ضواحيها المعركة المفجعة بالنسبة للبرتغاليين والتي سجلنا فيها مجموعة من المنفيين من الموريسكيين ومن اليهود^(١٩).

كان بعض ملاك "البضاعة"، في هذا العام ١٥٨٣، يعتبر نموذجاً للسوق الذي كانت عليه تطوان: رئيس مركب شرعى حصل على ٤٥٨ أوقية و هناك أترك في بعض السفن الشراعية وضعوا في جيوبهم مجموع ١٤٢٨ أوقية.

حصل الحاكم الذي لم يُذكر لا جنسه ولا اسمه، كما هو مألوف، على شيء يسير. تلى الحاكم، الذي وصل إلى نسبة ٢٠٪ من الإجمالى، شخصيتان موريسكيتان معروفتان في افتداءات سابقة. أحدهم هو بوتاييو، بنسبة ١١٪، والآخر هو مفضل الذي تجاوز قليلاً نسبة ٩٪.

حصل الحاكم على ٦,٩٥٨ أوقية كانت تعادل في ذلك الوقت ٣,٥ ريال للأوقية فيكون المجموع ٢٤,٣٥٥ ريال، وحصل كذلك على هدية إضافية من سرير بلوازمه، اشتراه له رجال الدين في سبتة، كلفهم ١٠٦ أوقية. هذه بادرة كان معتاداً أن تحدث.

حصل بوتاييو على ٣,٧٧٩ أوقية أو ١٣,٢٢٦ ريال، وهو مبلغ كاف لكي ينفق أكثر من ٣٦ ريال يومياً خلال عام وكان بقدر محصل الضرائب مفضل أيضاً المعيشة اليومية بـ ٣,٢٠١ أوقية التي حصل عليها من البيع، في هذا الافتداء لعام ١٥٨٣، حصل يهودان، ألييو Alillo ومامياس Mamias على أكثر من ١٠٪ من الإجمالى، أى ٤,٠٨٢ أوقية تقريباً.

حصل يهودى آخر، وهو بيمينتا المعروف، على أكثر من ٣٪ ، ولكن كان يعمل، بالإضافة إلى ذلك، كسمسار للكثير من الافتداءات، وكان يحصل بذلك على عمولات كثيرة.

فى هذا العام ذهب إلى السوق أربعة أفراد فقط من الجالية العبرية، بالرغم من أن نسبة الثروة المقتنية هى، تقريباً، نفس الثروة فى الافتداء السابق. كان مامياس (من القصر الكبير) إلى جانب بيمينتا هم تجار الجملة الذين قبلوا بكل سهولة البضاعة التى يحملها المفتدون، بدل العملات النقدية والتى كان يفضلها الموريسكيون. منطقياً فإن الصناديق المملوءة بعشرات القلنسوات المتعددة التى كان يحصل عليها صمويل بيمينتا كثمن لافتداء الأسرى، لم تكن لاستخدامه الشخصى وكان يعرضها للبيع لاحقاً.

بين ملاك الرقبة فى فاس، والذين كانوا يحملون عبيدهم إلى تطوان، ظهر أحد الموريسكيين، ويدعى بينانى Benani، وقد حصل على ٧٪ من الإجمالى. من المحتمل أن المفتدين لم يكونوا يذهبون إلى فاس بنفس التكرار كما يذهبون إلى تطوان.

نتذكر أنه فى النصف الأول من ذلك القرن، نفذ الأب كونتريراس افتدائه الأول فى المغرب، فى فاس نفسها، ولكن عند عودته من العاصمة المغربية وبينما كان عابراً من تطوان، اقتنع بأنه كان يجب أن يركز نشاطه فى تطوان، وقام بذلك فعلياً حتى موته.

لقد بحثنا إلى هنا المعلومات التى قدمتها لنا أربع وثائق افتداءات من القرن السادس عشر. سوف تكمل لنا وثائق أخرى غير منشورة الرؤية التى يمكن أن نستخرجها عن المجتمع الموريسكى فى المغرب، على الأخص، عن النواة، شبه المستقلة عبر وقت طويل، التى كونتها تطوان والشاون فى شمال المغرب.

إن البرتغاليين السبتيين الذين كان لديهم منذ غزو المدينة عام ١٤١٥، حرية كاملة تقريباً لتحركاتهم تجاه جنوب وغرب البلد، حتى مع هدم تطوان القديمة فى عام ١٤٣٧، قد شاهدوا نهضة بعد ذلك بنصف قرن، على يد الموريسكيين الغرناطيين الذين أعادوا إنشاءها و بناء أسوارها وأبراجها. أعاد نفس هؤلاء الموريسكيين تجديد أنشطة القرصنة من نهر مارتين، على بعد ١١ كيلو متراً من تطوان وكونوا مجموعة حربية

أرهقت حامية سبتة، و سببت لها خسائر قاسية وبالأخص، منعت البرتغاليين من غزو الأرض كما كان يحدث عبر عشرات السنين.

إن الأخبار البرتغالية للعصر مليئة بمآثر هؤلاء وهؤلاء: عائلة مينسيس Menses وعائلة المنداري وعائلة نورونيا Norona وعائلة حسن وعائلة نابو Nabos وعائلة مفضل، إن الحروب التطوانية فقط، والخيانات المأساوية بين الموريسكيين التي كانت تطيل من الانقسامات في غرناطة، قد خففت جزئياً من الضغط الذي كانت تعاني منه سبتة، بسبب ظهور هؤلاء المنفيين في وادي مارتين.

تحت السيطرة السعدية، وأيضاً المنصور، لم يتحرك التطوانيون كثيراً لا ضد السلطة المركزية ولا ضد بعضهم البعض، واستمروا عادةً، خلال ما تبقى من القرن السادس عشر، في العدوان ضد سبتة، لأن عدوان الأخيرة عليها أيضاً لم يتوقف. لذلك كانت هناك دائماً نواة حربية، مجموعة أكبر أو أقل من محاربين مدربين، في تطوان، إما للدفاع وإما للهجوم، وكونوا فيما بينهم، داخل كل المجتمع الغرناطي التطواني، مجموعة اجتماعية، متماسكة كثيراً، كانت لها تأثير حاسم أحياناً في سير الأمور بالمدينة.

نرى ما يحكيه مؤرخ تطواني معاصر عن ميلاد قيادة وقائد، بالتحديد في أواخر القرن السادس عشر هذا، عندما لم يكن أحد يفكر في التحرك وتجاوز المغرب الذي يحكمه أحمد المنصور.

يقول محمد داوود إنه جاء زمن كان فيه سكان الجبال المحيطين بضايقون سكان تطوان، وأساساً قبيلة واد-راس، ويهاجمون الطرق، ويسلبون الممتلكات و يسببون للمدينة أضراراً جسيمة بوجه عام. كَوْن طالب من المدينة، يدعى محمد النقسييس، مجموعة من المدنيين المستعدين لإنهاء هذا الموقف الشاذ. طلب محمد قوات كاملة وأعطوه إياها. حينئذ لجأ إلى المقدم أو القائد الذي كان يرسل القوات التطوانية ضد البرتغاليين من سبتة، والذي كان من عائلته، وهو أحمد بن عيسى النقسييس، وسريعاً ما أنهوا الثورات وسيطروا على البلد بأمن وهدوء.

احتفظ القائد محمد النقسييس بحكومة تطوان حتى موته من عام ١٥٩٧ حتى ١٦١٠^(٢٠)، أخذ داوود هذه المعلومات من اسكيري وايرهونى، وهما مؤرخان تطوانيان آخران، تتناول هذه المعلومات توضيح أصل سلطة أفراد النقسييس. تتحدث، كما نرى، عن سيطرة مجموعة حربية، تستخدم قوتها، أولاً لفرض النظام، وثانياً للحفاظ عليه.

الخبر ليس بعيداً جداً عن الواقع، بالنسبة للحكومة المركزية، والتي يرأسها "الذهبي"، وكان هذا هو اسم السلطان الذى انتصر فى الموقعة.

يقدم لنا أحد المصادر المباشرة أصل شهرة وربما سلطة أفراد النقسييس، ويصحح التسلسل الزمنى الذى قدمه داوود.

يقول لنا الغفرانى، الخطيب المداح وكاتب السيرة الحقيقى لأحمد المنصور، وهو يعلق على أحداث مملكته: "فى شهر ذى القعدة ٩١٦ (من ٢٢ سبتمبر إلى ٢٢ أكتوبر من ١٥٨٨) شرع المنصور فى القيام برحلة. أخبروه خلال الرحلة أن المسيحيين قد تم مفاجأتهم أمام سبتة. أعد أحمد النقسييس، رئيس الحملة الموجهة ضد المسيحيين، كميناً، وكان هو على رأس الفرسان. خرج سكان سبتة من الميدان مع أبنائهم وخدمهم. اتخذ المسلمون موقعاً بين المسيحيين وسبتة، وبعد قليل استولوا على المدينة"^(٢١). من المحتمل أن هذه المأثرة المؤرخة فى خريف عام ١٥٨٨ هى التى استهلت عصر النقسييس فى تطوان. نسبت المصادر التطوانية نفسها أصل هذه العائلة لقبيلة ليست بعيدة: نقاقسة بنى عدر^(٢٢).

مع ذلك، فليس لدينا مجال للشك فى أن عائلة النقسييس ما لبثت أن ارتبطت بعائلات مورييسكية من المدينة، هذا إذا لم تكن عائلة النقسييس نفسها مورييسكية فى الأصل.

على أى الأحوال فإن أفراد النقسييس أنفسهم يمثلون العبور من فترة غرناطية صافية فى المدينة التطوانية إلى فترة أخرى تتميز باختلاط العناصر، دون أن يؤدى ذلك إلى فقدان التقاليد الأندلسية القوية التى كانت تنطبع على مدى قرون فى المدينة.

يؤكد مؤرخ من الحزب المعارض- وهو كوريبيا دي فرانكا- التاريخ والأحداث المروية في كتاب الغفراني حيث يقول عن الكارثة التي عاناها السبتيون في ٩ من ديسمبر ١٥٨٨ إنه سقط ٢٠٣ شخصاً كأسرى في سلسلة جبال معسكر سبتة، من بينهم ٣٥ طفلاً و١٢ خادماً، واحد منهم أسود.

أرسل حاكم سبتة أحد القادة إلى تطوان لكي يعالج موضوع الافتداء، "مع القائد مفضل" (٢٣). لم يتحدد في الخبر الوارد من سبتة إذا كان مفضل هو أعلى سلطة تطوانية أو كان هناك قادة آخرون، لأنه قبل شهور قليلة، في أبريل ١٥٨٨، تحدث كوريبيا عن شخص يدعى حامد بن بكر قائداً لتطوان (٢٤).

طلب المغاربة مبالغ خيالية لتحرير هؤلاء الأسرى، طلبوا ١٦٠,٠٠٠ أوقية. وفي نهاية الأمر، في أكتوبر ١٥٩٤، افتدى اسقف سبتة مع "حامد بن عبدالله، قائد القصر وتطوان والعرائش وأرسيلة" ١٦٥ أسيراً بثمن ٧٥٠ مرابطة من الفضة لكل واحد، وبقي ٥٠ أسيراً دون افتداء ومات ٢٨. هذا يعني أن الأسرى كانوا مستمرين في الوقوع. في هذه العملية الأخيرة كان حامد بوتاييو هو الضامن (٢٥).

ظهرت أسماء الشخصيات التي اشتغلت بالافتداءات كذلك في أخبار كوريبيا. سيتحدث فيها أيضاً عن أفراد النقسيس، حيث يؤكد لنا الكثير من الأحداث الواقعة في المدينة المجاورة وكذلك سيحكي لنا أخباراً غير موجودة في أي وثيقة أخرى. استطعنا بفضلها وبفضل وثائق الافتداءات أن نوضح مظاهر غير مسبقة للمجتمع الموريسكي خلال القرن السادس عشر.

سنستمر مع وثائق أكثر لكي ندخل في القرن السابع عشر، ونتأمل كيف تطور هذا المجتمع.

القرن السابع عشر

سيطر على القرن السابع عشر في تاريخ الموريسكيين في المغرب قرار الطرد الحاسم الذي اتخذ في شبه الجزيرة بداية من عام ١٦٠٩.

انتشرت موجة جديدة من الأشخاص والعائلات الموريسكية عبر كل شمال إفريقيا، بوجه عام، وفي المغرب بصورة خاصة.

فقدت المغرب، عند موت المنصور في عام ١٦٠٣، وحدتها وهدوءها، وعادت إلى حالة الفوضى الأبدية للعصور الوسطى. تنازع أولاد الذهبى العرش، ولذلك، تشكلت مملكتان؛ مملكة مراكش ومملكة فاس. تزايد نفوذ القادة الدينيين الذين كانوا، في الواقع، سياسيين، والذين حاولوا أن يرتقوا لكي يصلوا إلى أعلى سلطة للسيطرة على البلد. إن زاوية ديلا Dilá، من جانب، و المرباط العياشى من جانب آخر، بالإضافة إلى السلاطين، سيساهمون جميعاً في التشويش والفوضى التي عمت. هذا هو، في الخلاصة، المنظر العام الذى سيجده الموريسكيون الذين وصلوا إلى المغرب للبحث عن الملجأ وعن الوطن الذى كان ينكرهم فى شبه الجزيرة.

كلما كانت تزيد الفوضى، فى القرن السابع عشر، كانت تتزايد احتمالات استرداد الاستقلالية الماضية التى كان ينميها كبار الحكام التطوانيين. سوف يجعل واحد منهم - وقد اعتمد على النخبة الحربية - من نفسه مالكا مطلقاً للمدينة، و يطيل بقاء هذه السلطة بين أفراد عائلته و يجعل من تطوان بؤرة للمكائد الأوربية، البريطانية بشكل أساسى، والتى تتدخل فى الشئون المغربية، فى نفس الوقت الذى زادت فيه القرصنة وتوافد الموريسكيين إلى هذا الجزء من البلد.

فى نفس الوقت تقريباً تشكلت فى الجنوب نواة مستقلة أخرى ذات تركيز موريسكى: هورناتشيون وأندلسيون، و كونت مدينة الرباط وأقامت فيها جمهورية مستقلة، وهى ظاهرة سياسية درسناها فى مكان آخر.

ينقص فى الشمال المغربى دراسة التطور السياسى والاجتماعى، فنحن لدينا معلومات أقل لكي نستطيع أن نفعل ذلك. سنحاول حالياً، باختصار، إلقاء نظرة على الوثائق الموجودة، و نؤجل فحص هذه الوثائق بإمعان.

قبل قرارات الطرد نلتقى مع حسابات الافتداءات لعام ١٦٠٧. نجد فيها أنه فى نوفمبر لهذا العام كتب أحمد النقسيس إلى القائد العام لسبتة أنه إذا لم يتم افتداء

عبيده فإنه سوف يعطل الافتداء ولن يترك أى أسير إسباني يخرج من المدينة^(٢٦) .
مازال يظهر كمقدم، أى رئيس حربى، ولكن هذه الرسالة هى دليل على السلطة
الحاسمة التى لديه أمام أى شخص آخر موجود فى تطوان كممثل للحكومة المركزية.
ظهر قائد فيها وهو على غودوبر، مالك أيضاً للعبيد. نستمر فى مشاهدة بوتايبو
ومفضل، أو ذريتهم، وفى حوزتهم عدد كبير من العبيد.

بعد ذلك بعامين، فى ١٦٠٩، عام قرارات الطرد الأولى، هناك وثيقة افتداء يظهر
فيها مرة أخرى أسرى لحامد النقسييس مقدم تطوان، وآخرون لحامد مفضل Amete
Monfadal، دون ذكر أى قائد^(٢٧) . مع ذلك، فى عام ١٦١٥، شهد كاتب الافتداء على
وجود شخص يدعى مؤمن عمار Mumen Amar، القائد الأكبر أو القائد مؤمن، دون أن
ينسى النقسييس المقدم^(٢٨) .

مازال أفراد النقسييس يحتلون السلطة التطوانية ومرت بعض الأعوام وهم
يشاركون فى حكومة المدينة، على الأقل إسمياً، مع القائد المعين من فاس. تختلف
أسماء "السادة"، ربما يكون بعض الذين ظهروا فى الوثيقة من الموريسكيين الذين
وصلوا حديثاً. مثل حامد كارديناس أو إيرنان شانيث Hamete Cárdenas o Hernan
Xaniz، والذي يوصف بوضوح أنه من "الأندلس".

من الغريب أن نلاحظ فى الوثيقة الأخيرة غياب عائلة مفضل القوية والموجودة فى
كل مكان. يقدم لنا كوريبا دى فرانكا التفسير الممكن فى أخباره عن سبته، ويصف لنا
واحداً من المشاهد التى كانت غير متكررة فى حياة الحدود التى حدثت بين تطوان
وسبته. يقول كوريبا إن رجلاً من سبته قَدِمَ عدة مرات إلى تطوان لكى يتحدث مع حامد
مفضل وأعاد عليه القول أن يذهب معه إلى سبته مع عائلته وبعد ذلك نقله إلى مدريد
حيث نال التعميد المقدس مع كل من كان يتبعه وقد أسموه رافائيل دى مينسيس Ra-
fael de Menses...^(٢٩). يوضح الحدث، الواقع فى ١٦١١، غياب اسم المفضل من وثيقة
افتداء مع أن الوثائق لا تخلو من اسمه منذ ١٥٢٣. بالرغم من هذا الانشقاق المؤلم
فإن أفراد المفضل لم يختفوا كلياً بل سوف تكتب أسمائهم مرة أخرى، فى كتابات
الافتداء وفى الأخبار السبتية حتى العقد السادس من القرن السابع عشر.

ننهي هذا الفصل بالحديث عن وثيقة أسرى لعام ١٦٢٥ .

من افتداء عام ١٦٢٥ يمكننا استخلاص بعض الملاحظات المهمة للدراسة الحالية. في المقام الأول نلاحظ أنه كان الافتداء الوحيد الذي تحقق عن طريق طنجة، بدلاً من استخدام سببته كما كان معتاداً، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأكثر سهولة من الناحية الإدارية.

لم يتوغل الآباء المفقدون أيضاً في "دولة عدوة للدين" لكنهم بقوا في مسكنهم في طنجة، حيث كانوا يقابلون المفوضين المختلفين للإتفاق على بيع الأسرى.

إن اسم وتمثيل هؤلاء المفوضين لهو التعبير الحقيقي عن اللحظة التي تعيشها المغرب والأمة الموريسكية، والتي بقي بعض أفرادها أكثر من عشر سنين في البلد. ننقل مرة أخرى واحدة من الكشفوف التمهيدية لكاتب الافتداء سالبادور دي سيثيليا Salvador de Sicilia، "من سكان مدينة لوجا Laja" :

"في مدينة طنجة، في الأول من فبراير من عام ١٦٢٥، وصل إلى مكان الآباء المفقدين كاسيمي دي كارديناس Cacimi de Cárdenas، والذي كان يسمى هكذا وكان مغربياً أندلسياً وسكرتيراً للمقدمين، أبناء النقسيس، حكام تطوان، ومعه مسلمون آخرون من تطوان، ويقال إن بعضهم من أصل تطواني والآخر من أصل أندلسي" (٣٠) .

هناك وثائق لهذا العام ١٦٢٥ متعلقة بموقف تطوان وأفراد النقسيس. من أكثر هذه الوثائق أهمية رسالة من هاريسون Harrison، وهو وكيل إنجليزى في المغرب، كتب في ٢٠ من يوليو من نفس العام، وتحدث عن وصوله إلى تطوان في الثالث من يونيو بعد أن حصل على جواز مرور من المقدمين يعلموه فيه موت والده الذي حدث مؤخراً. كان ثلاثة قادة في الخارج على رأس المشاة والفرسان ضد الحاميات العسكرية لطنجة وسببته. كان يبقى واحد منهم دائماً في حراسة المدينة.

بعد يومين أو ثلاثة أيام اجتمع المقدمون الأربعة واستقبلوا هاريسون في مظاهر كبيرة من التقدير والصداقة وبالأخص كانوا يتفاخرون بأن وصوله كان مرتبطاً بالأسطول البحرى والذي يجرى إعداده في إنجلترا ضد إسبانيا. قال له القادة إنه كان

يوجد ثلاثة ملوك وراهبان كبار يتنافسون على البلد، وأهل البلد لم يكونوا يعترفون بأحد، وبأى ملك ما عدا الله، لأن مولاي زيدان كان يظهر قاسياً وظالماً فى حكومته وكانوا يفكرون فى البقاء أحراراً: دولة حرة مثل فينيسيا و هولندا. عرض القادة تقديم عشرة آلاف محارب للملك الانجليزى لمهاجمة سبته أو أى موقع قريب. كانوا يطلبون من الملك البريطانى شيئين: بارود وإعادة صهر المدافع التى لم تعد صالحة فى تطوان.

تستمر رسالة هاريسون الطويلة جداً بإيضاحات ونصائح متعددة، فمثلاً كان يجب أن تحتل إنجلترا سبته والتى تمدح مميزاتها، وأن يصبح الموريسكيون مسيحيين طوعاً و أنه إذا كان الملك يملك جبل طارق، فإن ذلك سيمكنه من السيطرة على المضائق وعلى قوات الساحل الموجودة الآن فى أيدٍ إسبانية. انتهى هاريسون بإدراج ورقة منفصلة، حيث كتب الموريسكيون جملة تظهر ميلهم إلى الإنجليز. تقول الجملة: " بفضل الرب فإن المغاربة والإنجليز سيستولون على إسبانيا ومع الرهبان والصلبان سيضطهون الطعام ويدمرون إسبانيا وسيصبح الكل إخواناً وسيساعدهم الرب الذين اتبعوا أوامره. والرب فوق كل شئ." (٢١) .

هذا دليل على الحق لكن، فى نفس الوقت على الحب العميق لإسبانيا التى يرغبون فى عودتها كما هى.

أكد هاريسون فى رسالة أخرى كتبها بعد ذلك أن الموريسكيين كانوا مستعدين لتقديم من ٤٠ إلى ٥٠ ألف رجل، ما بين جنود مشاه وفرسان للحرب ضد إسبانيا. يقول فى بداية الرسالة: "كنت على علاقة بالموريسكيين والأندلسيين المنفيين من إسبانيا وقد اعترف وصرح لى الكثير منهم أنهم مسيحيون فى قرارة أنفسهم. كانوا يشكون بمرارة من عزلتهم القاسية ... وقد رغبوا بشدة فى العودة تحت الحكومة المسيحية" (٢٢) . مع الوصول الجديد للموريسكيين تجددت أيضاً بعض الأسماء من البرجوازية المحلية. نجد كارديناس آخر لا نعرف ما إذا كان هو نفسه الذى ظهر فى تجارة القرصنة فى عام ١٦١٥ أم لا .

يجب توضيح أن كارديناس هذا كان يعمل كسكرتير لعائلة النقسيس، الذين لم يكن يلقيهم فقط بالقيادة كما كان يطلق عليهم، ولكن أيضاً بحكام تطوان. كانت المدينة في أيديهم فعلياً. لقد بدأ في تطوان عصر عائلة النقسيس، بعد عصر المنداري، مؤسس تطوان، بفترات من الاضطرابات، يمكن تصور عصر أفراد النقسيس هذا داخل التاريخ التطواني والسياق العام للبلد كمحاولات أخيرة للمجتمع الموريسكي ضد فقد هويته بالكامل.

يمكن أن نفكر بالمثل بالنسبة لهذا السيل من الأحداث التي استحدثت أهل هورناتشوس والأندلسيين مع رغباتهم الاستقلالية في الجنوب لكي يعلنوا أنفسهم "جمهورية أندلسية"^(٣٣). جاب الهورناتشيون، الأقوياء والخاضعون للظلم، البلد من الشمال إلى الجنوب وعادوا من الجنوب لكي يستقروا في الرباط. كانت تطوان إحدى مراحلهم الأولى. هنا يمكن أن يبقى أحدهم، على الأقل هذا هو ما يمكن أن يستنتج من تعليقات بعض الافتداءات بداية من افتداء عام ١٦٢٥، يوجد فيها شخص يدعى حامد تاغارينو Hamed Tagarino، يقال إنه من أحد المسلمين الذين طردوا من هورناتشوس^(٣٤).

وصل تاغارينو إلى المأوى الطنجي حيث كان يوجد الآباء المفقدون. لكي يسلم بعض الأسرى.

ولكن توجد أسماء أخرى ذكرت بوضوح في المخطوط من نفس هذه البلد، وهم بونيتو كاربيتيرو Bonito Carpintero موريسكي من هورناتشوس و بلانكو بولقاسم Blanco Volcacin موريسكي من هورناتشوس والحاكم باشيل Baxel وإبراهيم قاسم Abrahen Cacin، موريسكي من هورناتشوس و حامد ثيرون Hamete Ceron وعلى غالان Ali Galan وكلاهما موصوف أيضاً كموريسكي من هورناتشوس، بالإضافة إلى البعض الآخر الذين سجلهم الكاتب كموريسكيين من القصبية، أي أنه مقيم داخل القصر أو القلعة التي كانت تطل على شاطئ نهر بو ريغريغ Bu Regreg في سلا رباط والذي كان تحت سلطة الهورناتشيون خلال فترة طويلة.

حصل على غالان والربان باشيل على النسبة الأعلى من الافتداءات لعام ١٦٢٥، حصل غالان على ٢٦, ٦٦٨ ريال وحصل باشيل على ١٤, ٥٠٠ ريال حيث أنه بمجموع ٢٨٦, ١٤٤ ريال تعطى نسبة ١٨, ٥٪ و ١٠٪ على التوالي، حيث يشير ذلك إلى أنه في الجنوب كانت تتجمع ثروات كبيرة من نشاط القرصنة كما في الشمال.

في نفس الوقت الذي أنفق فيه الرهبان في طنجة، في العام السابق ذكره، مبلغ ٧٢٤, ٩٠٥, ٤ مرابطة كان أعضاء جمعية "الثالوث المقدس" يقومون بافتداء قيمته ٣٤٤, ٩٨٥, ٣ مرابطة^(٣٥).

كان خروج الموريسكيين من إسبانيا أمراً مكلفاً جداً.

يجب أن نترك بحث المخطوطات الموجودة من القرن السابع عشر ونؤجل ذلك إلى دراسة لاحقة.

رأينا نشاط مجتمع موريسكي محصوراً جداً في أعمال القرصنة، وكان ذلك يسهل سبل الحياة، على الأقل للزعماء الأساسيين والذين كانوا يصبحون أثرياء. أيضاً كانت الرؤية للمراكز المدنية محدودة حيث كان يتركز المنفيون. إن الموريسكيين الذين حاولوا استئناف حياتهم في الوسط الريفي المغربي قلما تركوا أثراً.

إن الأخبار الواردة في الوثائق - عن الموريسكيين المقبلين على الزراعة والذين يعيشون في الريف أو في ضياع صغيرة - نادرة جداً. يقول لنا مارمول إن المغاربة الأندلسيين الذين قدموا من أورخيبيبا و تابرناس ومن أماكن أخرى من البشترات الفرناطية، قد أنعم عليهم الشريف بقطع أراضي في الجنوب المغربي^(٣٦).

بطبيعة الحال يشير إلى سيل المهاجرين من القرن السادس عشر. من القرن التالي، وعلى العكس من تونس حيث توجد أخبار عن نشاط زراعي موريسكي كثيف، فإننا في المغرب لا نعرف ما إذا كان يوجد شيء مشابه.

نعرف، كمعلومة دلالية بحتة، الهجوم الذي قامت به حامية العرائش في ١٦١٩ على قرية قريبة لهذه المدينة. كان الحاكم، رئيس الجيش، يرشده صبي موريسكي إسباني، تربى في هذه الأرض وعندما وصلوا إلى مضرب الخيام، فجراً، أشعلوا فيه

النيران وسمعوا من بيت إحدى الموريسكيات التي كانت تقول باكية يا يسوع الوديع
ويا مريم العذراء المقدسة أغيثوني فأنا أحترق(*) . سواء الطفل أو المرأة يؤكدان
بوضوح وجود الموريسكيين في الوسط الريفي لوادي لوكوس Lucus (٢٧) .

لن نقرب حالياً من تاريخ هذه العائلات المتعددة التي اختارت مصائرهما ومارست
العمل الريفي الذي تدربت عليه في شبه الجزيرة.

لا يزال أمامنا أن نوضح الكثير عن تاريخ الموريسكيين في المغرب.

(*) نؤكد مرة أخرى أنه لا يمكن الاعتداد بكتابات المؤرخين الإسباني في القرنين السادس عشر
والسابع عشر، فهي كتابات دعائية في معظمها و الشيء المنطقي هو أن يبقى المسيحي المخلص في إسبانيا
الكاثوليكية، أما من بذل المال و النفس في سبيل الهجرة إلى دار الإسلام فهو إنسان مسلم بكل تأكيد .
(المراجع)

الهوامش

(1) Archivo Histórico Nacional. Osuna. Leg. 422-9

(2) ظهر افتداء عام ١٥٤٨ في دراسة:

FRÍAS, Duque de, " Una redención de cautivos en tiempos del Emperador" Revista de Archivos Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958, Pag. 483 a 514.

(3) ARANDA, P. Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692. Pp. 507 a 536.

(4) Véanse algunos de esos documentos en las Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) España 1.a I. Pp. 95 y ss. 199, 126, 135 y s.

(5) توجد أسعار المنازل و الفرس... إلخ في مملكة غرناطة في تلك الأعوام في:

Catálogo del Archivo de la Alhambra de M.a Angustias MORENO OLMEDO, Cuadernos de la Alhambra. 15-17m Págs. 303-323.

(6) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del :Descripción General de Africa Libro Quarto. Granada 1573. Fols. 131 y 131v.

(7) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Cueta. Manuscrito N.* 9741 de la Biblioteca Nacional de Madrid. Fol. 55v.

(8) B.N. Manuscrito 9741. fol. 71.

(9) S.I.H.M. España 1.a III-18.

(10) S.I.H.M. Portugal 1.a V. 65.

(11) B.N. Mss. 9741. Fol. 75.

(12) Biblioteca Nacional. Mss. 9741. Fol.75.

(13) Biblioteca Nacional. Mss. 9741. Fol. 76 v.

(14) AZZUA HAKIM, Mohammad Ibn. " Apellidos tetuaníes de origin español" Awraq. Vol. IX. 1988, Págs., 101-123.

- (15) MESA, Sebastián. Jornada de África por el rey D. Sebastián y unión del reino de Portugal a la Corona de Castilla. Barcelona 1630. fol. 113v.
- (16) Biblioteca Nacional de Madrid. Manuscrito 6569 Fol. 49v.
- (17) B.N. de Madrid. Mss. 6.569. Fol. 51.
- (18) B.N. de Madrid. Mss. 3.588
- (19) لقد تمكنت شخصياً، في الجبانة اليهودية في القصر الكبير، من التأكد من وجود قبور (مغوراشيم) مغرناطية، مشابهة لتلك الموجودة في جبانات تطوان وشاون وأرسيلة وطنجة العبرية. megorachim.
- (20) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. (en árabe). Tetuán 1959, I-175-76.
- (21) AL OUFRANI. Nozhat el Hadi... Trad. Francesa o. Houdas. París 1889, P.265.
- (22) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. Tetuán. 1955. Pp 7 y 8.
- (23) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 84v.
- (24) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fols. 86v y 87.
- (25) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 87.
- (26) B.N. de Madrid. Mss. 2791. Fol. 48.
- (27) B.N. de Madrid. Mss. 4.390. Fols. 16 y 16v..
- (28) B.N. de Madrid. Mss. 3870. Fol. 22.
- (29) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 89v.
- (30) B.N. de Madrid. Mss. 3.634. Fol. 9.
- (31) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a II, Págs., 573 a 582.
- (32) S.I.H.M. Pays Bas. 1.a IV. P. 284.
- (33) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "La República Andaluza de Rabat en el siglo XVII". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán" Núms., 9-10. Jun. Dicbre. 1974.
- (34) B.N. Mss. 3.634. Fol. 11.
- (35) BAUER Landauer, Ignacio. Relaciones de África (Marruecos) Tomo II. Madrid s/ f. Pág. 85.
- (36) MÁRMOL. Op. cit. Libro 3.* Fol. 33.
- (37) BAUER. Op. cit., Pp. 230 y 231.

الفصل الخامس

التعايش اليهودى - الموريسكى فى المنفى

ملاحظات أولية:

أعد سقوط مملكة غرناطة، الذى يتزامن تقريباً مع قرار طرد اليهود، مصيراً مشتركاً للأقليات المهمشة فى شبه الجزيرة: و هو المنفى.

حدثت دراسات كثيرة عن الموريسكيين، فى فترة ما قبل خروجهم النهائى فى ١٦٠٩ .

مع ذلك، لا توجد أبحاث كافية تتناول تطور التجمعات الموريسكية أو اليهودية فى أماكن ملاحقتهم، سواء فى ما أطلقت عليه الفترة الأولى لهجراتهم الإجبارية، فى الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر، أو فى الفترة الثانية عقب قرارات الطرد، من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٤، خلال القرن السابع عشر.

لا يؤثر هذا التقسيم الزمنى مطلقاً على الأقلية اليهودية التى حدثت هجرتها النهائية، بصورة مفاجئة، فى عام ١٤٩٢، كما هو معروف.

شكلت مملكة فاس واحداً من أماكن المنفى للمسلمين و لليهود. و هذا شىء منطقى إذا فكرنا فى العامل الجغرافى المؤثر جداً عند وقوع أى حدث تاريخى.

استقرت فى المغرب موجات من الموريسكيين ومجموعات كبيرة من اليهود قلما نعرف شيئاً عن تاريخها اللاحق.

عن الفترة الأولى للمنفي الموريسكى واليهودى النهائى الذى حدث عقب سقوط العاصمة الغرناطية وبعد ذلك بقرن، قدمنا منذ سنوات دراسة حول تأسيس المنفيين الغرناطيين لمدينة تطوان^(١).

خصصنا فى هذه الدراسة فصلاً عن اليهود الغرناطيين الذين كونوا فى تطوان واحدة من التجمعات اليهودية الأكثر أهمية فى المغرب.

تناولت أعمالى السابقة الأخرى مظاهر متعددة متعلقة باليهود الإسبان فى المغرب المجاور و مشاركتهم فى تأسيس مدينة الشاون أو البقايا الأثرية التى لا زالت باقية فى المقابر العبرية فى الشمال المغربى^(٢).

أحاول اليوم إلقاء الضوء على المعلومات الموجودة فى وثائق غير منشورة توضح ما أشرتُ إليه بالفعل فى مناسبات أخرى، وهو أنه لم يكن لليهود الغرناطيين أو اليهود المهاجرين بوجه عام أية مشاكل فى المغرب للتعایش مع رفقاءهم فى المنفى، وعلى الأخص، فى تلك التجمعات التى تمتعت باستقلالية أكيدة، مثل تطوان على سبيل المثال.

فى باقى البلد عانى المنفيون، مثل كل المجتمع المغربى، من نتائج الفوضى الرهيبة المتفجرة مع تغير العائلات الملكية، من العائلة الوطاسية إلى العائلة السعدية، وبعد ذلك، من العائلة السعدية إلى الفيلاية، سنجد أحد الأمثلة أيضاً على الضرائب التى كان يدفعها المنفيون اليهود لعدم التنفيذ الحاسم للقانون و الأوامر.

يجب أن نقدم كذلك باختصار، فى هذه المقدمة القصيرة جداً، المجتمع الذى تكون فى تطوان بعدما أعاد إنشاءها سيدى على المندارى، حاكم بينيار الغرناطى السابق، فى عام ١٤٨٤.

كانت مصادر الثروة الوحيدة، القائمة على نواة أساسها المحاربون، هى تلك الناتجة من الحرب، سواء فى البر ضد الحدود البرتغالية، أو فى البحر حيث يتم الاستيلاء على كل غنيمة مسيحية تقع فى متناول السفن.

كانت القرصنة، أكثر من أى شىء، هى النشاط الذى يقدم مستوى معيشة خاصاً لتلك التجمعات التى برزت فى شمال وجنوب البلد بعدما كونت مدناً مستقلة: تطوان فى الشمال وحتى نهايات القرن الخامس عشر والرباط فى الجنوب، فى القرن السابع عشر. ازدهرت أسواق عبيد ناجحة فى هذه المدن، حيث لم تكن أى منها تستطيع بدون وجود هذه الأسواق أن تنتشر أو أن تستقبل مطلقاً هذا العدد الكبير من المنفيين الذين وصلوا إليها^(٣).

إن الغنائم البشرية التى كان يتم الاستيلاء عليها فى البحر أو الأشخاص الذين أسروا أثناء الهجمات على سواحل شبه الجزيرة أو الذين كانوا يقعون أسرى أحياناً فى الحروب المستمرة مع الحاميات البرتغالية، كانوا يُحملون إلى سوق تطوان و يباعون إلى شخص لديه رأس مال يستطيع أن يحتجز البضاعة خلال الوقت اللازم لكى يصل المفتدون. كان يجمع رؤوس الأموال الكبيرة هذه من كانت لديه السلطة السياسية أو أحد أتباعه، وقد شكوا هكذا برجوازية ثرية بسبب القرصنة، ما لبثت أن تكونت بجانبها برجوازية أخرى يهودية قليلة جداً إلى حد ما، لكن نستطيع بسبب عدد السكان المسلمين و اليهود أن نقول إنها أيضاً أصبحت ثرية بفضل الأعمال المتعلقة بالقرصنة.

كان السجناء أو الأسرى يمكثون عادةً فى السجون التطوانية المظلمة تحت الأرض حتى يصل المفتدون مع أموالهم أو بضائعهم، وكانت البضائع أكثر من الأموال بسبب منع إخراج العملة من البلاد، وأيضاً لأنه كان من العادة شراء عملة مغربية. بعد ذلك كانت الضرائب تؤخذ على كل أسير، وكانت تتغير وفقاً لعوامل متعددة: العمر، الجنس، الحالة الصحية، إلى غير ذلك، كان يُحدد ثمن موحد أحياناً عند شراء مجموعات كاملة من الأسرى.

وفى النهاية، كانت هذه الأسواق تعمل كإى أسواق بضائع أخرى، ولن نطيل أكثر من ذلك هنا عن هذه القضية التى تناولناها فى مكانٍ آخر.

يكفى ما قيل لكى ندرك أهمية كل وثيقة تتناول تجارة العبيد وظروفها ونتائجها بالنسبة لنا، والمخطوطات التى تقدم حسابات افتداءات الأسرى هى خير مثال على ذلك.

أغلب هذه النصوص غير منشور، أما النصوص المنشورة فهى أيضاً جديدة فيما يتعلق بالجانب الذى نحاول أن نبحثه.

وستظهر عرضاً نصوص تاريخية، إما أنها غير منشورة ، وإما أنها منشورة فى سياق آخر غير الذى نتناوله.

سنبدأ بالوثائق الأكثر قدماً، وهى من القرن السادس عشر، لأنه بالرغم من تأكيدنا من وجود جماعة يهودية فى تطوان منذ الأعوام الأولى من تأسيس المدينة، إلا أننا لم نجد، حتى الآن، أى نصوص تتضمن ذلك.

اليهود فى الافتداءات:

إن الوثيقة الأكثر قدماً من هذا النوع التى تتضمن أخباراً عن يهود يتدخلون فى أعمال القرصنة ترجع إلى عام ١٥٤٨ .

عندما مات المندارى فى عام ١٥٤١، خلفته أرملته ست الحرة، حتى حل محلها زوج ابنتها حسن، فى عام ١٥٤٢ .

سوف نجد "حسناً" هذا، وهو من سلالة عائلة المندارى، على رأس المصائر فى تطوان فى عام ١٥٤٨، عندما وصل إلى المدينة وفد أرسله السيد ديفو باتشيكو، ماركيز بينا Villena لافتداء أسرى بمبلغ حددته وصية أبيه الماركيز السابق ذكره.

تم دفع مليون ونصف مرابطى فى الإجمال وتم تحرير ٧٤ أسيراً، أى ما يعطى متوسط ٢٧٠, ٢٠ مرابطى لكل أسير، بالرغم من أن الأسعار تأتى كقاعدة عامة بصورة فردية وتتغير بسبب السن والجنس وحالة الصحة.

يظهر اسحاق بن فيرمى أو بن إبراهيم من بين أسياد العبيد، وكان هو شيخ اليهود التطوانيين، و لهذا السبب ولأنه كان مبعلاً بين مواطنيه، سواء اليهود أو الموريسكيين، فقد ساعد فى تيسير الافتداء و قام بجهد كبير فى كل يتعلق به و كان يتدخل دائماً فى عمليات الافتداء^(٤) .

هناك ذكر خاص لاسحاق الطيب الذى، فى الواقع، كان يجب أن تكون له علاقات ممتازة مع الموريسكيين التطوانيين لأنه كان لديه أيضاً عبيدين آخرين و كان يعمل كسمسار لبيع أحد الأسرى كان فى القصر الكبير تحت قبضة يهودى آخر، يدعى موسى روتيه Moisés Rote ، و هذا ما جعل مجموع مبيعاته يصل إلى ١٠٪ من إجمالى المبيعات.

كانت نسبة ابن فيرمى هى أكبر نسبة مبيعات فى هذا الافتداء بعد نسبة القائد حسن والقاضى مفضل.

فيما يتعلق بمنصبه كشيخ قبيلة أو شيخ لليهود، فمن المحتمل أن يصبح هذا المنصب خلال فترة منصباً ذا اتجاهات سياسية أكثر منها دينية. و من المحتمل أنه كان مسئولاً عن تصرفات التجمع أمام السلطة البعيدة التى كانت تحكمه، بينما كان الحاخام الأكبر، مثل بيباس Bibas فى الحالة التطوانية، الذى نعرف أنه كان يعمل فى هذا المنصب منذ عام ١٥٣٠، يمكن أن يكون الموجه الروحى فقط، المحافظ على القوانين الدينية^(٥) .

مازال أحد المسافرين من بدايات القرن الثامن عشر يذكر نفس المنصب فى حى فاس اليهودى الذى زاره^(٦) .

قام كنعانى عبرى آخر، فى هذا الافتداء لعام ١٥٤٨، بإحضار خمسة عبيد من ملك بيليث كانوا فى هذا الحى .

نجد أيضاً فى القصر الكبير أحد العبريين من ملاك العبيد و يدعى إسحاق أرباس Isaac Arbas . وبسبب هذا اليهودى أو يهود غيره ممن سوف نراهم فيما بعد،



شكل (ب)

فإننا نسجل وجود مستعمرة يهودية في القصر الكبير، ويتضح ذلك أيضاً من البقايا الأثرية لمقابرهم الأكثر قدماً، في المدفن الاسرائيلي لتلك المدينة و لدينا عنها وثائق تخطيطية.

توجد هذه المقابر، التي ليس لها مثيل في أى مدفن يهودى مغربى، فى شمال
البلد فقط، وبالتحديد فى طنجة والقصر الكبير وتطوان وأرسيلة والشاون.



شكل (ج)

هى مقابر خاصة، وفقا لنظرية عرضتها فى مكان آخر، باليهود القادمين من مملكة غرناطة والذين، بسبب معرفتهم باللغة العربية، تعايشوا بشكل جيد وبصورة أكثر كثافة مع الموريسكيين المنفيين من هذه المملكة^(٧) .

يبقى لنا أن نقدم مالك رقبة عبرى آخر فى الافتداء الذى نتناوله، و هو يوسف كوهين Yusef Cohen من فاس.

كانت الجماعة اليهودية، فى الإجمال، تتحكم فى أكثر من ٢١٪ من البضاعة الموجودة فى السوق التطوانى والتى كان يملكها مفتدون أرسلهم السيد ديفو باتشيكو.

يمكننا أن نؤكد، دون أى شك، أن الأقلية اليهودية الإسبانية، المنفية فى شمال المغرب كانت تتعرض لتقلبات المنفى دون أى تمييز فيما يتعلق بالمحن أو المنافع مع مواطنيهم الإسبان المسلمين، و كانوا يتحركون، بالإضافة إلى ذلك، فى حرية كاملة من مكان إلى آخر لكى يقوموا بمعاملاتهم التجارية بطريقة أفضل .

إذا نظرنا فى بؤرة القرصنة لمصب نهر مارتين، وهى إحدى النقاط الأكثر فاعلية لتجارة المغرب، الذى كان يختنق بسبب احتلال الحدود البرتغالية لأفضل موانئ البلد، فإن ذلك يمكنه أن يشرح لنا مستوى المعيشة المرتفع الذى وصلت إليه الجماعة اليهودية التطوانية، وعلى الأخص، إذا قارناه بمستوى باقى المجموعات اليهودية، الأكثر اضطهاداً فى هذه الفترة من القرن السادس عشر، وعلى الأخص، فى وسط بشرى مختلف تماماً.

كانت تطوان الموريسكية منذ عصر المندارى وخلفائه المباشرين لا يزال لديها الكثير من ملامح مدينة غرناطة، التى فقدت قبل نصف قرن.

لم يكن التعايش ممكناً فحسب بل كان منطقياً أيضاً. فقد مرت أعوام كثيرة وقرون ولا زال تجمع اليهود فى تطوان يحتفظ بشهرته كواحد من أكثر التجمعات ثراءً فى المغرب، بالرغم من تغير الظروف من الفترة الأولى إلى الفترة الثانية من المنفى الموريسكى.

من المؤكد أن اليهود التطوانيين قدموا، منذ العقود الأولى للقرن السادس عشر، دلائل كافية لتقدمهم عن الباقيين: ضرائبهم المرتفعة و زيادة عددهم وهذه البقايا الأثرية نفسها التي ساعدتنا فى الكشف عن وجود يهود غرناطيين فى القصر الكبير.

إن شواهد القبور اليهودية فى مدفن كاستييا Castilla de Tetuan فى تطوان تتفوق كثيراً إذا ما قورنت بلوحات أى مكان آخر بسبب ثروتها الزخرفية ونقوش بلاطها الدقيق. علاوة على ذلك، فإن بعضها عبارة عن كتابات منقوشة، وهذا الأمر غير موجود فى باقى المدافن العبرية، وتدل، فى رأينا، على ثقة كبرى فى مواطنيهم.

يحدثنا بعض الشهود المباشرين لذلك العصر سواء عن زيادة عدد السكان أو عن نشاطهم. من بينهم الكاهن الهولندى نيكولاس كلينارد Nicolas Clenard الذى مر عبر تطوان فى أبريل عام ١٥٤٠ و رأى العديد من السكان اليهود^(٨).

يقدم لنا الأب الجليل فرناندو دى كونتريراس شهادة مثيرة أخرى، تتعلق بافتداء الأسرى فى إفريقيا. أقام كونتريراس فترات طويلة فى تطوان، منذ عام ١٥٣٥، الذى دخل فيه للمرة الأولى مملكة فاس من أجل نشاطه الخيرى، وتعرف على القائد العجوز سيدى على المندارى، قبل وفاته بقليل. ناقش مع خلفائه، وعلى الأخص مع حسن، ليس فقط شئون متعلقة بأسر المسيحيين ولكن أيضاً جوانب من السياسة العليا جعلته تقريباً موضع ثقة القائد الذى كان بالتاكيد غرناطياً.

عرف الأب فرناندو الجالية العبرية، التى يمكن أن يكون قد سكن بين بيوتها فترات ممتدة من الزمن، حيث أنه كان مسموحاً للمسيحيين فقط بالحياة وسط اليهود. على ما يبدو لم يقض وقتاً سيئاً معهم، لأن كاتب سيرته أكد أنهم كانوا يقرضونه نقوداً عندما كان يحتاجها لدفع الافتداءات حينما كانت الفدية المطلوبة تتجاوز المبلغ الذى كان يحمله. كانوا يساعدون السجناء المساكين احتراماً لشخصه ولم يكونوا يرفضون أى شئ يطلبه منهم^(٩).



شكل (د)

يلمح كاتب السيرة نفسه، مشيراً إلى نشاطات كونتيريراس كمفتدٍ، إلى تجارة بيع العبيد، التي كان ينفذها اليهود "الذين اعتادوا القيام بذلك، مع إلحاق أذى كبير للأسرى المساكين"^(١٠). نضيف أن ذلك الأذى كان يحدث بالأخص عندما كان الأسرى يُنقلون إلى سوق الجزائر، الأمر الذي كان يتكرر كثيراً، و كان يزيد من عقبات وإجراءات وتكاليف ووقت الافتداء.

الأسرى إلى سوق الجزائر، الأمر الذي كان يتكرر كثيراً، و كان يزيد من عقبات وإجراءات وتكاليف ووقت الافتداء.

فيما يتعلق بتجارة العبيد ربما كانت تشكل نشاطاً عادياً لليهود، بالإضافة إلى إقتنائهم هم أنفسهم عبيداً و اشتغالهم بالسمسرة والوساطة في السوق.

سوف تقدم لنا وثيقة أخرى من القرن السادس عشر، هذه المرة غير منشورة، معلومات وفيرة عن هذا الجانب من التعايش اليهودي الموريسكي في مصادر الاقتصاد التطواني. تقدم في هذا المخطوط حسابات أحد افتدائات الأسرى نفذها، في تطوان عام ١٥٧٩ ، رجال الدين من جمعية "لا ميرثيد"، وهم الراهب رودريغو دي أرثي Rodrigo de Arce والراهب لويس دي ماتينثو Luis de Matienzo . وقد حملوا توصيات كثيرة ونقوداً كثيرة، أكثر من سبعة ملايين مرابطي، وأعطاهم الملك نفسه، فيليب الثاني، تعليمات فيما يتعلق بأسرى محددين^(١١) . سيجدون، علاوة على تعقد مهمتهم، باقى جيش الملك سبستيان الممزق، الذى مات فى أغسطس عام ١٥٧٨ فى معركة نهر مخازن Mejacen ، حيث سقط كذلك الجزء الأكبر من طبقة النبلاء البرتغاليين إما قتيلاً أو أسيراً^(١٢) . مرّ ثلاثون عاماً منذ الافتداء السابق وحتى هذا الافتداء.

لقد اختفت كل الشخصيات السياسية وحتى الاقتصادية، بالرغم من أنه تتكرر فى المجموعة الموريسكية أسماء العائلات التى نُفيت منذ اللحظة الأولى.

إن ذكر اليهود وعملياتهم فى هذا المخطوط أكثر عدداً من كشف الحسابات السابق^(١٣) .

عاد شيخ اليهود للظهور. إنه يدعى هذه المرة يعقوب تشيكوتيو Jacob Chicotillo وهو شيخ يهود فاس، لكى تكون افتراضاتنا أكيدة، كان يجب أن يكون لكل أمة شيخها أو ممثلها أمام السلطة الحاكمة، بالإضافة إلى حاخام أكبر أو رئيس ديني.

باع المفتدون لتشيكوتيو ٤٩ زراً من الذهب بسعر ٥٣٩ أوقية من عملة إفريقية. وهي العملة التي اقتناها مسبقاً الرهبان في سبتة لكي يستطيعوا استكمال انتقالاتهم. كانوا يحملون بالإضافة إلى ذلك طروداً كبيرة الحجم مع بضائع اشتروها في شبه الجزيرة، و كانوا يذهبون بها وبالعملة المغربية إلى تطوان لكي يبدلوا كل ذلك بالأسرى النساء.

ذهب إلى تطوان، سوق هذه التجارة الحزينة، أناس من مناطق أخرى، إما كانوا يحملون عبيدهم أو يشترون البضائع التي يحملها رجال الدين المفتدون. هكذا ظهرت أسماء يهودية أخرى وأصولها، مثل تشيكيتيو، في كشوف المدين والدائن التي تكون كشف حسابات الافتداء: اليهودي إندا كونثوتيه Inda Conçote من فاس، موسى مايماران Moisés Maymaran ويهوذا كاستيل Juda Castel من مكناس ويعقوب أتشويلا Jacob Achuela من سلا .

كان أتشويلا تاجراً نشيطاً، فبالرغم من وصوله من مكان بعيد جداً لم يهمله الانتقال إلى سبتة لكي يتفق على مبيعاته ومشترياته مع الآباء المفتدين، عندما خرجوا من تطوان. لم يبع عبيداً فقط، بل كان يقايض، أحياناً، عبيداً ببضاعة، فعلى سبيل المثال، استبدل أسيراً بكمية من القماش الثمين أو اشترى بضاعة كلفته ٣٠٠ أوقية.

لم يكن أتشويلا فقط هو الذي ذهب إلى سبتة لكي يدير أعماله، فقد كان لليهودي الفاسي كونكوتيه أيضاً إذن لكي يأخذ أسرى قشتاليين ويحملهم إلى سبتة حيث كانوا يشترونهم منه؛ نفترض أنه كان يعمل في السمسة.

عندما ذهب رجال الدين إلى تطوان قاموا بتأجير منزل، منذ ديسمبر عام ١٥٧٩ إلى ١١ يناير ١٥٨٠، وكان أبراهام طوبى Abraham Tubi هو مالك الرقبة، الذي باع لهم أيضاً ثلاثة عبيد و اشترى منهم ١٩ أوقية من اللؤلؤ الصغير.

قايض اليهودي انكايتي Encalte أسيرين بقطعة من القماش الغالي. وقد تقاضى يهودي آخر يدعى أوناقو Onaco كمية من الأقمشة بدل ثلاثة أسرى. وتسلم يهودي مجهول كمية أخرى من الأقمشة، كعمولة لبعض المبيعات.

كان يبيع العبيد كل من خاكوب كروبو Jacob Crudo وناسون Nason، (لم يكن لدى الأخير سوى ستة أسرى)، وخاجون Jayón وموردافاي Mordafay وعليا Alia أو عليو Alillo و ابراهام ميناخى Abraham Menagi و بوكايتى Bucaite (كان لديه ١١ أسيراً)، بالرغم من أن بعضهم كان يباع لحساب القائد، وقد اشترى سبع أوقيات من اللؤلؤ الصغير لنفسه.

لكن الذى يتميز بينهم هو صامويل بيمينيتا Samuel Pimienta كمالك وتاجر وسمسار. باع عبيداً يملكهم القائد ومحصل الضرائب الأكبر لملك فاس. و اشترى بضائع له وللشخصين المذكورين، اللذين كانا يمثلان السلطات العظمى لتطوان الموريسكية فى هذه الأثناء.

وجدنا منفضل أو مفضل، كما كانوا يسمونه أحياناً، فى منصب محصل الضرائب الأكبر، فى وثائق سابقة فى عام ١٥٢٣ و عام ١٥٤٨ . كان قاضياً لتطوان فى هذا العام الأخير.

بطبيعة الحال لم يكن هو نفس الشخص المذكور فى تواريخ متباعدة، ولكنها كانت عائلة أو نسل لمهاجرين غرناطينين قدماء، كانت تكوّن طبقة الأرستقراطية الهاربة من عاصمة بنى نصر، قبل سقوطها و صاحبت المندارى، و أعادت إنشاء تطوان. من المحتمل أن "مفضلاً" الذى ظهر عام ١٥٧٩ هو حفيد مفضل الأول. ستواصل ذريته القيام بدور مهم فى تطوان الموريسكية فى القرن السابع عشر، حتى بدايات عائلة فيلالى الملكية، التى سوف تقضى بالتأكيد على عائلة النقسييس ، و ستقضى على عائلة مفضل أيضاً.

باع بيمينيتا عبيد مفضل نظراً لخبرته التجارية، و اشترى لحسابه قماشاً حريراً مخملاً قرمزيّاً و أنواعاً أخرى ثمينة من الأقمشة. لعب نفس الدور مع القائد حيث اشترى له قماشاً ثميناً أزرق و أخضر بالإضافة إلى زينات من الذهب. اشترى له كذلك ست دستات من قلنسوات سوداء.

كان بيمينتا النشيط يتحكم في آلاف من الأوقيات، سواءً لحسابه الخاص، أو لحساب آخرين ، وهو النموذج الأول للفينيقي اليقظ، حيث كان ينتفع من أصغر فرصة لتنمية تجارة مثمرة وسريعة. بالإضافة إلى ذلك، كان أيضاً النموذج الأول لليهودي الذي يضع نفسه في خدمة القادر الذي يستخدمه كرسول ومترجم وأمين صندوق وسمسار.

ليست هذه هي المرة الأخيرة التي نجد فيها صامويل بيمينتا، على الأقل سنجد خمسة عشر اسماً يهودياً في هذا الافتداء لعام ١٥٧٩ ومن بين ١٧٠ عبداً محررين نجد ٤٣ تحرروا بوساطته المباشرة أو غير المباشرة، وتم عن طريقه الربع الأخير أو ٢٥٪ من الثروة التي سببها هذا الافتداء.

لم تكن الأمة اليهودية الإسبانية تستطيع أن تشكو من أن الموريسكيين رفقائهم في المصيبة – لم يتركوا لها مكاناً تحت الشمس .

ليست هناك معلومة أكثر أهمية من اقتسام مكاسب القرصنة يمكن أن توضح بطريقة أفضل التعايش السعيد بين الأمتين.

هناك معلومة أخرى ذات أهمية أقل، وهي ابتهاج المسلمين و اليهود لهزيمة الملك سبستيان، كان فرح الموريسكيين كانتصار خاص لأنهم أسهموا بشكل قاطع بجيوشهم في نجاح معركة وادي المخازن وأقام العبريون احتفالاً خاصاً، وبرروا فرحتهم بتحررهم من احتمال مضايقتهم عبر محكمة التفتيش.

لا تزال لدينا وثيقة جديدة أخرى من القرن السادس عشر: حسابات افتداء لعام ١٥٨٣^(١٤)، قام بالافتداء نفس المفتدين، كان على واحد منهم، وهو الراهب لويس دي ماتينثو، أن يبقى في تطوان كرهينة، كان مكان إقامته هو المكان الذي أجره له أبراهام طوبى اليهودي.

ما إن بدأنا قراءة مديونية الأوقيات، عملة إفريقية، التي تدفع من أجل الأسرى الذين يتم افتداؤهم، في تطوان عام ١٥٨٣ ، حتى نجد في الباب الثالث صمويل

بيميننا والياثار مامياس، وهما يهوديان من تطوان، وقد باعا عبداً، وحصلوا مقابل بيعه على صندوقين من قلفسوات ملونة في ٦٤ سبته، بسعر خمسين ريالاً للواحدة.

قام سادة الأسير بإرساله إلى سبته قبل انتهاء العملية^(١٥). باع هؤلاء الأعضاء أنفسهم مجموعة من إثني عشر عبداً، منهم ثمانية عبيد للقائد التطواني، مقابل اللؤلؤ الصغير والأقمشة الثمينة الملونة. وقاموا أيضاً بعملية مبادلة لأربع نسوة وخادماتهن التابعات لهن. كان مفضل هو سيدهم، وقد باعهم مقابل أقمشة ثمينة قرمزية اللون وأزرار من الذهب.

تصرف الياثار مامياس باسم القائد، الذي كان يملك أسيرين من سبته. قال قائد سبته، بكثير من المضايقة، إن عليهم أن يحرروا هذين الجاسوسين، لكونهم لا غنى عنهم في إدارة استراتيجية الدفاع عن الموقع، ووافق رجال الدين على ذلك، وهم مكرهون قليلاً فيما يبدو. حمل مامياس الجاسوسين إلى سبته، بعد دفع ٦٢٥ أوقية.

باع مامياس عبداً لأحد المسلمين، مقابل نقود و ملابس.

سلم نفس التاجر أسيراً آخر بإذن من أحد اليهود ويدعى ميسياس Mexias السمين.

كان هذا اليهودي التطواني الأخير مواظباً أيضاً على الحضور إلى سوق سبته، لذلك كان لديه بالتأكيد، كما رأينا، أذن يمكنه بمقتضاها التنقل في الأراضي الإسبانية. وقد قام بدور سوف نلخصه لأنه يعكس الكثير عن ذلك العالم الغريب الذي كان ينتشر فيه رجال الدين واليهود والموريسكيون والتجار من كل الطبقات وأيضاً المسيحيون.

قام موسى ميخياس السمين بالاتفاق مع رجال الدين في سبته، في وجود الكاتب العام لهذا البلد، ويقضى الاتفاق بتسليم أسير حر في هذه المدينة، في مدة عشرة أيام، من خلال دفع ٥١٤ أوقية، وقد أعطى ملابس على سبيل الوديعة، بنفس القيمة، إلى يهودي تطواني آخر يدعى موردافاي ألييو Mordafay Alillo، وبعد مرور عشرة أيام دون أن يصل الأسير، قام بسحب الوديعة من موردافاي وأعطاهم لتاجر من سبته

يدعى بدور دى إرييرا Pedro de Herrera، على أساس أن يسلمها له عندما يصل الأسير إلى سبته، وهذا هو ما حدث فى النهاية.

كان موردافاى يقوم، فى مناسبة أخرى، بدور ميخياس السمين لتغيير عبد تابع لميخياس مقابل قطعة كبيرة من القطيفة القرطبية وقطعة أخرى من القماش الثمين الأزرق.

باع موردافاى ألييو ثلاثة عبيد آخرين، وتبقت لديه كمية كبيرة من الملابس والنقود. وأخيراً باع مع رفيق آخر، أسيراً بنقود وملابس أيضاً.

وأخيراً ستنهى هذا الجانب من الدراسة كما بدأناه، بصمويل بيمينتا الذى باع عبيداً تابعين للقائد ولشخص يدعى حامد سردينا من القصر الكبير وحصل على المقابل فى شكل القلنسوات واللؤلؤ الصغير. باع أيضاً امرأة وثلاثة أطفال وطفلة، ينتمون إلى قائد القصر الكبير. حصل على المقابل كله تقريباً فى شكل قطع من اللؤلؤ الصغير والقلنسوات والأقمشة.

كان لصمويل أخ فى القصر الكبير، وهو يعقوب بيمينتا، قام بدور سمسار قائد مدينته فى هذا الافتداء، وقد قاىض أسيراً باللؤلؤ الصغير.

لم تسجل العمولات، التى قبضها بيمينتا وألييو ويهود آخرون عند بيعهم عبيد القائد مفضل مرة أخرى، فى السجلات، لأن هذا يكون شيئاً ثابتاً بين أصحاب الشأن وبعيداً عن الحسابات التى يقدمها الرهبان، لكننا نعرف أن ما تحصل عليه الجماعة اليهودية كلية من بيع عبيدها يتجاوز ١٥٪ من الرصيد الكلى للافتداء. وإذا كانت هذه النسبة تعادل ما يقرب من ٣٥ ألف أوقية، فمن السهل استنتاج أن اليهود كانوا يشاركون بنسبة جيدة فى هذا المجال المزدهر.

كانت النقود تجرى فى أيدي الموريسكيين واليهود، ربما بأكثر فائدة لليهود الذين كانوا يعرفون القيام بذلك بمفهوم مالى أكثر، وكانوا يفضلون الحصول على بضائع بدلاً من النقود، من بين كل ما كان يجلبه الرهبان المفتدون. بعد ذلك، وبانقضاء حمى الافتداءات، احتكر اليهود، ليس فقط فى تطوان، بيع القلنسوات السوداء والملونة

الواردة من طليطلة، التي كان يقدرها كل المسلمين ، أو قطيفة سيغوبيا والأقمشة الناعمة ذات الألوان المتعددة والحريير والمخمل الوارد من بايثا، غرناطة، واللؤلؤ الصغير وحلى أخرى، كأزرار الذهب، من مدريد وقرطبة وكل ما كان يحمله رجال الدين المفتدون، حيث أنه لم يكن مسموحاً خروج العملة من البلد وكان عليهم أن يحولوا كل هذه الملابس والخز، إما إلى أسرى مباشرة، وإما بعملة إفريقية، (الأوقية الموريسكية التي كانت، في هذه الأعوام من ١٥٧٩ إلى ١٥٨٣ ، تقدر بـ ٣,٥ إلى ٤ ريالات للواحدة، وفقاً لما هو ثابت في نفس المخطوطات).

وهكذا، لدينا يقين بأن الرجال والنساء في كل من البرجوازيين الموريسكية واليهودية كانوا يلبسون ويتزينون بنسبة كبيرة بالأقمشة والجواهر التي كان يقدمها لهم، بكثرة وعلى فترات زمنية قصيرة، رجال الدين من الجمعيات الافتدائية المتعددة، كجمعية السيدة العذراء وجمعية الثلاث المقدس ... إلخ.

مظاهر من التعايش في القرن السابع عشر:

ندخل في القرن السابع عشر وتتغير كما هو طبيعي الشخصيات والظروف، في إسبانيا لم يكن قد تم التوصل حتى ذلك الحين إلى حل نهائي للقضية الموريسكية. سوف يتخذ فيليبى الثالث الخطوة الحاسمة عند نهاية العقد الأول من القرن، حيث يكسر، هكذا بطريقة مفاجئة وحريصة، التوازن غير الثابت للتعايش مع عائلات هؤلاء الإسبان المسلمين المنهزمين. استمرت القرصنة في اجتياح البحور والسواحل في شبه الجزيرة، وكان ينميتها، منذ سنوات، إسهامات أترك الجزائر والسييل المستمر من المنفيين الذين اشتغلوا بها. إنها حرب صغرى وصامتة، ولكنها مستمرة، وكانت توقع ضحايا وأضراراً أكثر، إذا جاز التعبير، من تلك الناتجة عن الحروب المعلنة. يسمى بعض الكتاب ذلك القرن بالعصر الذهبي للقرصنة من بلاد البربر. نعرف أن أولئك القرصنة كان منهم نسبة صغيرة جداً من بلاد البربر وأن الأغلبية كانت من الإسبان المسلمين.

فى المغرب، و بعد موت المنصور فى عام ١٦٠٣، (الذى تولى الحكم بعد معركة الملوك الثلاثة، فى عام ١٥٧٨)، تفككت البنية السياسية و الاجتماعية، وتفجرت مرة أخرى فوضى رهيبة أهلت البلد. تنازع أبناؤه على السلطة، واحد فى الجنوب وعاصمته فى مراكش، والآخر فى الشمال مع فاس كمركز. لن يتأخر القادة الدينيون السياسيون فى الظهور وسوف يحولون تأثيرهم الدينى إلى سيادة على الأراضى الموزعة هنا وهناك، وكان البعض منهم يخفى تطلعات قومية و رغبة فى الحرب ضد المسيحيين.

إنه قرن عائلة النقسيس فى تطوان، ومن جديد أصبحت المدينة مركزاً لاستقبال العديد من الموريسكيين، عندما طردوا بصفة نهائية من شبه الجزيرة. ملأ هؤلاء التعساء قرى المغرب المجاور.

بدأت ما يمكن أن يطلق عليها الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية. لقد عاش اليهود أعواماً كثيرة جداً، حوالى قرن كامل، من المنفى المستمر. كانوا فى تطوان مدمجين للغاية فى المجتمع الذى يعيشون فيه. لقد أثبتنا ذلك فى حديثنا عن القرن السابق، واستمر الوضع هكذا فى القرن الحالى، فقد بقى كل قسم من المجتمع التطوانى مع إحساسه الداخلى بحنينه إلى الوطن الذى فقدوه. حافظ اليهود الاسفريديم، ربما بكثافة أكثر، على لغتهم وعاداتهم. لذلك استطاع الكثير منهم أن يعملوا ك مترجمين وكجسر بين الشعبين المتقابلين للشمال والجنوب^(*). فى عام ١٦٠٧ تم القيام بافتداء فى سبتة^(١٦)، إنه الافتداء الأول الذى نعرفه فى القرن السابع عشر.

كان حاكم سبتة هو ماركيز بياريال، وكان رجلاً ضليعاً فى التقلبات على الحدود. كانت هناك فى تطوان، فى تلك اللحظة، سلطتان عليتان: القائد على غودوبار،

(*) لا نستطيع أن نشارك المؤلف هذا الرأى، فمن المعلوم أن المسلمين الإسبان كانوا يتحدثون الإسبانية بطلاقة وأنهم - من الناحية اللغوية على الأقل - كانوا مؤهلين القيام بأعمال الترجمة. لا زلنا نتساءل حول سبب الاستعانة باليهود فى الترجمة. (المراجع)

ممثل السلطان، بسلطة رسمية أكثر من كونها مؤثرة، و المقدم أحمد النقسييس، قائد أو رئيس المحاربين، الذين كانوا لا يدافعون فقط عن المدينة، ولكنهم كانوا أيضاً يطاردون حامية سبتة، و يسببون لها أحياناً خسائر مؤلة، مثل تلك التى سببها لهم النقسييس نفسه فى عام ١٥٨٨ .

لم يُرد الماركيز أن يمر الآباء المفتدون إلى أرض بلاد البربر، بسبب الحروب الموجودة بين ملوك فاس و مراكش. إنها الصراعات الأهلية التى تفجرت بين أبناء أحمد المنصور.

بدأ الافتداء حينئذ بصورة غير عادية دونها كاتب الافتداء بدقة.

فى مدينة سبتة الموجودة فى أنحاء إفريقيا، عند المدخل الذى يُؤدى إلى الريف وإلى الطريق الذى يذهب إلى تطوان، فى ١٢ من سبتمبر عام ١٦٠٧، وبحضورى أنا - توربيو دى بالاثيوس Torblo de Palacios، كاتب الملكة و كاتب هذا الافتداء - افتدى الآباء المفتدون إثنين و عشرين أسيراً من الحاج خوسيبى Jusepe، و هو مسلم، من تطوان، و كان خوسيف ميخياس مترجماً يهودياً، ...

كان هناك يهودى مشارك منذ بداية العملية، سوف يكون له دورٌ مهمٌ أيضاً فى تطور هذه العملية، جنباً إلى جنب مع آخرين من جنسه. نتذكر ميخياس السمين فى افتداء عام ١٥٨٣ الذى افتتح وجود تلك العائلة فى شئون القرصنة، حتى اختفائهم بعد عام ١٦٦٤ . إنها مسيرة طويلة يساويها فقط الموريسكيون ذوو الأصل العتيق، مثل عائلة مفضل وبوتاييو وبوعلى والمندارى، الذين وصلوا معهم سوياً هناك لكى يعيدوا إنشاء تطوان التى دمرها البرتغاليون فى عام ١٤٣٧ .

لم يكن خوسيه ميخياس هذا، الذى ظهر فى عام ١٦٠٧، راعٍ أو مترجم فقط، لكنه أيضاً استمر فى القيام بدور السمسار أو الوسيط، وهو يفعل ذلك هنا باسم القائد التطوانى، على غودبار. من كان يستطيع أفضل من اليهودى أن ينفذ بنجاح أى عملية بين المسيحيين والمسلمين؟ فى هذه الحالة لم تكن الوساطة صعبة، نظراً لوجود اتفاقيات سابقة عن عمليات أسر الجواسيس هذه. بالإضافة إلى ذلك، فقد تحدد أن ميخياس كان يقيم فى سبتة. نعرف الاهتمام الذى كان يظهره حكام سبتة نحو التحرير

العاجل لهؤلاء الاشخاص الذين كانوا يقومون بعمل صعب ومؤثر فى حامية الموقع، كان ثمنهم معروفاً بالفعل.

فى هذه المناسبة، وبعد مرور عشرين يوماً على وقوع ميخياس فى أيدي الاعداء، اتفق رجال الدين معه على أن يحضروه إلى سبته مقابل دفع ١,٦٦٠ ريال، وقد قام اليهودى بذلك بسرعة.

لم يكن الراهب ماتياس دى كوييار Matías de Cuéllar ولا زميله الراهب خوان غوتيرث ديل تيخو Juan Gutiérrez del Tejo مقتنعين كثيراً بعمليات الشراء والبيع على أبواب المدينة، لم يكن الأسرى يوفون بالغرض ولم تكن الأسعار ملائمة، حيث كانت أكثر ارتفاعاً من الأسعار العادية. قرروا الذهاب إلى تطوان لكي يفحصوا، على الأقل، الأسرى الموجودين، وقد أنشأوا هكذا قاعدة أكثر ثباتاً للافتداء.

خرجوا من سبته فى الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠٧، يرافقهم بعض المسلمين الأساسيين من وجهاء تطوان ومن المجموعة أو القافلة التى كانت تنقل دورياً بضائع من داخل سبته، ناموا فى قلعة، على بعد فرسخ من الميدان، وهى كاستييجوس Castillejos الحالية ووصلوا إلى تطوان فى اليوم التالى.

كان الرهبان والكتاب يتوقفون عادة فى حى اليهود و يسكنون فى منزل اليهودى خوسيه خيبرى José Gibre .

ظهرت علاقات إنسانية فى الافتداء، بين المفتدين والموريسكيين، وأيضاً، مع اليهود، وكانت علاقات إجبارية لأنه كمبدأ لم يكن يُسمح لأى مسيحى أن يعيش بين المسلمين وكان على أى مسافر غير مسلم فى المدينة، أن يسكن بين اليهود.

مكث رجال الدين فى تطوان أربعاً وعشرين ساعة فقط، فى الواقع، يبدو وأن الأحداث كانت متلاحقة، عندما تقرر خروجهم فى يوم ٢٤ قدم لهم القائد أحمد النقسيس فارساً تطوانياً يذهب فى رفقتهم لكي يؤمن لهم الطريق، تركوا المدينة فى السابعة صباحاً وقاموا بقطع مسافة أربعين كيلو متراً تفصلهم عن سبته ووصلوا إلى هذا الموقع مساءً^(١٧).

بعد مرور بضعة أيام طلبوا إذن ماركيز بياريال لكي يعودوا إلى تطوان، لأنهم لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاقيات معقولة، وبعد بعض المناقشات، اقترح القائد العام أن يذهب فارس من جمعية يسوع بدلاً من الآباء المفتدين ويحضر قائمة وأسعار الأسرى.

في غضون ذلك، كان رجال الدين يحوّلون البضائع التي يحضرونها إلى عملة البلد، وذلك كقيمة لتبديل العبيد، باعوا بعض صناديق من القلنسوات المصنوعة في طليطلة و أثواباً قيمة جداً في المغرب وكل شمال إفريقيا، وكان المفتدون يحصلون منها عامةً على مكاسب قيمة. حينئذ ظهر بعض اليهود بدافع التجارة. كانوا هم أكثر من يقبل ثمن الافتداءات في صورة بضائع. في هذه المناسبة لم يكن خوسيه ميخياس هو الوحيد الذي اشترى القلنسوات، ولكن تدخل أيضاً واحد آخر من عائلته يدعى حاييم ميخياس Haim Mejías في الشراء، إلى جانب كوهين Cohen و خاكوب كوفريه Jacob Cofre .

حصل خيبري Gibre نفسه، مقابل الضيافة، على جزءٍ نقدي (٢٤ ريالاً) و جزء عيني، (صندوق محفوظات)^(١٨) . تم ذلك عندما سلم الحاج خوسيه أول إثنين وعشرين أسيراً في سبتة، بعد دفع الفدية، في حضور محمد بوتاييو وخوسيه ميخياس، المترجم اليهودي^(١٩) .

كان بوتاييو، إذن، يقوم بعمل الملاحظ. استطاع كل من بوتاييو و ميخياس أن يرمزوا بصورة جيدة جداً للتعايش اليهودي الموريسكي. نجد بوتاييو في الافتداءات الأولى للقرن السادس عشر. ربما كان ينتمي إلى العائلات المنفية الغرناطية التي هاجرت قبل سقوط غرناطة. وقد شكل جزءاً من النواة التطوانية الحاكمة عندما اتجه مبكراً جداً إلى تجارة القرصنة. لم يكن الناس يجهلون اسمه في سبتة. يذكره كورييا دي فرانكا على سبيل المثال في أخباره عن سبتة في إحدى المناسبات.

يمثل ميخياس إحدى العائلات اليهودية الأخرى من تطوان التي تكون نوعاً من البرجوازية المحلية، المتعايشة مع البرجوازية الموريسكية في كل المظاهر الاجتماعية

الاقتصادية، سيتكرر- وقد تكرر بالفعل- لقب وآخر فى وثائق موجودة منذ القرن السادس عشر.

ظهر فرد آخر من عائلة ميسياس أو ميكسياس، كما يصفه الكتاب بغموض، فى المخطوطات بداية من عام ١٦٠٩ ، يُدعى مويسيس مكسيا Moisés Mexia، و يحتمل أن يكون سليلاً لخوسيه السابق. لم تتضح عوامل الاضطراب السياسى المغربى الذى لم يسمح بسببه ماركيز بياريال أن يدخل الرهبان فى أراضٍ معادية. كتب إلى المقدم أحمد النقسيس و إلى مويسيس مكسيا، بأسماء هؤلاء الأسرى الذين يريد المفتدون افتدائهم. أحضر اليهودى إلى ضواحي سبتة سادة العبيد مع عبيدهم، وقاموا هناك تحت أسوار القلعة بعمليات التبادلات والشراء والبيع والعقود، وفى النهاية قاموا بعملية افتداء الأسرى^(٢٠).

فى عام ١٦١٢ باع مويسيس، مع يهودى آخر يدعى ناعورى Naorí، عبيداً لراهبين من جمعية السيدة العذراء، هما الراهب بدرودى مدينا Pedro de Medina والراهب غاسبار نونييث Gaspar Núñez^(٢١).

إنها لحظة صعبة بالنسبة لحكم الأقلية التطوانى، لأنه كان يجب على المدينة أن تخضع للسلطان مولاي الشيخ أو المأمون، الذى تحميه إسبانيا، والذى طرد الحكام الأصليين من الموقع، ومن بينهم الشخصية المهمة جدا أحمد النقسيس، الذى هرب إلى الجبال المجاورة. عين الشيخ صديقه المفضل لديه، أحمد بوديبيرا ، حاكماً على تطوان، حصل بوديبيرا على الجزء الأكثر أهمية فى افتداءات عام ١٦١٢ . مع ذلك حصل اليهود على نسبة ١٠٪، وهى نسبة غير قليلة بالمرّة، فى هذا الوضع غير العادى الذى كانت تمر به المدينة.

كانت الظروف مختلفة جدا فى عام ١٦١٤ ، مع وجود النقسيس الذى أُعيد مرة أخرى إلى مكانه بين أتباعه، وبعد أن كان كل من الشيخ وبوديبيرا قد قُتلا فى العام السابق، بالتحديد فى تطوان أو فى أماكن مجاورة لها، بالرغم من استمرار جو الصراعات الأهلية فى كل المغرب .

لم يعانى موسىيس مكسياس فقط من التغير، ولكنه باع، عن طريق العمولة، بالإضافة إلى عبيده، عبيد المقدم أحمد النقسييس الذى كان يوليه ثقته الكبيرة.

تجاوزت مبيعاته ١٥٪ فقط من الإجمالى، بالنسبة لحجم المبيعات مع السادة الأكثر ثراءً، مثل النقسييس نفسه أو حامد بوردان.

تمت العمليات فى ريف تطوان، أرض المسلمين، وهناك كان أحمد النقسييس، مقدم مدينة تطوان، يرسل أسراه وكان يحضرهم موسىيس ميكسيا، اليهودى، لكى يتم الاتفاق على افتدائهم، وبعد تجاوز بعض الاختلافات بين الطرفين اتفقوا وعقدوا... (٢٢).

حدد الكتاب أكثر من مرة فى كشوفهم، مكان إقامة موسىيس ميخياس فى سبتة. سجل ذلك واحد منهم يدعى خوان دى لاكيتيغى Juan de Laquitegul فى ١٦١٥ بكل وضوح. من المهم أن نعرض باختصار ظروف الحالة، التى توضح كل ما يتعلق بالافتدائات والدور الذى يلعبه اليهود. فى هذا التاريخ كانت حملات الجمعيات الدينية إلى الجزائر متوقفة، بسبب واقعة افتداء أدت إلى مشاكل. حينئذ كان رجال الدين، الذين يذهبون إلى تطوان، يحاولون من هنا، إرسال سفن إلى الجزائر لتحرير ما يستطيعون، هذا هو ما تناقش فيه الرهبان مع أمى بن عمار Ami Benamar، القائد التطوانى الأكبر، لكى تذهب سفينته لحساب حامد بوردان، أحد تجار العبيد الأثرياء وذوى النفوذ، إلى الجزائر، مع بقاء موسىيس ميخياس كضامن. رد القائد بأنه لذلك من الضرورى الانتظار حتى يوم الاثنين عندما يصل ميخياس من سبتة، حيث كان يقيم (٢٣).

لم يتم التوصل إلى تنفيذ العملية، بسبب خلاف بين الأطراف، ولكنهم، بدلاً من ذلك، فى ١٥ من مايو عام ١٦١٥، قاموا بتحرير ٧٠ أسيراً ملك لسادة تطوانيين، من بينهم ١٠ أسرى لموسىيس ميخياس و٣ ملك سالومون بارينتى Salomon Pariente، حيث حصل اليهوديان على نسبة ٤٠٪ من المجموع. يجب الإشارة إلى أن العبيد الذين باعهم أحمد النقسييس كانوا أيضاً عشرة. المقارنه لها مدلول أكبر من كلمات كثيرة. لا نجد افتدائات أخرى حتى عام ١٦٢١، ولكن وجدنا روايات عن وساطات للأب أورتيث

Ortiz ، فى أعوام ١٦١٧ و ١٦١٨ ، بها بعض المعلومات الغريبة جدا ليس هذا هو الوقت المناسب لإبرازها. مع ذلك، فقد كانت لديه بعض الملاحظات عن اليهود حيث أبرز، دون تحديد أسماء، دور الوساطة الذى كانوا يقومون به فى عمليات الافتداء. حتى لو كان الناس لا يحبون أورتيث، كان يجب الاعتراف بقيمة نصائحه.

عندما كان الأب أورتيث دى لوياندو يحكى أحداث رحلته الأولى فى ١٦١٧ ، روى كيف وصلوا إلى تطوان، وكيف زاروا على الفور المقدم الأكبر ... المسمى النقسيس، الذى أثنى عليه رجل الدين الطيب. فى اليوم التالى، فتحنا باب مسكننا الموجود فى حي اليهود، فى منزل شخص يدعى جاكوب تابيرو... تقابل مع بعض الحراس الذين عينهم المقدم. تناقشوا مع النقسيس وقال الراهب وهو متضايق إنه سوف يرحل إلى سبتة دون أن يقوم باى افتداء. لكن " كان اليهود ينصحوننا بأن نتوصل إلى التعامل فى قضية الأسرى مع كل حالة على حدة، ومعرفة كم عدد الأسرى الذين يريد أن يبيعهم الحاكم و المقدمون، وقالوا لنا إننا لو عقدنا هذا الاتفاق بشكل جيد فمن السهل الوصول إلى اتفاقيات سهلة بالنسبة للعبيد المملوكين لمواطنين من تطوان. كانت نصيحة جيدة" (٢٤) .

كتب بعد ذلك:

كنت أتمنى فى الحديث عن هذا الافتداء، قول الكثير من المجابهاة الجدلية التى قامت بينى وبين اليهود عن حقيقة ديننا و زيف دينهم، لكننى لم أفعل ذلك لكى لا أطيل فى حديثى (٢٥) (*) .

كان يبدو أن التطوانيين يشعرون برغبة خاصة فى حفز رجال الدين المسيحيين الذين كانوا يأتون، لكى يذهبوا إلى معابد الحى اليهودى لكى يتناقشوا مع الحاخامات.

(*) تجدر الإشارة إلى أنه فى تلك الفترة كانت هناك مجابهاة جدلية بين المسلمين و المسيحيين واليهود، وكانت تلك المناظرات تتم فى أى مكان، حتى فى سجون محاكم التفتيش. أنظر على سبيل المثال المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية . (المراجع)

حدثنا بالفعل كاتب سيرة الأب كونتربيراس فى العقد الرابع من القرن السادس عشر عن هذه الأحداث.

يتحدث الأخ بدرو أورتيث دى لوياندو عما حدث له فى عام ١٦١٨، وعن اليهود بهذه الكلمات:

كان اليهود، الذين هم رجال معروفون بالتدخل فيما لا يعنيههم والقيام بالتجارة فى كل شىء، يقولون إنهم بذهابهم وحضورهم إلى سبّطة يمكنهم أن يحضروا لنا الأسرى الذين نريدهم، ولهذا قدموا لنا بعض القوائم، التى يسمونها هناك كشوفات، للأسرى الموجودين فى تطوان، ليس ملائماً، ولن يكون أبداً أن ينفذ الافتداءات سماسرة أو يهود (٢٦).

إن قراءة أورتيث واعية ومفيدة لأنها تكشف لنا المواهب الخاصة التى كان يملكها هؤلاء اليهود السفارديم(*) لكى يجعلوا أنفسهم لا غنى عنهم بالنسبة للطرفين، للرهبان والموريسكين، على السواء.

تخدمنا مذكرات هذا الراهب أيضاً لكى نتعرف على وجود إحدى العائلات العبرية الأكثر قدماً من بين العائلات megorachin المغاربة، فى تطوان، منذ هذا التاريخ ١٦١٧، وهى، عائلة طابيرو Taplero التى سوف تكون المرة الوحيدة التى تظهر فيها فى الوثائق المستخدمة.

يوجد فى الدراسات الحديثة شخص واحد فقط يدعى ميير طابيرو Mier Taplero، وهو حاخام فى الرباط فى القرن السابع عشر، لكن لا يوجد أحد من هذه العائلة فى تطوان (٢٧).

فى هذا الصدد يجب أن نضيف أن كلاً من المخطوطات التى نستخدمها، بالإضافة إلى الدراسة التى تشغلنا، مهمة لبحث قدم وجود العائلات أو ببساطة

(*) السفارديم هم يهود الشرق أو يهود الأندلس . (المراجع)

لبحث وجود علائلات يهودية محددة فى تطوان، فى الفترات التى نتحدث عنها. وهى معلومات متسلسلة زمنياً لن نجدها بالتأكيد فى أى مكان آخر بمثل هذه الكمية.

لم يظهر أيضاً فى الدراسة السابق ذكرها أى يهودى من عائلة بارينتى Pariente فى تطوان^(٢٨). مع ذلك فقد رأينا بيع عبيد هناك فى عام ١٦١٥ لشخص يُدعى سالمون بارينتى. لم تكتشف هذه المصادر الحديثة أفراد عائلة بيمينيتا المهرة، الذين تم تسجيلهم فى مخطوطات عامى ١٥٧٩ و ١٥٨٣، سواء فى تطوان أو فى القصر الكبير، حتى عثر على هذه المخطوطات فى عام ١٧٧٥ فى تطوان^(٢٩).

وحتى ميخياس نفسه، الذى نستطيع أن نرجعه وثائقياً إلى عام ١٥٨٣، فى تطوان وسبته^(٣٠)، لم يتم ذكره فى تلك المصادر حتى القرن السابع عشر، التى ذكرت فقط حاكماً يدعى خوسيف ميخياس^(٣١)، يحتمل أن يكون آخر من ظهر فى مخطوطاتنا.

من الممكن عمل دراسة موازية، والاستمرار فى مقارنة المعلومات التى يوفرها البعض، لكننا نعتقد أن هذا ليس هو المكان المناسب.

تستحق المصادر الجديدة التى نقدمها الآن، ليس دراسة واحدة ولكن دراسات عديدة مشابهة للدراسة المعروضة، لاحتوائها على مجموعة من المعلومات الجديدة بالاهتمام.

فى عام ١٦٢١ نجد مويسيس ميخياس المعروف، يقوم بعمله المعتاد لمصاحبة الأسرى المسيحيين المتفق على سعرهم إلى سبته، أى هؤلاء العبيد الذين تم الاتفاق على سعرهم وفعلياً هم أحرار. يتبقى فقط الحصول على النقود أو البضاعة المودعة فى سبته والتى اعتادت أن تمر بأيدي ميخياس نفسه من أجل ملاك العبيد.

كان اليهودى خوسيه ألييو José Alillo مالكا لأحد العبيد المباعين، وربما يكون سليل مورداقاي ألييو الذى ظهر فى افتدات عامى ١٥٧٩ و ١٥٨٣، الأمر الذى يشير إلى وجود مجموعات اقتصادية متخصصة، داخل الأمة اليهودية التطوانية، مثل التى كانت موجودة فى قلب المجتمع الموريسكى.

يوجد فى عائلة ميخياس اسم آخر، إسحاق، رافق أفراد النقسيس فى هذا العام ١٦٢١، عندما ذهب هؤلاء إلى المسكن حيث كان يقيم الرهبان، وذلك بالتأكيد بصفته مترجماً وموفداً. نتذكر أن الآباء المفتدين كانوا يسكنون فى حى اليهود (٢٢).

إنه العام الأخير من حياة و حكومة أحمد النقسيس، ذلك الحاكم العجوز، الذى ازدهر تحت حمايته اليهود التطوانيون، وكونوا عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه فى حركة المدينة، جنباً إلى جنب مع الموريسكيين.

عندما توفى، فى أكتوبر ١٦٢٢، هذا "العجوز الأعور والأصلع" الذى كان أكبر أفراد عائلة النقسيس واحداً من أبرز الشخصيات الإنسانية العظيمة فى وقته، كنا متأكدين من أن المجتمع اليهودى بالكامل كان من بين آلاف التطوانين الذين بكوه، وفقاً لما يقوله ضريحه.

كانت المخطوطات الأولى التى لدينا، بعد موته، عبارة عن افتدائين لنفس العام، ١٦٢٥، قام رهبان جمعية "الثالوث المقدس" بالافتداء الأول فى تطوان، وقام رهبان جمعية "مريم العذراء" بالافتداء الآخر فى طنجة.

يعكس الافتداء الأول فترة حكم جيل عائلة النقسيس الجديد، إخوان النقسيس، الذين حكموا شئون البلاد بموافقة الجميع.

فى تأمين تم إعطائه إلى الراهب غابرييل دى لا اسونثيون - Gabriel de la Asunción والراهب سبستيان دى لامادري دى ديوس Sebastián de la madre de Dios من جمعية "الثالوث المقدس"، وجدت توقيعات، باللغة العربية، خاصة بإخوان النقسيس. إنها الوثيقة الوحيدة التى وجدناها بمثل هذا الأثر الكبير لكيان تلك العائلة التاريخية (٢٣).

فى ١١ يونيه ١٦٢٥ زار الراهبان السابق ذكرهما، واحداً من الحكام، عيسى النقسيس، الذى كان يساعده سكرتير ومترجم، الأول هو الموريسكى الإشبيللى قاسم دى كارديناس Casimi de Cárdenas، والثانى هو اليهودى إسحاق ميخياس (٢٤).

فى نفس العام ظهر رهبان جمعية العذراء فى طنجة، أى فى الموقع القوى الآخر للمضيق الذى كان فى أيدى السلطة الملكية الإسبانية.

من النادر وجود افتداءات فى طنجة، لعدة أسباب. كانت طنجة أبعد من سبتة بالنسبة للسوق الأساسى للعبيد فى تطوان، وكان من الأسهل الذهاب من المضيق من جبل طارق إلى سبتة. وكان يمكن القيام برحلة من سبتة إلى تطوان وكان من الأسهل الاقتراب عبر البحر إلى ألميناكار Alminacar، وهى ركنون المضيق Rincón الحالية، ومن هنا يتبقى فقط خمسة عشر كيلو متراً على المدينة الموريسكية. كان الطريق من طنجة إلى تطوان مجهداً بصورة أكبر وطويلاً إلى حدٍ ما. على كل حال، فقد نُفذ افتداء عام ١٦٢٥ فى طنجة من المدينة نفسها أى يعنى، أن رجال الدين لم يدخلوا بلاد البربر، بل مكثوا فى مسكنهم فى طنجة. جاء إليها الموريسكيون التطوانيون مع عبيدهم ومطالبهم الاقتصادية. وكان موظف من طنجة، يُدعى مارتين دومينغيث Martín Domínguez، مسئولاً عن المفاوضات لافتداء عدة أسرى من سلا، التى كانت سوق العبيد الكبير فى الجنوب الغربى، وهذا هو الذى حدد موقع هذا الافتداء فى طنجة.

حمل سكرتير عائلة النقسيس، قاسم دى كارديناس وحامد تاغارينو الهورناتشى عبء المحادثات لافتداء العبيد التطوانيين.

مع ذلك نجد كشف حساب يجذب اهتمامنا بشدة: تم افتداء فرانشيسكو دى خيسوس Francisco de Jesús، وأصله من فاس، يهودى المنشأ، وتحويل إلى عقيدتنا المقدسة. قضى خمسة عشر عاماً وهو يعيش متزوجاً فى قادش، وظل أسيراً أكثر من ثلاثة أعوام، كان فى سلا تحت قبضة القائد عبد العزيز Audalacis. وافتداه الراهب مارتين دومينغيث بـ ٢٠٠٠ ألفين ريال^(٢٥).

حتى الآن ظهرت لنا، فى نصوص ووثائق مختلفة، حالات من اليهود الذين عادوا من أراضى إفريقيا إلى شبه الجزيرة وطلبوا التعميد، بعد أن أزعجتهم أوضاع المنفى.

على سبيل المثال قال المؤرخ بيرنالديث Bernáldez الراهب، إنه تم تعميد مائه منهم.

لكن هذا كان فى العصر القريب للمنفى وقد تنصّر اليهود الذين كانوا يحافظون على ذكرى الوطن حية بداخلهم.

هذه الحالة، التى تنصّر فيها يهودى مولود من فاس، بعد قرن، هى الأكثر غرابة من كل الحالات التى استطعنا العثور عليها، وقد زاد أسره وافتدائه اللاحق من دهشتنا.

الحقيقة هى أننا لم نشبع رغبتنا فى معرفة بعض التفاصيل التكميلية عن الظروف الحياتية للشخصية.

فى هذا الافتداء الطنجى ظهر أيضاً ميخياس، ودفع له ثمن افتداء أمة كان يمتلكها منذ سبع أعوام وكان عمرها ٢٠ عاماً. قبض عليها عندما كان عمرها ١٣ عاماً فى السلب الذى قام به القراصنة الأتراك والموريسكيون فى جزيرة لانثاروتى Lanzarote وحملت إلى تطوان، حيث وقعت فى أيدي ميخياس.

حدث فى تطوان، بين عامى ١٦٢٥ و ١٦٢٧، اغتيال العديد من إخوان النقيس، وكان من بينهم واحد من أكثرهم مكانة لكنه، فى نفس الوقت، أكثرهم استبداداً وقسوة، وقد أفقده تنافر الأمة الموريسكية صوابه، على الأخص، تنافر العائلات القديمة من أصل غرناطى مباشر.

حاك أعداؤه السياسيون، الذين كان يوجد من بينهم بوعلى، مؤامرة حيث انقضوا عليه فجأة، عندما كان يشرب الخمر مع اثنين من إخوانه، الأمر الذى اعتادوا فعله نهاراً وليلاً فى بيت إحدى اليهوديات، وذبحوا الثلاثة... (٣٦).

وكان هذا مظهراً من اللهو فى الحى اليهودى التطوانى، والذى نوضحه لأنه لم يكن، أبداً، غير مألوف.

و لأن النبيذ محرمٌ بين المسلمين، فكان العبيد المسيحيون واليهود هم الذين يملكون الحانات المسموح بها، حيث كان المسلمون يذهبون إلى هناك سرّاً.

فى ١٦٣٢ نفذ رهبان جمعية الثالوث المقدس افتداءً فى تطوان و ذهبوا أولاً إلى سلا حيث اشترى عبيداً لملك رقبة كثيرين، وعند الرجوع، افتدوا اثنى عشر عبداً من سادة تطوانيين. لن نجد أى يهودى متدخلاً، تحت أى مفهوم، فى رحلة المفتدين هذه.

فى هذا الصدد، يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن الرباط، سواء القصبة kasabah أو القلعة، أو المدينة المحيطة قد أسسها و سكنها الموريسكيون المطردون عام ١٦١٠ . دون أى إسهام من أشخاص أو جماعات من اليهود.

على عكس ما حدث فى تطوان، حيث توافدت مجموعات من الموريسكيين واليهود عند سقوط المملكة الغرناطية و اتحدت مع أوائل الإسبان المسلمين، الذين أسسوا المدينة. من هنا فإن السفارديم التطوانيين كانوا يتمتعون بوضع اقتصادى واجتماعى ذى امتيازات، إذا ما قورنوا بالوضع الذى كانوا يتمتع به الباقون فى أجزاء أخرى من المغرب.

مرة أخرى يقوم رهبان جمعيتى العذراء و الثالوث المقدس بعمليات افتداء فى تطوان فى عام ١٦٣٣ وعندما تؤكد ذلك فلأننا ببساطة وجدنا المخطوطات الخاصة بهذا العام.

كان هؤلاء الرهبان أول من وصل، فى شهر أغسطس، حيث قاموا بالرحلة فى مركب صغير من سبتة الى ألمونييكار Almunécar، وريينكون Rincón، ومنها إلى تطوان، مع موكب من ١٠٠ جندي من حملة البنادق و ٣٠ فارساً أرسلهم الحاكم، الحاج بوعلى (٢٧).

حدث غياب جزئى لسلطة عائلة النقسييس، عندما ثار السكان ضدهم بعد وصول قوات من واحد من الطامعين فى السلطة يدعى العياشى Ayasi أو المرابطى Morabito .

وصل رهبان جمعية الثلاث المقدس في نوفمبر، واشتروا عبيداً، من بين أشياء أخرى، من مسعود بيناتاس Maçod Benatas وخوسيه ميخياس José Mejías وماركوس بناتار Marcos Benatar . من المحتمل أن يكون مسعود وماركوس من نفس العائلة، بالرغم من أن الكاتب يبدو أنه سجل اثنين مختلفين (٢٨) .

فيما يتعلق بالأسماء، كانت هناك واقعة جديرة بالتأمل، وهي التسمية المتشابهة لأحد رهبان جمعية العذراء وأحد اليهود، وهما الراهب غابرييل ميسيا وخوسيه مكسيا. كم من المرات تشابهت فيها ألقاب موريسكية بأخرى تخص أتباعهم الأسرى، في هذا العالم الغريب الذي يكونه سوق العبيد في تطوان !

في ١٦٣٥، كان أفراد النقسيس لم يستعيدوا بعد نفوذهم في المدينة. لُقّب بوعلى بنائب قائد رباط تطوان و لُقّب سليمان قاديمي، القائد السابق لخاروب Jarrub" بالقائد العام" (٣٩) . كان الموريسكي على سوريا "سكرتير حكومة تلك البلاد". أقام الآباء المفتدون كعادتهم في حي اليهود، وفقاً لما تم تقييده في كشف حساب لمائتين وتسعة ريال دفعت لليهود ملاك المنزل الذي سكنوا فيه (٤٠) .

اتفقوا على أسعار العبيد، مع عدة ملاك رقبة، نجد من بينهم العبريون، ابن ثاميرا Ben Zamirra و موسى بيناتار Moisés Benatar وأبراهام ميخياس Abraham Mejías .

كان لدى بن ثاميرا، الذي كان يملك أكثر الأسرى، غنيمة قيمة: السيد بدرو خيرون Pedro Girón وزوجته وابنة لكلاهما مولودة في الأسر في تطوان.

حرر كل من بيناتار و ميخياس عبداً واحداً فقط.

باع اليهود التطوانيون هذه المرة عبيداً أقل، وصلت مطالبات الكثير من الأسياء، الذين ظلوا دون بيع غنائمهم، إلى الذروة في هذه المناسبة.

كانت الأغلبية، كما نعرف، تعيش على القرصنة وقد أدى تقييد وسائل حياتهم إلى حدوث الخيانات والاستيلاءات غير الظاهرة تقريباً.

شهد الكتاب والمفتدون بطريقة غير منتظرة، في شهر ديسمبر ١٦٣٥، ثورةً نشبت في المدينة ودونها في ملاحظتهم، لأن التكاليف قد زادت عند منعهم من الخروج من الموقع.

دخل الموريسكيون الجدد، الذين وصلوا بعد عام ١٦١٠، وعرفهم الكاتب بأنهم أندلسيون، في منزل الحاكم وطعنوه.

إنها أيضاً فتنة ضد المرابطى الذى كانت تكرهه غالبية الموريسكيين، وبخاصة الذين وصلوا مؤخراً.

لم يعانى اليهود، على هامش التنازع على السلطة، من أى مكروه، كان الافتداء على وشك أن يلغى، لأن المتآمر الأساسى، القاتل الأساسى، أحمد ديل مورال Ahmed del Mural كان يطلب أن يفتدوا له أسراه، لكن فى النهاية استطاع الرهبان الذهاب إلى سبتة مع الأسرى المتفق عليهم.

تكوّن فى المدينة مجلس من ٢٤ حاكماً سمح بتحريك رجال الدين والمحربين، حكم هذا المجلس، المسمى ديوان، تطوان على مدى بعض الأعوام، دون أن يتبع أى ملك أوولى، وكان من أهدافه المحددة جدا الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم فقط، وفقاً لما أعلن فى خبر من شهر نوفمبر ١٦٣٧^(٤١).

لا يبدو أن الأشياء تغيرت كثيراً بالنسبة لليهود التطوانيين، إلا فى نقص أنشطتهم المرتبطة بالقرصنة.

وقّع واحدٌ من حكام الديوان، يدعى براهيم مارين الزيان -Brahim Marin az Za-ban تأميناً فى ٢٥ من يناير عام ١٦٣٦، لرهبان جمعية الثالوث المقدس الذين ذهبوا إلى تطوان لافتداء الأسرى، وأقاموا كالعادة فى مسكن يهودى فى حي اليهود^(٤٢).

سيحتكر "الأندلسيون" المبيعات فى هذه المناسبة، وفى العام التالى باع سليمان ميخياس عبداً واحداً فقط، كما حدث من قبل^(٤٣) .

استعاد المرابطى السيطرة على البلاد مؤقتاً، ويبدو أن هذا سبب إنتعاشاً وسط الضغط الاقتصادى الذى كانت تعاني منه الأمة اليهودية، وفى ١٦٣٩ كان هناك العديد من اليهود الذين استطاعوا بيع عبيدهم.

فى هذا العام قام كل من ماثود بيناتار وابن ثاميرو وثلاثة من عائلة ميخياس: أثايا وسالمون وخوسيه، ببيع عبيدهم^(٤٤) .

مع ذلك يُلاحظ انخفاض فى المبيعات التى قام بها اليهود فى الافتداءات المتتالية، مع استثناء بعض الحالات الخاصة، و الحقيقى أن المنافسات كانت كثيرة ولو كانت قليلة لانحدرت القرصنة.

ربما شكّلت الآثار المعمارية التى لا زلنا نستطيع تأملها إحدى علامات الفقر التصاعدي لهذه الأمة، فمدا فنهم أخذت فى التبسط على طول القرن السابع عشر، وفقدت هذه الزخرفة الغنية التى كان يتميز بها القبر اليهودى للقرن السادس عشر فى جبانات قشتالة.

تواجد ٦٦ سيداً مع عبيدهم فى الافتداء الذى قام به رهبان جمعية العذراء فى عام ١٦٤٠ . كانوا كثيرين أولئك الذين يرغبون فى العيش مباشرة من هذه التجارة.

حضر كثير منهم مع أسير واحد فقط . تكرر ذكر أسماء آخرين فى أعوام متتالية، بغنائم ذات قيمة فى الكم والكيف، وجمعوا ثروات حقيقية.

انتفع الحكام بالطبع من مناصبهم، وجمعوا عبيداً وبالتالى كانوا يحصلون دائماً على أكبر نصيب من الأملاك التى يحضرها المفتدون.

باع براهيم بن على، الحاكم، ١٤ أسيراً و استفاد بربع الفوائد التى تجلبها عملية الافتداء.



شكل (هـ)

هنا نجد مسعود بيناتار الذي باع أسيراً واحداً فقط، لكن بمكافأة جيدة جداً. الأمر يتعلق، إذن، بالراهب كليمنيتي **Clemente** من الرهبان الفرنسيسكان الذي ثمن السعر بثلاثة عبيد عاديين. و كذلك قام اليهودي بن ثاميرو ببيع عبيد. لكن الذي استمر في كونه متخصصاً وجمع عبيداً وثروات هو خوسيه ميخياس الذي باع ١٣ أسيراً وحصل على مكاسب قيّمة^(٤٥).

حصل تقريباً على ثلث المكاسب التي فاز بها الحاكم، وهذا ما يشير إلى جو التسامح الذي عاشت فيه الأقلية اليهودية في تطوان.

عندما ثارت البرتغال في ذلك العام وبدأت حربها من أجل الاستقلال عن سلطة قشتالة الملكية، كان لكل من طنجة وسبتة، ظروف مختلفة.

ثارت طنجة، لكن بعد مرور ثلاثة أعوام خضعت لسلطة السيد خوان دي براغانزا Juan de Braganza، بينما بقيت سبتة مخصصة لفيليبى الرابع، الذى عين لها حاكماً قشتالياً للموقع يدعى خوان فرنانديث Juan Fernández من قرطبة. استمرت إذن الافتداءات في المغرب، و اتخذت مدينة سبتة كقاعدة انطلاق.

يشير لنا أحد أخبار هذه المدينة إلى أنه كان من بين الاستعدادات الأولى للماركيز عقد بعض التأمينات أو الاتفاقيات، باسم صاحب الجلالة، مع سيدى محمد بن عيسى النقسييس، حاكم تطوان، وكانت تشمل بعض النقاط المعنية المتعلقة باليهود، وهو ما يعتبر إثبات واضح للأهمية التي كان يعطيها كلا الجانبين لتصرفات هذه الأقلية.

كانت تلك النقاط هي التالية:

كل شخص مسيحي أو مسلم أو يهودى لديه دعوى على أى دين، و حصل على حكم من قضاة هذه المدن، سبتة أو تطوان، فإن الحكم يُنفذ دون استئناف لتفادى التأخير.

أن القافلة يمكن أن تأتي من مدينة تطوان إلى سبتة دون تأمين خاص وتصل نهاراً أو ليلاً وتُفرغ وتؤمن عند الدخول دون الإصابة بأذى أو أى مضايقة لأن هذا التأمين يشمل الذين يأتون فيها من المسلمين واليهود.

أن اليهود الذين يذهبون ويجيئون في هذه القوافل أو في خارجها إذا كانوا سكاناً لمدينة تطوان أو حضروا مع ممتلكاتهم فيها، يدخلون في هذه المدينة.

أى يهودى أو يهود يكونون فى هذه المدينة أو فى مدينة تطوان وعليه أى دين إلى تاجر أو أى شخص آخر و يستدعيه لسداد الدين، فإنه يُرسل إلى حاكم تطوان دون تأخير.

إذا كانت دابتان هما اللتان تأتيان إلى هذا المكان مع مسلمين أو يهود فسوف تتمتعان بما ينطبق على القافلة.

أن كل التجار، مسلمون أو يهود، الذين يأتون فى قافلة، لا تُحتجز ممتلكاتهم بسبب ديون ليست عليهم شخصياً^(٤٦).

القراءة الوحيدة لنقاط الاتفاق المتعلقة باليهود تدلنا على أن الجزء الأكبر من المعاملات التجارية يتعلق بهم بطريقة مباشرة، وكان يجب ذكرهم بوضوح لى تكون مقبولة على أساس صحيح.

نستنتج أيضاً من إحدى فقرات هذا العقد أنه كان هناك يهود يقيمون فى سبتة، وهذا كان وضع بعض أفراد عائلة ميسياس^(٤٧).

بعد خمسة أعوام، ومع محمد النقسييس فى منصبه كحاكم تطوان، استمر كل من ثاميرو أو خوسيه ميسياس فى بيع العبيد.

فى الوثيقة التالية، فى العام التالى، اجتمع الكاتب غريغوريو أباركا، فى وجود رجال الدين، مع اليهودى خوسيه ميسياس فى سبتة وكونت توريس بدراس-Torres Ve dras ، حاكم الموقع وخليفة ماركيز ميراندا.

حضر ميسياس كمترجم، بالرغم من أنه كان يمكن أن يحضر بصفته خبيراً فى الموضوعات التى كان يحملها الرهبان بين أيديهم. كان مستمراً فى الإقامة فى سبتة، بالرغم من أن فترات إقامته فى تطوان كانت متعددة وممتدة. كان لديه، فى تطوان، وديعة من العبيد التى كانت تتحول إلى بضائع ونقود فى كل رحلة للمفتدين.

لم يبع الكثير هذه المرة بالرغم من كونه اليهودى الوحيد الذى يفعل ذلك^(٤٨).

مر عامان، وفي ١٦٤٨ ، استمر خوسيه ميخياس في كونه الوحيد الذي يبيع الأسرى بين خمسين من المنافسين الموريسكيين^(٤٩) .

كان لخوسيه ميخياس منافس آخر، في عامي ١٦٥٤^(٥٠) و ١٦٥٦^(٥١) يُدعى إسحاق بارينتي، عاد إسحاق ثاميرو للظهور مرة أخرى في عام ١٦٥٦ .

لن يختفى عن أنظارنا خوسيه ميخياس في عام ١٦٦١^(٥٢)، بالرغم من أن حسابات رهبان جمعية الثالث المقدس لم تسجل أسماء سادة موريسكيين أو من أي طبقة، ولكن وقّع الشخص الاسفرديمي العجوز تأميناً معطى إلى رجال الدين بتفويض من الحاكم، حامد بن عبد الكريم النقسييس.

كانت مسئولية سكرتير الحاكم من أسمى المناصب التي يمكن أن يصل إليها يهودى تطوانى، أما الدرجة التالية، وهى الحاكم، كان لا يمكن الوصول إليها حتى بالنسبة لأغلبية الموريسكيين.

كان حسن الفهم المتبادل والتسامح ومستوى الحياة الجيد عامة بين الأقليتين المنفيتين على أفضل وجه.

فى ٢٥ يناير عام ١٦٦٤ حصل رهبان جمعية الثالث المقدس على تأمين من عبد الكريم النقسييس نفسه و من أخيه أحمد، اللذين حكما تطوان باسم خضير غايلان Ja-dir Gailán . و هو أندلسى آخر له تطلعات فى السلطة. وقع سكرتيه خوسيه ميخياس بتوكيل منهم.

قبل ذلك بيومين أرسل الرهبان، من سبتة، اليهودى المسمى بوتيمير Botimer كرسول إلى غايلان الذى كان يقيم فى أرسيلة^(٥٣) .

إنها الوثيقة الأخيرة التى بها استشهادات عن عائلة ميسياس هذه، وبالتحديد، عن خوسيه ميسياس الذى رأيناه فى مخطوطات كثيرة و الذى لن يكون موجوداً فى هذه الفترة من العقد السادس للقرن. فقدنا أثر اللقب الذى بدأ بميخياس السمين هذا فى مخطوط عام ١٥٨٣ .

إنها أكثر من ٨٠ عاماً متصلة من الوجود الوثائقي. نفس الأعوام التي ظهرت فيها العائلات الموريسكية التطوانية القديمة، مثل عائلة النقسيس نفسها.

كان خوسيف ميسياس حاكماً في تطوان في القرن السابع عشر، وفقاً لدراسة حديثة عن الأسماء اليهودية في المغرب، وهو الأمر الذي يكمل قليلاً صورة تلك الشخصية التي حصلت على ثروة كبيرة ووضع سياسى، فقد تولى المنصب الدينى الأكثر علواً داخل أمتة^(٥٤).

عندما أصبح مولاي راشد حاكماً لتطوان، اختفى بالتأكيد ميخياس العجوز الذى تولى المنصب منذ أعوام، دون أن تستمر سلالته فى القيام بالوظائف التى قام هو بها لخدمة الجميع: الاسفرديم والموريسكيين، وأيضاً المسيحيين.

كان يجب على السلالة الفلالية الجديدة أن تعتمد على خدم آخرين، بين اليهود الذين استمروا فى الظهور كتجار للعبيد.

يوجد فى عام ١٦٦٩ شخص يدعى يعقوب بينيمى Jacob Benemi، باع بمفرده أسيرين^(٥٥)، لكن فى عام ١٦٧٤، عندما كان مولاي اسماعيل حاكماً، كان هناك كثيرون يفعلون ذلك مثل اسحاق بوداران Isaac Budaran و خودا أمبران Juda Ambran وصافى بنساتين Safi Bensaten وحسن بيناتار Hasen Benatar وخوسيف مايماران Joseph Maimaran وإسحاق سانانيس Isaac Sananes.

زار يهودى آخر، يدعى هارون Aron، الآباء المفتدين فى مسكنهم كمترجم^(٥٦).

إن تغير السلالة الملكية، وبالتالي، الموقف السياسى فى تطوان لم يؤثر بصورة مرئية فى حركة تجارة العبيد، ولا فى الوضع الاجتماعى لليهود، ستتغير الأمور شيئاً فشيئاً، لكن اليهود استمروا فى افتداء مسيحيين مقبوض عليهم فى حركات القرصنة.

لم تفتقر آخر وثيقة نعرفها من القرن السابع عشر إلى أسماء يهودية، بالرغم من أن كاتب الوثيقة لم يصفهم بطريقة مشابهة لما هو ثابت فى مخطوطات سابقة، ولكن ليس هناك مجال للشك أن اسحاق بن ثاميرو وابراهيم ماركيث وصامويل ماراتشيه هم من أصل يهودى^(٥٧).

فى ٢٧ مايو عام ١٦٧٧ ، وعندما أنهى رجال الدين هذا الافتداء وطلبوا الإذن لى يرحلوا إلى سبته مع الأسرى، منحوهم الإذن و أخطروهم بأن يرسلوا اثنين من اليهود وثلاثة مسلمين على أبواب الموقع القوى لى يحصلوا على النقود المتفق عليها كثن للهلاء الأسرى.

كان اليهود يعرفون أن يجعلوا أنفسهم لا غنى عنهم فى المعاملات التى تميزوا فيها بسبب مرونتهم وفطنتهم المالية. مع ذلك فإن تكس السكان من الموريسكيين قد أثر كثيراً فى هبوط أنشطتهم التجارية، وبالأخص الناتجة من القرصنة. إن مجرد قراءة قوائم سادة العبيد بداية من عام ١٦١٠ تجعلنا ندرك أن سكان تطوان الجدد، أفراد عائلة كاستييو و بيرالتا وكانتيانا وليون ومورالس وأرغوان وكابريرا وبلانكو وميندوتا وكاريون وغيرهم، قد اتجهوا أيضاً إلى تجارة الرقيق، وقللوا هكذا من إمكانيات الذين كانوا يفعلون ذلك منذ القرن السادس عشر، سواء الغرناطيون القدماء أو الموريسكيون اللاحقون.

على الجانب الآخر بدأ نشاط القرصنة فى التلاشى تدريجياً كلما دخلنا فى القرن السابع عشر، وأصبح نادراً جداً فى فترة حكم مولاي إسماعيل، الملك الذى كان يعتبر العبيد المسيحيين كفنائم للدولة وبالتالي، ملك خاص للامبراطور.

عانت القرصنة من تقهقر اقتصادى ملحوظ، عند اختفاء أحد أسباب أهميتها الكبرى، وعلى الأخص فى النصف الثانى من فترة حكم مولاي إسماعيل، لأنه فى الأعوام الأولى من حكمه استمر فى التسامح فى بيع الأفراد أسراهم كما كان يحدث فى السابق.

يجب إضافة شىء أكثر حسماً يتعلق بالنسبة لانحطاط أسواق العبيد وهو أنه مع مولاي راشد وحتى مع أخيه وخليفته مولاي إسماعيل اختفت استقلالية المدن الموريسكية سواء فى الجنوب، (الرباط وقصبة الهورناتشين)، أو فى الشمال، فى تطوان، حيث أباد مولاي إسماعيل أفراد النقسيس. عانى اليهود، مثل الجميع، من تغير الاتجاه الاقتصادى المركزى الناتج عن قرارات الأسرة الملكية الجديدة، ولكنهم لم يفقدوا تأثيرهم كلية فى دوائر السلطة.

تذكر رواية غير منشورة، تشير بالتحديد إلى تطوان، أن مولاي راشد، قبل أن يذهب إلى المدينة لكي يضمها إلى أملاكه، أرسل إليها سكرتيرين عبريين من أتباعه، الأول هو يعقوب غاباي والآخر من عائلة معروفة جدا لنا، يعقوب ميسياس،

من الواضح أن الطامع الجديد في العرش كان محاطاً بمستشارين من كل طبقة ومن كل مدينة، واختار من تطوان يهوديين كان واحدٌ منهم على الأقل معروفاً بانتمائه إلى الطبقة الراقية في المجتمع، وكان ذا وزن خاص بين طبقات المجتمع التطواني المختلفة.

كانت رسالة هذين اليهوديين اللذين أرسلهما مولاي راشد هي التفاوض مع الشعب واستمالة البعض والبعض الآخر للاعتراف بالسيادة.

كان هذا العمل إجبارياً بالنسبة لهما لأن الشخص الذي كان يقوم بدور الحاكم، ويدعى بيناروس، والذي عينه غايان، قام بالقبض على اليهوديين وأعدمهما دون تسامح.

عندما نجح مولاي راشد في الدخول إلى تطوان، كان أول ما فعله هو شنق الحاكم، كانتقام وإشارة إلى القيمة والمكانة التي وضعها في هذين الخادمين الاسفرديم^(٥٨).

استمر اليهود بوجه عام كالمعتاد في كونهم مستشارين ممتازين ودبلوماسيين عظماء.

ولكن هذا موضوع مختلف عن الذي يشغلنا. تركنا هنا برهاناً واضحاً جداً على التعايش اليهودي - الموريسكي على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد الوصول إلى المنفى.

ليس هناك أي دليل أكثر قيمة من دليل المخطوطات المتعلقة بتكاليف افتداءات الأسرى، لأنها تشير إلى عصب الحياة عامة، أي إلى تقسيم الثروات، التي هي دائماً

أصل المشاكل والعداوات و الصعوبات من كل نوع، يكفى مجرد ملاحظة الاضطرابات والثروات التى تسببت فيها.

لم يحوّل اليهود والموريسكيون، حنينهم أبداً إلى مواجهات ولم يقوموا بأى نوع من الاضطهاد فيما بينهم(*).

تشاركوا دائماً فى المنفى القاسى، فى القليل الجيد والسيئ الكثير الذى قدمه لهم هذا المنفى.

ملاحظات نهائية :

التقطنا معلومات عن اليهود فى تطوان من عشرين افتداء ومن وثائق أخرى، كان للرواية، بسبب هذه الظروف، خصائص مشابهة لدراسة إحصائية أكثر من كونها خبراً تاريخياً.

إن ما كتبناه ينطلق من مجموع الدراسات التى بدأناها عن حياة الأمة الموريسكية فى شمال المغرب.

داخل هذه الأمة، وخاصة فى تطوان، لا يمكن ولا يجب نسيان وجود الأقلية اليهودية التى تقاسمت المنفى مع الإسبان - المسلمين أولاً، ومع الموريسكيين بعد ذلك.

لكن بالإضافة إلى ذلك نعتقد أنه يجب القيام بملاحظات أخرى ذات أهمية.

المحوظة الأولى، الصحيحة و المؤكدة فى الموريسكيين، تشير إلى شخصيات وعدد أولئك الذين كانوا يتجهون لتجارة العبيد.

(*) الطرف الذى كان يستطيع ممارسة الاضطهاد لو شاء هو الطرف المسلم، ومن ثم فينبغى الإشارة بتسامح المسلمين الذى عُرف عنهم فى الأندلس وفى المغرب . (المراجع)

من الواضح أن المسألة تحوى لنا اليوم أصداءً أخلاقية يصعب إبعادها عن مجموع الدراسة التى قمنا بها.

مع ذلك يجب على المؤرخ أن يضع نفسه دائماً فى ظروف اللحظة التى يتأملها،
إن العبودية، لأنها كانت تمارس فى تلك القرون، فإن اليهود لم يخترعوها
ولم يخترعها المسلمون.

إن من قرأ قليلاً عن التاريخ سيتذكر أمثلة فرناندو الكاثوليكي الذى أعلن كل
سكان مالقة عبيداً، بمن فيهم اليهود، عندما احتل المدينة، و الحالات العديدة لتحويل
الموريسكيين إلى عبيد طوال القرن السادس عشر، وبالأخص بعد ثورات هذه الأقلية
اليائسة أو الغزوات التى حدثت فى السواحل الإفريقية للبحث عن العبيد والغنيمة.

إن المنفيين الغرناطيين والموريسكيين، الذين طردوا إجبارياً وتسلبوا بالقرصنة،
لم يفعلوا أكثر من إطالة الحرب على طريقتهم وردّ الضربة إلى مسيحيى شبه
الجزيرة(*) .

بعد ما قيل يجب أن نؤكد أن اليهود، الذين كانوا يشترون ويبيعون عبيداً
مسيحيين، والذين كانوا يشتغلون بتجارة الرقيق، قد كانوا داخل أمتهم أقلية ضئيلة
وكانت حالات الثراء بينهم استثنائية إلى حدٍ ما .

هنا يجب أن نقوم بتخيل أكبر مما حدث بالنسبة للأمة الموريسكية التى تعمقنا
فيها قليلاً ووجدنا أكثر من ألف اسم موريسكى فى المغرب، كقاعدة للدراسة وحسبنا
نسبة تقريبية للذين كانوا يشتغلون بمثابرة فى عمليات شراء وبيع العبيد .

و فى المخطوطات والوثائق التى تشير إلى القرن السابع عشر نجد ٢٣ اسماً
مختلفاً لاسفرديم تخص ٢٣ عائلة مختلفة، منهم ٧ لم يحضروا أسرى و لكنهم ذكروا

(*) لا نستطيع إلا أن نشيد بموضوعية غوثالبيس بوستو حين يعترف بالأخطاء التى ارتكبها حكام
إسبانيا فى الماضى ، (المراجع)

كملاً للمنازل التي أقام فيها الرهبان أو الرسل أو المترجمون أو التجار البسطاء، من ١٦ عائلة الباقية، وباستثناء مكسياس أو ميخياس التي بدت عائلتهم متخصصة في عمليات الشراء والبيع للعبيد وفي التجارة التي تنتج عنها، كانت توجد ثلاثة ألقاب فقط عادت إلى تجارة العبيد على طول السنين: بارينتي الذي قام بذلك في ثلاث مناسبات من عام ١٦١٥ إلى ١٦٥٦ وبيناتار في خمس مناسبات وثاميرو في خمسة أخريات. ظهر الأثنا عشر مالكا الآخرين مرة، و باع كل واحد من الغالبية العظمى أسيراً واحداً.

لا يمكن التأكد مطلقاً من أن أى أحد من هؤلاء الأفراد أو العائلات الاثني عشر كان تاجراً للعبيد. يمكننا قول ذلك تقريباً عن بارينتي الذي لم يعد منذ ١٦١٥ إلى الظهور في السوق حتى ١٦٥٤ مع أسير واحد وفي ١٦٥٦ مع أسير آخر. يتبقى، إذن، ثلاثة أشخاص أو عائلات فقط، اتجهت إلى عمل ثروة مع التجارة المذكورة آنفاً، بالرغم من أنه كان موجوداً فقط ١٥٠ عائلة قاطنة في تطوان^(٥٩)، فإن النسبة تمثل ٢٪، وهي نسبة ضعيفة و مازالت أقل من نسبة الموريسكيين المشتغلين بتجارة الرقيق، الأمر الذي يبدو لنا منطقياً إذا فكرنا أن الأمة اليهودية لم تكن أقلية ذات امتيازات.

هذه المعلومات تؤكد رأينا أن عمليات شراء وبيع العبيد المسيحيين كانت في أيدي أقلية صغيرة، قريبة بوجه عام إلى قمة السلطة السياسية التي كانت تشكل حكم أقلية محلي وكانت متوارثة أيضاً في العائلات الأكثر قدرة. حدث هذا مع أفراد مفضل وبوعلى وبوتايبو وبوردان وآخرين قلائل من الأمة الموريسكية، ومع مكسياس، على الأخص بين اليهود^(٦٠).

مكث الباقون ، سواء موريسكيون أو يهود ممن تاجروا في العبيد، أعواماً قليلة في التجارة.

من الطبيعي أن يحدث هذا بسبب رأس المال الكبير الذي كان يُحتاج إليه لإعالة الأسير حتى يأتون لافتدائه، ونضيف إلى ذلك أنهم لم يكونوا دائماً يستطيعون بيعه في الفرصة الأولى التي كانت تُمنح للسلطات الحاكمة.

حينئذ، فإن العبد الذى يقع فى أيدي من لا يملكون وسائل كافية لإعالتة كان يباع مرة أخرى، وذلك بمكسب صغير، إلى تجار التجزئة الكبار فى " البضاعة ". إنها الحالة الموريسكية لبوردان والحالة اليهودية لميسياس.

أمام الاعتراضات و الثورات الدموية بسبب عدم المساواة هذه وجب على الحكام أن يتنازلوا أحياناً عن رغباتهم فى الثروة. نرى بعض الافتداءات حيث يلاحظ أن عدداً كبيراً من البائعين كانوا يملكون عبداً واحداً فقط. لكن بالإضافة إلى اعتبار أن الخلفية أو القاعدة الاقتصادية للمدينة كانت تكمن فى أنشطة القرصنة والأنشطة الناتجة عنها، فقد كانت هناك أغلبية من السكان الموريسكيين واليهود لم يكونوا يعيشون من التجارة المباشرة للعبيد، إما لأنهم لم يكونوا يستطيعون وإما لأنهم لم يكونوا يريدون. كانت الغالبية العظمى بالتأكيد من اليهود أكثر من الموريسكيين، نظراً لأن الموريسكيين كان يمكنهم الاعتراض و اليهود لم يكونوا يستطيعون ذلك. مع ذلك كان العبريون أكثر ميلاً إلى استغلال التجارة الصغيرة التى تنتج من البضائع التى كان يحضرها الرهبان. كان هؤلاء الرهبان ملزمين بأن يحملوا ثلثى ممتلكاتهم فى صورة منتجات والثلث فى شكل عملة. كان يتم مبادلة الأسرى المسيحيين أحياناً مقابل قلنسوات من طليطلة أو مقابل اللؤلؤ الصغير.

ما هو واضح بالفعل أن صعوبات المنفى كانت مقسومة على كلتا الأقليتين وأن المعاملة التى كانت تقدم لليهود فى تطوان كانت مختلفة عن المقدمة فى غرناطة بنى نصر.

لقد اغتنوا وافتقروا بنفس القدر الذى فعله زملاؤهم فى المنفى، وما نعرفه نحن، أنه لم يوجد أى تمرد أو ثورة ضدهم فى هذين القرنين من المنفى المشترك. فى تلك القرون التى أعقبت المنفى ربما جعلتهم المصائب المشتركة(*) يواصلون التعايش الذى مارسوه فى وطنهم الإسباني.

(*) صحيح أن المصائب المشتركة تجمع بين الناس، لكن تسامح المسلمين مع الأقليات غير المسلمة أمر ثابت تاريخياً، إن التسامح مع اليهود فى المغرب لا يشكل حالة فريدة ولا أمراً جديداً. (المراجع)

الهوامش

- (1) GOZALBES BUSTO,Guillermo: Al Mandari,el granadino,fundador de Tetuán. Granada 1988.
- (2) GOZALBES BUSTO,Guillermo: "Datos sobre los hispano-judíos en el Norte de África". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. Núms. 13-14. Junio-Diciembre. 1976. Pp.139 a 160. GOZALBES BUSTO,Guillermo: "Los judíos en la fundación de Xauen". Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos. Universidad de Granada. Vol. XXVI-XXVIII. 1977-79. Fasc. 2. Pp. 319 a 325.
- (3) GOZALBES BUSTO,Guillermo: "La sociedad granadina- nasrí en el exilio". Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su reino. N.º 3.2.a época. Granada 1989.
- (4) FRÍAS,Duque de: "Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos,Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958. Pp. 509.
- (5) LAREDO,Abraham I: Les noms des juifs de Maroc. Madrid 1978. P.418.
- (6) BRAITHWAITE,Cap. Histoire des revolutions de l'Empire de Maroc... Amsterdam. MDCCXXXI. P. 250.
- (7) GOZALBES BUSTO,Guillermo: Al Mandari... Pp. 121 a 125.
- (8) CLENARD,N.: Epistolarum... Amberes. 1565. P. 40.
- (9) ARANDA,P. Gabriel de: Vida del V.P. Fernando de Contreras...Sevilla 1692. P. 600.
- (10) ARANDA: Vida... P. 580.
- (11) يتعلق الأمر بالقضاء على حرية الذين كانوا لا يزالون أحياء من الأشخاص الأسرى في لاس كوبياس (11) Cautiverios y redenciones en el Marruecos de la Edad Moderna: el caso de Cuevas de Almanzora". N.º 4 de la Revista del Centro de estudios Históricos de Granada y su Reino. Pp. 213 a 229.

(12) يقدم لنا هيرونيمودى ميندوثا Hieronymo de MENDOZA فى عمله "Jornada de África" تفاصيل مهمة جداً عن هذا الموضوع وعن علاقاته بالإسبان اليهود خلال فترة أسرهم، ونُشرت هذه الدراسة فى لشبونة عام ١٦٠٧.

تكفى الإشارة إلى أن الشريف المنتصر أمر أن يتم نقل كل النبلاء المأسورين فى المعركة و الذين كانوا يوجدون متفرقين فى القصر الكبير و تطوان وسلا وأماكن أخرى، وذلك إلى مراكش و يتم تسكينهم فى حى اليهود. أنظر صفحة رقم ٢٠٢ فى الدراسة المذكورة.

كان الاتصال، إذن، مباشراً وثابتاً خلال الوقت الذى استمر أسرهم فيه، لأنهم كانوا، وفقاً لما يذكره الكاتب، يتحدثون كلهم القشتالية، ويقصد بذلك من هم من فاس. أنظر صفحة رقم ١٩١ فى الدراسة المذكورة.

(13) Biblioteca Nacional (B.N.) Manuscrito (Mss.) n.o 6.569.

(14) B.N. Mss. 3.588.

(15) B.N. Mss. 3.588. Fol. 50.

(16) B.N. Mss. 2.791.

(17) Mss. 2.791. Fol. 17.

(18) Mss. 2.791. Fol. 38 V.

(19) Mss. 2.791. Fol. 46.

(20) B.N. Mss. 4.390.

(21) B.N. Mss. 3.862.

(22) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Códices. Libro 124/B. Fol. 8.

(23) B.N. Mss. 3.870.

(24) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones de cautivos cristianos...por los frailes de la Orden de la Merced. Barcelona 1873. Pp. 282 y 283.

(25) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 286.

(26) GARI: : Historia de las redenciones... Pp.287 y 288.

(27) LAREDO, Abraham I. Les noms de Juifs du Maroc. Madrid 1978. P. 603.

(28) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 980.

(29) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 993.

(30) B.N. Mss. 3.586.

(31) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 850.

(32) A.H.N. Cod. Lib. 126 B. Fol. 20.

(33) A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 34.

- (34) A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 11 Vt.
- (35) B.N. Mss. 3.634. Fols. 20 y 21.
- (36) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) England. 1.a Serie. Tomo III. Relation de John Harrison.
- (37) B.N. Mss. 3.819.
- (38) A.H.N. Cod. Lib. 129 B.
- (39) B.N. 3.628. Fol. 102.
- (40) B.N. Mss. 3.628. Fol.60.
- (41) S.I.H.M. England. 1.a Ser. Tom. III.
- (42) A.H.N. Cod. Lib. 129 B.
- (43) A.H.N. Cod. Lib. 130 B.
- (44) A.H.N. Cod. Lib. 131 B.
- (45) B.N. Mss. 6.160.
- (46) CORREA DE FRANCA,Alejandro: Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9.741. Fols. 116 a 117 vt.*
- (47) B.N. Mss. 4.365.
- (48) A.H.N. Cod. Lib. 134 B.
- (49) B.N. Mss. 3.631.
- (50) A.H.N. Cod. Lib. 137 B.
- (51) A.H.N. Cod. Lib. 136 B.
- (52) A.H.N. Cod. Lib. 138 B.
- (53) A.H.N. Cod. Lib. 140 B.
- (54) LAREDO,Abraham I. Les noms de Juifs du Maroc. Madrid 1978. P. 850.
- (55) A.H.N. Cod. Lib. 142 B.
- (56) A.H.N. Cod. Lib. 143 B.
- (57) A.H.N. Cod. Lib. 144 B.
- (58) CORREA DE FRANCA,Alejandro: Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9.741. Fols. 140.

فى الربع الأول من القرن التالى أخصى الإنجليزى برايثوايت، الذى زار حى اليهود، عدد السكان بخمسة(59) آلاف نسمة وهو ما يعنى تقريباً ألف عائلة. ليس من المبالغة، إذن، وجود أكثر من ١٥٠ عائلة فى القرن السابع عشر. انظر:

BRAITHWAITE: Histoire des revolutions de l'Empire de Maroc... Amsterdam MDCCXXXI. P. 82.

فىما يتعلق بوجود طبقات اجتماعية بين اليهود التطوانيين، ربما كانت غير ملحوظة فى المجتمع، فلدينا(60) أخبار من إحدى المخطوطات التى تحتفظ بها عائلة بارينتى و التى أكدت فيها على كونها من أصل أحد اليهود العظام، الذى كان شجاعاً وبأسلاً، وحكم فى المغرب، فى عصور سالفه، وكان يدعى ريبى إياكوب بارينتوى الذى اشتق اسمه من اسم بلدة "ريف" التى كانت مركز سلطته .

(R de Ribbi, I de Iacob, y F de Phariante)

نشر نيمات دأهدا صورة و ترجمة للوثيقة فى العدد التاسع من مجلة إفريقيا، لعام ١٩٢٥ .

يقول لاريدو الذى يعرف وجود هذا المخطوط إنه يظهر الذكرى التاريخية لدولة يهودية قوية فى المغرب، و التى تتحدث عنها مصادر أخرى. يعتقد من جانبه أن اللقب لديه أصل بعيد و أنه ينحدر من اسم باريتينا، و هى مدينة سميت فيما بعد باديس، قريبة من الهوثيماس شمال المغرب.

(LAREDO: Les noms de Juifs du Maroc. Pp. 980 y 981).

من المؤكد أن لاريدو فى دراسته لم يسجل وجود عائلة بارينتى فى تطوان فى القرن السابع عشر، كما هو مثبت فى المخطوطات التى استخدمناها.

الفصل السادس

سجون تطوان

بين آثار المجتمع الموريسكى التطوانى الموروثة هناك آثار لم يشير إليها أحد إلا مرات قليلة جداً، وكانت تلك الآثار مختلفة دائماً، وهى اليوم أكثر خفاءً، إزاء الرغبة فى محو آثار الماضى الفظيع. إننا نشير إلى السجون المظلمة تحت الأرض، التى كانت تحوى الغنائم البشرية، نتاج أنشطة القرصنة القائمة فى مياه مضيق جبل طارق وما يحيطه.

لا أعتقد أن هناك مجالاً للشك فيما يتعلق بالتأكيد الذى قمنا به فى عدة دراسات حول الاعتماد الحيوى لمدينة تطوان الموريسكية على غزوات القرصنة التى يقوم بها السكان، وعلى سوق العبيد الذى استقر فى المدينة.

شكلت السجون المظلمة أحد المرافق العامة المهمة الأخرى، التى بناها الحكام، ربما فى الأعوام الأولى، منذ أن أعاد الغرناطيون المنفيون إنشاء تطوان بنى مرين. نحن نفكر فى الأمر بهذه الطريقة بناءً على النزعة الحربية التى كانت لدى مجموعة المحاربين الأولى، و على رأسهم على المندارى الذى أسس المدينة، وعند التحدث عن المحاربين لا ننسى أبداً أن المواجهة لم تكن فقط فى البر، ضد الحاميات البرتغالية فى طنجة والقصر الصغير وسبتة، ولكنها أيضاً كانت حرباً فى البحر، نفذها أسطول مشكّل من قوارب كانت تهرب فى إحدى منعطفات نهر مارتين الذى يروى أرض تطوان. لم تكن المراكب تستطيع الوصول إلى هذا المنعطف الذى حددنا موقعه فى قرية بنى مدن ولا حتى الصغيرة منها، فهناك كانت تذهب مراكب القرصنة الخفيفة مع الغنائم، وهى سالمة من كل خطر، حتى خطر مدفعية السفن الثقيلة لذلك العصر.

أدت هذه النزعة الحربية ونتائجها المباشرة - السجناء والأسرى - إلى إضفاء طابع خاص على المدينة، كان ينتج عنه الاحتياج إلى السجون. كتبنا، منذ أعوام، دراسة عن هذه السجون المظلمة سوف تُدرج تباعاً (*).

"ليست لدينا معلومات عن شكل سجون تطوان المظلمة، في بداياتها. مع ذلك، فإن أصلها نفسه معروف جداً، نظراً لأن ليون الإفريقي ذاته حدثنا عنه، في القرن السادس عشر، عندما وصف إعادة إنشاء المدينة بواسطة المنداري، وأكد أنه رأى، في زيارة قام بها إلى المدينة، ثلاثة آلاف عبد مسيحي، يرتدون كلهم قمصاناً من حرير، و ينامون في المساء مكبلين بالسلاسل في خنادق تحت الأرض" (١).

كانت السجون، لذلك، مرفقاً من المرافق العامة، أنشأها و بناها القائد، الذي أعاد إنشاء تلك المدينة - القلعة.

كانت مرفقاً مهماً جداً حيث كان الأمر يتعلق بمجموعة حربية، كان هدفها الأساسي هو الحرب ضد حدود سبتة والقصر الكبير وطنجة وأرسيلة، بالإضافة إلى الحرب في البحر التي انتعشت بقدر ما كان المنفيون الأندلسيون يصلون إلى تطوان الناهضة. تبدو لنا دائماً كمية العبيد التي حدها الإفريقي مبالغاً فيها. هناك سلسلة من الاعتبارات تجعلنا نفكر هكذا: عدد السكان البرتغاليين القليل، مع حاميات الحدود القليلة؛ عدد السكان القليل في تطوان، والذي كان يحول دون حراسة وحياسة عدد من الأسرى أكثر من السكان؛ وأخيراً المقارنة مع الفترات ذات التجمع الأكبر للأسرى في كل المغرب الذي لم يصل أبداً إلى هذا الحد.

مع ذلك، يمكننا إعطاء دلائل لصالحها. فالأمر لا يتعلق فقط بسجناء برتغاليين، ولكن كان من الممكن أن يكون هناك مسيحيون من أندلوثيا ومن أماكن أخرى، تم أسرهم في حرب القرصنة.

(*) نُشرت في:

Págs.,Cádiz 1984,Estudios de Historia y de Arqueología Medievales III y IV
247 a 264.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نضيف هؤلاء الذين كانوا يحملون إلى تطوان قراصنة من أماكن أخرى، جزائريين بالأخص، فقد تحولت المدينة، إذن، إلى سوق كبير من العبيد.

يقدر ليون الإفريقي عدد الأسرى بثلاثة آلاف، وفي الزيارة التي قام بها إلى المدينة التي كان يحكمها خليفة المنداري في هذا الوقت كان يمكن أن يكون قد تجاوز، جدا، عدد السكان.

لقد اكتظت تطوان بالسكان، على الأخص من الغرناطيين، في العقود الأولى من القرن السادس عشر.

تحدث الأب كونتريراس، في مذكراته عن عام ١٥٤٥، خلال إقامته في تطوان لافتداء الأسرى، عن ما لا يقل عن خمسة آلاف عبد، ربما لرغبته في المبالغة في المعلومات من أجل التمويل الذي كان يطلبه^(٢). مع ذلك، وبعد ثلاثة أعوام، في نوفمبر عام ١٥٤٨ أكدت بعثة برتغالية، لافتداء الأسرى أيضاً، وجود أكثر من ثلاثمائة أسير فقط^(٣).

توجد، إذن، أسبابٌ تؤيد أو تعارض العدد الذي أعلنه ليون الإفريقي، دون أن يمكن تحديد العدد بحساب السعة الحالية للسجون، أولاً بسبب سعتها الكبيرة غير المعروفة في أجزاء كثيرة، وثانياً لعدم احتواء كل الأسرى في السراييب، على الأقل توجد دلائل على أن الكثير منهم، في لحظة محددة، كانوا يمكثون خارجها، مثل عبيد القائد التطواني، الذين كانوا يتجمعون للعمل في الطواحين^(٤).

نقل مارمول كارباخال، في نفس القرن السادس عشر، أرقاماً ومعلومات من ليون الإفريقي: كان لدى /المنداري/ ثلاثة آلاف أسير مسيحي يعملون طوال اليوم في إقامة الأسوار، وفي المساء كان يسجنهم في سجون مظلمة و عميقة بسلاسل وأغلال شديدة في الأيدي^(٥).

بالإضافة إلى ما قاله ليون الإفريقي، لا نعلم شيئاً عما يتعلق بالسجون، حتى ما إذا كانت الأطلال المحفوظة اليوم تخص السراييب الأولى.

بالطبع لم تكن مذابح ومحاريب الديانة الكاثوليكية، التي تم اكتشافها في السجون الحالية من عصر المندارى، لأن الأب المفتدى كونتيريراس لم ينزل إليها، في زيارته الثانية إلى تطوان في ١٥٤٠ ، لكي يلقي الوعظ والقداس لمن فيها.

كان سيُعتبر حدثاً منطقياً إذا وجدت مذابح وصور وخاصة بالديانة في داخلها. على العكس، فقد طلب الراهب من القائد التطوانى وحصل على إذن للقيام بالقداس في المنزل حيث كان يسكن والذي اجتمع الأسرى فيه لكي يتناولوا الأسرار الكنسية^(٦).

يمكن أن نقول نفس الشيء عن البعثة اليسوعية التي ذكرت مسبقاً.

لم يقلع القساوسة، بسبب ذلك، عن النزول لزيارة المسجونين في سجونهم المظلمة. كان ذلك يدخل كليةً في صميم أعمالهم، وهذا ما فهمه المندارى فيما يتعلق بالأب كونتيريراس:

عندما علم أنه يجب أن يقوم بافتداء في تطوان وأنه كان يلزمه لذلك التعرف على الأسرى الموجودين في السجون، أعطى أمراً لحراسها أن يفتحوا للأب كونتيريراس المدخل في كل المرات التي يريد فيها زيارة الأسرى^(٧).

كان الأب كونتيريراس، بسبب ذلك، يعرف السرايب وما إذا كانت جاهزة لأداء الطقوس.

وبمناسبة زيارة الأب كونتيريراس لتطوان، في عام ١٥٣٩، فقد وصف كاتب سيرته، الأب أراندا Aranda، السجون التي زارها المفتدى:

"كانت السجون على مساحة ٤٤٧ قدماً مربعاً تحت الأرض، وكانت على شكل صوامع، وكانت هناك بنايات segulles حولها وفي الأعلى توجد كوة بقضبان حديدية. تتصل بعض هذه الصوامع أو الزنانات ببعضها بواسطة بعض الممرات الضيقة. لا يدخل فيها هواء ولا شمس، ولا يمكن رؤية السماء وبالكاد يُرى الضوء. كانت آخر هذه السجون تستخدم كسجن للمجرمين من المسلمين. وكانت القذارة ملحوظة بسبب الوجود المستمر للكثير من الرجال. كانت الرائحة السيئة والكريهة لا تُحتمل. أكد لي ذلك أحد الآباء المفتدين، الذي خرج فاقداً الوعي لوجوده لحظة مع الأسرى. هذه هي

غرفة هؤلاء المسيحيين المساكين، كانت تلك البنايات *seguiles* عبارة عن حجرات، وكان السرير عبارة عن حصيرة صغيرة. كانوا عرايا، مكبلين بالسلاسل والأصفاد، داخل حلقات وسجون قاسية أخرى، يوجد من بينها بعض القضبان السميكة والطويلة من الحديد، ويسمونهم مجاثم مربوطة أطرافها بسلسلتين. كانوا يرغمونهم على وضع أرجلهم فيها، وتبعد العصا بين الرجل الأولى والثانية. كانوا يحترقون من الحرارة في الصيف، بسبب الأرض الحارة جدا ووجود أناس كثيرين في مكان ضيق جدا. في هذا المكان ... كان الأسرى موجودين نهائياً وليلاً، إذا لم يخرجوا إلى العمل، حينئذ كانوا يخرجونهم متأخراً ويرجعونهم مبكراً وأثناء الوقت الذي يسيرون فيه في الخارج كانوا يضعون سلاسل في أرجلهم. وحتى إن كانوا مرضى، لا تتحسن معيشتهم ولا يكون لهم وضع مختلف، فقد كانوا يقضون فترات مرضهم في تلك السجون شديدة القسوة" (٨) .

وقد عرف اليسوعيون البرتغاليون السجون: الراهب إغنيثيو فوغادو -Ignacio Vega do والآباء المفتدون جوان نونييث باريتو Juan Nunez Barreto ولويس غونثالبيس دي كامارا Luis Gonçaves de Cámara ، الذين وصلوا الى تطوان كرسل ومفتدين في ١٢ من نوفمبر عام ١٥٤٨ .

كتب الأب غونثالبيس: عن حجرة النوم التي كان يدخل إليها من خلال حفرة، أي باب صغير خفي ذو شبك سلكي لا زلنا نعرفه في أيامنا هذه.

سوف يصف لنا ما يلي المكان:

بعد أن انطفأ المصباح رحتُ أتأمل كيف أن المكان شبيه بالجحيم تحت الأرض هكذا في ظلام دامس ، أجساد يرتمي بعضها فوق بعض، كانت القيود تُحدثُ أصواتاً كئيبة تعم المكان (٩).

ذكرها الأب نونييث باريتو عدة مرات دون أن يتحدث في أي من هذه المرات عن أي شيء يتعلق بكنيسة أو مذابح داخل السرايب.

ورد ذلك فى رسائل مختلفة إلى اليسوعيين فى كويمبرا Colmbra يخبرهم فيها بنشاطه التبشيري، فى كل الأيام كانوا يعلمون العقيدة للأسرى فى أحد المنازل أو فى السجون حيث يتجمع الكثيرون، من حين إلى آخر.

confessei em hua masmorra des pola menha ate o meio dia,escribe,Oje ou pouvo menos^(١٠).

لم ينس الأب نونييث التحدث عن السجون فى كل رسالة من رسائله. يؤكد فى رسالة كتبها فى ١٠ ديسمبر عام ١٥٤٨ زيارته للسجون فى كل الأيام، ستة أيام، وكان يشاهد المرضى، و يجعلهم يعترفون بذنوبهم و كان يصطحبهم لتناول الطعام عند قضبان السجن^(١١).

وقد حددنا فترة الثلث الأخير من القرن السادس عشر كتاريخ إنشاء الكنائس الصغيرة وأماكن العبادة الموجودة فى السجون الحالية.

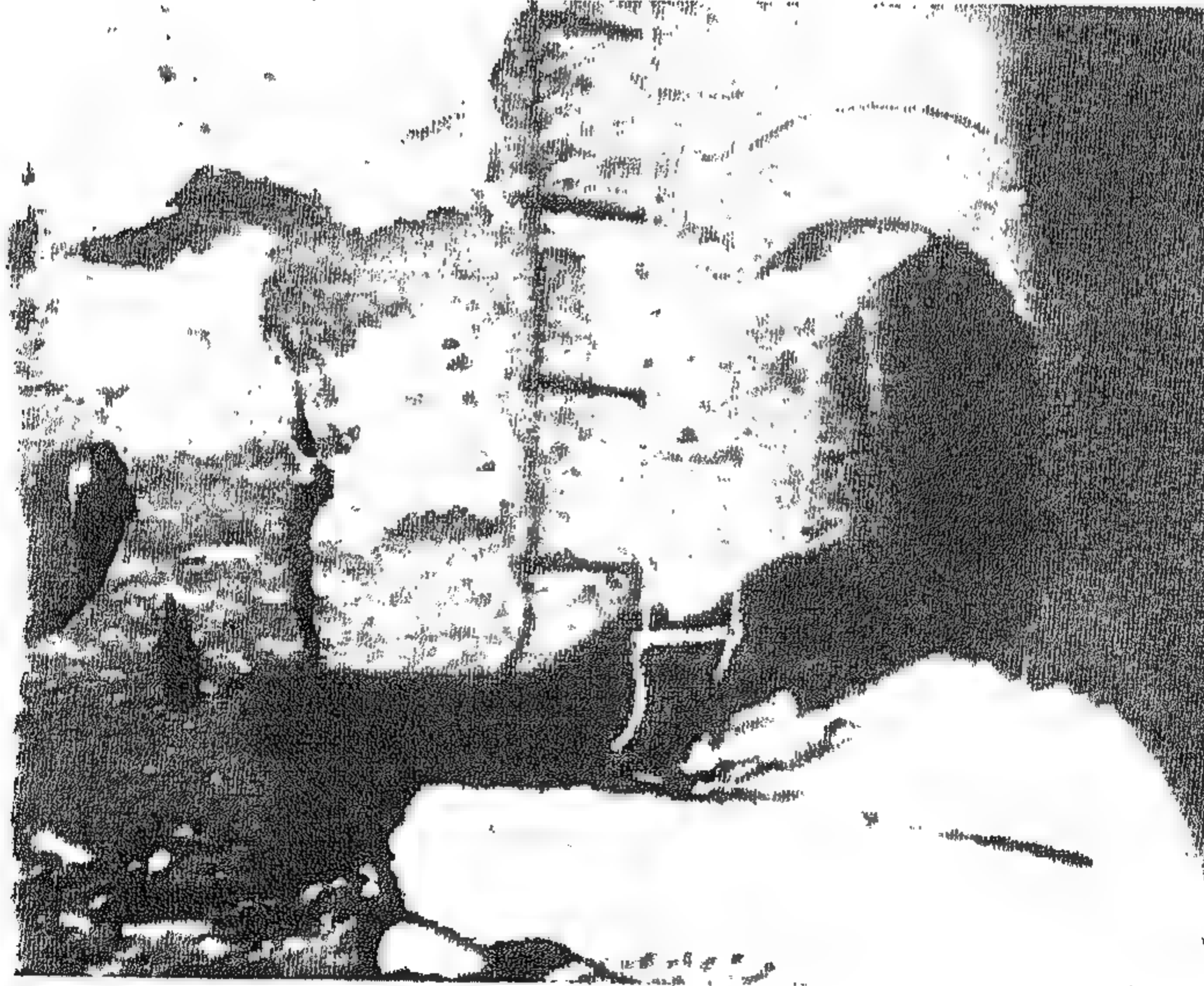
عرفنا القليل جدا عن تلك السجون بواسطة أعمال النظافة والاستكشاف التى نفذها فى أسوارها ثيسار لويس دى مونتالبان César Luis de Montalbán، بالإضافة إلى خريطة نفس هذه الأماكن المسورة، التى رسمها المهندس كارلوس أوبيلو دى مونتالبان، جنباً الى جنب مع خريطة نفس الأماكن المسورة التى قام بها المهندس كارلوس أوبيلو إى كاستييو Carlos Ovilo y Castelló ، فى نفس التاريخ ، مع رسومات وقّعها يورنيتو A.Llorento ، أيضاً فى يناير عام ١٩٢٣ وصورة محفوظة فى مكتبة تطوان العامة.

بالتأكيد سبق أعمال مونتالبان معلومات معروفة قليلاً جداً، قدّمها مانويل غوميث مورينو Manuel Gómez Moreno ونشرها كتكملة لعدد ١٠ نوفمبر ١٩٢٢ من الجريدة الرسمية لمنطقة المحمية الإسبانية فى المغرب.

بعد ذلك، ومع الاستقلال المغربى، نزل صحفيان إلى السراييب، مع المهندس ألفونسو دى سييرا أوتشوا Alfonso de Sierra Ochoa . لم يضيف المقال الذى نشره هذان الصحفيان، فرانثيسكو بارثيلو موغا Francisco Barcelo Moga وإميليو فرنانديث رومان Emillo Fernández Román ، شيئاً جديداً إلى معلومات غوميث

مورينو ومونتالبان، بالرغم من أن مقالهما معزز ببعض الصور، يمكن أن تستخدم كمكملات لنفس المعلومات. على سبيل المثال، توضح لنا إحدى هذه الصور سلماً من الحبال وضعوه للنزول من أرضية الشارع إلى أرض السجون وإحدى قناطر الممرات بين المقصورات. كان مقياس السلم، وفقاً لما يذكره الصحفيان، ستة أمتار، وهو عمق السجون.

تشبه قنطرة الممر فكرة المجرى أكثر من كونها باب مرور. إن هذه الصورة هي رؤية مظلمة للمكان المسور، مطابقة لوصف من زاروا أو كانوا موجودين في هذه السجون تحت الأرضية. تشير صورة أخرى إلى صحفي يقف منحنيًا لكي يعبر إحدى هذه الفتحات، وتؤكد أن السجون التطوانية كانت لها صفة القبور أكثر من صفة مسكن بشري.



شكل (و)



شكل (ح)



شكل (و)

نزل مونتالبو للمرة الأولى إلى السجون في مارس عام ١٩٢١، وليس من المستبعد أن يكون قد طلب معلومات من غوميث مورينو قبل الشروع في أى عمل ترميم.

كتب لهم غوميث مورينو مجرد صفحة في العدد الرابع من الجريدة الرسمية السابق ذكرها وانتهى مؤكداً: إن هذه السرايب تفتقر، أثرياً، إلى القيمة، لكن تاريخ ماضينا في بلاد البربر، حيث عانى الأسرى الإسبان كثيراً، يستحق أن يُنظر إليه باحترام وأن يُحافظ عليه. كان من اللازم إصلاح واحدة من الحفرات العلوية والتي تتسرب المياه من خلالها اليوم من أحد المنازل و استخراج الأتربة، وإذا كان ممكناً، ترميم المدخل أنف الذكر.

لن يتكرر الحديث عند هذا المدخل فى أى مكان آخر.

نزل غوميث مورينو إلى السرايب من خلال كوة السقف المفتوحة فى أرضية شارع ميتامار، المغلقة الآن بالأسمنت.

كانت /السجون/ موجودة داخل المدينة المسورة؛ البعض منها موجود تحت الشارع، الذى يمكن الدخول من خلاله حالياً باستخدام سلم يد، والبعض الآخر موجود تحت المنازل.

مع ذلك، فقد رأى غوميث مورينو باب هذا المدخل.

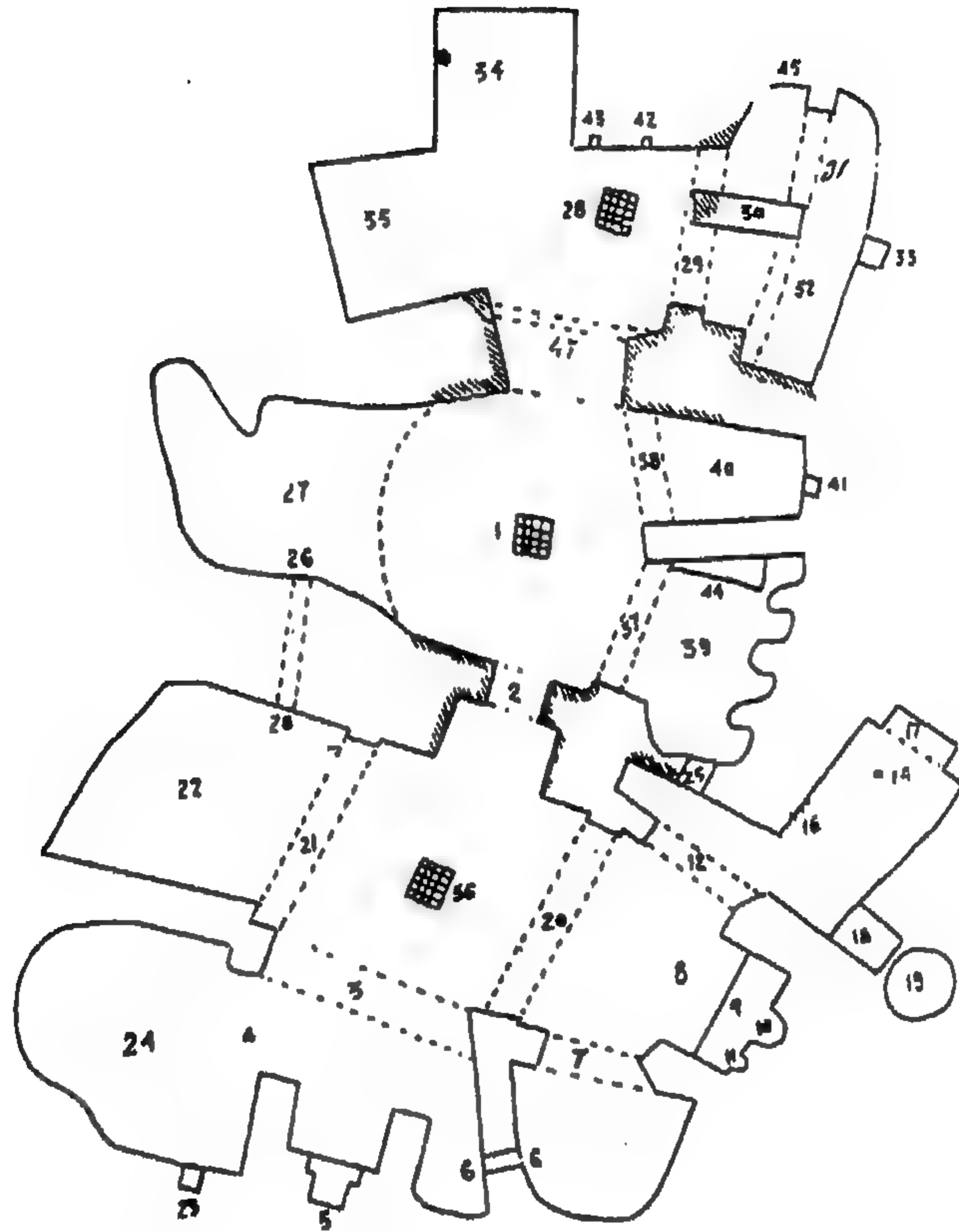
اليوم يمكن التعرف على ثلاثة سجون متتالية وفى النهاية يوجد باب كان يمكن الوصول إليه، منذ سنوات قليلة، عبر أحد المنازل، فليس مستبعداً اعتقاد أن هذه السرايب كانت أكثر اتساعاً.

لا يحدثنا مونتالبو عن هذا الباب، ولا عن المدخل عبر أحد المنازل. ربما لأنه تم سدها بعد زيارة غوميث مورينو. نحن فعلاً سمعنا حديثاً عن هذا المدخل من سكان الشارع.

يعرض غوميث مورينو نظريته المختصرة عن الزيارة القصيرة التى قام بها إلى السجون.

ربما كانت فى الأصل حفريات مستديرة بسيطة، مصنوعة فى صخرة ولها فتحة من أعلى للدخول، كما كان معتاداً فى غرناطة، وكانت تستخدم إما كمخازن، وإما لسجن الأسرى خلال الليل. بعد إعداد الحفرة، كان يمكن وضع الحفرات فى اتصال بعضها البعض الآخر من أسفل، كما هى موجودة اليوم، وتم دعم الحفرات وتوسيعها بأقواس شبه دائرية من الطوب، بحيث تشكل مشكاوات جانبية كبيرة تعطى مظهراً رباعى الزوايا، تقريباً لكل حفرة.

يجب الأخذ فى الاعتبار، بالإضافة إلى ذلك، أن غوميث مورينو لم يستطع رؤية مجموعة من المقصورات، لأنها مسدودة، كالمقصورات أرقام ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ٣٩،



شكل (ط)

٤٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، التي قام مونتالبان بنزع أغطيتها بعد ذلك، هكذا مثل المذبح الأكبر، (رقم ٥)، ويشكل ٢٥٪ من اتساع السجون وربما الجزء الأكثر أهمية من وجه النظر الأثرية.

... توجد قبة مقوسة على باب الوصل من القسم الأول إلى الثانى؛ يبدو أنها كانت تستخدم ككنيسة للأسرى. إنها قبة مقوسة وصفها مونتالبان بأنها مكان الكورس فى الكنيسة.

لكن ونحن ننهى هذا الجزء بمعلومات غوميث مورينو، نجد أنه من المهم الإشارة إلى ملاحظة، غفل عنها الزوار اللاحقون.

تعطى أسوارها، التى تم طلاؤها عدة مرات، انطباعاً بأنها كانت أماكن مسكونة باستمرار. هذا يؤيد المعلومات الشفهية التى جمعناها عن هذه السرايب من أنها قد استخدمت كمخزن للعبيد حتى تاريخ حديث جداً، وأيضاً فى القرن التاسع عشر. لم يكن للعبيد حينئذ أى علاقة بأعمال القرصنة أو الحروب ولكن كانت لهم علاقة بتجارة الرجال والنساء السود التى امتدت فى المغرب حتى وقت قريب جداً.

عندما لم تعد السجون معاقل للأسرى المسيحيين، حاول السكان، بكل السبل، سد أماكن العبادة، وقاموا بذلك بإتقان حيث سدوها، فى بعض الحالات، بأسوار سمكها متران، وفقاً لمونتالبان. لكن ظل المكان، كما هو طبيعى، يعرفه ويستخدمه سكان تطوان، حتى إذا اختفت منفعته المباشرة كمخزن بشرى، تم استخدامه فى وظائف أخرى أقل أهمية، بالأخص كبالوعة للمساكن الموجودة فوقه، وكمقلب للنفايات.

كان ثيسار لويس دى مونتالبان مسئولاً - من قبل الوفد العام لمفوضية إسبانيا العليا فى المغرب - عن نظافة وفحص السجون. و مر أكثر من عام ونصف منذ أول زيارة له فى مارس عام ١٩٢١ وحتى توليه هذا المنصب الرسمى فى ديسمبر عام ١٩٢٢، وخلال هذه الفترة قام غوميث مورينو بالزيارة التى كانت مصدراً لمعلوماته، ولم يتحدث مونتالبان عن هذه الزيارة وعن تلك المعلومات.

لم يخبرنا شيئاً عن الأيام التى قضاها فى نظافة وفحص السجون. وقد حاول وصف هذه العمليات بالتفصيل، فى كتيب نُشر فى مدريد عام ١٩٢٩، وقد نشره،

فيما بعد، المجلس الأعلى للآثار التاريخية والفنية لمفوضية جمهورية إسبانيا في المغرب.

في هذا الكتيب المكون من ٣٦ صفحة، في العدد الرابع، تم شرح العمل وشمل مخططاً أو تصميمًا للسجون قام به مهندس المجلس الأعلى للآثار، كارلوس أوبيلو إيكاستيو، وصورتين وقعهما يورينتى Llorente، في ٩ يناير عام ١٩٢٣ .

نشر مونتالبان نفسه مقالاً، على شكل موجز للكتيب في المجلة الإسبانية الإفريقية، ووقعه في العرائش في ديسمبر عام ١٩٢٤ .

افتقر الخبر إلى الكثير من المعلومات، بالرغم من أن مؤلفه اعتقد أنه اتبع، خطوة بخطوة، الأعمال التي قام بها وما رآه في السراييب، التي يحتمل أن يكون قد نزلها مرات كثيرة.

يخلو الكتيب من بعض القياسات التي، فيما يبدو، أنه لم يأخذها، ونأسف لعدم دقتها، ولعدم وضوح فكرة أنه احتاج إلى سلم يد من أربع درجات للنزول، وقد تركنا دون توضيح المسافة التي تفصل بين الدرجات، وبالتالي، دون معرفة عمق مستوى الشارع إلى أرض السجون، وقد أثقل كاهلنا، على العكس، بتفاصيل غير مفيدة، مثل استخراج الانقاض التي قاموا بها باستخدام قاعدة من حديد مع بكرة، وترك الأتربة في الشارع الذي كانوا يجمعونها منه على دواب لحملها إلى مقلب قمامة البلدة. كانت التفاصيل ستكون أكثر أهمية لو أنه أخبرنا عن نوعية الانقاض التي وجدها.

على كل حال فإن عمل مونتالبان يُعتبر أساسياً لرؤية السجون، بينما لم يتمكن أحد من النزول مرة أخرى والقيام بدراسة أكثر استفاضة عنها.

على الجانب الآخر فإن لدينا تصميم قام به أحد المتخصصين، ويمكنه، بجانب الرسومات والصور، أن يكمل العرض الذي سنقوم به على الفور.

كان موقع السجون، فى جزءٍ منه، تحت أرضية شارع ميتامار Metamar . فى الواقع، إن ذلك الحى هو حى السجون أو مطمور Matmur .

و هناك تفصيلا دقيقة أخرى نفتقدها، وهى اتجاه السرايب، الذى من خلاله يمكن أن نعرف أى أجزاء من الشارع وأى البناات التى كانت فوق هذه السجون.

من المحتمل أنها كانت، فى البداية، موجودة فى الفضاء دون بناات فوقها، قريباً من أسوار المدينة ومن قصر أو محل إقامة المندارى.

لن يكون غريباً الانتفاع من الخنادق التى أمر القائد الغرناطى بحفرها، حول الأسوار، كواحدة من سبل الدفاعات الأولى عن المدينة، وفقاً لما يرويه عدة مؤرخين مغاربة، من بينهم الفاسى Al Fasi، الذى قال إن تطوان كانت قرية محاطة بسور أول وسور ثان آخر. كان يحيط بها خنادق وكان يدعمها مخزن القلعة^(١٢) .

فيما بعد اختفت الخنادق، و تم البناء فوقها. اختفى أيضاً جزء كبير من السجون وأقيمت منازل على سطحها.

عند الدخول إلى شارع ميتامار، عبر الميدان الصغير المسمى واسع Wasaa، كان يوجد، فى أرضية الشارع، و على بعد ٥٠ خطوة، نوع من شبكات المجارى، كانت تمرر إلى إحدى مقصورات السجون. كانت تخص منور أو فتحة كان ينزل منها الأسرى إلى سجنهم.

دخلوا عبر هذا المدخل فى كل المرات التى قام فيها غوميث مورينو أو مونتالبان أو سييرا أوتشوا بزيارة السجون. تم إلغاء الباب الصغير الخفى منذ أعوام، و تغطية فتحته بالأسمنت، دون ترك أى أثر له.

المكان المشار إليه فى الخريطة برقم ١، هو المكان الأول الذى كان يُدخل إليه من خلال الفتحة القديمة لشارع ميتامار. كانت سعة هذا المكان حوالى خمسة أمتار، وفقاً لتقدير الصحفيين الذين زاروه، ولدينا هنا عدم وضوح آخر فى أخبار مونتالبان، لأنه عرض خريطة أوبيلو، دون أن يقول لنا مقياس الرسم الخاص بها، ولذلك

لم نستطع تطبيق المقياس ١٠٠/١ الذى حسبه المهندس المعماري فى عمله بصورة صحيحة.

عرفنا أيضاً بواسطة الصحفيين أن سقفها كان على شكل قبة.

يمثل رقم ١ من الخريطة المقصورة الوسطى من السجون الثلاثة المتتالية التى تحدث عنها غوميث مورينو و التى أرقامها ٢٨ ، ٣٦ فى الخريطة، وقد اتصلوا بها بواسطة عقد منحنى لكل واحد منهم ٢ ، ٤٦ .

يوجد ممر، رقم ٢٦ ، من الممر الجانبى رقم ٢٧ وحتى الممر رقم ٢٢ و لم يُقال شيئاً عن نوعية هذه الممرات و طريقة بنائها.

صنعت العقود المنحنية من الحجر، ربما من نفس الصخرة التى تكون أرضيات وجدران السرايب، و هى أسقف منخفضة، بين متر وثلاثين سنتيمتراً ومتر وخمسين سنتيمتراً، و هناك واحد من الصحفيين تم تصويره، وهو يمر منحنيًا تحت أحد العقود.

تصل عقود منحنية أخرى المقصورة رقم ١ مع ثلاث مقصورات جانبية أخرى، اثنتان منهم إلى جانب وواحدة إلى جانب آخر. تؤدى العقود أرقام ٣٧ و ٣٨ إلى الأماكن أرقام ٣٩ ، ٤٠ على التوالي.

يمرر العقد رقم ٤٧ إلى المكان رقم ٢٧ .

يجب أن يكون المهندس المعماري أوبيلو قد رَمَّم هذه العقود أرقام ٣٧ ، ٣٨ لوجودها فى حالة سيئة جداً، وفقاً لما يذكره مونتالبان، الذى نتبع استشهاداته، بالرغم من أنه لم يذكر بعض الأشخاص.

المقصورة رقم ٣٩، لها مظهر كنيسة صغيرة.

بعد فحص طبقة الأرض وجد فيها، بجوار الجانب الشمالى رقم ٤٤، نوع من الفسقيات المصنوعة فى الأرض نفسها، يفترض أنها كانت للتعميد وبعض المحاريب الخاصة بالديانة المسيحية و التى تحتفظ واحدة منها بأثر باب.

يوجد إلى جانبها مقصورة أخرى، (رقم ٤٠) ، و أيضاً كنيسة صغيرة ذات محراب مغطى يحتمل أن يكون هو المذبح، (رقم ٤١).

لا يزال يوجد هنا محراب آخر، أعتقد أنه كان يستخدم لأجل قنينات الماء المقدس. لم يُسجل المحراب الأخير هذا في الخريطة.



شکل (ی)

يبدو المكان رقم ٢٧ كتوسيع، حفره الأسرى أنفسهم، من أرضية غير عادية، بنتوءات كبيرة فى الصخر.

بالإضافة إلى ذلك، يوجد فى هذا المكان تجويف فى الصخر يبدو لى طبيعياً ويحتمل أن يمر من خلاله الضوء عندما كان المكان، الذى تشغله الآن السجون، ميداناً أو على الأقل شارعاً أوسع من الحالى بثلاثة أضعاف.

ومن خلال القوس ٤٦ يتم المرور إلى السجن رقم ٢٨، الذى كان به منور، وربما كان يوجد المدخل من خلاله.

تم توسعة المقصورة رقم ٢٨ بمقصورات رباعية الزوايا من جانب، تحمل رقمى ٣٤ ، ٣٥ .

بعد عمل فحص للجدار المصنوع من الحجر تم التحقق من أن البناء كان راجعاً إلى عملية ترميم.

يرجع إلى نفس السبب بناء سور تدعيم، رقم ٣٠، والذى يدعم قمة قوس مهدمة، وهى التى سببت الانهيار.

وُجِدَت كل هذا الجزء مسدوداً، لكن لشكنا أن العقد لم يكن معداً للبناء فوقه ولكن للمرور، قمت باستكشاف سمح لى برؤية أن العقد موضوع النقاش كان يستخدم للمرور إلى مقصورات أخرى حدثت فيها انهيارات كبيرة.

تشير النقاط ٣١ ، ٣٢ إلى تجويفات على مستوى ارتفاع الأرض تقريباً ولا يفترض أنها كانت تستخدم فى أداء شعائر الديانة المسيحية.

يشير رقم ٤٥، إلى ممر يؤدي إلى مقصورات أخرى وقد وُجِدَ مسدوداً بأتربة يوجد فوقها أساس لأحد المنازل.

هكذا، إذن، كان هذا السجن، رقم ٢٨ ، فيما يبدو، ممراً بسيطاً يؤدي إلى مقصورات أخرى ويمتد فى اتجاه أرقام ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ و كان رقما ٤٢ ، ٤٣ يمثلان قاعدتين مستقيمتين يحتمل أن يكونا قد تم وضعهما عندما حدث الهدم.

لا نعرف كم من الوقت ظلت السجون التطوانية موجودة، ولا حتى المكان الذي كانوا يقيمونها فيه، وذلك لافتقار الاتجاه المناسب. إن ما يقال، حتى الآن، هي مجرد افتراضات، كافتراض اتصال السجون بالكهوف الطبيعية الموجودة أمام محطة السكة الحديد القديمة وضواحيها، في منحدر صخري يكون شرفة كبيرة وطويلة تطل على ما يسمى متنزه الكرانيش.

إن سعة السجون الحالية ليست أكثر من جزء قليل جداً من سعتها في خريطتها الأصلية. من المحتمل أنه كانت تغلق بعض الغرف كلما كان يقل عدد العبيد، بحيث تبقى فقط، في القرنين الأخيرين، تلك الغرف المدعمة لتفادي الانهيار.

كذلك لا نعرف ما إذا كانت السجون الستة التي ذكرها القسيس نونييث باريتو، هي ستة مساكن فقط، أم ست مجموعات منها، كالموجودة حالياً. نميل إلى هذا الفرض الأخير برغم إمكانية أن تكون متصلة بعضها ببعض كما وضّح القسيس نونييث في إحدى رسائله.

Esta Coresma pregue masmorras onde por a bondade de Deus se fazia tres preguações diversas em cada fruto, e noyte se fazia que preguava duas porque se andao por dentro, hua sua masmorra^(١٣).

يمكن من المكان رقم ١ المرور إلى رقم ٣٦ عبر الممر رقم ٢، وهو النقطة الأكثر أهمية في السجون لاحتوائه على المكان المخصص للعبادة المسيحية.

وإذا بدأنا بالممر الذي يوجد له رسم مأخوذ من داخل المكان المسور رقم ٣٦، فنجد أنه يتكون من عقد منحنى صغير يسمح بالمرور إلى عقد آخر أكبر يوجد فوقه مكان صغير بعقد صغير آخر، هذا المكان له ممر عبر المقصورة رقم ١، أي على يمين المدخل الذي تم وصفه مسبقاً.

عرف مونتالبان هذه المقصورة الصغيرة، فوق سقف المدخل، كمكان للكورس في الكنيسة.

يشكل المكان المسور (رقم ٣٦) مربعاً كاملاً فى خريطة أوبيلو. تخيل مونتابان رؤية شكل صليب لاتينى، مع أربعة عقود، واحداً فى كل جانب من جوانب المربع.

يوضح لنا رسمُ ما العقد (رقم ٢). ينتمى رسم آخر وصورة إلى العقد رقم ٣ الذى يطل على المذبح الأكبر، مع محرابه، (رقم ٥).

تُؤدى العقود الجانبية الأخرى (٢٠ ، ٢١) إلى مقصورات أخرى؛ يؤدى العقد (رقم ٢١) إلى المقصورة (رقم ٢٢) التى لا يُقال عنها شىء خاص. فى مقال المجلة الإسبانية الإفريقية يؤكد لنا كاتب المقال أنها كانت اتصال مع مقصورة المدخل الذى ظل مسدوداً.



شكل (ك)

يؤدى الممر رقم ٢٦ إلى هذا المكان رقم ٢٢، الذى يصله مع ممر رقم ٢٧ .

كان العقد رقم ٢٠ يدخل فى سلسلة من الأماكن المسورة ذات استخدام للعبادة. وكان للعقد المجاور له، فى الواجهة، مذبح محفور فى الصخر، مع عقد منحنى، رقم ٨ ، كان مغلقاً بسور من الطوب والجير.

بعد انهيار هذا السور ظهر المذبح المبنى بالطوب، رقم ٩ ، وكان يوجد قبو تحته. كان للمذبح محراب، (رقم ١٠)، لكى توضع صورة، ومحراب آخر، (رقم ١١)، لوضع القنينات.

يشير رقم ٧ فى الخريطة إلى عقد آخر، يؤدى إلى حجرة دون إشارات إلى عبادة دينية و يحتل استخداماً كحجرة القسيس أو الراهب الفرنسيسكانى الذى يقيم مع الأسرى.

على شمال المذبح (رقم ٩) كان هناك عقد مسدود بشكل مضاعف، رقم ١٢ ، فيه رف مزين ببلاط قيشانى وعدة محاريب، كان العقد يطل على مجرى ضيق يتصل بالكنيسة الصغيرة، رقم ٣٩، و يوجد رف مزين ببلاط قيشانى فوق هذا الممر.

يوجد بالقرب من العقد رقم ١٢ عقد آخر، رقم ١٣، منحوت فى الصخر مثل كنيسة صغيرة يؤدى إليها. كان يغطى العقد سور سمكه متران كان ينتهى بمحراب كان، بدوره، مسدوداً، (رقم ١٨).

بعد أن تم كشفه نرى أنه كان حلقة الوصل مع بالوعة مسدودة، (رقم ١٩).

كان للبالوعة، على ما يبدو ، حافة خارج السجون، وكان الأسرى يخرجون منها .

كانت كل المقصورة رقم ١٤ مسدودة بسور وعندما انهدم هذا السور تم الوصول إلى الطبقة الصخرية واكتُشفت ثلاث قباب صغيرة، (رقم ١٦ فى جانب، وفى الآخر رقم ١٧)، ومحراب بإطار خاص بباب مركب فى السور ويبلغ سمكه ١,٩٠ متر.

يبدو لى هذا المحراب أو المذبح الأكبر المكتشف هو الأكثر أهمية من الجميع، وقد وجدته مزيناً بصورة أفضل من كل الباقين، ببلاط قيشانى أفضل.

مع ذلك، يبدو أن الأهمية بالنسبة للعبادة كانت توجد في مواجهة المحراب، بعد المرور بالعقد رقم ٣ الخاص بما يطلق عليه المذبح الأكبر لكنيسة السجون، والذي يُرى مطبوعاً ومصوراً.

يمكن المرور عبر ممر آخر إلى ما يسمى غرفة المقدسات، (رقم ٢٤) ، مع محراب، (رقم ٢٣) ، ربما كان من أجل الماء لغسل الأيدي.

رقم ٥ هو عقد منحني مزخرف بالبلاط القيشاني، يُرى من عمقه المذبح المزين بالقيشاني.

يظهر في الصورة بوضوح المحراب، (رقم ٥) ، وهو مزدوج، أى أنه مكون من محرابين: محراب كبير مزخرف من الداخل بنسق من القيشاني الأبيض والأسود، يرجع إلى القرنين الخامس عشر و السادس عشر، و محراب آخر أصغر بسلم، ربما كان مكان القربان المقدس. كان قاع هذا المحراب مزخرفاً بقيشاني مع زهور ملونة مشابهة جداً لتلك الموجودة في غرفة المقدسات، في تالابيرا دي لاريينا، التي ترجع إلى القرنين الخامس عشر و السادس عشر.

توضح لنا صورة أرشيف مكتبة تطوان العامة بصورة جيدة المذبح الأكبر، رقم ٥، بمحرابيه الداخل أحدهما في الآخر.

تظهر بوضوح الفسيفساء ذات اللونين في شبكات عقد المذبح.

تظهر غرفة المقدسات بوضوح على اليمين، مع عقد المدخل والطبقة الصخرية في العمق.

رُسمت بإتقان في خريطة أولية قطعة كبيرة من عقد منحني.

تظهر في الصورة، في الزاوية الداخلية اليسرى، الشبكة التي كانت تسد المنور الموجود في المقصورة، التي كانت مسدودة عند البناء عليها.

كان المنور فى وسط سقف السور رقم ٣٦ .

هذا السقف له شكل قبة غير مكتملة، مبنية فى الصخر وبها بعض التجويفات المسدودة بالجير والطوب.

يمثل رقم ٦ تجويفاً فى الحائط، يتصل مع المكان المسور الصغير، والذي كان يُفترض أنه خارج حجرة رجل الدين؛ يحتمل استخدامه ككرسى الاعتراف.

إن كل واجهة السجون هذه التى تتبع الأقسام ٢٤ و ٥ و ٦ ليس لها ولم يكن لها امتداد، كما يحدث مع الأطراف، فى الأماكن المسورة ٣٤ ، ، ٣٥ يرى فى هذين المكانين بوضوح أنهما كانا ممرين يؤديان إلى أماكن أخرى، مسدودة اليوم أو مهدومة. لا نعرف إلى أين تمتد السجون تحت الأرضية عبر هذا الجزء.

إذا كان ما أكدته الإفريقى حقيقياً فإن السجون يحتمل أن تكون أكثر اتساعاً لكى تستطيع أن تحوى ثلثى العبيد الذين ذكرهم.

غير أننا لا نعتقد أن السراييب، التى كان الأسرى يبيتون خارجها، لها علاقة بالنفق الذى ذكره القسيس كونتيراس فى مذكراته لعام ١٥٤٥ .

" لكن تعرفون سموكم أننى لدى اتفاق آخر مع أسير صنع نفقاً، أرسلته مرسوماً لسيادتكم يمكن أن يدخل منه ألف رجل ولا يشعر بهم أحدٌ و السكان نائمين، وهكذا يمكن أخذ الكنوز التى حدثتكم عنها فى رسالة أخرى".

يتصل هذا النفق ببعض الكنوز التى دفنها ثلاثة قادة وملك و اعتبرها كونتيراس كافية على الأقل لتغطية نفقات حملة بأكملها.

أخبره أحد الأسرى، الذين يعرفهم، بوجود صومعة يُحتفظ فيها بعلم مسيحي جميل، مع كنوز أخرى ورايات ومجوهرات ... و الخزائن المسلسلة حيث توجد الكنوز^(١٤).

بعد ذلك، كانت هذه السرايب مختلفة، تُحفظ فيها الثروات، وكانت تستخدم كترزانات لبعض الأسرى المساكين.

كان الأب كونتريراس واضحاً، حيث تحدث عن كنوز وليس عن عبيد. كان يمكن لمعلوماته أن تتجه إلى مفهوم آخر، إذا كان النفق الذي تحدث عنه متصلاً بالخمس ألاف أسير الذين يقول إنهم كانوا موجودين حينئذ في تطوان.

ربما كانت هذه الكنوز موجودة في خيال الأب أكثر مما هي موجودة في الواقع، تماماً مثل مشاريعه، التي كانت تتحدث عن غزو مملكة فاس، وبيليث وما بعدهم، "وبياركنا الرب، حتى مراکش وغزو الصحراء، التي يأتي منها ذهب، يأخذونه كالرمل بدون حفر".

كتب كرينال طليطة بهذا الصدد يقول:

... الأشياء التي يقولها في وجهة نظري تستند إلى أساس ضعيف^(١٥).

يكفى ما قيل لقطع صلة الأب كونتريراس و"نفقه" مع السجون التطوانية.

نعتقد أن مناقشات مونتابان غير كافية لكي نربط بين الأب وهذه السجون. نزل الأب كونتريراس إلى السرايب، وفقاً لروايته في سيرته الذاتية، لكي يتعرف على الأسرى الذين كان يجب عليه افتدائهم، لكن لا نستطيع استنتاج أى شيء من خلال هذه الزيارات على الإطلاق. نستنتج، على أكثر تقدير، وكما قلنا، قلة الأشياء وأماكن العبادة في السجون خلال فترات إقامته في تطوان.

تشير المذابح والمحاريب الموجودة، بالإضافة إلى ذلك، إلى أنه اعتباراً من لحظة محددة كان هناك رجال دين يقيمون مع الأسرى في سجنهم.

يتحدث غوميث مورينو عن كسوات من البلاط القيشاني من نوع إيطالي للقرن ١٧ ... ويعتقد مونتابان أن هذه الأشياء يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.



شكل (ل)

يبدو لنا أن العبادة في السجون لم تكن تقام قبل النصف الثاني من القرن السادس عشر، و ذلك للأسباب المعروضة.

الأمر الأكثر احتمالية هو أن هذه العبادة قد بدأت مع إعادة إرمال البعثات الفرنثيسكانية في المغرب، التي حصلت عليها الحكومة الإسبانية من السلطان مولاي عبد الملك في عام ١٦٣٠ .

في عام ١٧٩٥ حرر السلطان مولاي سليمان الأسرى، و يفترض أنه، منذ ذلك الحين، بقيت السجون دون استخدام ثابت و تم سد المذابح والمحاريب.

لقد حاولنا جمع كل الدراسات والأخبار الموجودة عن السجون، و قد حاولنا، نظراً لقلتها، أن ننزل إلى السجون ، في مناسبات متعددة، لكي نكمل، كلما أمكن، المعلومات التي قدمها زوارها السابقون، لكن لم نستطع الحصول عليها .

تحدث بعض دارسيها - على سبيل المثال المهندس المعماري سييرا أوتشوا- عن صور مؤرخة ومهمة جداً، لكن دون إعطاء أى معلومات عنها .

إن هذه الآثار - و آثار قيام الرئيس الغرناطي، المنداري، بإعادة إنشاء تطوان - تستحق عمليات الترميم والحفظ، كشهود على تاريخ المدينة.

تنتهى إلى هنا الدراسة المنشورة عن سجون تطوان. يجب إضافة شيء قليل من جديد، من وجهة النظر الأثرية، لأنه لم يعاد فتحها أو فحصها، ولذلك لم يتم القيام بدراستها بعد.

وصلت إلى أيدينا بعض النصوص القليلة، الكثير منها غير منشور، مع إشارات قليلة عن السجون المذكورة، منذ أن نُشرت الدراسة السابقة.

تؤكد أخبار محددة بعض وجهات النظر المعروضة حينئذ. لم يكن كل العبيد المسيحيين يبيتون ليلاً في السجون، لكن كانت هناك أماكن أخرى، وأيضاً بيوت خاصة، حيث كان الأسرى يقضون حياتهم.

من الممكن أن يكون الأسرى الأكثر حظاً هم الذين كان ملائكتهم يسخرونهم في نوع من الأعمال المنزلية، أما الأكثر شقاءً فهم الذين كانوا يوظفون نهائياً في خدمات وأعمال عامة و يقيمون ليلاً في السرايب.

هل كانوا يذهبون جميعهم مثقلين بالسلاسل؟ نفترض أن ذلك كان يعتمد على كونهم عبيداً لجماعة أو لفرد و على نوعية المالك، و على ظروف أخرى.

الانطباع العام هو وجود استخدام معمم للسلاسل فى الأقدام لكل الأسرى تقريباً، مع الأخذ فى الاعتبار، كما يقول أحد النصوص فى ذلك العصر، أن قرب المواقع المسيحية كان يجعل الهرب أكثر سهولة لهؤلاء المساجين الذين يتوقون إلى القيام بمغامرة^(١٦).

نجد الاستشهاد الأول، بترتيب زمنى، لعبدٍ فى تطوان بسلاسل فى قدميه، فى افتداء عام ١٥٢٣ . و يتعلق بصبى عمره عشرة أعوام، لا يؤخذ منه قسم، بسبب عمره، بل يقوم ثلاثة شهود بذلك بدلاً منه، كانوا رفقاءً له فى المحنة، شهد هؤلاء الشهود أنهم رأوا الصبى فى تطوان بغير قيدٍ فى قدمه، لم يتحدد شيء آخر، ولا من كان مالكة ولا حتى من أين أتى.

يقال عن عبد آخر، تم افتدائه فى نفس هذا العام، كان أسيراً فى تطوان فى منزل فلان، على عكس الأغلبية حيث يُحدد، "تحت قبضة فلان"، لا نعرف ما إذا كانت هناك رغبة بالفعل فى تمييز هؤلاء الذين كانوا موجودين فى منزل أسيادهم، عن هؤلاء الذين كانوا يذهبون إلى السجون، ولا من كان يحمل سلاسل ومن لم يكن يحملها^(١٧). أكد أحد الكتّاب بصورة قطعية أنهم كانوا يلزمون كل أسير بأن يجر فى قدميه سلسلة ثقيلة من الحديد، ولا يتحرر منها أسير بسبب العمل الشاق ولا الطفل ولا الشيخ ولا المريض^(١٨).

نحن نتساءل عما إذا كانوا يضعون القيود أيضاً للنساء الأسيرات، هذه المعلومة لم تظهر فى أى من الوثائق التى درست، ربما لأن الأسيرة كانت تعمل بالأعمال المنزلية وكان يُعتقد أنها غير قادرة على القيام بمغامرة الهروب.

بهذه الطريقة لم نستطع التأكد من وجود أسيرات فى السجون.

يشهد كاتب معاصر على الاستخدام المتسع للسلاسل فى الجزائر(العاصمة)، مع السماح باستشفاف بعض الاستثناءات مع ذلك.

كان يوجد فى الجزائر العاصمة أسرى يجدفون، فى السفن ذات المحرك الكبير التى كانت تحت تصرف الأتراك، الشيء الذى لم يكن يحدث فى تطوان أو نادراً جداً ما كان يحدث.

لكن، لا يضعونهم جميعهم للتجديف، كان الباقون يُتركون لخدمة المدينة وبيوتها وحدائقها وكانوا يُحضرُون الكثيرين منهم بالسلاسل والحديد ... وينامون فى السجون ... وكان الكثيرون يحملون على ظهورهم حطباً وهم مكبلون بالسلاسل، ويحملون العجين لخبزه فى الأفران، ويكنسون ويغسلون بطريقة مستمرة جداً صحنون الدار^(١٩).

هناك مظهر مشترك فى الجزائر وتطوان يقدمه راهب من جمعية السيدة العذراء، كانت جمعيته تعرف الكثير عن الحياة العادية للمسيحيين فى الأسر وعن السجون والسلاسل.

ربما لم يكن أحد الصبية الذى كان عمره ١٢ عاماً يحمل هذه السلاسل ويوضع فى السرايب، حيث أنه أسر فى سن السادسة، وكان فى سلطة أحد فقهاء تطوان، ولم يكن الفقيه يريد بيع الصبى، ولا حتى يريده أن يتحدث مع المسيحيين، ونظراً لتعلم الصبى عقيدة الإسلام، كان الفقيه يوجهه، فيما يبدو، لكى يخلفه فى عمله وتكبد انتزاع الصبى من الفقيه واعطائه الحرية مجهوداً كبيراً^(٢٠).

حدث هذا فى عام ١٥٤٨، بالمصادفة فى نفس العام الذى مات فيه الأب فرناندو دى كونتريراس فى إشبيلية، وكان ذلك الراهب واحداً من المفتدين الأكثر مهارة وعالمًا بالسجون وبعالم الأسرى، إن أخباره لم تأت إلينا مباشرة وإنما عن طريق كاتب سيرته، بعد ثلاثين عاماً من وفاته.

حدثت، بعد ذلك فى عام ١٥٧٨، معركة القصر الكبير حيث وقع كل الجيش المسيحى أسيراً، ونُفذت فى العام التالى ١٥٧٩ واحدة من عمليات الافتداء الأكثر ثراءً فى ذلك العصر.

حدث فى هذا الافتداء أن أحداً ما، دفع ثمن افتدائه بالفعل، وكان عائداً من فاس إلى الساحل، ماراً بتطوان، واحتجزه قائد هذه المدينة، بحجة كونه نبيلاً، لكى يدفع بدل افتداء. لم يكن القائد يحتفظ بهؤلاء الأسرى اليائسين، فى السجون ولكن فى القسبة، ربما كدليل على الملكية الخاصة^(٢١).

يحتمل أن السجون كانت عبارة عن نوع من المستودعات العامة حيث يمكن لأى فرد لديه "بضاعة" كهذه، أن يودعها هناك، بمصاريف أقل، وكان إيداع مجموعات العبيد أكثر توفيراً.

كان المال يتحكم فى تصرفات مالك العبد، أكثر بكثير من الرحمة والإنسانية، وهذا ما يمكن استنتاجه من التسجيلات التى قام بها كُتاب أى افتداء. تم الاتفاق، فى عام ١٥٨٣ على توفير طعام للأسرى وأحذية وأشياء أخرى كان لها احتياج، بسبب خروج بعضهم عرايا^(٢٢).

لم يكن يبالغ ذلك الراهب الذى كتب فى القرن السابع عشر السطور التالية:

لم يكونوا يفرغون أبداً من العمل، لأنه إذا لم يكن لدى المالك شىء يشغلهم فيه، كان يلزمهم بالذهاب لكسب قوتهم ... أو أن يعملوا فى أعمال أصدقائه أو جيرانه وكانوا يقولون لهم فى كثير من المرات أن يبحثوا عن القوت الضرورى لهم، وهكذا عاشوا كالحرباء التى تققات من الرياح ولهذا كانوا جميعاً ضعفاء مستهلكين ومشوهين ... كانت الأرض هى فراشهم وأحياناً كثيرة كانت أعضائهم المكروبة تستريح على قطع من الحصير، ولم يكن هناك مالك رقبة يقول للعبد المريض ماذا يؤلك؟ أو كيف حالك؟ أو أتريد شيئاً؟ ... كانوا يجعلونهم يشتغلون إذا كانوا أصحاء ... وإذا تعبوا وأنهكوا وطرحوا أنفسهم على الأرض كانوا ينهضونهم بعصا غليظة^(٢٣).

نتخيل الحرارة أو البرودة التى يمكن أن يشعر بها العبيد فى السجون واستعدادهم للعدوى والمرض. كان الكثيرون، كما تشهد الكتابات، يموتون قبل أو أثناء أو بعد الافتداء.

أهتم الأب كونتريراس بالذين كانوا يموتون قبل ذلك وكان يدفنهم في قبور تليق بهم، وقد نجح الأب في شراء قطعة أرض من السلطات، وخصصها فقط لدفن العبيد الذين كانوا يموتون في الأسر.

عُرف هذا المكان باسم ثيبويينو Cebollino وكان موجوداً بجوار المدفن الإسلامي، وفقاً لما يذكره كاتب سيرة الأب الجليل.

نُكر هذا المدفن المسيحي "ثيبويينو" في إحدى وثائق الافتداء، وعلى سبيل المثال في مخطوط عام ١٦٤٥ يمكن ملاحظة: وجد ثلاثة أسرى أمواتاً ورأوهم يُدفنون في المدفن حيث يتم دفن الأسرى المسيحيين في مدينة تطوان، وكان يسمى الثيبويينو^(٢٤).

كان بعض التعساء يموتون في تطوان، بعد دفع ثمن افتدائهم، أي عندما يكونون بالفعل أحراراً، توجد في عام ١٥٧٩ بعض حالات سوء الحظ هذه^(٢٥).

كانت حالة هرناندرو دي أتينثا هي الأكثر إيلاماً، حيث مات في جبل طارق، بعدما عبر المضيق والأرض الإفريقية، عندما لم يتبق له سوى السير إلى بلده^(٢٦).

كان رهبان جمعية الثالث المقدس يعرفون أيضاً ما يخصهم فيما يتعلق بهذه الموضوعات، ففي افتداء نفذه رهبان هذه الجمعية في تطوان أدلى كاتب الافتداء بشهادة في ٨ يونيو ١٩٢٥، قال فيها "في هذا اليوم، نزل الأخ سيبيستييان دي لا مادري دي ديوس مع الكاتب نفسه إلى السجون، حيث زارا الكثير من الأسرى والعديد من الذين كانوا يوجدون فيها وهم مقيدون بسلاسل من حديد، وعانقهم كلهم وقبل أقدامهم. وكان القائد أندريس أرانا من سبته شاهداً على ذلك^(٢٧).

لم يكن رجال الدين ينزلون دائماً إلى السجون، التي كانت تستخدم حينئذ كمخزن خفي لهؤلاء العبيد الذين كان يتأجل بيعهم. هذه هي الحالة التي حدثت في ١٦١٧ في عملية افتداء فرانثيسكو أورتادو Francisco Hurtado (من مدريد)، التي قام بها الأب أورثيث، وكانت روايته للحدث كالتالي:

كان هذا الأسير من القائمة التى أحملها، ولم أستطع اكتشافه فى أى مكان، عندما دخل إلى صبى من الباب فى صباح ما، وكان منهكاً من الجوع، ويرتدى صدره و أتى معه مسلم عجوز، كان- كما نرى - هو السجنان الذى كان يملكه لحسابه، والذى أعطاه من نصيبه اليومى الضعيف بعض النقود، من العملة المرابطية، لكى يتركه يأتى ليرانى. قال لى إنه يدعى فرانتيسكو أورتادو، وإنهم لم يكونوا يتركوه يخرج من السجن طوال الوقت الذى كانوا فيه فى تطوان، لأن مالكة، بوردان، كان يقول إنه لا يريد أن يفترس أى أحد على وجه الخصوص، لأنهم لم يفترسوا له اثنى عشر أسيراً كان يملكهم. تم تحديد سعر هذا الشخص المخصوص بمائة دوقية، خارج صدقة الافتداء. طلبت من السجنان أن يقدم لى خدمة و أن يتركه لى فى ذلك اليوم لكى يأكل معى. خرج مسروراً جداً بعدما أعطيته ريالين^(٢٨) .

ظهر ابن عائلة بوردان هذا، واسمه حامد، فى تجارة شراء وبيع العبيد المسيحيين، منذ الأعوام الأولى للقرن السابع عشر ويحتمل أن يكون متخصصاً فى هذا المجال، كما ينعكس ذلك فى رواية الأب أورتيث، وكان يستخدم السجنون كثيراً. لقد رأيناه فى أعوام مختلفة ١٦٠٧^(٢٩) ، ١٦٠٩^(٣٠) ، و ١٦١٤^(٣١) . فى هذه الوثيقة الأخيرة باع ٢٣ عبداً، الأمر الذى يجعله فى زمرة الملأك الكبار، الذين كانوا قادة وحكام المدينة. لجأ رجل الدين إلى واحد منهم، بالتحديد إلى ابن على، لكى يصحح الخطأ الذى ارتكبه هذا الأسير.

حكى الأب أورتيث ذاته واقعة أخرى حدثت فى عام ١٦١٧ ، توضح يأس وغضب الذين كانوا يبقون دون افتداء.

...كنا عاندين من توديع القائد النقسييس، وذاهبين من شارع كان فيه أحد السجنون^(٣٢)، التى خرج منها بعض الأسرى، كانوا يبدون كالشياطين ، وكانوا يسموننا لصوصاً وخونة لأننا لا نفتدى إلا الملحدين و نوى النفوذ^(٣٣) . رمونا بالحجارة وقد دفعوا ثمن فعلتهم غالياً فقد علم المقدم بما حدث فأمر بضربهم و طرد السجنان من عمله ...^(٣٤) .

كان هذا الغضب ورد فعل هؤلاء التعساء مستمراً طوال تاريخ الأسر والافتداءات، وهو الشيء الذى يمكن فهمه إلى حدٍ ما على كل حال .

بعد نصف قرن من هذه الأحداث التى رواها أحد رهبان جمعية السيدة العذراء، كتب راهب آخر من نفس الجمعية:

أنا لا أعرف أن أبالغ فى تصوير الألم العظيم الذى بقى فيه هؤلاء الأسرى المكروبين الذين لم يشملهم الافتداء. الأسف و المشاعر التى أظهروها، كم من الحسرات والدموع التى سكبوها! هذا هو ألم وعذاب الأسرى الذين بقوا، وهم يرون خروج الآخرين ... كان ألماً و عذاباً فى غاية القسوة حتى أنهم انفجروا فيما بعد فى الشكاوى ضد العقل و المنطق و ارتد الكثيرون منهم، وهناك آخرون ما إن ولى المفتدون ظهورهم، حتى كتبوا شكاوى ضدهم لأنهم لم يريدوا افتداءهم ... (٣٥) .

هناك فترات كان أول ما يفعله المفتدون فيها، عند الوصول إلى تطوان، وبعد تحية السلطات، هو النزول إلى السجون، للتعرف على الأسرى، والاتصال بهم وأخذ معلومات عن الحالات الأكثر إلحاحاً، لافتدائهم المباشر. هكذا نرى الأب كونتيريراس و هو يفعل ذلك، وهكذا يبدو أن هذا كان يحدث أيضاً خلال القرن السادس عشر.

فيما بعد قام حكام المدينة، بالتحديد القادة والمقدمين وعائلاتهم، بإلزام رجال الدين بافتداء عبيدهم فى المقام الأول وبعد ذلك عبيد الأفراد، وبذلك فإن الغرباء أو الشيوخ أو المرضى كانوا يباعون بسعر منخفض لهذه السلطات، حيث كانت تعيد بيعهم بسعرهم العادى إلى المفتدين. كانت صفقة ممتازة، كما نرى، و كان يحارب ضدها المفتدون الذين كانوا يحملون تعليمات صارمة من المجلس الملكى وأيضاً من رؤساء الأقاليم فى الرهبانية، توصلوا إلى اتفاقيات، يشترون بمقتضاها من المقدم أو الحاكم عدداً محدوداً من العبيد، لأنه كان يمكن أن تحدث حالة نفاذ نقود وبضائع الافتداء فى الشراء من المقدم فقط. و يبقى ملاك العبيد من الأفراد دون تسويق "بضائعهم" و تقوم باعتراضات غاضبة و بثورات، كتلك التى حدثت فى ٨ من ديسمبر ١٦٣٥ و كان من شهودها الراهب دييغو دى بيلاسكو Diego de Velasco والراهب بالتاسار دى فيغيروا Baltasar de Figueroa، إلى جانب الكاتب بيلتران دى

نانكلاريس Beltrán de Nanclores الذين أنهوا عملهم واستطاعوا بمشقة الخروج إلى سبئة (٣٦) .

حدثت، بالتالي، المساومات والاتفاقيات الأولية، عندما استطاع الرهبان الاتصال بالسلطة التطوانية العليا، وكان يجب أن يحارب المفتدون كثيراً لكي يحرروا العدد الأكبر المتاح من الأسرى ذوي الشأن، داخل حدود النقود التي كانوا يحملوها.

من هنا فإن التعساء الذين كانوا موجودين في السجون ولم يعرفوا شيئاً عن هذه المناقشات ونتائجها، التي كانت تخصهم مباشرة، قد عاشوا لحظات من التوتر البالغ عندما كانوا يرون افتداء أناس يرون أنهم أقل حقا منهم في الافتداء.

كان النظام في تلك السجون تحت الأرضية متعددًا، وكان يعتمد على النظام السياسي الاجتماعي السائد، لكن بالأخص، على الأشخاص الذين كانوا يشغلون مناصب مسئولة، وكان للسجان، المسمى أحياناً بقائد السجون، تأثير كبير في معاملة هؤلاء التعساء.

ربما كان لديه مكان للمراقبة بجانب أو قريباً جداً من قضبان مدخل الخنادق، وربما كان لديه مفتاح وسلم لكي ينزل إلى تلك الخنادق. من المحتمل جداً أن شارع ميتامار الحالي، حيث كانت توجد قضبان فتحة المدخل في أرضيته، كان عرضه في القرون الماضية أكبر من الموجود في أيامنا، وربما كان هذا المكان ميداناً صغيراً، وكان لحارس السجون سكن دائم فيه.

بطبيعة الحال فإن التحسن الأكثر أو الأقل في نظام السجون التعسفي للمسجونين هناك كان يعتمد، في أغلب الأحيان، على شخصية واستعدادات السجان.

ليس نادراً أن نجد في الوثائق، سجل نفقات يشير إلى إكراميات يعطيها البعض إلى الحارس، لكي يحسن من معاملته.

في عام ١٦٣٣ ، أعطى للسجان ١٦ ريالاً لكي يترك المسيحيين يخرجون. يسجل قيد آخر لنفس الوثيقة ٣٠ ريالاً أخرى تم إعطاؤها إلى حراس أبواب تطوان لكي يسمحوا بخروج الأسرى الذين يذهبون إلى الحقل أو النهر للاغتسال و هم أحراراً.

يسجل قيد آخر أيضاً، لنفس العام ١٦٣٣ ، مبلغ ٤٨ ريالاً أعطاه الأب المفتدى، قبل رحيله، إلى المساكين الذين بقوا فى السجون لكى يعالجوا ضيق حياتهم. هذا المبلغ كان يشتمل على جزء غير محدد للإنفاق على الزيت والشمع للمذابح التى كانت موجودة فى السجن^(٣٧) . كانت المذابح تستخدم بشكل دائم، بتمثيلها وكل شىء، كما سنرى فيما بعد، فى إحدى المناسبات، تسبب سهو أو تهاون الحارس فى أذى للقسيس الذى يقوم بالخدمة الدينية ولأحد الأسرى. حدث ذلك للأب المبجل الراهب ماتيو روبليدو Mateo Robledo، فى عام ١٦٦١، وهو يقيم قداساً للأسرى، داخل السجن، (كان كل يوم يذهب ليلقى الموعظة و يعطى ريالين من الفضة للسجان حتى يتركه يدخل) من قضبان السجن. كانت هناك فتحة تضى الكنيسة الصغيرة الموجودة، (والتي كان المسيحيون يحافظون على جمالها من حيث الإضاءة والزينات ، وكانوا يحتفلون بكل أعياد العام، وأعياد المسيح وأمه، والقديسين الآخرين، حتى أنهم انفقوا خمسة وسبعون بيزو على الزينة)، كانت الأحجار التى ألقتها على القسيس كثيرة، فاضطر للهروب و نادى على السجان، وطلب منه أن يلقي المفتاح على الباب الثانى للقضبان ، وقد أساءوا جدا معاملة أحد الأسرى فى هذه المناسبة^(٣٨) .

تسببت حوادث مثل هذه فى تحذيرات و تهديدات من قائد سبته العام، و كان فى هذه الأعوام هو ماركيز لوس أركوس إى تينوريو los Arcos y Tenorio الذى كتب إلى الحاكم التطوانى، حيث تحداه و أشار إلى أنه يمكنه الذهاب حتى أبواب تطوان وإشعال النار فيها.

فى ديسمبر ١٦٣٥، يُسجل فى نفس المخطوط الذى يشهد على ثورة فى تطوان، بسبب الافتداءات، قيدان للنفقات المتعلقة بالخنادق تحت الأرضية.

كان الأول يحتوى على ١٨٠ ريالاً، تم منحها كمساعدة لبعض الأسرى من الوجهاء، كالقادة والملازمين، الذين بقوا فى السجون فى حاجة ماسة.

كان القيد الثانى من ٦٤ ريالاً، كوفى بها قائد السجن لأنه ترك الأسرى يخرجون فى كل المرات التى طلب منه ذلك^(٣٩) .

لم تكن هذه الهبات متكررة، ومن الأكيد أنها كانت تتعلق دائماً بوجود رجال الدين كانت فى تطوان، وكانت زيارات الرهبان سنوية، وربما كان يمكن أن تتأخر حتى أربعة أو خمسة أعوام. لم يكن وصول المفتدين يشجع آمال التحرير الممكن فحسب، ولكنه كان يحسن إلى حدٍ ما المعاملة التى يتلقاها العبيد البائسين، الخاضعين لهوى أسيادهم أو لهوى الحارس، أو عندما يكونون هدفاً لشباب المنطقة الذين كانوا يرمون مشاعل موقدة وقشاً ويحرقون ما بين قضبان المدخل فى الخنادق، ويتسببون فى اختناقات ويصعبون بشكل أكثر من الظروف الصحية السيئة التى كانوا يوجدون فيها.

كان الرهبان يشدون من أزر الأسرى كلما كانوا يستطيعون، وإذا تزامن أحد الأعياد الدينية مع وجودهم كانوا يحاولون الاحتفال به علناً، حتى فى السجون نفسها.

فى اليوم الخامس من إبريل ١٦٤٥، ذهب الراهب ماتياس تربينيو -Matías Treviño- والراهب خوسيه دى توليدو José de Toledo، الذى وصل المدينة فى اليوم السابق، إلى السجن لرؤية الأسرى، نزلوا وأعطوا حسنة من ريالين إلى السجنان لكى يتركهم يدخلون.

عندما دخلوا السجن نفترض اضطراب وسعادة هؤلاء التعساء، الذين وزع الآباء المفتدون عشر ريالات على من هم أكثر احتياجاً بينهم . فى تلك الأيام كان يُحتفل بالأسبوع المقدس وأراد رجال الدين أن يتذكر الأسرى هذه التواريخ المحددة. أرسلوا طعاماً إلى السجن لكل الأسرى فى الخميس المقدس، وفى أحد الشعانين وثلاثة أيام عيد القيامة. استهلكوا ثلاثمائة رغيف عيش يومياً، و٢٠ رطلاً من السمك فى أول يومين، و١١٥ كيلو جرام من لحم الأبقار فى الأيام الثلاثة للحوم، وأنفقوا، فى الإجمال، ١٣٦ ريالاً من الفضة، دونت فى سجل كاتب الافتداء، ألونسو دى كاريون Alonso de Carrión^(٤٠). وقبل رحيلهم منحوا السجنان مرة أخرى ٤ ريالات مكافأة للمعاملة الحسنة التى يعامل بها العبيد.

بالإضافة إلى ذلك، كانوا طوال الوقت الذى أقام فيه رجال الدين فى المدينة يلبنون احتياجات هؤلاء الأسرى الذين كانوا مرضى، الأمر الذى ألزمهم بمصاريف إضافية من ٢٨ ريالاً . كان كل هذا مدوناً بطبيعة الحال فى قيد النفقات، مع كشوف الحسابات التابعة له.

فى العام التالى، ١٦٤٦ ، زار أحد الرهبان الفرنسيسكان - ويدعى الراهب فرانثيسكو دى لا كونثيثيون - Francisco de la Concepción - مراكش كسفير لفيليبى الرابع، و زار هذه السجون، وتلا القداس فيها فى ٢٥ يوليو، أكد مؤرخ هذه السفارة أنه لم يجد أكثر من ١٤ أسيراً إسبانياً فى كل المملكة المغربية (٤١) .

يحتمل أن يكون مخبروه قد خدعوه، لأنه فى نفس هذا العام، أفتدى فى تطوان ليس أقل من ١٠٣ أسيراً مسيحياً إسبانياً (٤٢) . قام بهذا الافتداء الأخير رهبان من جمعية الثلاث المقدس: الراهب مارتين غاليندو Martín Galindo ، والراهب ديفو باتشيكو Diego Pacheco والراهب خوسيه إينريكيث José Enríquez . سيكون هؤلاء أبطالاً لأحد الاحتفالات غير العادية من ناحية الحدث والظروف.

بعد وفاة ولى العهد، الأمير بالتاسار كارلوس، فى التاسع من أكتوبر من ذلك العام ١٦٤٦، رأى الراهب مارتين أن الوقت مناسب، حيث أنه موجود فى تطوان، للاحتفال بالمأتم الجنائزى لابن فيليبى الرابع الوحيد، وهكذا فعل ذلك فى السجون، بكل الوقار الممكن الذى دونه كاتب الافتداء.

أشهد، على الطريقة التى تمت بها جنازة الأمير سيدنا الموجود فى السماء ... فى السجن وفى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر من عام ١٦٤٦ ، أؤكد أنا، غريغوريو أباركا، كاتب الملك المبجل، وأشهد أنه فى هذا اليوم قامت جنازة الأمير سيدنا بالتاسار كارلوس وأقام القداس الأب الراهب مارتين غاليندو، وساعده فى ذلك الآباء الراهب فرانثيسكو ماردونيوس Francisco mardonellos من جمعية سان فرانثيسكو والأب خوان دى بورغوس Juan de Burgos من نفس الجمعية والراهب أنطونيو باتيفاس Antonio Vanegas والراهب بدرو دى أغيلار Pedro de Aguilar، والراهب

ألونسو مورينو Alonso Moreno من نفس جمعية سان فرانسيسكو والاب الراهب بلاس دى بينيا Blas de Pina من جمعية سان فرانسيسكو دى باولا، الذى ألقى مواعظ فى السجون، فى وجود الكثير من الأسرى، الذين كانوا موجودين مثل السيد خيرونيمو ألباريث دى فيغيروا إى كوردوبا Jerónimo Alavarez de Figueroa y Córdoba، فارس جمعية سانتياغو وكثير من الأسرى الآخرين الذين كانوا موجودين فى السجن ولإثبات ذلك أوقع.

غريغوريو أباركا - توقيع (٤٣) .

تقابل خوان دى فونسيكا Juan de Fonseca والراهب ماتيو تريبينيو والراهب خوسيه دل إسبيريتو سانتو José del Espiritu Santo ، مفتدون، فى تطوان، فى صيف عام ١٦٤٨، عندما نزلوا إلى السجن، إلى جانب كاتب الملك، خوان ألونسو دى مولينا، الذى أكد بالسطور التالية الأفعال التى نُفذت هناك:

فى يوم السبت ١٦٤٨/٦/٢٠ فى الصباح ، ذهب الآباء المفتدون إلى السجن للزيارة والتفريغ عن الأسرى واستحثوهم لكى يواظبوا على العقيدة ويؤدوا أعمالهم بصبر. أقام هؤلاء الآباء القداس فى السجن. أذاعوا وعداً بالغفران للآب المقدس إنيوثينثيو العاشر وأخطروا الأسرى بأن يستعدوا للفوز بذلك، عن طريق الاعتراف وتناول القربان، و أن يدركوا الشعور بأنه لا يجب افتداء أى منهم حتى يقوموا بالأفعال الواجبة للفوز بهذا الوعد، وبالتالي، اعترفوا كلهم وتناولوا القربان، رجالاً ونساءً (٤٤) .

بالرغم من هذا الاستشهاد فإننا لا نعرف بالتأكيد ما إذا كانت النساء قد ذهبن إلى العبادة فى السجون مصادفة أو أنهن كن كأسيرات فيها أيضاً.

بالتأكيد، فى هذا العام ١٦٤٨، قيد الكاتب بعض النقود المصروفة فى إنشاء ما كان يعرف بالمذبح الأكبر لكنيسة السجون التطوانية.

ليس صحيحاً أنه لم تُقم صلوات فيها مسبقاً، لأننا رأيناها مسجلة فى عدة مخطوطات، مثل مخطوط عام ١٦٣٣، أو فى مخطوط عام ١٦٤٦، أو فى الجنازة الاحتفالية، التى أقيمت فى السابع عشر من ديسمبر من نفس هذا العام، ولكننا كنا

نجهل تاريخ إنشاء هذا المذبح الأكبر الذى اكتشفه مونتالبان باستخدام معوله، ولا زلنا نستطيع تذكره فى الصورة المحفوظة فى مكتب وأرشيف تطوان.

يقول النص الذى يكشف لنا ذلك فى عام ١٦٤٨، ما يلى:

بُنِى فى السجن مذبحٌ لإقامة قداس، وبه صندوق كبير لحفظ الزينات، وبه أبوابٌ تُغلق.

أُنشئ المذبح فى مشكاة بها صورة سيدتنا مريم العذراء. وفى الأبواب، التى صنعت لغلِق المشكاة، رُسِمت فى الجزء الداخلى بها، صورة القديس بدرو نولاسكو والقديس رامون San Pedro Pedro Nolasco Y San Ramón . تكلف كل ذلك ٣٦٨ ريالاً .

توجد كشوف أخرى لبعض الحسنات التى وُزعت على الأسرى الذين بقوا دون تحرير، من بينهم بعض رجال الدين، وبهذا بقت العبادة مؤمنة، على الأقل مؤقتاً (٤٥).

لا شك أنه، قبل سد الأماكن المقدسة، عمل آخر المسيحيين المقيمين فى السجون على سحب الصور التى تركها الرهبان، بجانب الزينات ولوازم الطقوس الأخرى. حينئذ كانت صور السيدة مريم العذراء والقديس بدرو نولاسكو والقديس رامون تختفى من السرايب، التى تركها هناك الرهبان باعتناء كبير فى ١٦٤٨ .

ربما مرت أعوام كثيرة، منذ ذلك العام ١٦٤٨، دون أن يتم أى افتداء أو زيارات لرجال الدين إلى أسرى السجون، لأنه فى الصوم الكبير لعام ١٦٥٤ حدثت واقعة كشف عنها مخطوط آخر جديد من القرن الثامن عشر، كان بالإضافة إلى ذلك، هو الاستشهاد الوحيد عن السجون التطوانية.

كان يحكم سبته حينئذ السيد خوان فرنانديث دى سوتومايور Juan Fernandez de Sotomayor وليما ماركيس دى تينوريو Lima Marqués de Tenorio وكان يحكم تطوان أحد أفراد عائلة النقسييس، نفترض وجود علاقة طيبة بينهما، و لا يفترض العكس نظراً للحدث الذى يرويه المؤرخ كما يلى:

علاوة على عناء الأسر، كان العبيد المساكين فى تطوان يتألمون من عدم وجود قسيس يكشفون له عن خبايا قلوبهم المظلومة، وخاصة فى وقت الصوم الكبير المقدس الذى كان يمر فى عام ١٦٥٤ . كتبوا إلى سبته، بتوسلات موقرة، و طلبوا رجل دين، يخفف عنهم هذا الألم العظيم. كان ديفغو كاييرو Diego Caeiro، رئيس شمامسة هذه الكاتدرائية هو من تقدم، بحماس رسولى لأداء هذه العملية الخيرة طواعية. بعد أن جمع بعض الحسنات وإلى جانبها ما استطاع من منزله وحصل على الأمان، ذهب إلى تطوان ودخل إلى سجنها، وفرج عنهم وعلمهم وجعلهم يعترفون ويتناولون القربان، ووجد من بين الأسرى - بالإضافة إلى آخرين- الراهب بلاس دى بينيا Blas de Pina، عضو فى جمعية سان فرانثيسكو دى باولا والقائد مانويل دى ميدينا Manuel de Medina وأنطونيو باثان Antonio Bazán ومانويل دى ليديسما Manuel de Ledesma وبابلو دى أغيلار نغريتي Pablo de Aguilar Negrete وماتيو ريبيرو Mateo Ribeiro وميغيل كارلوس Miguel Carlos، الذين كتبوا الالتماس^(٤٦) .

نرى الراهب بلاس دى بينيا أيضاً فى السجون وهو يلقي مواعظ فى المآتم الجنائزية للأمير بالتاسار كارلوس، قضى الراهب المسكين ستة أعوام فى هذه السجون، ولا نعرف ما إذا كان هذا إرادياً أم إجبارياً، لأن الجمعية التى كان ينتمى إليها قد أنشئت بهدف وحيد وهو الاهتمام بالأسرى، حيث تتبع روح مؤسسها الذى وضع نفسه فى الأسر مكان عبد لتحريره، لم تمر هذه الفترة دون افتداءات، ففي نفس العام ١٦٥٤ أفتدى فى تطوان ١٢٣ أسيراً وبعد ذلك بعامين تم افتداء ١٢٨ آخرين، وتمت العمليتان عن طريق جمعية الثالوث المقدس^(٤٧) .

بداية من عام ١٦٦٠ فإن الشروط التى كانت تنفذ بها الافتداءات قد بدأت فى التغير بطريقة ملموسة. لم تعد تطوان هى السوق الشمالى الوحيد تقريباً للعبيد لأن السيد الحاكم فى الشمال المغربى، خضير غايلان، فرض قواعده وجعل المفتدين يذهبون إلى أرسيلة لشراء من كانوا فى سلطته^(٤٨) .

هكذا حدث أيضاً في عام ١٦٤٤^(٤٩) ، ولكن في عام ١٦٦٨ ظهرت سلطة جديدة أخرى في الوثائق. هي سلطة مولاي رشيد Arci ، ملك فاس وتطوان^(٥٠) .

ألزم مولاي راشد، مؤسس مملكة العلويين أو فيلالى، والذي كان يتولى الحكم آنذاك، رجال الدين أن يذهبوا إلى فاس، بالرغم من استمرار ملاك العبيد التطوانين، وكلهم تقريباً موريسكيون، في بيع عبيدهم. ولكن الملك الجديد هو الذى كان يعطى جواز المرور ويفرض ما يجب فعله فضلاً عن بيع عبيده عن طريق سماسرة.

انتهت للأبد أجواء الاستقلال أو حكم الأقلية الكامل تقريباً.

في وثيقة عام ١٦٤٧ ظهر خليفة مولاي راشد - أخوه مولاي اسماعيل - الذى أعلن نفسه سلطاناً في مكناس، حيث كان حاكماً، عندما مات الحاكم السابق في ١٦٧٢ . تأخر الملك الجديد أكثر من ستة أعوام في هزيمة منافسيه، ولكن ليس بشكل نهائى، لأن فترة حكمه كانت عبارة عن صراع صريح من البداية للنهاية.

خلال مرحلة أولى استمرت الأمور في الانفلات كما سبق. كانت الافتداءات تُنفذ في تطوان وفي سلا، وكانت السلطات والأشخاص يبيعون عبيدهم كالمعتاد. وبالتالي، استمر استخدام السجون التطوانية كمستودع أو مخزن للأسرى.

في مخطوط لعام ١٦٧٧، حمل رهبان جمعية الثالوث المقدس؛ الراهب ميغيل دى لوس ريبس Miguel de los Reyes والراهب خوان دى لابيستيائون Juan de la Visitación بين بضائعهم وممتلكاتهم، ثلاثة صناديق من قطع الفضة المنقوشة وفيها وعاء للقربان المقدس ولبات وكؤوس وصحون للقربان وشمعدانات وصوانى وحليات مختلفة لخدمة العبادة وإنشاء المستشفيات للأسرى المسيحيين من تطوان وفاس^(٥١) .

لكن سريعاً ما طلب مولاي اسماعيل لنفسه ملكية كل عبيد المملكة وتمركز الأسرى "التعساء" في مكناس.

نقول تعساء لأنهم كانوا قبل ذلك يخضعون لهوى أسيادهم ودائماً كانوا يشكلون عملة مبادلة لنقود أو بضائع، الأمر الذى كان يؤدي فى آخر الأمر إلى رعاية أسيادهم لهم حتى لا تلحق بهم أضرار، أما عندما أصبحوا فى أيدي مولاي اسماعيل، فقد أُلْعِقَ هو عن الاهتمام بهم، الأمر الذى أدى، بالإضافة إلى شخصية السلطان التى نسميها مختلة، إلى تدهور حالة الأسرى المسيحيين.

يُوجد أحد النصوص المؤرخة فى ١٦٩٣ يتضح فيها أن السجون التطوانية لم تكن حينئذ مخزناً للعبيد.

فى هذا التاريخ كان رجال الدين الفرنسيون الموجودين فى المغرب مضطهدين دون مبرر.

قد عانى الذين كانوا فى تطوان، وهم الأب الراهب خوان دى كريستو و الأب الراهب خوان دى سان ماتيو أكثر من الآخرين لأنهم كانوا أكثر انعزالاً، كانوا تحت سيطرة القائد الأكثر عظمة وقدرة لدى الملك ... أمر بوضعهم فى السجن، حيث يوجد المساجين الأكثر سوءاً وإجراماً وأن يعطوهم فى هذا الموقع المكان الأكثر قذارة واحتقاراً. وضعوهم فى المكان الأسوأ ... حيث كان قريباً جداً من المراحيض، فوق مستنقع قمامة، حيث لا يدخل النور وكانت هذه هى البيئة الفاسدة المظلمة التى يعيشون فيها.

ظلوا هكذا عدة أيام حتى رأوا أن الحبس قد طال فالتمسوا بواسطة التجار الكاثوليك وقنصل فرنسا، أن يتركوهم خفية ينظفون هذا المكان، ويرفعون القمامة ويحددون بالألواح وبيع بعض الطوب مساحة صغيرة تكون لهم زنزانة، على أن يكون كل هذا الاستعداد المبتكر فقط من أجل الاحتفال بالقربان المقدس ... استيقظوا بعد منتصف الليل بقليل، عندما كانت كل هذه الجماعة المجرمة غارقة فى النوم، وكونوا من نفس هذه الألواح التى كانوا يستخدموها كسرائر، مذبحاً صغيراً، وأحضر التجار لهم كل المؤن اليومية، وكانوا يقيمون القداس ... هكذا كان يفعل رجال الدين طوال أربعة أشهر^(٥٢).

أصبحت السجون الآن، فى الواقع، زنايات عامة. لم يعد فيها أسرى.

يؤكد نص آخر لنفس الكاتب هذا الافتراض، فعندما أسر، حوالى عام ١٧٠١ بعض جنود من المضيق، وضعهم قائد تطوان، فى السجن، مؤقتاً فقط، استعداداً لنقلهم إلى مكناس^(٥٣).

لم نجد أى نص يشير إلى السجون. إن الطريق من خلال المخطوطات، المتعلقة بالافتداءات بالأخص، قد وضعنا فى رؤية أليمة لماضينا الذى لا يجب أن نهمله. إنه يشكل جزءاً من تجربة تاريخية موجودة سواء شئنا أم أبينا. إنها موجودة بشكل ظاهر أحياناً، وفى أحيانٍ أخرى تختفى تحت الأرض كسجون تطوان.

الهوامش

- (1) LEÓN L'AFRICAIN: Description de l'Afrique. París 1956. I; 268.
- (2) Sources Inédites pour l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.) Espagne 1.a. 1: 115.
- (3) S.I.H.M. Portugal. IV; 300.
- (4) S.I.H.M. Portugal. IV; 302.
- (5) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del: Descripción General de África . Libro IV. Fol. 130v.
- (6) ARANDA, Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692; 481.
- (7) S.I.H.M. Portugal. IV; 307-380.
- (8) ARANDA; 480.
- (9) S.I.H.M. Portugal. IV; 300.
- (10) S.I.H.M. Portugal. IV; 300. Carta desde Tetuán el 30-11-1548.
- (11) S.I.H.M. Portugal. IV; 307.
- (12) DAWD, Muhammad. Tarj Titwan. Tetuán 1957; 91.
- (13) S.I.H.M. Portugal. IV; 377.
- (14) S.I.H.M. Espagne 1.a. 1: 111.
- (15) S.I.H.M. Espagne 1.a. 1: 119.
- (16) كان يُحتفظ بالأسرى الموجودين في القصر أو تطوان أو العرائش أو سلا في السجون المظلمة لكونها موجودة بالقرب من الحدود. أنظر:
- MENDOZA, HYERONIMO DE, Jornada de África. Lisboa 1607. Fol. 71.
- (17) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Secc. Consejos. Osuna Legajo 422. n.* 9.
- (18) CASTELLANO, Fr. Manuel. Apostolado Seráfico en Marruecos. Madrid- Santiago. 1896. Pág. 259.
- (19) GÓMEZ DE LOSADA, FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Madrid 1670. Págs. 91-92.

- (20) FRÍAS, Duque de: "Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958. Pag. 506.
- (21) Biblioteca Nacional de Madrid (B.N.) Manuscrito (Mss) núm. 6.569. Fol. 104 v.
- (22) B.N. Mss. 3.588. Fol. 32.
- (23) GÓMEZ DE LOSADA, FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Pag. 96.
- (24) B.N. Mss. 4365. Fol. 72v.
- (25) B.N. Mss. 6569. Fols. 107, 110, 110v, 111, 112, 114v. 117.
- (26) B.N. Mss. 6569. Fols. 136v.
- (27) A.H.N. Códices. Lib. 127 B. Fol. 10v.
- (28) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... Barcelona 1873. Pag. 284.
- (29) B.N. Mss. 2791.
- (30) B.N. Mss. 4390.
- (31) A.H.N. Cod. L. 124 B.
- (32) شارع ميتامار الحالى
- (33) الهاريون من المواقع القوية، مثل سبتة أو طنجة، كان يتم افتدائهم كأسرى لكى يعودوا إلى وطنهم. منع المجلس الملكى تحريرهم.
- (34), GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... Pág. 292.
- (35) GÓMEZ DE LOSADA, FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Págs. 119-120.
- (36) B.N. Mss. 3628. Fol. 105 y s.
- (37) B.N. Mss. 3819. Fol. 44v.
- (38) BAUER LANDAUER, Ignaáo. Papeles de mi Archivo. Relaciones de África (Marruecos). Madrid s/f. Tomo II. Págs. 258-259.
- (39) B.N. Mss. 3628. Fol. 57v y fol. 60.
- (40) B.N. Mss. 4365. Fol. 74.
- (41) CASTELLANO, Fr. Manuel. Apostoládo Seráfico... Pág. 385.
- (42) A.H.N. Códices. L. 134 B.
- (43) A.H.N. Códices. L. 134 B. Fol. 78v.
- (44) B.N. Mss. 3631. Fol. 28.

- (45) B.N. Mss. 3631. Fol. 116v.
- (46) B.N. Mss. 9741. Fols. 131v y 132.
- (47) A.H.N. Cod. L. 137 B y 136 B.
- (48) A.H.N. Cod. L. 138 B.
- (49) A.H.N. Cod. L. 140 B.
- (50) A.H.N. Cod. L. 142 B.
- (51) A.H.N. Cod. L. 144 B.
- (52) SAN JUAN DEL PUERTO. Fr. Francisco de. Misión historial de Marruecos. Sevilla. 1708. Págs. 760-761.
- (53) Id. Id. Pág. 812.

الفصل السابع

تطوان الموريسكية خلال القرن السابع عشر عائلة النقسييس

لا نستطيع قراءة تاريخ الشمال المغربى، فى القرن السابع عشر، دون أن نصادف اسم عائلة النقسييس، التى سيطرت عليه، عندما حكمت مدينة تطوان فى هذا الوقت، ولن نستطيع دون دراسة الموريسكيين فى المغرب، أن نعرف تلك المنطقة التى تمركز جزء كبير منهم فيها.

كانت هذه ثلاثية: تطوان، موريسكيون، نقسييس، العنصر الأول من المعادلة، وتشكل جزءاً مهماً من تاريخ المغرب ذاته، جنباً إلى جنب مع تاريخ إسبانيا فى هذه الفترة.

إن تطوان، المدينة التى أنشأها الغرناطيون المهاجرون، والتى استقبلت جزءاً ضخماً من المنفيين الموريسكيين فى القرن السادس عشر، سوف تستمر فى كونها أرض الميعاد بالنسبة للمطرودين بداية من عام ١٦٠٩.

لذلك فإن معرفة تاريخ المدينة سوف يعطينا تصوراً لمصير الموريسكيين فى المغرب، هذا التصور، حتى الآن، لا يمكن أن يكون كاملاً، ولكنه قريب إلى الواقع الذى عاشته تلك الأقلية المهمشة فى الأراضى الإفريقية.

ولذلك درسنا أولاً، منذ عدة أعوام، عملية الإنشاء ومؤسس أو معيد تأسيس بناء تطوان، منذ نهايات القرن الخامس عشر وحتى العقد الرابع من القرن السادس عشر، الذى تتزامن بداياته تقريباً مع موت هذا القائد الأول^(١).

استمرت عائلته أو ذريته على رأس الحكم فى المدينة حتى قرب العقد السابع من القرن السادس عشر، وحدثت مجموعة من الأحداث الخاصة جدا فى تلك الفترة التى أسميتها فى بعض المناسبات "عصر أو قرن المندارى".

بعد ذلك، وحتى نهايات القرن السادس عشر، هناك مرحلة معروفة قليلاً فى التاريخ التطوانى. فى تلك الفترة - وعندما فقدت عائلة المندارى وحسن، وهم الحكام الذين كانوا يأتون مباشرة من المملكة الغرناطية، حكم الأقلية الذى حققته - بقت الأحداث التى تعيشها المدينة مدرجة فى التاريخ العام للبلد، ولم يجعلها تستحق بعض السطور فى أخبار البلاد إلا كونها منطقة حدودية. يبدو أن المدينة سوف تدخل نهائياً فى المسار السياسى والاجتماعى المغربى، لكن سريعاً وعندما بدأ القرن السابع عشر، جددت ظروف البلد والموجات الجديدة من المهاجرين الإيجابيين الروح التى كانت تبدو منسية، ومرة أخرى تنفست المدينة هواء الاستقلال الخادع، مثل مركز استقبال الموريسكيين الآخر الذى تكون فى الجنوب، الواقع فى نطاق مدينة رباط الفتح، وهى سلا الجديدة أو الرباط.

بحثنا هذا التجمع الرباطى من الهورناتشيين(*) والأندلسيين، الذين كونوا جمهورية مستقلة فى عام ١٦٢٧، فى دراسة سابقة. يبقى لنا، إذن، دراسة تطور المجتمع الموريسكى التطوانى، فى القرن السابع عشر التى سنكمل بها النظرة الشاملة للموريسكيين فى المغرب، خلال القرن المذكور^(٢).

السوابق :

مرت فى تطوان بعض الأحداث، منذ عصر المندارى إلى عصر النقسيس، ولكن بقيت كلها مبهمه بسبب حدث جوهري لكلا ضفتي مضيق جبل طارق، فعندما دخل الربع الأخير من القرن السادس عشر حدث انقلاب فى علاقة القوات المغربية وشبه

(*) كان مسلمو هورناتشوس هم آخر الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا ، وقد عُرف عنهم تمسكهم الشديد بالإسلام وقوة شكيמתهم . (المراجع)

جزيرة إيبيريا ، وحدث ما هو أسوأ، نغنى التغير فى شخصيات الحكام، مما سيترتب عليه تغيير كل المستقبل القريب للبحر الأبيض المتوسط الغربى.

نوفر على أنفسنا الوصف والتعقيبات التى ليس هنا مجالها، ونقول باختصار إن الملك البرتغالى سبستيان قد انهزم بصورة مدوية فى معركة نهر مخازن Mejacen ، قريباً من القصر الكبير، فى اغسطس عام ١٥٧٨ .

هيا النصر للسلطان المنتصر، أحمد المنصور، مكانة واعتباراً عالمياً كان، فى الواقع، يفتقر إلى أساسات ذاتية. تترجم هذا فى داخل البلاد فى فترة حكم بها قليل من المعارضة، و قام مبدأ سلطة استمر، على الأقل ظاهرياً، حتى موت المنصور فى عام ١٦٠٣ .

إن هزيمة الملك البرتغالى دمرت، جذرياً وإلى الأبد، أحلام غزو فاس وبيئت صواب الملك الإسبانى الذى حكمها طويلاً.

اعتبر الموريسكيون، وعلى الأخص المنفيون منهم، أن الانتصار المغربى هو نصرهم. فى الحقيقة أسهم الجيش الأندلسى أو المغربى، الذى استخدمه السلطان فى نجاح الحملة العسكرية. حل المنصور مشكلة مصيره اللاحق، حيث استخدم الموريسكيين فى غزو السودان(*).

كان موريسكيو تطوان يعيشون مغامراتهم الحربية الذاتية، و يتصادمون باستمرار مع حامية سبتة البرتغالية. لم تكن العدة العسكرية الموريسكية صغيرة، وقد حددها مارمول، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، بأربعمئة فارس والى وخمسمئة جندي مشاة وحملة بنادق ورماة، وأضاف المؤرخ، أنه يوجد أكثر منهم بكثير بعد أن ثار مسلمو مملكة غرناطة^(٣) .

(*) لاحظ أن "السودان" هنا معناه الجزء الجنوبى من القارة الإفريقية وليس دولة السودان المعروفة اليوم . (المراجع)

تلاشى استقلال تطوان أمام توطيد السلطة المركزية، على الأخص بعدما يسرت المنافسات والصراعات الداخلية تدخل السلطان وتعيينه لقائد يراقبهم، معتمداً في ذلك على حامية عسكرية أجنبية^(٤).

مع ذلك كان يوجد، في حالة تطوان، عاملان سهلا وجود جنس محارب انتهى بفرض زعيمهم. كان هذان العاملان هما:

- عدوانية الريفيين وسكان الجبال في الجوار.

- وجود موقع للأعداء قوى وقريب.

وحتى لو أن سكان تطوان لم يكونوا كلهم موريسكيين، فإن العالم الريفي المحيط بهم لم يكن يتعاطف معهم لأن ساكن جبل جبال Yebala البائس كان يرى في هؤلاء المدنيين دخلاء لا يتشابهون مع الريفيين. امتدت المباشرة بين المدينة و الريف في هذه المدينة ومدن مغربية أخرى حتى دخل العصر الحديث.

كانت حامية وسكان سبتة، التي كان يتم تمويلها بشكل غير منتظم، تشعر بالاحتياج للخروج من أسوارها، عندما كانت تعتقد أن هذا ممكن لها و للهجوم على المناطق المحيطة بها للبحث عن الغذاء و المواد اللازمة للحياة. كانت المصادمات متكررة، و كانت دموية في كثير من الأحيان. وصل البرتغاليون، في القرن السادس عشر، حتى الأسوار التطوانية نفسها وإلى الملجأ الذي كان يصعب أن تصل إليه قوارب القرصنة، الموجودة في بنى مدن، في إحدى تعرجات نهر مارتين.

لم يتحقق الكثير في القرن السابع عشر. كان السبتيون، و هم محبوسون داخل الأسوار، يضطرون للخروج من حين إلى آخر إلى الحقول القريبة و هم متأكدون أن العدو بعيد، لكي يجمعوا حطباً وعلفاً وللصيد. في بعض المناسبات كان هذا الخروج، الذي يترقبه دائماً التطوانيون، يكلف الكثير جدا في الحياة والافتداءات، ولكن لم يمكن أبداً تحقيق الهدف الأساسي للهجمات، و كان هو الهجوم على قلعة سبتة، بسبب نقص الوسائل المناسبة و تحصين دفاعات الموقع.

إن العاملين المذكورين اللذين يمكن اختصارهما في واحد - هو الاحتياج إلى البقاء - قد جعلاً من موريسكي تطوان مجموعة تحكمها نخبة عسكرية. إن هذا الذي يجب إسناده إليهم، منذ تأسيس المدنية نفسه، سوف يكون له نتائج المروية في القرن السابع عشر، عندما ظهر قائد جعل نفسه شيئاً فشيئاً مالكا لكل سبل الحكم حتى وصل، في فترة ما، إلى الاستقلال الفعلي عن بلاط فاس، ولكنه على الجانب الآخر كان لا يكاد يستطيع السيطرة على فوضى متزايدة وممزقة.

سوف نتمهل في الأحداث ونركز انتباهنا على بدايات عائلة حاكمة.

حدثت السابقة الأولى المسجلة في الأخبار في العقد التالي لمعركة القصر الكبير وقد قيدها المؤرخون المغاربة، سواء من تطوان، أو عامة المؤرخين في المملكة، كانتصار كبير ضد الحامية السبتية. كتب الغفراني، وهو واحد من هؤلاء المؤرخين العامة والخطيب المدّاح للسلطان، يقول:

في شهر ذي القعدة من عام ٩٩٦ الهجري (أكتوبر عام ١٥٨٨) انطلق المنصور، خلال هذه الرحلة ذهبوا لكي يخبروه بالخبر السار أن المسيحيين كانوا يقفون مندهشين أمام سبتة. وقام رئيس الحملة الموجهة ضد أعداء الدين، أحمد النقسي، بعمل كمين و كان على رأس الفرسان. خرج سكان الموقع مع أبنائهم وأسيادهم. وتواجد المسلمون بين المسيحيين وسبتة وبعد قليل استولوا على المدينة (٥).

كرر نفس هذه الرواية التقريبية مؤرخون آخرون مثل ناصري سلاوي-Nasiri Sa lawi في كتابه "الاستقصاء" أو الأكثر حداثة بين المؤرخين التطوانيين، محمد داوود^(٦)، الذي اختلف بعض الشيء في التاريخ. مع ذلك فإن التسلسل الزمني الصحيح للأحداث يمكن أن نحدده بالرواية غير المنشورة حتى الآن، لمؤرخ مسيحي.

وقع الحدث في ٩ من ديسمبر عام ١٥٨٨، واستطاع الكاتب، الذي سجل ذلك في منتصف القرن الثامن عشر أن يجمع، في أرشيف أباء جمعية الثالث المقدس في سبتة، أسماء العسكريين والمدنيين الذين وقعوا أسرى وعددهم ٢٠٣، وجمع أسماء الموتى الذين بلغ عددهم ٤٥.

لم يظهر اسم النقسيس كبطل للنجاح، لكن تحدث المؤرخون عن كمين أعده قائد تطوان، ونعرف من المؤرخين المغاربة أن ذلك لم يحدث وأن بطل الحملة العسكرية كان هو المقدم أو القائد أحمد النقسيس. مع ذلك، فقد أعلن لنا المؤرخ المسيحي ذاته، عند التحدث عن مساعي الافتداء، عن اسم القائد التطواني وهو مفضل. نعرف من وثائق أخرى أن مفضل هذا كان مورييسكياً، الأفضل أن نقول إنه كان سليلاً لطبقة النبلاء الفرناطيين التي أعادت تأسيس تطوان في نهايات القرن الخامس عشر^(٧).

نجد اسمه يظهر دائماً في مخطوطات من القرنين السادس عشر والسابع عشر، كشخصية ذات نفوذ في حكم تطوان^(٨).

أحياناً يُغفل اسمه بحيث تخفى عنا الشخصية الحقيقية، كما حدث في وثيقة منشورة في المجموعة المشهورة، المتعلقة برسالة كتبها السلطان عبد الملك إلى قائد تطوان، الذي لم يحدد اسمه وإلى جابى الضرائب في المدينة الذي لجأ إليه مولاي الفضول el fedhol، وفقاً للناقل، وفي الحقيقة هو مفضل^(٩).

لن نترك هذا التقويم دون إضافة اقتراح أن الملك في هذه الرسالة توجه إلى السلطات العليا التي كانت تحكم تطوان، وكانت هي القائد ومفضل. ظل أفراد عائلة مفضل، أو مفضل مسجلين في الكتابات المحفوظة، وهم يشغلون مناصب مرموقة دائماً كجابى الضرائب والقاضى والقائد وهذا كان يمكنهم من تحقيق ثروات كبيرة.

تشير بعض الألقاب الأخرى التي تتكرر في القرنين المذكورين، على سبيل المثال أفراد عائلة بوعلى، إلى وجود حكم ذى سلطة ومال داخل المجتمع المورييسكى التطواني. كانوا يرثون ألقاباً وثروات رغم كل أنواع التغييرات السياسية والاجتماعية.

هذا يقودنا إلى أصل لفظ النقسيس وإلى مسألة صعبة التوضيح، في هذا الوقت، ويمكن أن تؤدي إلى نتائج صحيحة إلى حد ما.

فيما يبدو لم يكن أفراد النقسيس مورييسكيين، على الأقل لم يكونوا كذلك في أسلافهم، لو كان أسلافهم كذلك، فهم لم يشكلوا جزءاً من المنفيين الموجودين في تطوان. تنبثق هذه النتيجة من آراء الباحثين المغاربة الذين جعلوهم من أصل قبيلة بنى

حوسمار Husmar بالرغم من أن الرأي الأكثر صحة هو كونهم من بلدة نقاقسة Na-qaqsa في قبيلة بنى عيدر Ider ، و هي ليست بعيدة عن تطوان بالتأكيد (١٠) .

بيد أنه لا يمكن أن نستبعد افتراض أن أفراد عائلة النقسيس الموجودين في بلدة نقاقسة، كانوا موريسكيين منفيين هناك، لأننا نعرف أنهم انتشروا، في العصر الأول للخروج والهجرات الموريسكية في المغرب، ليس فقط في المدن، لكن أيضاً في حقول البلد (١١) .

نعرف شيئاً في القرن السابع عشر عن تركز المنفيين الموريسكيين في المدن المغربية، لكن الذين اختبأوا في الوسط الريفي كانوا أكثر بكثير.

قلما نجد معلومات عن هذا المنفى الريفي، و مع ذلك فقد كانت المناطق الريفية متعددة، حيث أن الغالبية العظمى من المطرودين في القرن السابع عشر كانوا ريفيين يعيشون في تجمعات صغيرة.

يحدثنا أحد مؤرخي ذلك العصر عن مصير الموريسكيين الأندلسيين الذين نزلوا في الحسيمة Alhucemas .

يقول إن بعض الموريسكيين الذين وصلوا هناك قد توغلوا إلى الداخل، مع الأعراب إلى مضارب خيامهم وأحيائهم و أن الشيخ عمر دى بوتويا Omar de Botoya قد اصطحب البعض الآخر و علمهم الدين الإسلامي بكثير من الرحمة وأعال الأكثر احتياجاً على نفقته(*) وجعلهم يتعلمون مذهب، ووضع أسماء للرجال والنساء وختن، طوعاً أو كرهاً بالقوة، كل الصبية والكبار الذكور. لكن لأن الموريسكيين الذين تربوا في أماكن كبيرة مثل بايثا Baeza وخاين Jaen وغيرهم لم يكونوا يستطيعون العيش في الجبال، حيث لا يوجد غير الحديد وحيث لا تصل قيمة الأجرة اليومية إلى ريال واحد، ولا يوجد معاملة ولا بضائع، فلم يستطيعوا التوقف هناك، وهكذا، في أقل من شهرين،

(*) لاحظ أن ذلك هو ما فعله أبو الفيث القشاش في تونس، راجع كتاب لوئى لوبيث بارالت "نص حول الجنس لموريسكى من تونس" ترجمة د. جمال عبد الرحمن، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات (سلسلة اليونسكو للأعمال المثلثة) زغوان (تونس)، ١٩٩٥. (المراجع)

وبعد أن مات ثلثهم وبعد أن سمعوا عن وصول مولاي الشيخ، وبإذن من الشيخ عمرو، لم يبق غير الذين أرادوا البقاء معه، وهكذا جاء إلى قلعة بيليث أكثر من ألف وخمسمائة شخص، و اشتروا أمنهم الشخصي بالتخلي عن ملابسهم ونقودهم^(١٢) .

لهذا فإن الذين وصلوا إلى الوسط الريفي لم يكونوا قليلين. الذي حدث هو أن المصادر التي نستطيع أن نلتقط منها المعلومات التي تحملنا إلى معرفة هذا المنفى الريفي كانت نادرة للغاية.

نجد فقرة عن إقليم تطوان في رسالة، مؤرخة في ٢٨ ديسمبر عام ١٦٢١ كتبها مترجم الأسطول الانجليزي، جون دوبا Jhon Duppa إلى سفير إنجلترا في إسبانيا، والتر أستون Walter Aston ، حيث أشار إلى بعض الموريسكيين الذين قبض عليهم هذا الأسطول .

... كانوا كلهم أناس يعيشون في أعلى الجبال، قريباً من تطوان، حتى وصل أخ لأحدهم من الجزائر ورأى أن الأغلبية كانت من نفس العائلة ومن قرابتها وقد أقنعهم بأن يبيعوا منازلهم وماشييتهم وممتلكاتهم الأخرى ويحملون معهم النقود والبضائع الأخرى إلى الجزائر. تبع هؤلاء الناس المساكين هذه النصيحة وبالصدفة وصلوا إلى مرسى تطوان، حيث كان يوجد مركب للأتراك ذاهباً إلى الجزائر وركبوا فيه كمسافرين وهكذا، وأثناء وجودهم في البحر، قبض عليهم أسطولنا، وسلب كل البضائع والنقود التي كانت معهم، دون ترك أى قريب في تطوان يستطيع أن يفتديهم^(١٣) .

في هذه الحالة الأخيرة كان للموريسكيين مساكنهم وماشييتهم، مثل الريفيين الآخرين من البلد. يجب افتراض أنهم لم يكونوا الحالة الوحيدة والاستثنائية من المنفيين الذين توجهوا إلى الوسط الريفي، بالرغم من أن هذا الوسط في المغرب ربما كان أشد قسوة من شبه الجزيرة.

نعود إلى أفراد عائلة النقسيس، الذين كانوا يفتخرون بكونهم من أصل إسباني، على كل الأحوال فسريراً ما تصاهروا في تطوان مع عائلات موريسكية من الطبقات الأكثر علواً في المجتمع وواصلوا الارتباط بسلاسل إسبانية^(١٤) .

النتيجة التى نستطيع استخلاصها - إذا كان أفراد عائلة النقسيس موريسكى الأصل أم لا - هى أن مدينة تطوان، التى عاشت مدة قرنٍ تقريباً منفصلةً فى غرناطيتها الصافية، قد انتهى بها الأمر فى القرن السادس عشر بفقد الانغلاق المحافظ والانفتاح على عناصر جديدة، وتوسيع مجالها العنصرى البشرى.

ومع ذلك، فإن الحشود المهاجرة الجديدة التى ستصل من إسبانيا، بداية من عام ١٦٠٩، سوف تقوى سمة المنفى الإشباني هذه التى سوف تميز المدينة خلال قرون.

جمع المؤرخ التطواني داوود هكذا معلومات من مؤرخين آخرين عن ظهور المؤسس الأول لسلالة النقسيس فى حكومة تطوان:

كان سكان القبائل المجاورة لتطوان، بصورة أساسية وادى راس، سرىعى الانقلاب فى ذلك العصر. كانوا يهاجمون الطرق، ويسلبون الممتلكات ويؤذون الناس ويسببون لهم أضراراً كبيرة.

كان محمد النقسيس، وهو من قبيلة بنى حوسمار Husmar القريبة من تطوان، حينئذ طالباً يقوم بدراساته فى المدينة. عندما رأى غطرسة ساكنى الجبال جمع رؤساء تطوان وطلب منهم مساندتهم لى يقضى، بمساعدة قبيلته، على سلب ونهب ساكنى الجبال، لم يروا أن قبول رغبته شئ سيئ فممنحوه سلطات كاملة لتحقيق ذلك. حينئذ طلب مساعدة قريب له هو المقدم أحمد بن عيسى النقسيس، رئيس المحاربين المميزين فى مواجهة سبتة. أجاب المقدم طلبه، وفى وقت قليل، قضى على الثورة الجبلية، وسيطر بأمان وهدوء على المدينة. أظهر القائد محمد النقسيس سلطته وجدارته وصلابته واستطاع أن يحافظ على السلطة مستقرة فى تطوان حتى موته، أى ما يقرب من ١٤ عاماً، منذ عام ١٥٩٧ وحتى عام ١٦١٠ (١٥).

يستحق النص بعض تعليقات ولو صغيرة.

من الواضح أنه، فى أوج فترة حكم المنصور، لم تكن البلد هادئة جداً وأنه بالرغم من تحاشى الحروب الأهلية بدرجة كبيرة، فإن الملك لم يكن يهتم بما يمكن أن نصفه بالنظام الداخلى للمملكة. على الأقل يلاحظ أن السلطات المحلية كانت يجب أن تبادر

إلى إصلاح نفسها بنفسها. إن هذا الاستياء أو المعارضة "مدينة - ريف"، يعنى، على الجانب الآخر، أنه لم يكن يصل إلى الريف ولا حتى جزء ضئيل من الثروات التي كانت تبقى في المدن. وهناك ملحوظة أخرى مهمة هي السمة الثقافية التي يفترض أنها كانت موجودة في المدينة والتي ربما تكون قد نجمت من المثقفين الغرناطيين اللاجئين فيها منذ القرون الأولى لإنشائها وحتى قبل ذلك إذا تذكرنا عصور مصباح Mesbah وفخار Fajjar و تابين Tabbin .

على الأقل نعتقد أن العلماء المهاجرين كانوا يشرحون قليلاً من العلوم القرآنية في المدارس المعاونة للمساجد التي أقامها الإسبان المسلمون: جامع قصبة Kasbah الذي أنشأه المنداري، جامع فريجة la de la - la Friya الذي أنشأه تابين و حرم سيدي مصباح وبعض المساجد الأخرى التي اختفت اليوم حتى من الذكرى.

كانت الطبيعة ذات البعد الثقافي والمدني تجلب ضغينة الريفيين، وكان الريفيون ذوي مستوى اقتصادي وثقافي واجتماعي وديني مختلف جداً وأدنى في كل المظاهر. هذه الفروق يمكن أن تزداد إذا كانت سلطات المركز المدني تفرض - كما هو منطقي افتراض أنهم فعلوا ذلك - ضرائب على المنتجات التي ينوي الوسط الريفي التجارة فيها مع الوسط المدني.

وأخيراً تجدر ملاحظة أن سلطة عائلة النقسيس قد تعضدت، منذ البداية، بقبول الرؤساء والحكام الأساسيين للمجتمع الموريسكي، والذين بدونهم لم يكن في المستطاع القيام بأي خطوة.

ما نظنه هو أنه، بالرغم من أنهم جميعاً كانوا من أصل إسباني، كانت هناك في تطوان مجموعتان اجتماعيتان مختلفتان إلى حد ما. كانت الأولى مكونة من النخبة العسكرية والعائلية، الموروثة من المجموعات الغرناطية الأولى ومن عنصر نادر انضم بعد ذلك. كانت الأخرى مكونة من مجموعة مهمة جداً من الموريسكيين، الذين وصلوا مؤخراً، والتي كانت تحارب من أجل فتح طريق، بعضهم من أجل لقمة العيش على الأقل، وكانت تلك المجموعة مستعدة دائماً أن تضع نفسها إلى جانب أي مرشح لكي يحكم الشؤون العامة، ولاستبدال أو تغيير السلالة الحاكمة.

كان العداء المستتر أو الظاهر بين كلا القسمين من المجتمع الموريسكى التطوانى يتفجر، أحياناً، فى صراعات مفتوحة، سجلناها فى بعض الوثائق.

ألقى مارمول الضوء على الحروب الأهلية التى تفجرت عند اختفاء حسن، القائد الثانى بعد المندارى، فى هذا القرن توجد أيضاً دلائل على ثورات وانتفاضات وخيانات سوف نراها تظهر على سطح الأحداث، ورويت فى بعض الكتابات.

نكتفى بالمعلومات الزمنية التى يقدمها داوود، فقد بقت حكومة تطوان فى يد محمد النقسيس، منذ عام ١٥٩٧ وحتى عام ١٦١٠. نفترض أن ذلك قد تم استناداً إلى الدعم العسكرى لابن أخيه، أحمد النقسيس الذى حقق انتصاراً لامعاً جداً ضد سبتة فى ١٥٨٨. تشمل فترة حكم محمد النقسيس، لذلك، الأعوام الأخيرة من فترة حكم أحمد المنصور والأعوام الأولى من الفوضى التى بدأت عند موته. أيضاً إذا كان تاريخ موته فى عام ١٦١٠ مؤكداً، فسوف يكون النقسيس الأول شاهداً على حشد الموريسكيين الذين نزلوا فى المغرب، مع قرارات الطرد الأولى. كانت تطوان من جديد مكان تمركز المنفيين. لكن، لدينا أسباباً لكى نعتقد - مع افتراض كون محمد النقسيس حياً وذا حكم مؤثر فى الحكومة التطوانية - أن ابن أخيه، أحمد المقدم، المحارب، كان يمارس سلطة وتأثيراً قاطعاً فى الشئون ذات الأهمية الكبرى.

نعتبر أن تلك الشئون التى كانت تؤثر فى سبل الحياة، وكانت مقتصرة تقريباً على الطبقة الحاكمة، هى القرصنة وحصادها الأكثر إنتاجاً، وهو بيع العبيد. يلاحظ فى الوثائق المتعلقة بهذه المبيعات أن نسبة قليلة جداً من الأشخاص من مجموع السكان، هم الذين احتكروا العدد الأكبر من الأسرى، وبرز من بينهم كلهم القائد، الذى كان يملك أفضل العبيد، كما أنه كان يملك أكبر عدد من المسيحيين.

كان القائد عادةً هو الذى يتفاهم مع المفتدين فى بداية عمليات الافتداء، فكان يعطيهم الأمان، وكان يحدد، فعلياً، شروط العملية. مع ذلك، ففى الخبر الذى سنورده تباعاً، لم يكن القائد، ولكن المقدم، بالتحديد أحمد النقسيس المعروف لدينا، هو الذى يرتب ويعد.

ولكى نفهم وندرك هذا الخبر بصورة أكبر، يجب أن نعرف أن رجال الدين المفتدين كانوا يحملون تعليمات من المجلس الملكى الأعلى لافْتداء الإسبان قبل أى أحد.

فى ١٥ نوفمبر من عام ١٦٠٧ استلم حاكم سبته، ماركيز بياريال، رسالة من النقسيس، المقدم والقائد العام لجيش تطوان، بأنه إذا لم يَقم بافتداء خمسة فرنسيين وصقلى وبرتغالى، كانوا أسرى، فلن يتم السماح له بالقيام بأى افتداء، ولا بخروج أى أسير من تطوان، ولن يُفرج عن الإسبان^(١٦) . لم تكن شخصية الذى يدير كل شىء فى المدينة واضحة.

بعد شهر، وفى ١٤ ديسمبر، فى نفس الافتداء، يذكر لنا كشف كاتب الافتداء، أحد الموريسكيين، حامد إيرادور Hamete Herrador، الذى وصل إلى سبته حاملاً أسرى قائد تطوان. لم يتحدد اسم هذا القائد ولكن يُفترض أن الكاتب قد حدد تماماً، من هو المقدم، النقسيس، المختلف عن هذا الآخر، وهو القائد^(١٧) .

نتخيل، وفقاً لما يذكره داوود، أن القائد المذكور يمكن أن يكون قريباً آخر للمقدم، محمد النقسيس، الذى كان يحكم المصائر التطوانية منذ عام ١٥٩٧ . هذا يمكن أن يفسر حرية المقدم فى تصريف الأمور.

مع بداية القرن الجديد، يبدأ عصر عائلة النقسيس، ولكن لم تكن ديكتاتورية شخص واحد أو أفراد متتابعين من نفس العائلة، ولكنها كانت السيطرة السياسية الاجتماعية لهذه العائلة. سوف يملأ اسمها كل القرن السابع عشر التطوانى، ومعه قرن موريسكى الشمال المغربى، مع ما يترتب على ذلك من أصداء فى تاريخ البلد كله، يجدر تتبع خطوات سلالة النقسيس التى ثبتت خطواتها على التاريخ، فى الأخبار والوثائق. سوف نجد المنفيين الموريسكيين واليهود تحت رعايتها دائماً.

لكن قبل أن نستمر مع عائلة النقسيس يجب أن نلقى نظرة سريعة على الأحداث المغربية، وبالأخص بعد موت المنصور، فى عام ١٦٠٣، والذى أثر وجوده كثيراً، كما هو

معتاد، فى حياة التجمعات الموريسكية، سواء فى الشمال أو فى جنوب البلد، كانت هذه الأحداث مؤلة جدا، وقد وصف أحد كتّاب ذلك العصر تاريخ تلك الفترة بأنه مزعج ومعقد ودموى^(١٨).

بعد موت المنصور مباشرة، أعلن اثنان من أبنائه أنفسهم كورثة شرعيين، كانا هما مولاي زيدان فى فاس وأبو فارس فى مراكش. أرسل أبو فارس أحد أبنائه وأخيه، المأمون أو مولاي الشيخ، لكي يخلعوا مولاي زيدان، حققوا هدفهم، ولكن أعلن المأمون نفسه بدوره سلطاناً فى فاس. هرب زيدان مع الأتراك الذين ساندوه فى الجزائر، واستطاع غزو فاس ومراكش.

هرب المأمون إلى إسبانيا، وطلب من فيليبي الثالث عدة ومالاً لكي يحارب أخاه. قدم له الملك الإسباني ما كان يبحث عنه مقابل موقع العرائش الذى سلمه المأمون إلى إسبانيا فى عام ١٦١٠. ملجأ آخر للقراصنة أصبح تحت حكم قوات شبه الجزيرة. وميناء آخر أصبح فى أيدي "أعداء الدين" وهو ما أضعف اقتصاد المغرب، الذى لم يكن مالياً بالفعل، لاستيراداته وتصديراته و لتجارته، فى الإجمال لأن أغلبية موانيه كانت فى أيدي الأعداء. يُضاف سبب آخر إلى استياء الجماهير التى لم تكن تشاهد فقط فشل المحاولات لاسترداد "دار الإسلام" التى احتلها الغزاة، ولكنها كانت ترى أن الحاكم يهددهم موقعاً إسلامياً.

وكان ذلك سبب آخر للثورات السياسية المتتكررة فى نيات دينية.

سبب احتلال العرائش مشاعر غضب عنيفة فى القلوب الإسلامية وأثار استنكاراً شاملاً، كتب ذلك المؤرخ المغربى من عائلة السعدى.

جعل مولاي الشيخ علماء مسلمين أو حكماء، يعطونه آراءً أو فتاوى مؤيدة، كانت تبرر له تحقيق هذا التسليم^(*). بالرغم من هذا فقد أصيب كل الشعب تقريباً وأغلبية الموريسكيين بالذهول.

(*) اللجوء إلى الفقهاء لتبرير تصرفات سياسية بحتة هو أمر فعله حكام الأندلس حين رضوا بدفع الجزية إلى مسيحيى الشمال، وفعله بنو الأحمر قبيل سقوط دولتهم فى غرناطة ونراه هنا فى المغرب. (المراجع)

ألقى نفس المؤرخ المذكور مسبقاً، مسؤولية مقتل الشيخ في ٢١ أغسطس عام ١٦١٣، بشكلٍ ما، على العداوة التي سببها له تنازله عن العرائش للمسيحيين^(١٩).

وبعد خلع الشيخ في فاس، حافظ أخيه، زيدان، على مراكش كعاصمة و حاول، طوال حياته كلها، إصلاح الوحدة المغربية المكسورة عند وفاة والده.

سوف يكون لمولاي زيدان ولمولاي الشيخ علاقات مع الموريسكيين، سواء من هم من تطوان أو من الرباط، في هذه الفترة التالية المباشرة لموت أحمد المنصور. فيما يبدو، فإن عائلة النقسييس قد اعترفت بمولاي زيدان كملك، بعد ذلك رأوا أنه لا أحد من ورثة المرحوم المنصور كان يستحق أن يكون مطاعاً، لا الشيخ لأنه سكير وفاسق، ولا زيدان لأنه طاغية ومستبد، وفقاً للتصريحات التي أعلنتها عائلة النقسييس، كما سنرى. كان الموريسكيون، وأفراد النقسييس على رأسهم، يعيشون في الواقع حياة مستقلة. أعلنوا استقلالهم في العقد الثاني من القرن، تقريباً في نفس الوقت الذي فعل فيه ذلك موريسكيو الجنوب في جمهورية الرباط الأندلسية.

عندما بدأت حشود جديدة من المنفيين تصل إلى تطوان، اعتباراً من عام ١٦٠٩، كانت الحرب الأهلية في البلد كلها حامية الوطيس منذ أعوام، في الفترة التي مات فيها المنصور. إن الوثيقة الأولى، بعد عام ١٦٠٣، وهو تاريخ هذه الوفاة، التي ذكر فيها اسم النقسييس المقدم، هي الوثيقة المذكورة مسبقاً في عام ١٦٠٧، والتي تقول إن رجال الدين المفتدين لم يجرؤوا على الخروج من سبتة، بغير الحصول على تأمين الحروب الموجود بين ملوك فاس ومراكش. حينئذ حدث الافتداء، ولكن ليس بالشكل المعتاد وهو سفر الآباء المفتدين إلى تطوان والبقاء هناك شهرين أو ثلاثة للمفاوضة في الافتداءات، لكن نُفذت هذه الافتداءات في سبتة، عند مدخل البوابة التي تؤدي إلى الريف والطريق الذي يذهب إلى تطوان، حيث يحمل مسلمٌ ويهودى مترجم ٢٢ أسيراً ... (٢٠).

أى أنهم كانوا يتفاوضون عند نفس مدخل الموقع القوي تقريباً ويحررون الأسرى المنقولين من السجون.

ذُكر في هذا المخطوط قائدٌ ليس من عائلة النقسييس، ربما كان واحداً من الذين قام مولاي زيدان بتعيينهم و كان يظهر رسمياً كممثل له وكسلطه عليا. في الواقع كان أحد أفراد النقسييس هو الذي يفرض المقاييس والشروط بطبيعة الحال.

تذكر وثيقة أخرى من عام ١٦٠٩، النقسييس، مقدم تطوان، دون أن يظهر فيها أى قائد (٢١). ثار أحمد النقسييس في عام ١٦٠٨ ضد الشيخ، وجعل من نفسه نصيراً لمولاي زيدان. من الناحية العملية لم يحكم أحد أو آخر المدينة، حتى سار الشيخ في عام ١٦١٠ إلى تطوان، وطرد منها النقسييس (٢٢). احتضرت السلالة السعدية، بعد تألق سريع الزوال، في الشكل أكثر من المضمون، مع سلالات المنصور.

حررتهم معركة القصر الكبير أو الملوك الثلاثة من أعدائهم الخارجيين، لكن لم تسهم في تحرير المغرب من أعدائه الداخليين، كان صراع الكل ضد الكل، الفوضى والتفكك.

ظهر في وسط كل هذا حاكم استثنائي في مدينة مارتين Martín .

العمارة الموريسكية في تطوان

وصلت مجموعات المهاجرين الموريسكيين الأولى، الناتجة من قرار الطرد لعام ١٦٠٩، إلى المغرب الذي كان يدمى بسبب الصراعات الأهلية.

توقف الكثيرون جدا منهم في الشمال المغربي، واستقرت الأغلبية في قطب الجذب الإسباني الذي كانت تمثله تطوان والشاون. يدل على ذلك، في تطوان، الاتساع الكبير للمدينة تجاه الغرب والجنوب، من مساجد جديدة وأسواق وحمامات، وأسوار وأبراج دفاعية وأبواب ونافورات والعديد من المباني، التي شكلت شوارع، بعضها ذات طول غير مألوف. كان كل هذا خارج المنطقة القديمة المسورة، على شكل مستطيل، يشكل خلال عقود قليلة "المدينة - القلعة"، غرناطة المنداري وأتباعه النبلاء من عائلة ابن سراج من غرناطة.

فى إحدى الصور التى قدمنها لأول مرة منذ عدة أعوام، فى مؤتمر عُقد فى تونس عن الموريسكيين والتى نعيد تقديمها، كان يمكن ملاحظة حدود مدينة المندارى على أحد الخرائط لتطوان عام ١٨٦٠ .

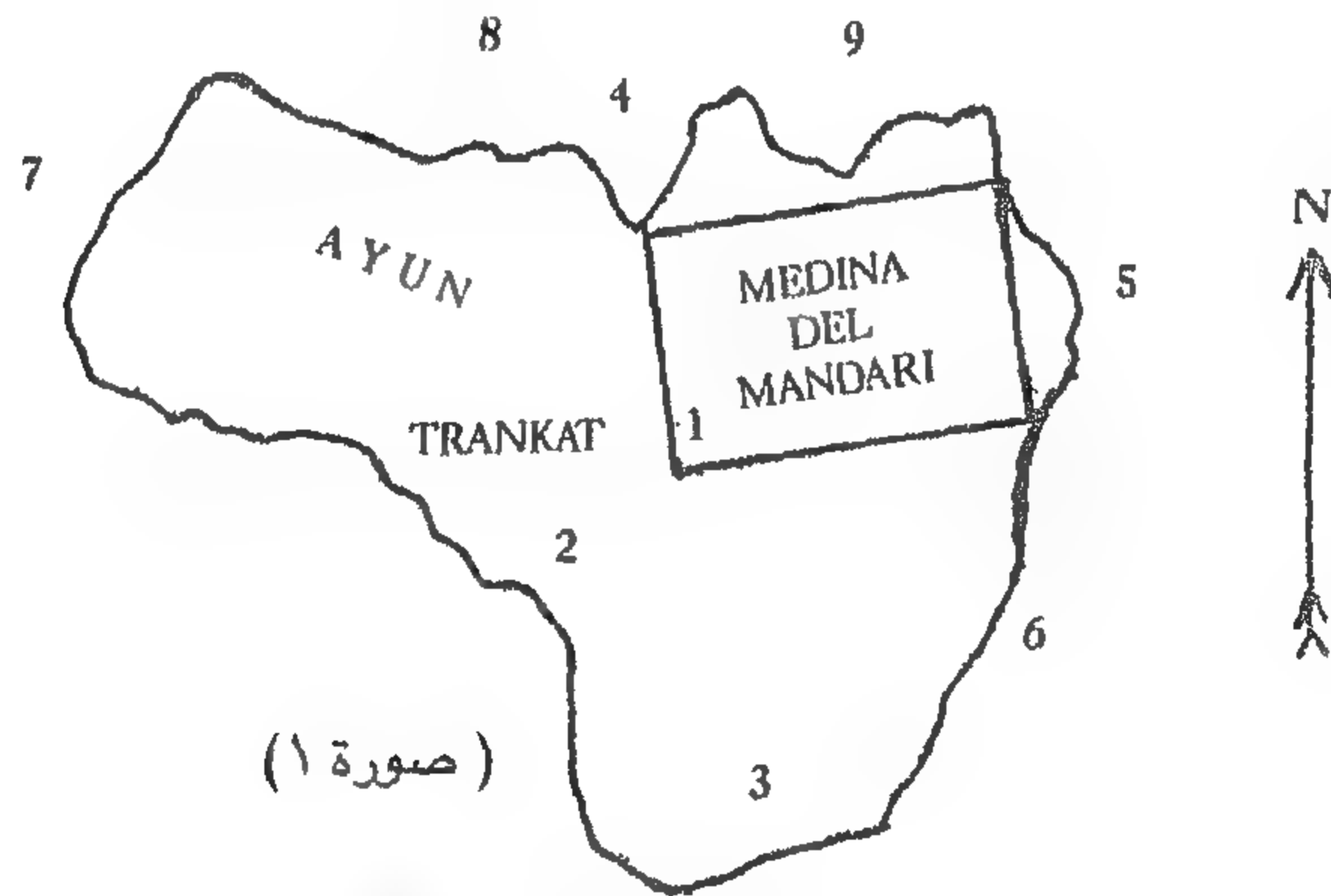


شكل (ل)

يجب الأخذ فى الاعتبار أن هذه الخريطة يمكن أن تكون أنعكاساً واضحاً للحدود القصوى لأحياء المدينة فى أوجها السكانى، والذى نظن أن سببه كان التوافد الكبير من الموريسكيين من القرن السابع عشر. لذلك فإن خريطة عام ١٨٦٠ هذه تقول لنا، بدرجة قريبة من الدقة، إلى أين وصلت البنايات الموريسكية. لو قارناها بالسور الأول للمندارى والفرناطيين نرى أنها تمثل أكثر من ثلث السعة. وهذا يعطينا فكرة عن النمو البشرى، الذى يعطى الاحتياج إلى المباني المختلفة.

لم تكن المدينة تستطيع النمو تجاه الشمال بسبب الجبل أو جبل درسة وقلعته. كان الخطر يصل من الشرق ومن الممكن أنه بسبب ذلك قد امتد تجاه الغرب والجنوب. وقد حدد اختلاف مستويات الأرض - في هذا الاتجاه الأخير - البناءات حتى الدرع الصخري الذي كان يطل على الوادي. امتدت المدينة، إذن، في شارع طويل جداً، في اتجاه الغرب، وهو شارع النافورات، العيون 'Uyun أو عيون 'Ayun، كما عُرف بالعامية، إلى جانب الحي المتسع المتأخم. في الشاؤون كان اتساع أحياء ريف الأندلس rif al Andalus وحومة السوق hauma del Suk والصبانين as Sabanin، شاهداً على النمو السكاني والعمراني الذي سببه الموريسكيون المنفيون عقب الطرد الجماعي من شبه الجزيرة: كان ينبغي إقامة مسجد، ونافورة وسوق وأسوار وباب لكل حي.

تجمعت عائلة النقسييس في أحد الأحياء، مع أحد المحاور في شارع المقدم Muqaddam الطويل، الذي سمي هكذا تخليداً له. أنشأوا مساكنهم في الشمال الغربي من قصبة المنداري في الفراغ الكبير المستوى، أمام التحصينات، وتركوا الفدان Fed-dan الذي سوف يكون بعد ذلك، موقعاً كبيراً. في عام ١٨٦٠ كانت أسوار وتحصينات المنداري خالية، كما يمكن رؤية ذلك في الصورة القديمة التي نقدمها، الصادرة من المكتبة العامة وأرشيف تطوان.



(صورة ٢)

كان كل ما هو مبنى على الشمال، أى، فى اتجاه غرب هذه التحصينات، ينتمى إلى ما بعد عصر المندارى، و كان فى معظمه موريسكيًا. تظهر خلف البرج الثانى، الذى يبدأ من اليمين، و هو برجٌ مضيع، مئذنة جامع القصبة، وهى المئذنة الأولى التى أنشأها القائد مؤسس المدينة. تظهر فى وسط الصورة، إلى الشمال قليلاً، مئذنة جامع ابن عيسى. و يظهر على الشمال قصر الباشا ريفى *baja Rifi* وعلى الشمال بقليل مئذنة جامع عيون، فى شارع باسمه.

الوجه الشمالى لفدان، بالبناءات الحالية.



(صور ٣)



صورة (٤)

تُرى فى العمق بنايات من بداية التوسع الأوروبى الحديث، بشارع من الشرق إلى الغرب. يوجد على شمال النخلة الأخيرة من خط النخيل عقد مدخل يؤدي إلى قطعة مغطاة من شارع المقدم. تقول الرواية عن شارع جانبى صغير منه، يسمى شرفاً وزان *los surfa de wazan*، إنه كانت توجد فيه بعض قواعد البناء حيث كان يجلس أفراد النقسييس لى يقضوا بين الناس. كانت توجد حول هذا الشارع الصغير أماكن إقامة أفراد النقسييس ، فعندما ساء حظهم و تم إعدامهم مُنحت أملاكهم لأشراف وزان *sur-fa de wazan* السابق ذكرهم. كان كل هذا الوجه الشمالى للفدان عبارة عن حدائق ومساكن لعائلة النقسييس. بُنيت المئذنة التى ترى فى أوقات متأخرة، كتقليد للمآذن الموريسكية. تنتمى إلى زاوية الحاج بن عبد الله *Hayy Ben Abd Allah* .

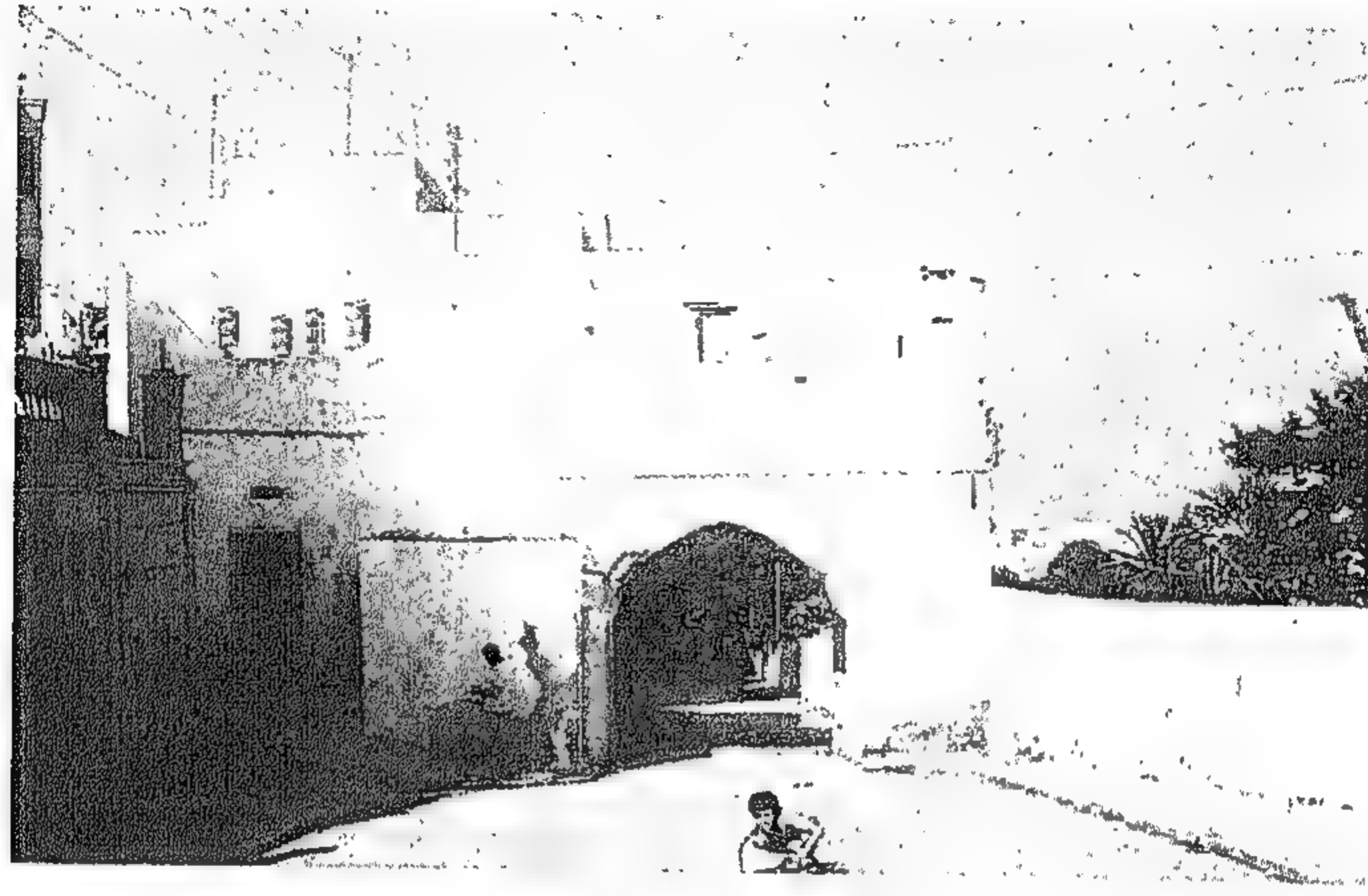
أنشأ النقسييس و الموريسكيون حى العيون أو عيون الواسع هذا متصلاً ببناءات وأقاموا أسواراً جديدة، وباباً أخذ هذا الاسم، لأنه يُخرج إلى الطريق فى اتجاه فاس، أخذ أيضاً اسم باب النوادر Nuader أو باب العصور Puerta de las Eras، و هو اسم يعبر عن الشكل الذى كان موجوداً فى البداية.(شكل ٤). يُرى فى الصورة منظر من داخل باب النوادر an Nuader حيث يشمل شارع العيون الطويل جداً. أخذ بوضوح جزء من الباب وجزء من السور. الباب يبدو أنه تم إعادة إنشائه، لكن لم يحدث ذلك مع جزء السور، الذى سيتجه فيما بعد إلى الشمال صاعداً أحد منحدرات جبل درسة. وبالإضافة إلى باب النوادر، فقد فُتحت أبواب أخرى فى الأسوار الجديدة: باب التوت Bab et Tut وباب العقلة Bab al Uqla وباب الرموز Bab er Ramuz، وقد تغير شكل هذه الأبواب كثيراً حتى أنه أُعيد بناؤها، فى أيامنا هذه، و كانت مدمرة بالكامل، ولذلك فإن الصور التى تنشر هى فقط ذكرى.

يمكن لبعض الأبواب، مثل باب الرموز الجنوبى، الذى نرى من خلاله منظرًا عامًا لسلاسل جبال هاوس Haus الرائعة، أن تكون قد أنقذت بسبب عدم أهميتها.(شكل ٥). المنظر مأخوذ من الداخل، عند نهاية شارع لونيتا Luneta الذى كان اسمه معروفاً أيضاً.

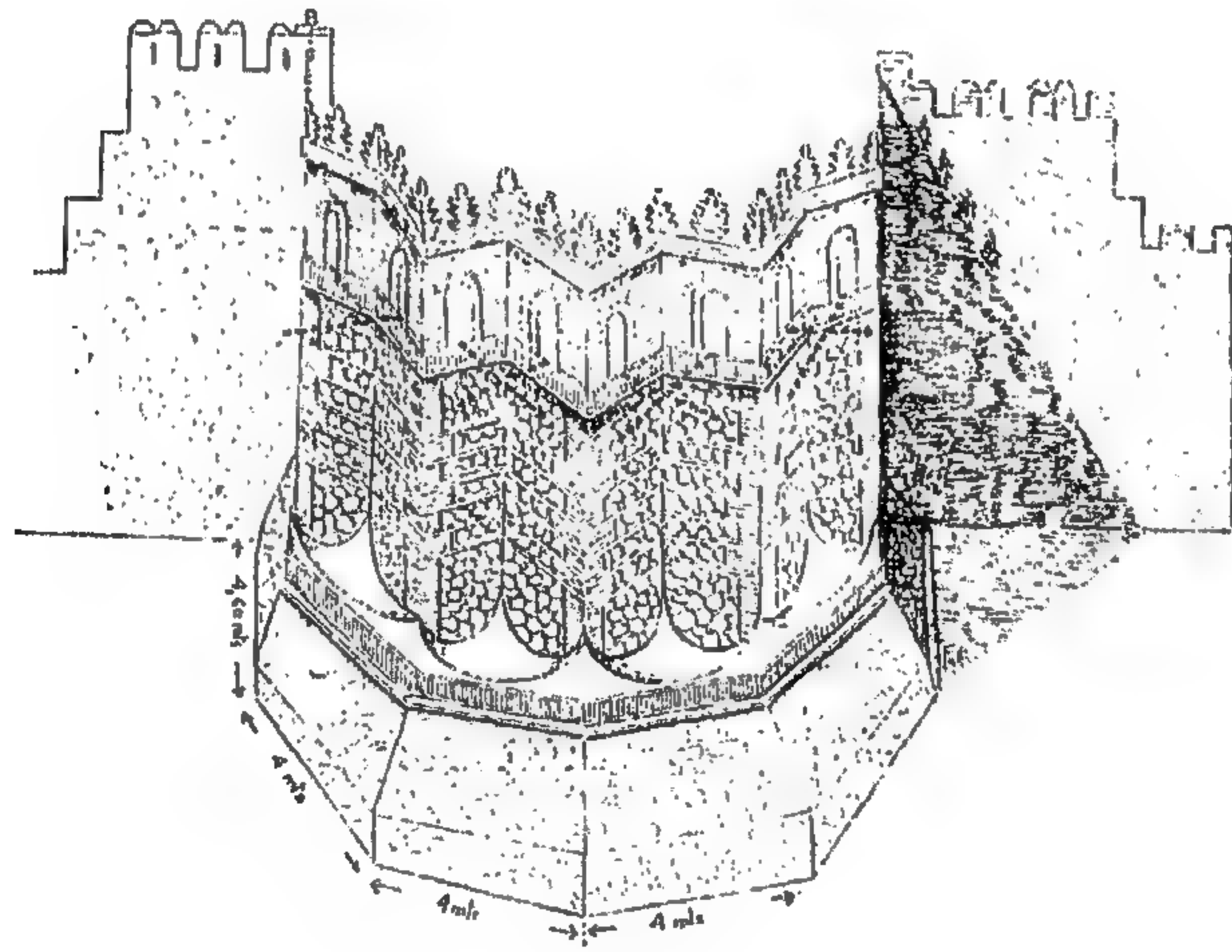
نتوقف أمام مدفن ولى غرناطى من القرن السابع عشر، وهو سيدى عبد القادر تبين Abd el Qadir Tabbin، و نتأمل البيوت، المعلقة تقريباً فى الانحدار الصخرى، الذى يُنهى التوسع الجنوبى لمدينة المندارى.(شكل ٦). وقد استفاد الموريسكيون من هذا الانحدار وأقاموا أسوارهم، التى يمكن تبين وجود قطع منها فى المباني. مازال بالإمكان تمييز الأسوار والأبراج، التى بناها الموريسكيون، إما فى الفترة الأولى من المنفى، بعد سقوط مملكة غرناطة، وإما فى فترة الهجرة النهائية، فى القرن السابع عشر. كانت هناك إنشاءات كثيرة مختبئة أو شبه مختفية بسبب المساكن المقامة فى القرون التالية، مثل هذا القصر أو البرج الذى بُنى فى عصر المندارى.(شكل ٧).

فى هذه الصورة الجميلة، جمعُ و تلخيص لكل الجمال الذى كان الموريسكيون المنفيون فى تطوان قادرين على طبعه، حتى فى الأسوار الدفاعية^(٢٣). يمكن أن

نفترض أن الأساتذة الذين أخرجوا هذه الأعمال ذات الحماية المدنية البسيطة كانوا يستمدون أسلوبهم وذوقهم مما كان يجب أن يحققوه في شبه الجزيرة، لخدمة المسيحيين في هذه الحالة. (شكل ٨). لا يجب نسيان أن العبيد البرتغاليين العديدين، كانت لهم علاقة بهذه البناءات كما أكدت لنا ذلك نصوص من ذلك العصر .



صور (٥ - ٦)



صور (٧-٨)

إن شارع العيون، و هو شارع نموذجي من النماذج التي أنشأها الموريسكيون في الفترة الثانية من المنفى - والذي رأينا أنه ينتهي في باب النوادر - يبدأ قريباً من بستان قديم، (الغرسة الكبيرة Garsa al qulbira)، الذي تم البناء حوله أيضاً.

هكذا امتدت المدينة فى اتجاه الجنوب، بأحياء سوقة Suika والمنيرة al Manyara، واشتملت على الأحياء الغرناطية الأكثر قدماً وهى سيدى عبد القادر تبين، بما فى ذلك مسجد السيد فريحة La-la Friya، ووصلت البناءات حتى الحافة الصخرية، التى رأيناها من فوق مقبرة الولى المذكور.

قام حى آخر بمد المدينة إلى الجنوب الغربى، وكان به حرم سيدى مصباح، وهو ولى أندلسى مثل تبين فى القرن الثانى عشر، كان هناك حى داخل الأسوار الجديدة، ولكنه اختفى فيما بعد.

تسبب تكدس الناس، الهاربة أو المطرودة، فى الاحتياج العاجل لأماكن صلاة جديدة.

إن القرن السابع عشر هو عصر الإنشاءات الدينية الأكثر أهمية وربما الأكثر جمالاً فى تطوان.

وقد أنشأها، على نمط التراث الأندلسى الكبير، المهندسون المعماريون، الذين تركوا أسماءهم وآثارهم فى تطور الفن الإشباني الموريسكى. عانى الكثير منها تغييرات فى تصميمه وأيضاً فى تكوينه، ونظن أن الجزء الذى تغير بصورة أقل ربما يكون هو المئذنة.

لقد جمعنا صور بعضها، إلى جانب بعض العناصر الأخرى التى نعتبرها أكثر خصوصية للعصر. سوف تساعدنا هذه المجموعة على أن نتعرف على أحد مجالات النشاط الموريسكى فى المغرب، على الجانب المزدوج، الدينى والمعمارى، وهما مظهران من حياة أمة حاولت مد جذورها الإشبانية فى أراضٍ إفريقية، دون فقد تقاليدها ومعتقداتها.

نقدم على رأس الآثار الدينية مئذنة جامع سيدتنا فريحة لأنه بالرغم من أنه ليس موريسكياً، ربما يقدم لنا نموذجاً على ما كان عليه هذا النوع من المباني فى الأندلس، حتى قبل إنشاء المملكة الغرناطية.

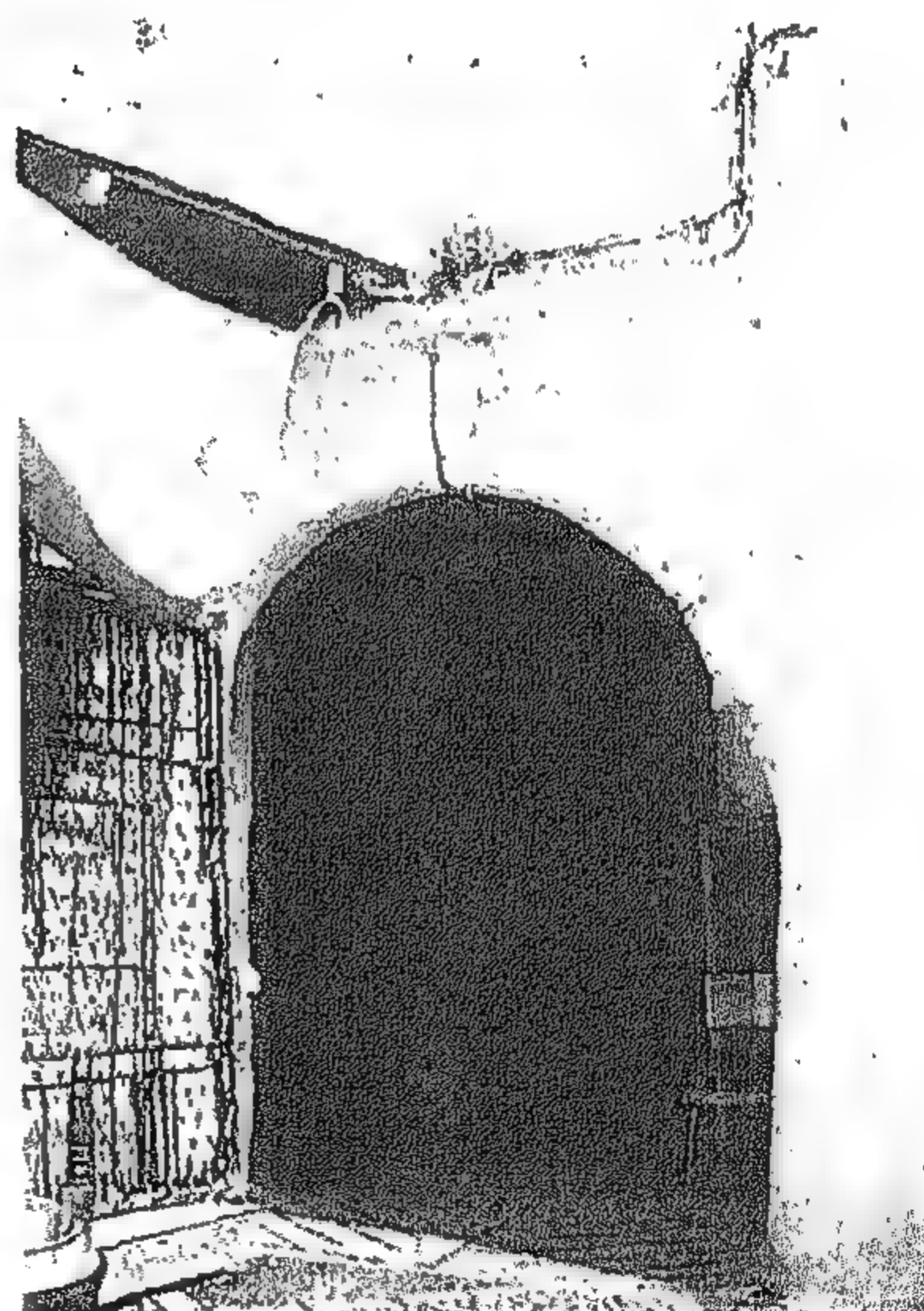
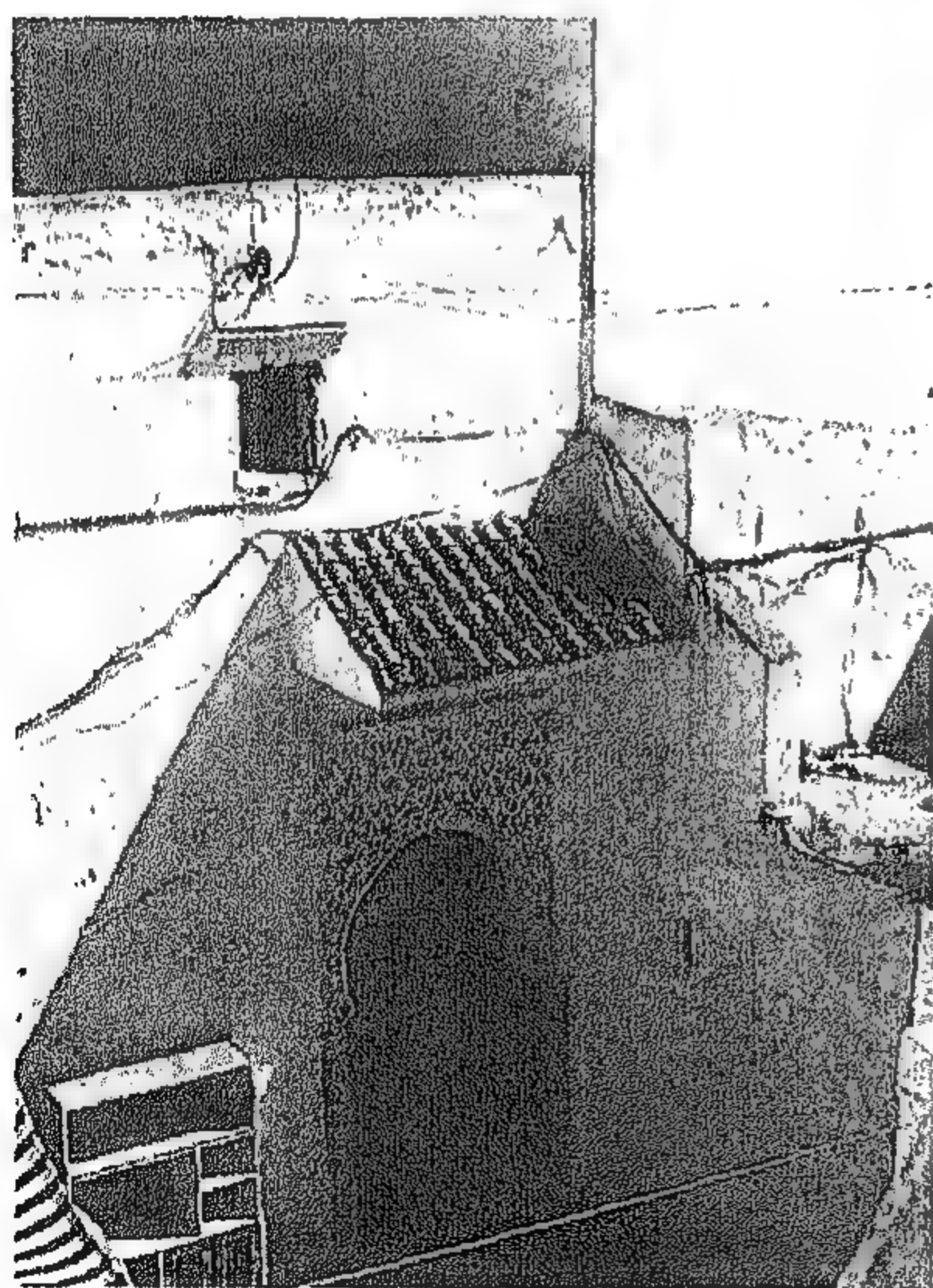
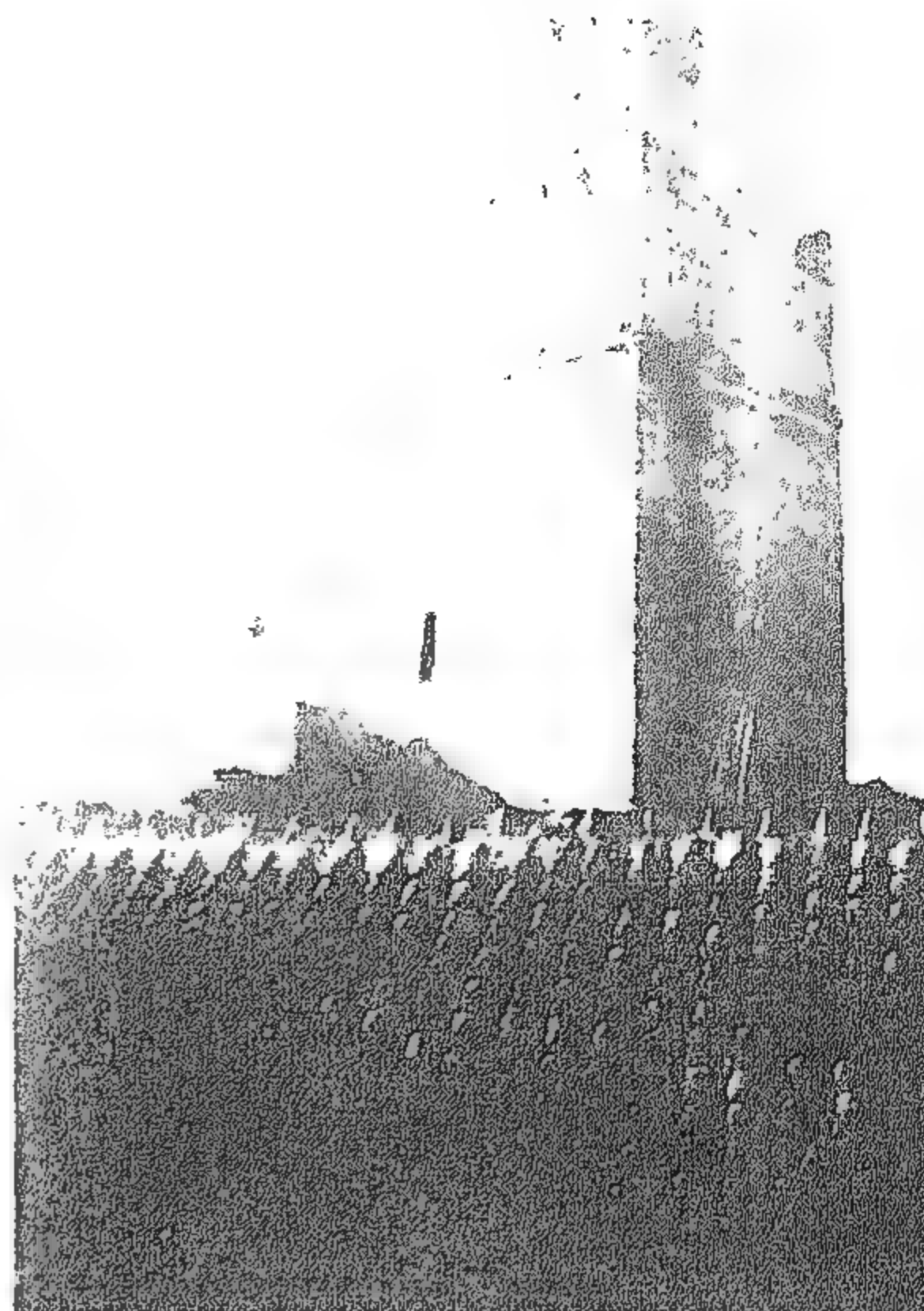
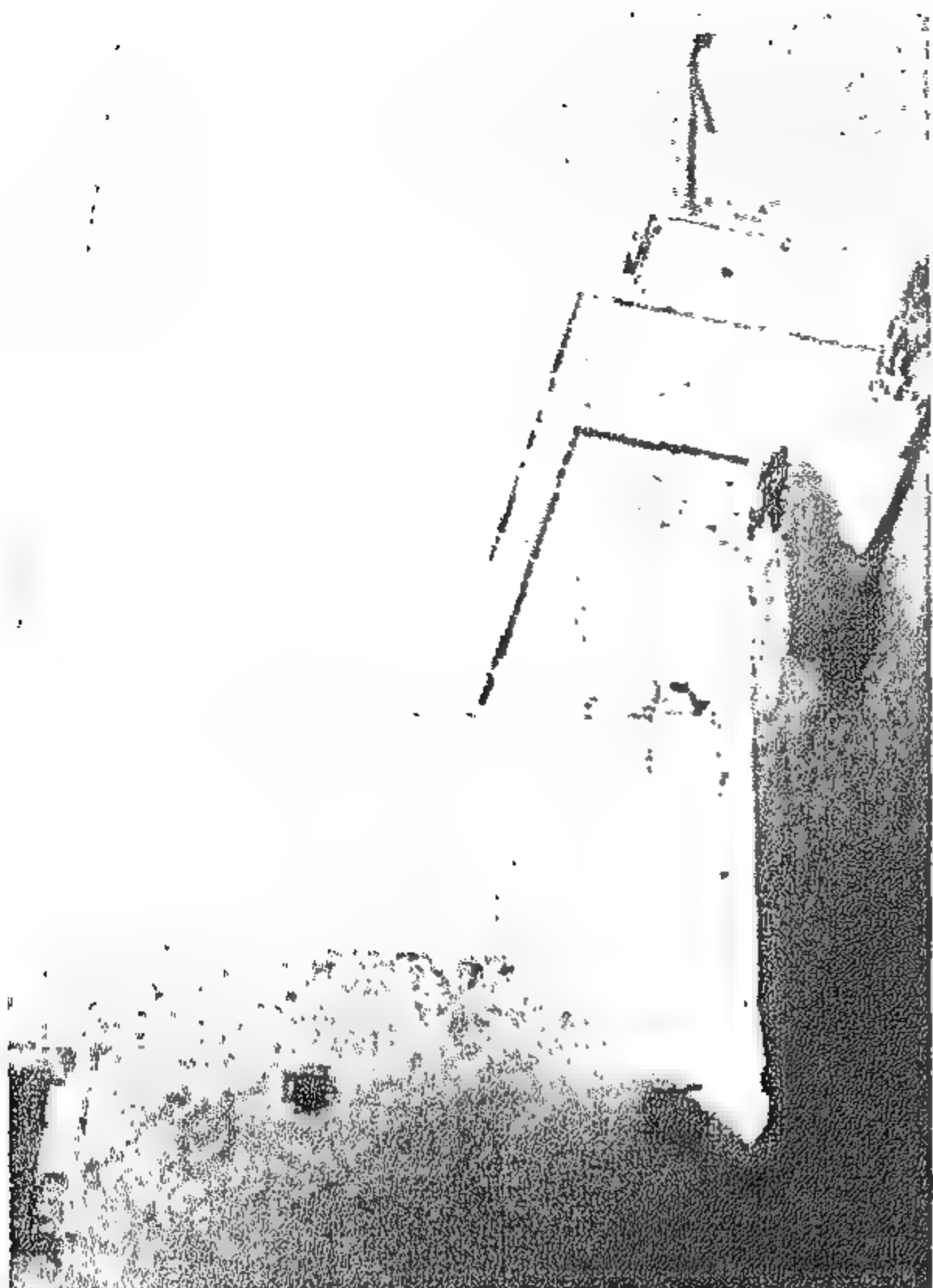
يبدو لنا أن المسجد الذي بناه تبين ، مع بنائين وحتى مع مواد بناء من سبتة، يعكس وجود أنواع من المبانى من نوعه فى سبتة الموحدة، وفى شبه الجزيرة بوجه عام. ربما يكون هو الأكثر جلالاً وقدمًا فى المساجد التطوانية، بالرغم من أن داخله قد عانى من تغييرات كثيرة، ولسوء الحظ، حدث ذلك أيضاً مع خارجه، وبالتحديد، عند تبديل غلافه القديم ذى السقف الأندلسى المصنوع من القرميد وبناء شرفة مكانه.

لا زلنا فى صورنا نستطيع أن نميز سقف أحد الأجنحة الجانبية، الذى اختفى. تم التقاط هذه الصور منذ أكثر من ٤٠ عاماً، وبسبب الظروف التى قيلت، كان لها قيمة ما لا يمكن تكرارها. (شكل ٩ - أ و ٩ - ب).

من الصعب جداً أن نجد مسجداً منعزلاً، كان مسجد السيدة فريجة "مُكْتَهَمًا" إلى حدٍ ما بسبب الأبنية المجاورة التى، تمنع اليوم تمييز المئذنة. كانت المئذنة ذات قاعدة مربعة، مثل أبراج الكنائس الغرناطية التى كانت مآذن وأيضاً كان البرج الصغير الذى يعلوها ذا قاعدة مربعة و يعطيها أناقة أكيدة، مثلهم كلهم. يبدو أن ارتفاعه يتبع قاعدة أن يكون الإرتفاع أربعة أمثال طول ضلع القاعدة ويوجد على ارتفاع أكثر من ثلثها بقليل افريز خفيف من الطوب يكسر رتابة الأسوار الناعمة، التى تنتهى بشرفات مسننة. كان جانب قاعدة البريج الأعلى أقل بقليل من نصف المربع الأكبر، وينتهى البريج بنفس نوع الشرفات المسننة للبرج الأصلى.

نعتقد، بعد مسجد السيدة فريجة، أنه يحتمل أن يظهر المسجد الذى يُسند إنشاؤه إلى مؤسس المدينة ذاته، سيدى على المندارى، ذلك الحاكم الغرناطى والمحارب الذى لا يكل فى الأراضى الإفريقية: جامع قصبة أو جامع القصر.

حذفت فى إحدى الصور المئذنة لتصوير باب الدخول، وهو على شكل حدوة الفرس وسقف صغير بارز إلى حدٍ ما. (شكل ١٠).



صور (٩، ٩، ٩، ١٠، ١١)

يوجد على شمال هذا الباب، وبالقرب منه، عقد منحني يؤدي إلى شارع صغير مغطى وبدون مخرج (شكل ١١). مازال يوجد مكان قصر المندارى عند الدخول عبر هذا الفراغ على اليد اليسرى. حُفظت على الأقل آثار وجوده ولا يزال بعض أحفاده يعيشون هناك.

كان لجامع قصبه الموجود فى المكان مؤذنة ذات جدران ناعمة، بحافة من الطوب على بعد متر من قمة تنسجها شرفات ذات حدود مزدوجة وبرج صغير: متوج بالشرفات المزدوجة للبرج الأساسى.

تبدو مؤذنة الجامع هذه أقل تسطيحاً من المؤذنة السابقة، ربما لعدم اتباعها قاعدة الارتفاع الرباعى الأضعاف. لا نعرف ما إذا كان فى إحدى مرات إعادة البناء التى عانت منها هذه المؤذنة قد تغير تركيبها، ربما يكونوا قد رفعوها، على سبيل المثال، كان لجامع الرابطة Rabta نفس الأسلوب وكان من عصر المندارى أيضاً، وقد أنشأته، وفقاً للمؤرخ التطوانى إسكيرى، إحدى الأندلسيات فى الفترة الأولى من الهجرة الموريسكية. كان لمؤذنة هذا الجامع ميزة، وهى عدم التصاقها بشيء من الواجهتين، الأمر الذى جعل لها جمالاً حتى مع بساطتها وصرامتها، مثل المآذن السابقة.(شكل ١٤و١٥).

يوجد إفريز، على بعد مترين من الأرض تقريباً، يعمل كإطار لقاعدة من أربع تصفيحات ملساء تصل حتى ثلاثة أرباع طول البرج، حيث يبدو أن إفريزاً آخر يمرر إلى جسم آخر. تزين شرفات مسننة كلاً من البرج والبريج، وتوجد شرفة مسننة أخرى فى جامع قصبه.

وعند انتهاء القرن السادس عشر لدينا زاوية سيدى يوسف الفاسى، المبنية فى عام ١٥٩٢، التى لم تُدخل مؤذنتها أى تجديد على المآذن الأولية، التى درست حتى الآن، بالأخص فيما يتعلق بحجمها.(شكل ١٥).

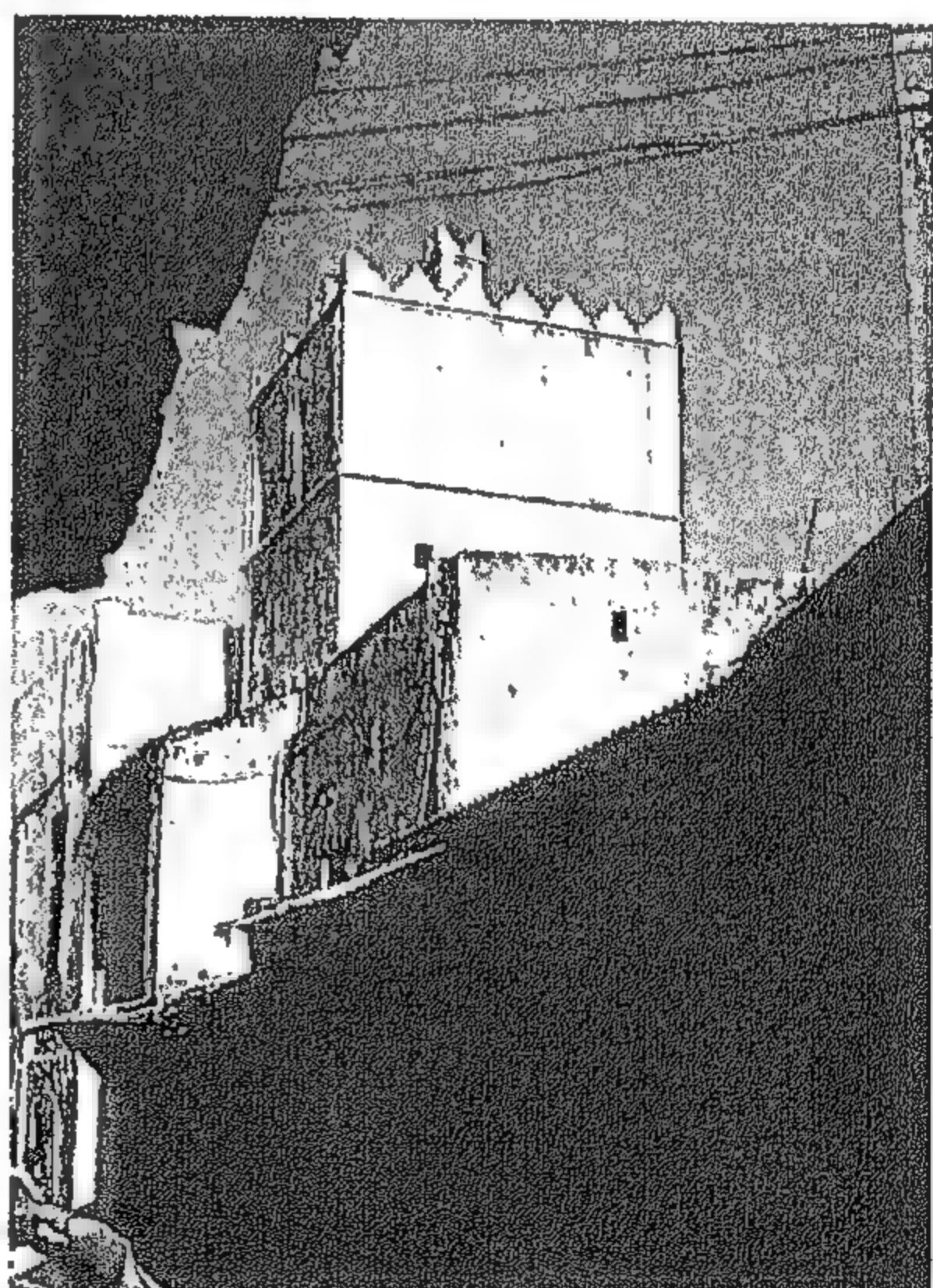
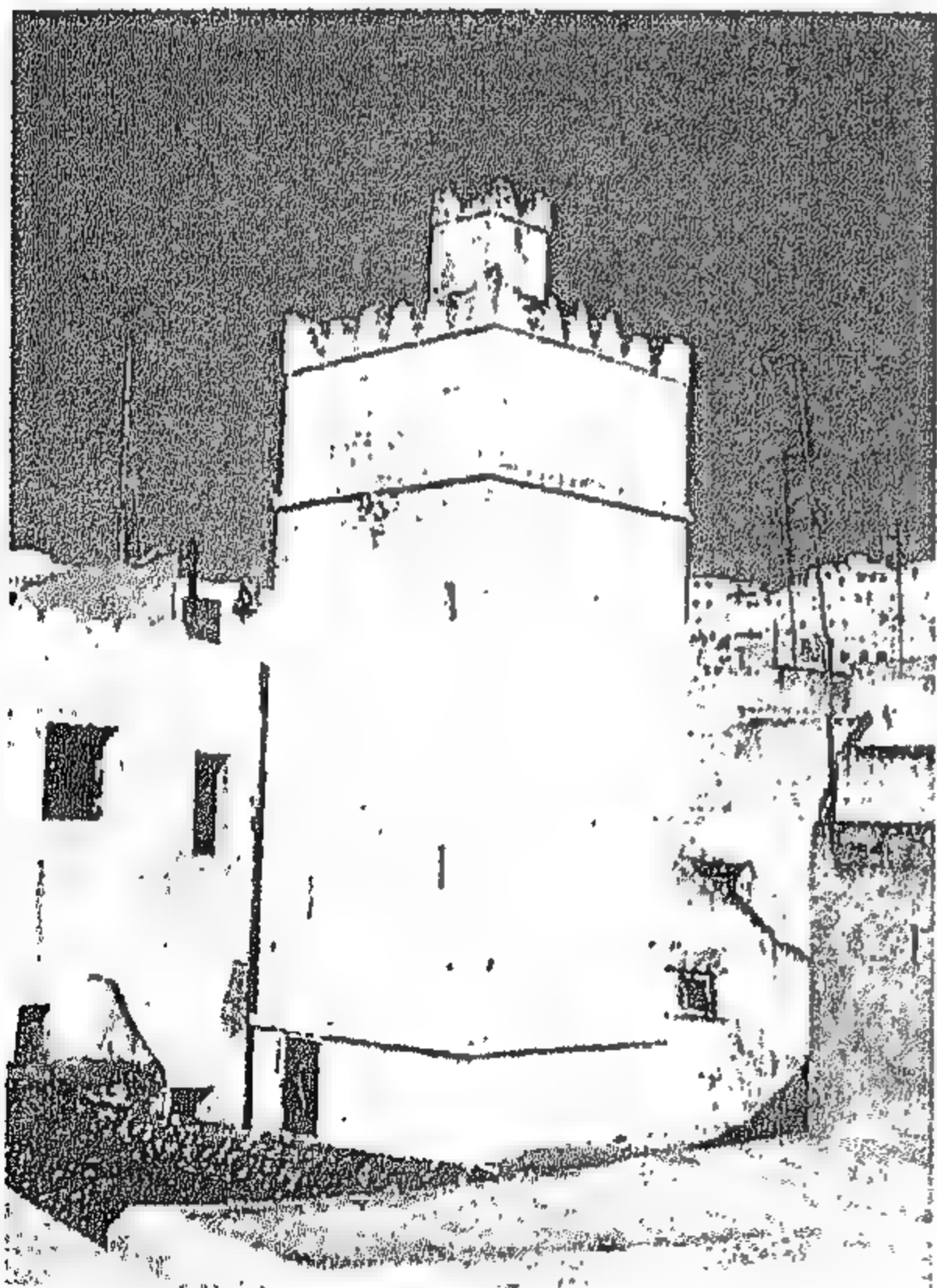
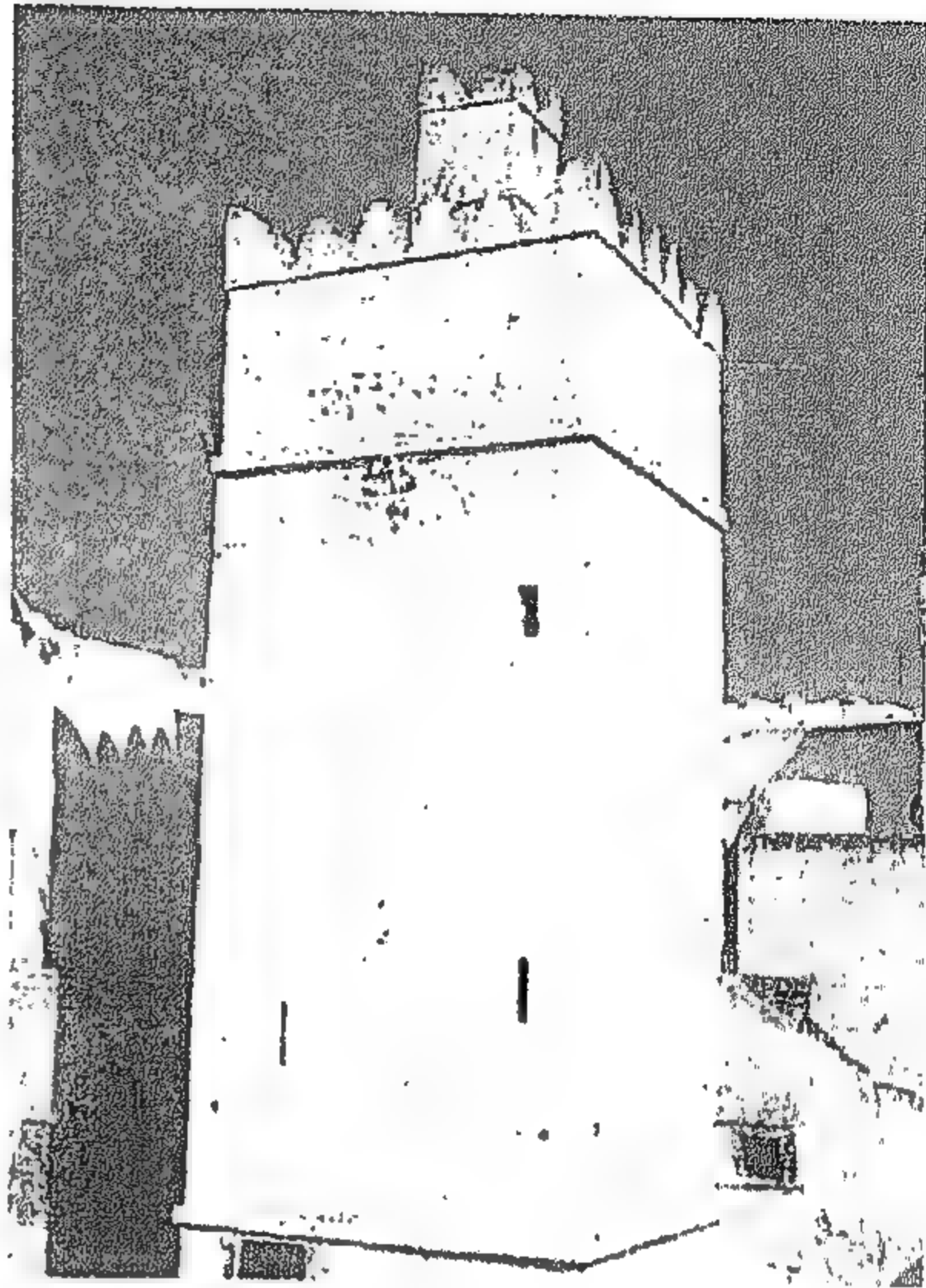
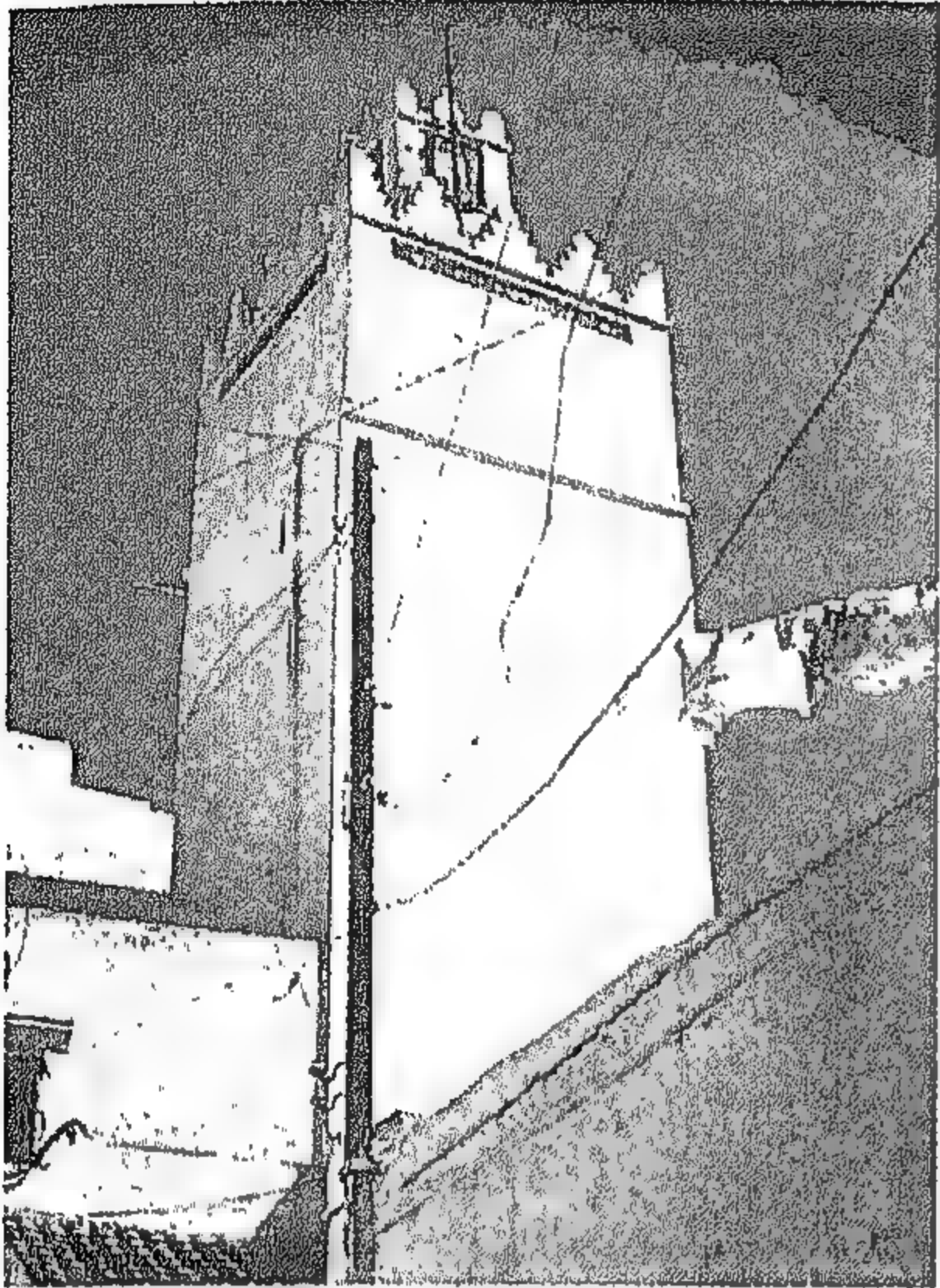
ربما يكون البريج، الأكثر صغراً من العادى، قد أسهم، بدرجة كبيرة، فى إعطائها مظهراً مسطحاً. يقع هذا الحرم فى شارع آخر ذى طابع موريسكى واضح، وهو شارع الترנקات el Trankat .

ربما يمثل تاريخ بناء هذه الزاوية إشارة واضحة إلى أن شارع الترنكات قد بُنى قبل شارع عيسون. تم نفى الموريسكيين الذين أقاموا منازل في الترنكات عقب حرب البشترات الأهلية والتحركات "إلى الجانب الآخر" التي نُفذت عند نهاية القرن.

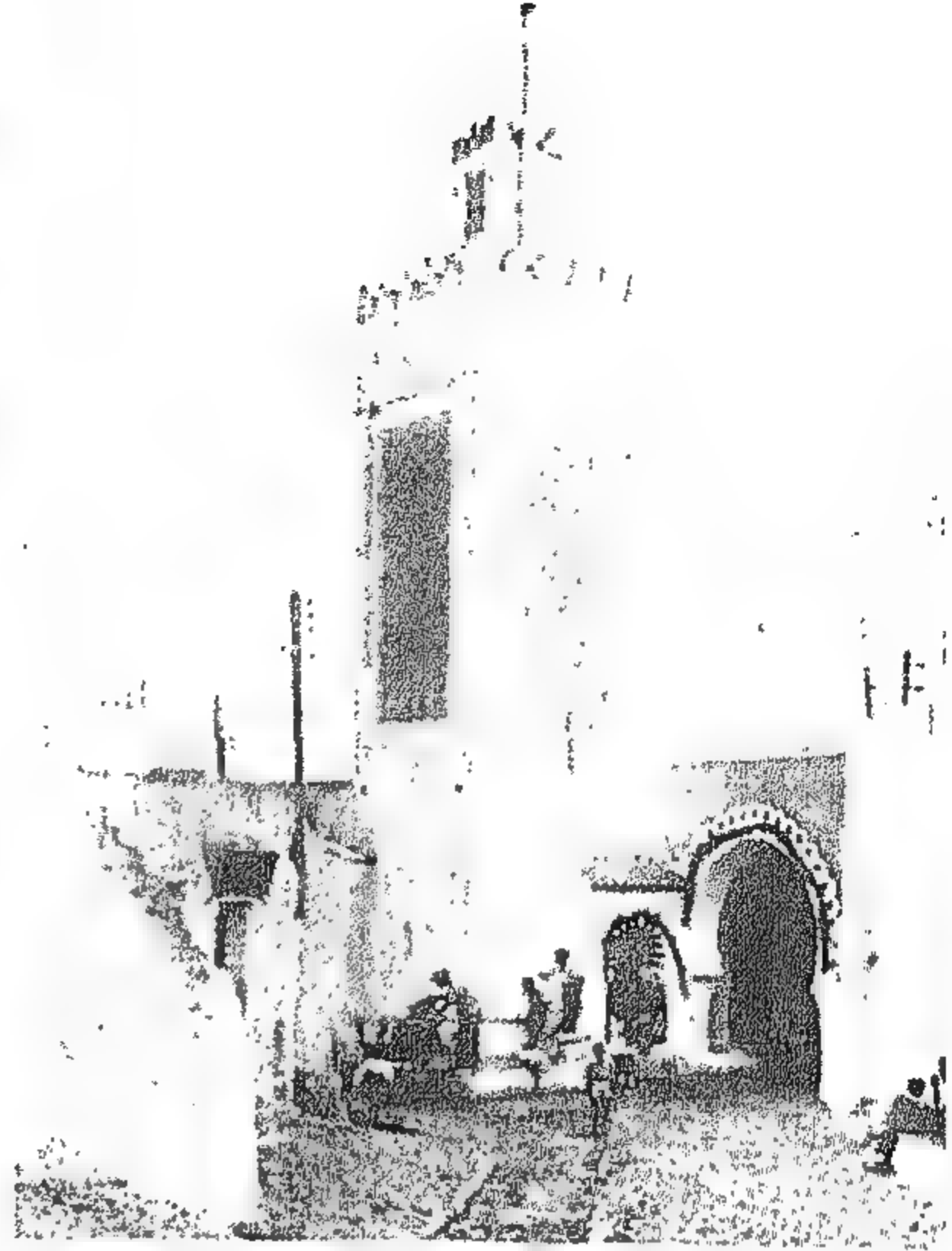
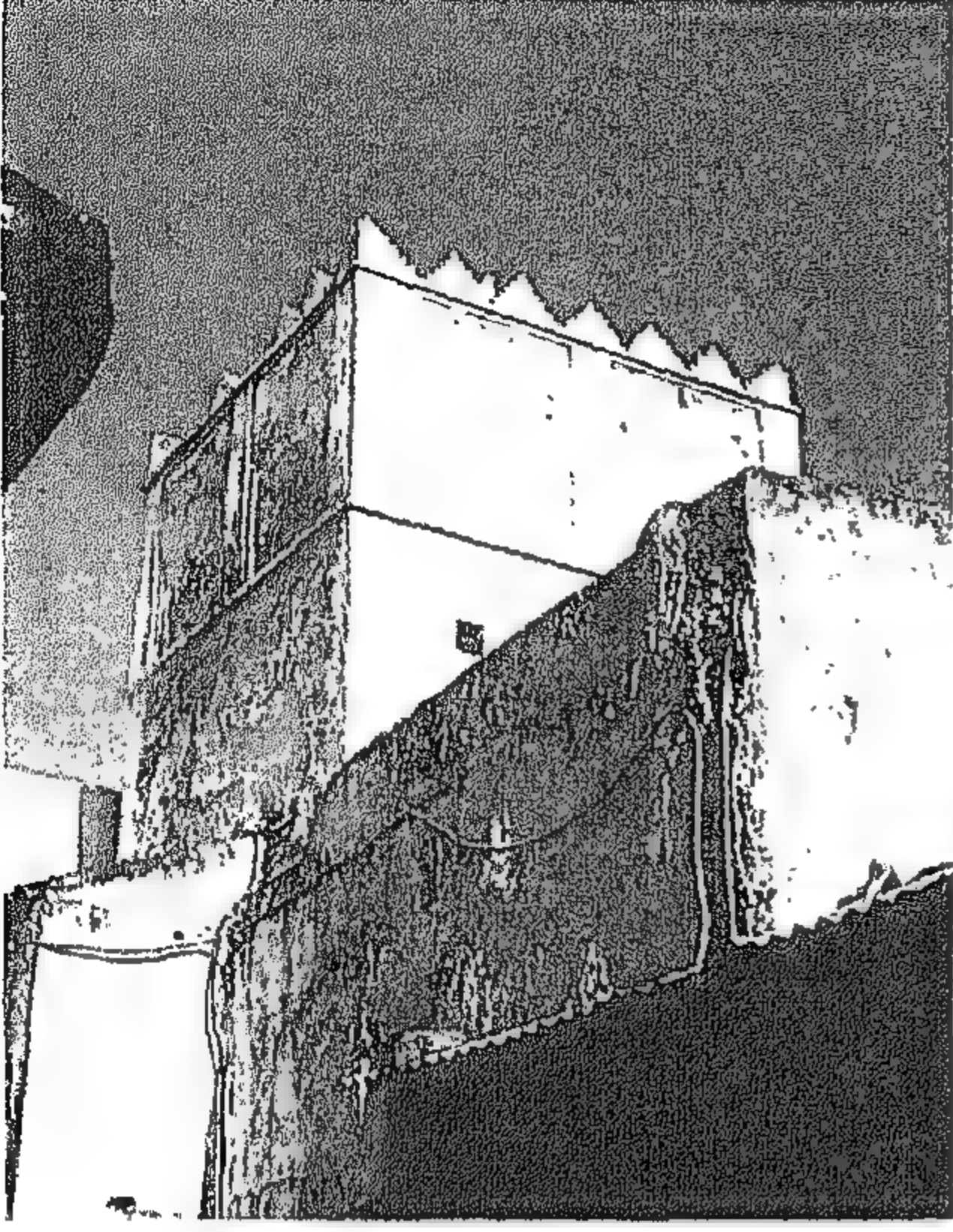
نصل إلى القرن السابع عشر وفي عام ١٦٠٩ شيد سيدي قاسم الحاج مسجد سيدي السعيدى as Saidi^(٢٤). كان يقع قريباً جداً من أحد أبواب المدينة، باب سعيدة Salda. إن المئذنة كلها التي توجد في أسفلها نافورة بعقد على شكل حدوة فرس ذي فصوص وكُنة، ويوجد على يساره مباشرة عقد على شكل حدوة فرس، ذو فصوص أيضاً، ولكن أكثر حجماً، مع هياكل مغطاة بالزليج - تؤدي إلى شارع مغطى و برج ذي نوافذ أطرها مغطاه بالخزف، وفي العمق قبتين بثمانية أعمدة، تعطى طابعاً جمالياً من الصعب أن يُنسى. (شكل ١٧). فهو أكثر ارتفاعاً عنه في مآذن أخرى، وكل حوافه العليا بها شرفات، على طريقة الأسلوب الكلاسيكي.

عند النزول بانحدار في هذا الشارع الذي يصب في حرم سيدي السعيدى Saidi فإنك لا تستطيع التخلص من العاطفة التي يوقظها الأثر، وتتقد العاطفة أكثر كلما اقتربنا وأحطنا، سواء من اليمين أو من اليسار. نحن، في الاتجاه الأول، نضع أنفسنا تقريباً في اتصال طبيعي مع الجو الصوفي لداخله، عندما نمر بالشارع الصغير المغطى. (شكل ١٨). ونتجول في الشارع الثانى بجانب المسجد حيث يوجد المحراب، الذي يبدو كصدر لإحدى الكنائس البدائية. تصب النهاية القريبة لهذا الشارع في باب السيدة، الذي ربما أُعيد إنشاؤه، ويقدم لنا منظره مثلاً على الأسوار التي كانت تحيط المدينة في القسم الشرقي. (شكل ١٩).

في عام ١٦١١، أنشأ سيدي على ماسيميدي Ali Masimdi الجامع الذي يحمل اسمه^(٢٥). تتبع المئذنة الاتجاه الفني لما سبقها، والاختلاف الصغير هو أن الجدران الناعمة تُرى جميلة المنظر في منتصف ارتفاعها بسبب تصفيحتين محفورتين، تشبهان الإطارات المرصعة. كانت إحدى هذه التصفیحات طويلة والأخرى مستطيلة وتلمس الإفريز العلوى. (شكل ٢٠).



صور (١٥-١٤-١٣-١٢)



صور (١٦-١٧)

تعطى التصفیحات تأثير إطالة شكل البرج الأساسی الذي يبدو، على الجانب الآخر، أنه يكمل قاعدة الارتفاع الرباعي الأضعاف للقاعدة. كانت الشرفات المسننة، مشابهة للنماذج القديمة، بالرغم من أن عددها كان أكبر. كان البريج أيضاً مزيناً بتصفیحة صغيرة محفورة. (شكل ٢١).

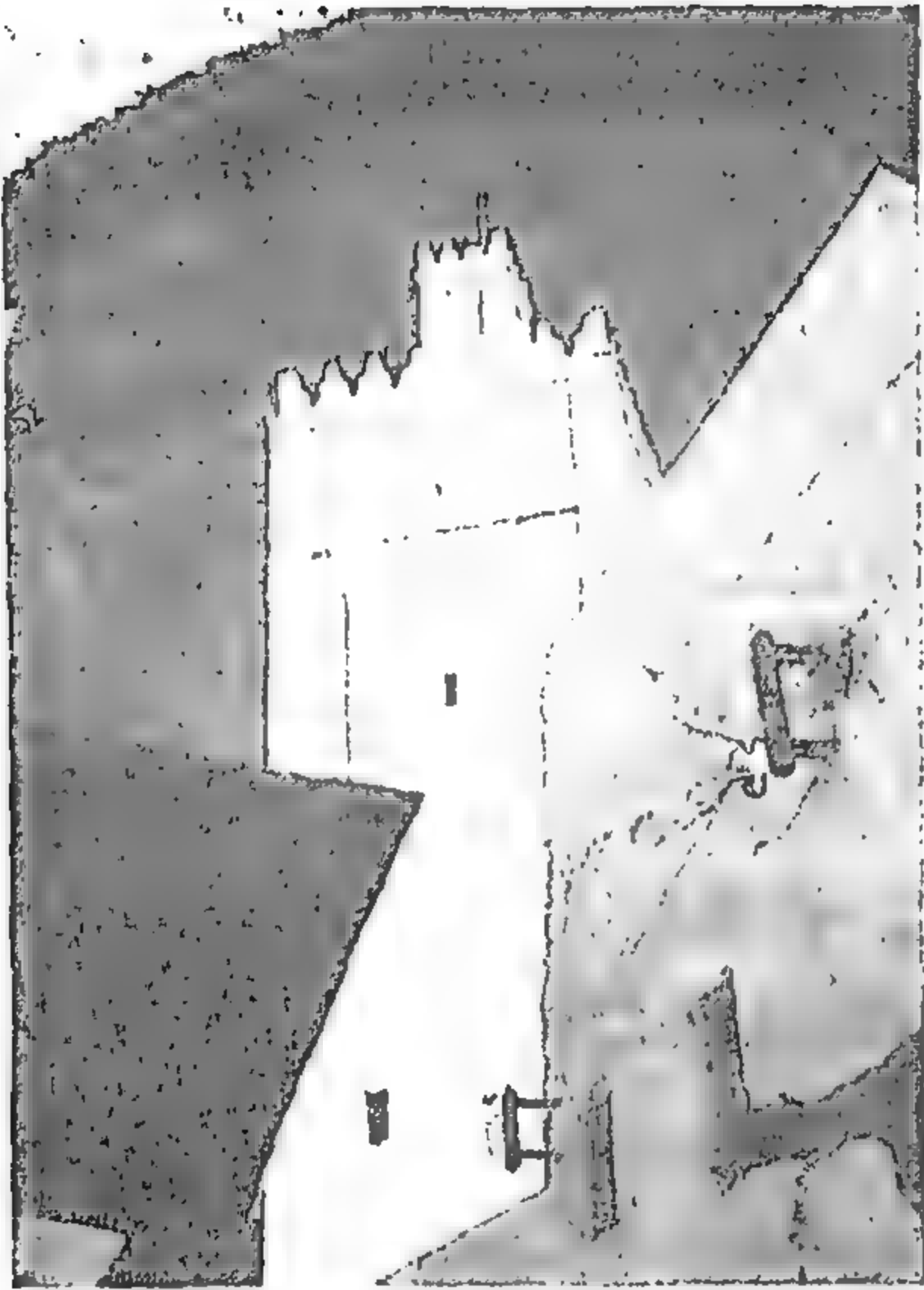
كان بناء القرن السابع عشر هو المعلم العظيم سيدي على بن مسعود العويدي **Alí Ben Mesaud al Yu'aldi** ، الذي نفذ البناء الذي كان بالتأكيد المسجد الأكبر الذي بناه الموريسكيون التطوانييون، وهو جامع عيون. يتكون هذا الجامع من خمسة صحنون، أي ما يشكل اتساعاً ضرورياً للحشود التي كانت تتمركز في المدينة. كانت مئذنة جامع عيون من المآذن الأكثر رشاقة في المدينة الموريسكية، دون اكتمال قواعد النسبة القديمة بين جانب من القاعدة والارتفاع، التي كانت سائدة حتى غرناطة بنى نصر. (شكل ٢٢).



صورة (١٨)



صورة (١٩)



صور (٢٠-٢١-٢٢-٢٣)

فى المنظورين اللذين نعرضهما يمكن ملاحظة الفرق بين تأمله من الشارع (مع السماء كخلفية وتقريباً من القاعدة)، عن رؤيتها مُدرجاً من بين المباني، يوجد فى وسط جسمه الأساسى نافذتان مسدودتان، يفصلهما عمود حجرى أو عمود صغير ملحق. (شكل ٢٣).

يقوم على بعد متر من مصده العلوى إفريز خفيف، يعطى، مع خط ظله، نفس التأثير الزخرفى الموجود فى الجوامع الأولى من القرون السابقة. وله شرفات مسننة كما فى كل الأبراج التى درسناها حتى الآن، يشكل البريج - وارتفاعه يزيد عن ضعف عرضه، بشرفاته الصغيرة، الموجودة فى الذروة - واحداً من الأمثلة الأكثر تميزاً فى المباني الدينية التطوانية الخاصة بتلك الفترة، بل وعلى مدى كل الأزمنة (٢٦).

كان الجامع الجديد Nueva Mezquita أو جامع جديدة Yam'a Yadida أقل حجماً من جامع العيون، حيث كانت له ثلاث صحنون فقط، وبُنِى فى عام ١٦٤٠، لتلبية الاحتياجات الاجتماعية لتلك الفترة. استمر الموريسكيون فى التدفق، بالرغم من أن ذلك كان بنسبة أقل عن الأعوام التالية للهجرة الجماعية الكبيرة. ربما ذهب الكثيرون، من الذين كانوا قد بحثوا عن ملجأ فى الحقول والمدن الصغيرة، إلى المدينة الكبيرة وهى تطوان حينئذ، لكى يحسنوا أحوال حياتهم أو لتفادى الاستقبال الريفى العدائى المستمر تقريباً. تطلب الأمر إنشاء مبانٍ دينية أكثر مثل جامع جديدة هذا. (شكل ٢٤).

تحاول مؤذنة هذا الجامع، دون شك، أن تقلد سابقاتها بإفريزاتها وأقواسها، ولكن لم تكن هذه الأقواس تقع على نفس الارتفاع ولا كانت المآذن بنفس الارتفاع ولا بنفس الجمال. كانت الشرفات مشابهة لكل سابقاتها، يحوى السوق الفوقى Zuq al Fuki الحالى، أو السوق العالى mercado de arriba، مبنين، تم إقامتهما بفارق زمنى طفيف، وفى الأعوام الأولى من القرن التالى، وهما جامع الساقية الفوقية Sakia al fukia وزاوية سيدى على بركة Ali Baraca، وكان كلاهما متميزاً، على الأخص بسبب مداخله. (شكل ٢٥).

كانت مئذنة الحرم الأخير من النوع الكلاسيكى رباعى الزوايا ذى الشرفات، برفوف ببلاط قيشانى جميل وحاشية عليا بشبابيك مسدودة.

نغلق هذا الملخص، عن التجليات الهندسية لشعور الموريسكيين الدينى، بصورٍ لآثار أخرى تتبع هذا الخط الروحى، وهى المسماة بالقبور الأندلسية.

تقع هذه القبور فى رابية، فى منحدرات جبل درسة، فى شمال المدينة. هى نوع من السرادقات ذات تصميم مربع، بقبة شبه كروية على منحنيات pechinas . الكثير منها متدهور والآخر مدمر تقريباً والقليل الذى بقى موجوداً دون حماية، ويعانى من أضرار الزمن والبشر. (شكل ٢٦). كان للمقابر الأكثر قدماً نفس أسلوب قباب جبانة فاس من عصر بنى مرين، والتى نعرف أنها خاصة بأفراد العائلة الملكية، لذلك نفترض أن مقابر تطوان كانت خاصة بعائلة بنى نصر المهاجرة.

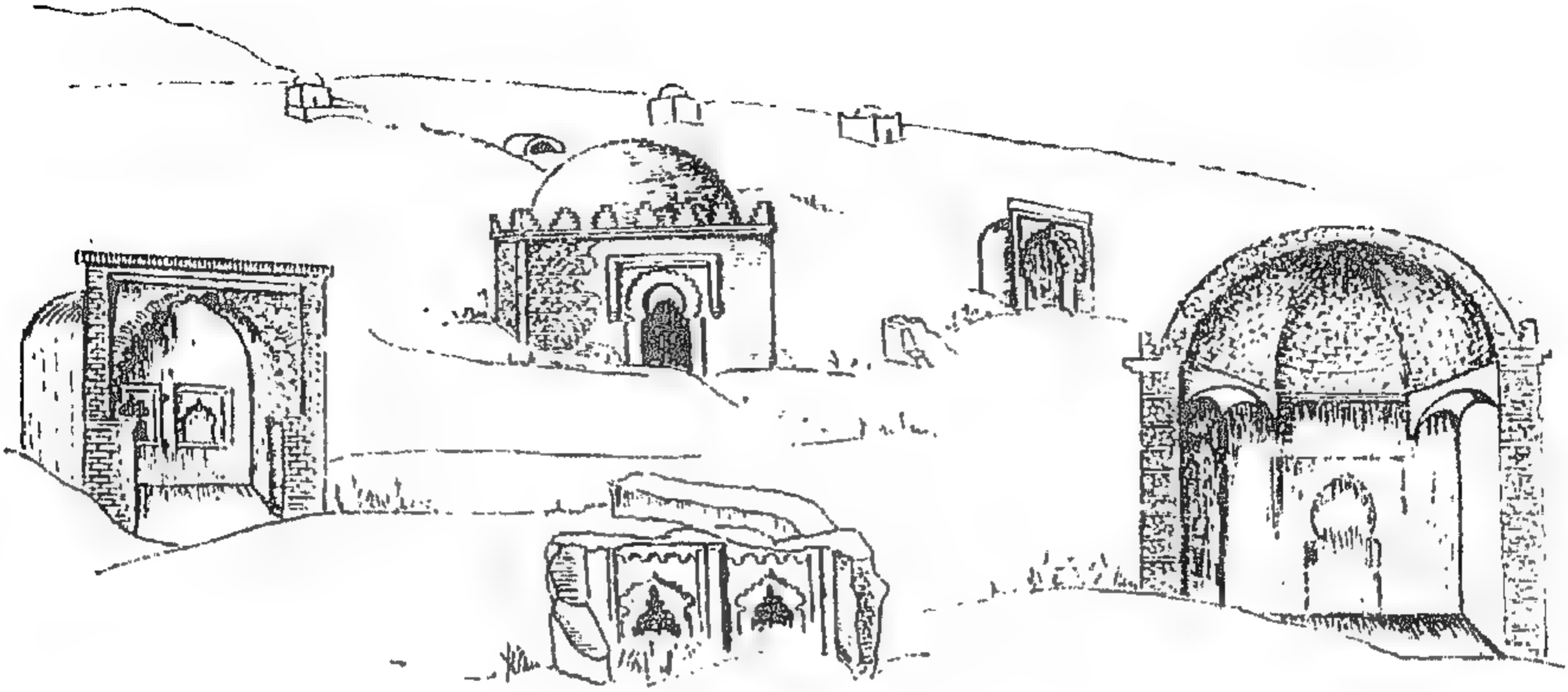
تظهر المقابر الأخرى ببوابة من قوس مزدوج أو قوس بسيط ذى فصوص كما لو كانت تؤدى إلى الجنة، وتختفى صفات القباب المميزة فى هذه الحالة. تلك القباب التى ظهرت، بدون شك، فى فترة أكثر تأخراً^(٢٧) . لدينا منظر جميل لتطوان، من الجبانة الإسلامية، حيث تظهر فى المرتبة الأولى واحدة من القباب التى حُفظت بشكل أفضل. (شكل ٢٧).

تمتد المدينة عبر وادى مارتين فى اتجاه الشرق باحثة عن البحر، على بعد ١٠ كيلو متر، من حدود المدينة. تدلنا الصور الجانبية لقبة أخرى على بعض تفاصيل التلف الذى كان يستشرى مع الوقت. كانت كلها آثار من القرن السادس عشر تستوجب الحفاظ عليها. (شكل ٢٨).

توجد، بالإضافة إلى المآذن والزوايا والمساجد، بعض الأطلال التاريخية التى يمكن اعتبارها من الموروث الموريسكى، كالأبواب والأسوار. يجب الأخذ فى الاعتبار حدثين أساسيين:



صور (٢٤-٢٥)



صورة (٢٦)

الأول، هو أن الموريسكيين قد هربوا أو طُردوا، في آخر الأمر بسبب مقاومتهم ليكونوا ذوى حضارة، وكان يوجد في هذه الحضارة، عامل أساسي هو العامل الديني. الثاني، هو أن وجودهم في الشمال المغربى كان يجلب لهم المشاكل بسبب عداوة السكان الأصليين والأعداء المسيحيين للمواقع الساحلية القوية.

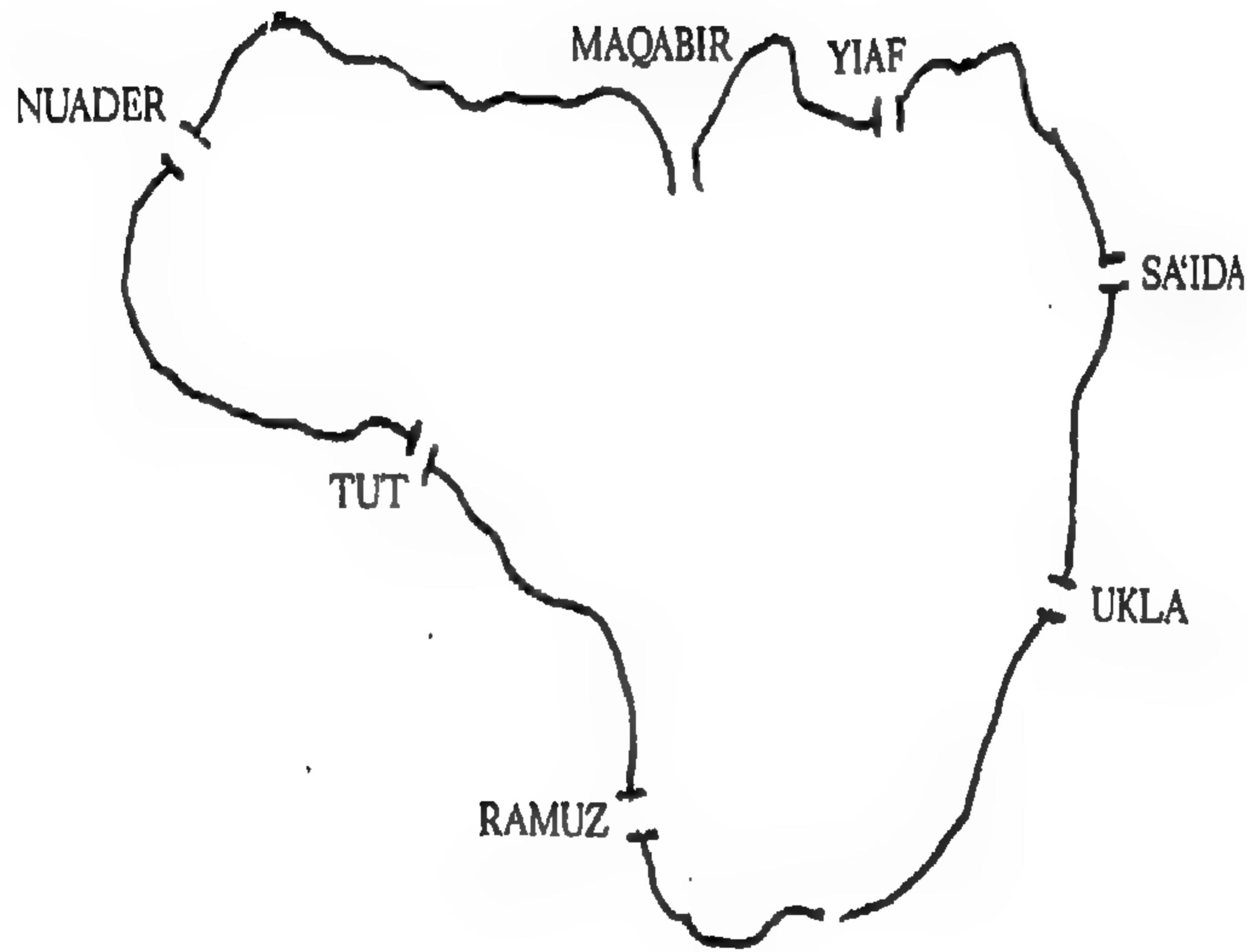
كان اهتمامهم الأول هو حماية أنفسهم، والتحصن للدفاع عن حياتهم في حالة التجمعات ذات الحكم المستقل. لهذا كانت كل الأطلال التى وجدناها تقريباً عبارة عن مبانٍ دينية وحربية. فى المكان الذى تمركز الموريسكيون فيه، سواء فى الفترة الأولى أو فى الفترة الثانية. كانت هناك سبعة أبواب ذكرها المؤرخ التطوانى إيرھونى فى مدينته: باب مقابر Maqabir وباب جياف Yiaf وباب سعيدة Sa'ida وباب رموز Ramuz وباب عُقلة Ukla وباب توت Tut وباب نوادر Nuader . نستطيع، فى الخريطة التى أخذناها



صور (٢٧ - ٢٨)

كقاعدة لتحديد مكان مدينة المندارى، أن نحدد موقع الأبواب السبعة، حيث نجد، بداية من الجزء الشمالى، باب مقابر Maqabir ونجد، فى اتجاه عقارب الساعة أبواب جياف وسعيدة وعقلة ورموز وتوت و نوادر وهى النهاية الشرقية.(شكل ٢٩).

يعتبر باب مقابر أو باب الجبانة، المسمى أيضاً باب سبتة، (لأن هناك كان يبدأ وينتهى الطريق الأكثر قدماً تجاه سبتة)، واحداً من النماذج الأكثر تكراراً فى المدينة، بجماله المتميز، عند تصويره من الخارج، بحيث نجعل زاوية حراكية harrakia كخلفية.(شكل ٣٠).



صورة (٢٩)



صور (٣٠-٣١)

يؤدي مخرجه إلى مقابر على كلا الجانبين، على اليمين واليسار. كانت المقابر الموجودة على الجانب الأيسر هي الأكثر قدمًا، حيث توجد المدافن الأندلسية، سواء لمنفى عصر المنداري أو لموتى القرن السابع عشر. تتوزع المقابر في منحدر ربوة تصعد حتى القصبة. تتفرق، في هذه الربوة، القباب التي تخص أشخاصًا من الطبقة العليا للنبلاء التطوانيين.

إن على المنداري ذاته مدفون، ليس بعيداً عن المدخل، في الجزء السفلي، وقد دخلت مقبرته الآن في المدفن الخاص بموتى "عبد الخالق توريس" Abd el Jalak Torres. دُفنت في هذه الجبانة أيضاً عائلة النقسييس، بالرغم من أن المقبرة الوحيدة المعروفة هي التي حددها لنا داوود. تمتد مقبرة أخرى على يمين الطريق الذي يخرج من باب مقابر.

عندما نصل من داخل المدينة حتى هذا الباب، نرى فراغين، لكل منهما عقد يشبه المخرج. مع ذلك، فإن واحداً منها فقط هو الذي يؤدي مباشرةً إلى الخارج. (شكل ٣١). كان هذا الباب في الأصل باباً في ركن، ربما الوحيد في المدينة، أو الوحيد الذي ترك كذكرى عن هذا الظرف. كان العقد الشمالي، الأكبر شيئاً ما، هو الوحيد الذي يمرر إلى الجبانات.

كان الباب الأكثر قرباً من باب المقابر هو بالتحديد باب آخر يطل على المدافن الأكثر حداثة، ومن خلاله خرجت و لا تزال تخرج جنازات عديدة. من هنا أطلق عليه اسم باب جفاف، باب الجثث أو باب الموتى. (شكل ٣٢).

هناك انطباع بأن فتحة هذا البناء قد صُنعت في عصور أكثر حداثة من هجرة الموريسكيين، الذين استفادوا من مخرج آخر أصغر مستخدم بكثرة.

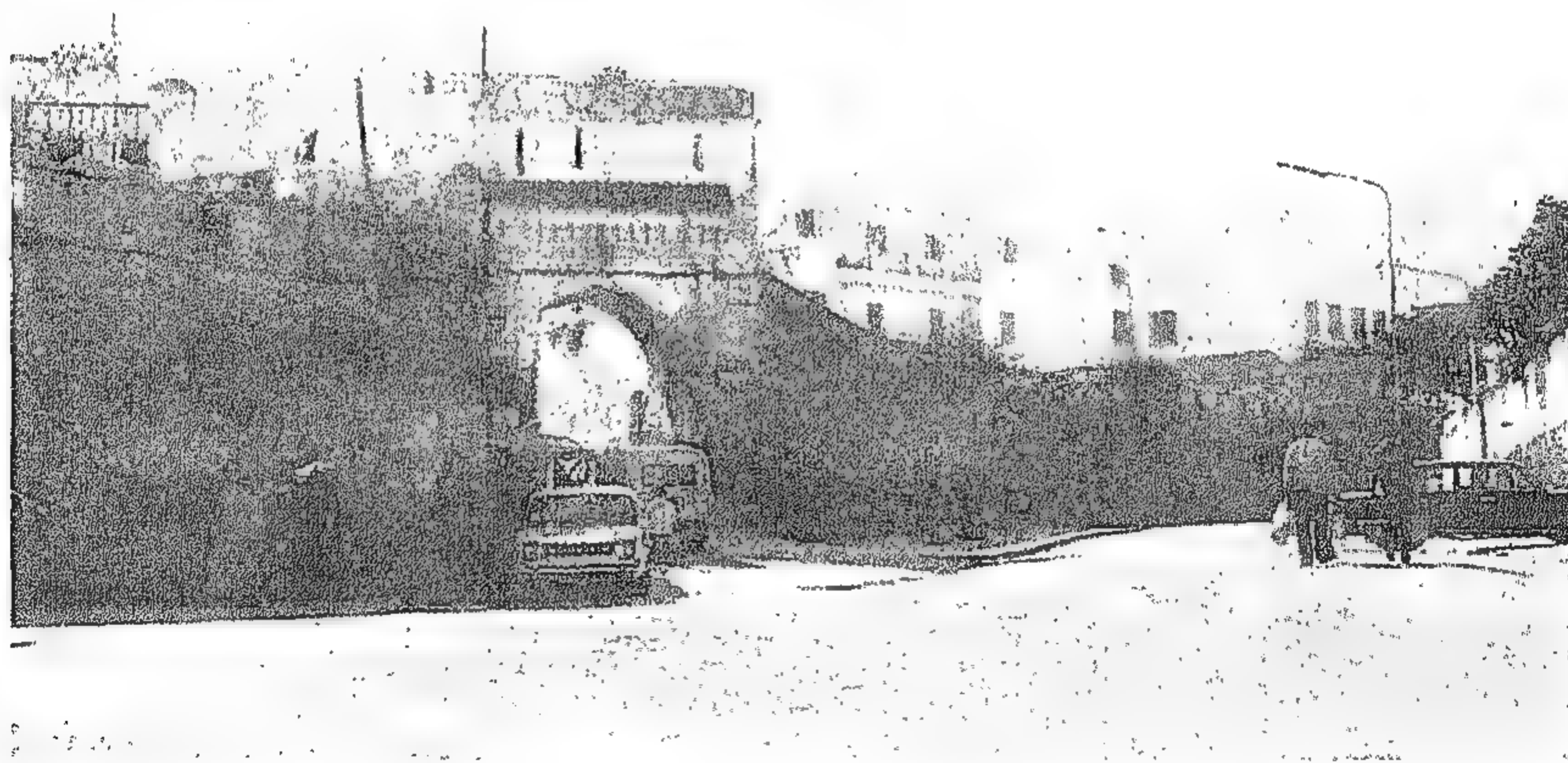
لقد رأينا، فيما سبق، باب سعيدة، ونقدم الآن منظرين جديدين له من الخارج: الصورة الأولى له وهو في المقدمة، والأخرى مشابهة جداً للصورة التي رأيناها من قبل. (شكل ٣٣ و ٣٤).



صورة (٣٢)

نجد أن جزء السور بالشرفات ذات الطرف المزدوج له شكل مميز و هي شرفات عالية الارتفاع. يوضح لنا الشكل رقم ٣٥ النظرة التي لدينا بالفعل عن باب عقلة Ukla بعد تدمير الباب القديم وإعادة إنشائه وفقاً لتصوير المسئول عن البناء.

يوجد في العمق على اليسار، أحد الأبراج الدفاعية، المحفوظ في شكله المصلع الأصلي، بمنحدره النموذجي للتحصينات البرتغالية للقرنين السادس عشر والسابع عشر. نجد في الأعلى خرسانة ذات حواجز حجرية وزوايا من الطوب، خاصة بالإنشاءات الدفاعية الموريسكية للقرن السابع عشر، مثل تلك التي نستطيع تأملها في مدينة الرباط. لا تزال تظهر مدافع الذين دافعوا عن المدينة في هذه القرون، وهي الآن لا تعمل. يسمى باب عقلة هذا باب الملكة، لأن من خلاله دخلت قوات الملكة إيزابيل الثانية، أثناء حرب عام ١٨٦٠ .



صور (٣٤-٣٣)

يوجد باب الرموز بعد باب عقلة، و كان يسميه الإسبان باب الهلال، لوجود الهلال فى نهاية هذا الشارع، الذى ينتهى بانحدار يقطعه هذا الباب، كانت بعض الدرجات الصغيرة تنزل من باب الرموز إلى حديقة كاخيغاس Parque Cagigas ومنها إلى طريق مدخل المدينة. استغل الموريسكيون هذا الانحدار الذى تعلوه صخور لمسافات طويلة، لرسم أسوارهم الدفاعية - كما رأينا فى الجزء العلوى لمقبرة سيدى عبد القادر تبين - وإنشاء الأسوار فى اتجاه باب العقلة.(شكل ٣٧ و ٣٨).

يوجد باب طنجة بين باب رموز وباب نوادر أو بين باب الهلال وباب فاس، اسمه الأصلى هو باب توت، واشتق اسمه من أشجار التوت التى كانت موجودة على الجانبين فى عصر آخر، كانت هناك نافورة ملحقة فى الجزء الخارجى إلى اليمين، يعطى عدم التناظر الغريب بين النافورة والباب انطباعاً عاماً بالجمال. بالرغم من وعورة مدخل المدينة.

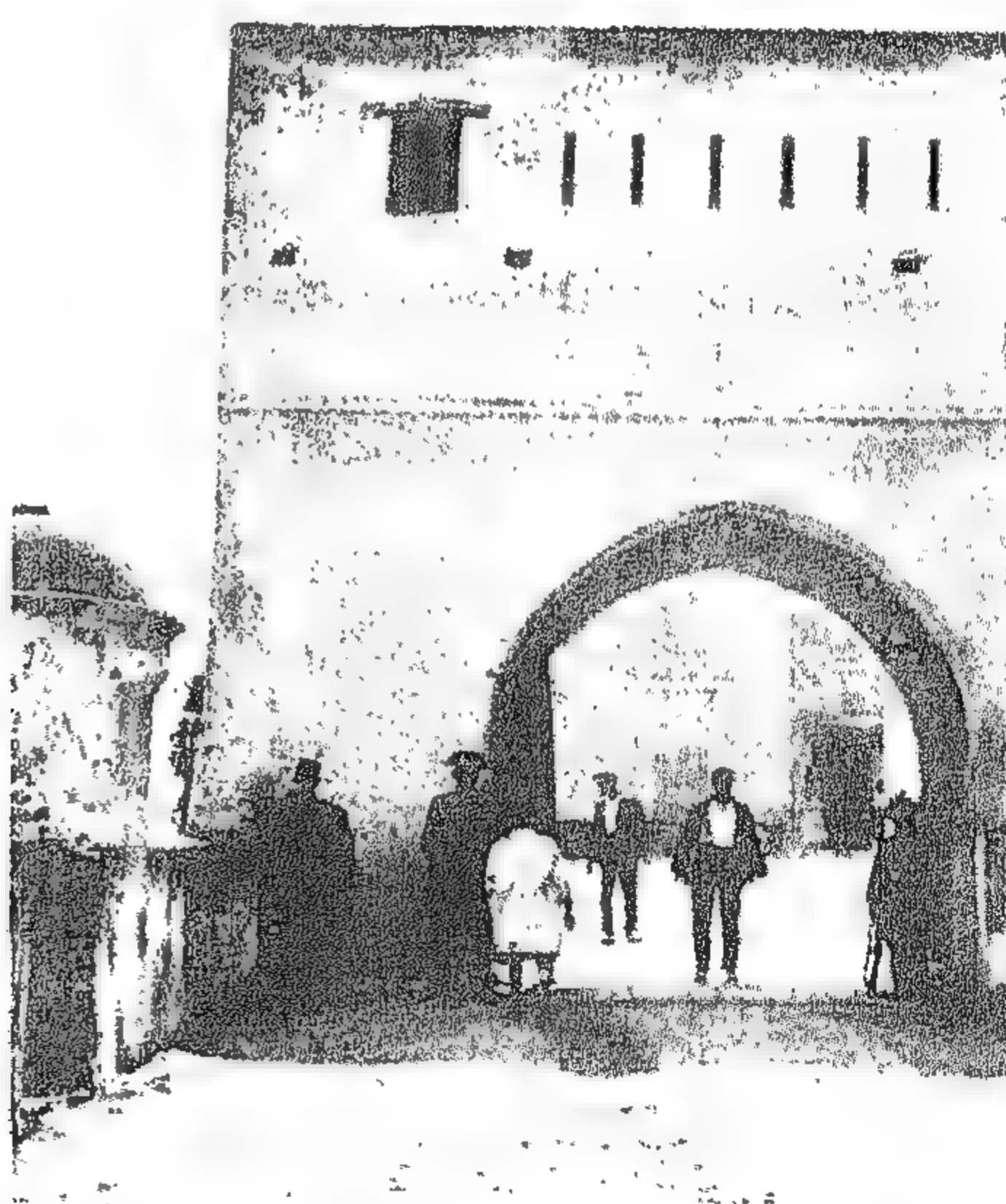
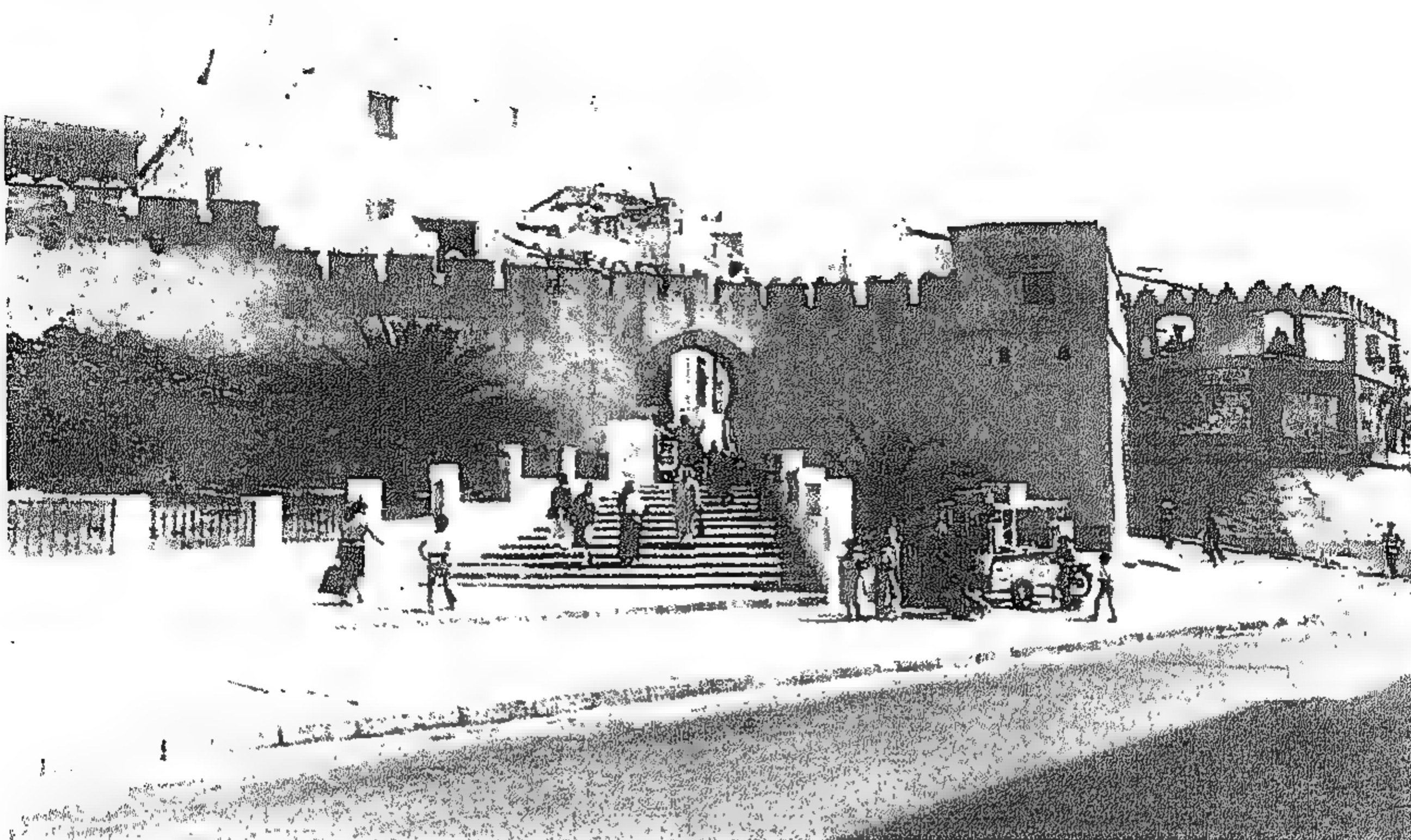
لا يزال من الممكن أن تظهر قطع من سور على أحد جوانب هذا الباب أو على جانب آخر، و تكون مرئية من الداخل بالأخص.

يؤدى باب توت، إلى الشرق، إلى شارع ترنكات الطويل، الذى كان يحاذى الأسوار الدفاعية التى أنشأها أوائل الموريسكيين المنفيين.

نستمر فى اتجاه الشمال، حتى نجد شارعاً صغيراً بمنحدر يربط الباب بشارع العيون، وهو الطريق الموريسكى الأكثر حداثة الذى أنشأه المنفيون عام ١٦١٠ .

كان شارع العيون، المسمى أيضاً شارع فاس، هو الأكثر طولاً. كان طوله أكبر حتى من شارع ترنكات.(شكل ٣٩ و ٤٠).

و أخيراً لدينا نظرة خارجية لباب نوادر، الذى يسمى باب فاس، فى الطرف الشرقى لشارع العيون الطويل، (العيون أو النافورات)، المعروف أيضاً بشارع فاس. تُرى على يمين الصورة أطلال برج - قلعة، تهدم حديثاً. كانت الأسوار تستمر على الشمال، فى تسلق يتجه إلى أعلى، مخترقاً ربوة من رُبى جبل درسة.



صور (٣٥ - ٣٦)

حكومة أحمد النقسيس

قدّر حاكم سبّنة، ماركيز بيارريال، عدد الموريسكيين الذين تركزوا في المنطقة الواقعة بين سبّنة وتطوان، بأكثر من ٤٠,٠٠٠، عقب قرارات الطرد الأولى.

بطبيعة الحال لم يبق الكل هناك، لم تكن الأرض ولا التركيبات الاجتماعية - الاقتصادية الموجودة في المدن التي أسسها الموريسكيون مسبقاً، تسمح بالذوبان السريع، ولا على المدى المتوسط، لهذه الكمية البشرية.

لكن بقي الكثير منهم، ربما أكثرهم ميلاً إلى القتال، في تطوان، حيث استمالهم الصراع ضد "عدو الدين" البرتغالي، أو الانتقام الذي كان في متناول أيديهم عند التوجه للحرب البحرية، بقوارب ومراكب القرصنة لنهر مارتين.

ازداد عدد سكان المدينة كثيراً. استطعنا إثبات ذلك عند فحص الآثار الدينية، التي تركتها تلك الأجيال كبقايا مقدسة إلى الأجيال الحالية والقادمة، لا يحدثنا أي مؤرخ أو أية وثيقة رسمية عن العدد، ولا حتى بصورة تقريبية.

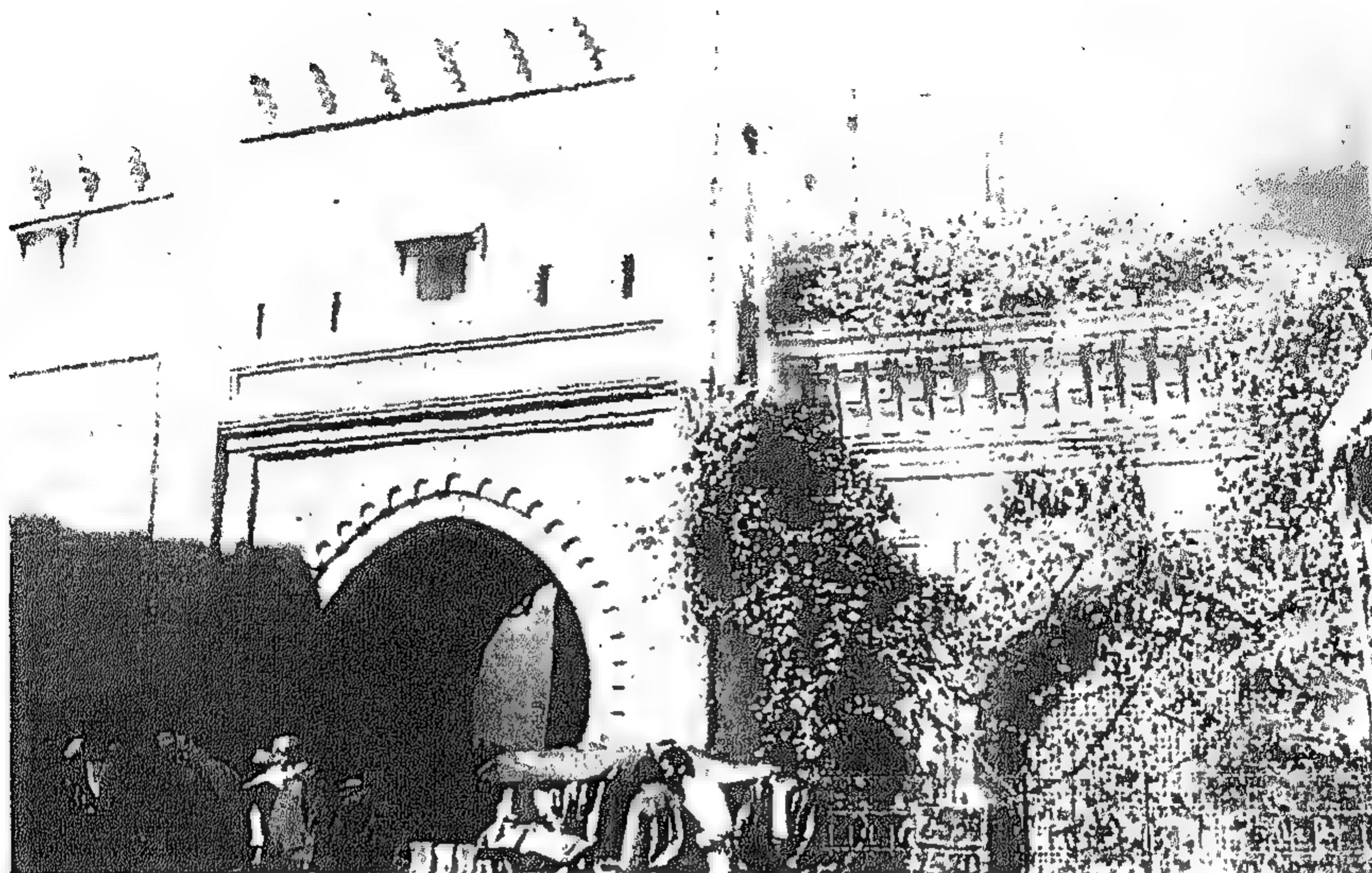
وصل عدد سكان مدينة المنداري الإجمالي من ١,٥٠٠ إلى ٢,٠٠٠ في العقد الأول من إنشائها، ووصل إلى ١٠,٠٠٠ عند بداية القرن السادس عشر. هذا هو عدد السكان الذي كان موجوداً، تقريباً، عند موت القائد المؤسس في عام ١٥٤١، استمر في الازدياد مع مرور القرن السادس عشر وقفز قفزة عديدة بداية من عام ١٦٠٩.

يحتمل أن تكون الزيادة ملحوظة، وتعكس هذا معلومة أخذناها من نص يهودي لذلك العصر، قرر مولاي الشيخ، عند احتلال تطوان في عام ١٦١٠، ضريبة استثنائية أو ضريبة على السكان، بعد هروب النقسيس.

انقسم المدنيون، بسبب هذه الضريبة، إلى ثلاث مجموعات كبيرة: مسلمون وأندلسيون ويهود. نفترض أنهم كانوا على التوالي، التطوانيين الأصليين والذين وصلوا مؤخراً واليهود، أو بكلمة أخرى، قدماء الموريسكيين والموريسكيون الجدد واليهود. طُلب من أول مجموعة ١٠٠,٠٠٠ أوقية، أو عملات البلد النقدية، ومن المنفيين في اللحظة الأخيرة طلبوا ١٥٠,٠٠٠ ومن اليهود ١٠,٠٠٠ (٢٨).



صور (٢٧ - ٢٨)



صور (٣٩ - ٤٠)



صور (٣٩ - ٤٠)

ليس هناك مجال للشك فى أن الموريسكيين الوافدين حديثاً كانوا يشكلون الأغلبية العددية للسكان، وكما هو ملاحظ، كان تحت تصرفهم ممتلكات كثيرة وكانوا مستقرين بصورة كافية لى يجعلهم السلطان يدفعون الضرائب كما كان يفعل السكان القدامى.

مع ذلك لا نستطيع تحديد معيار تقريبي، بسبب أنه فى واقع الأمر كانت هناك عدة عوامل. أولها هو احتياج السلطان الملح للنقود فى تلك الفترة، بالرغم من المبالغ الضخمة التى قدمتها له المملكة الإسبانية بالتنازل عن العرائش.

و هناك عامل آخر وهو أنه كان يعرف تماماً أن الموريسكيين بوجه عام، والتطوانيين، بوجه خاص، كانوا أكثر تأييداً لمولاي زيدان . بذلك لم يكونوا يفعلون أكثر من اتباع ميول المقدم النقسيس، المعادى للشيخ.

إن انقسام أو تجمع الموريسكيين التطوانيين فى فئتين، عند وقت الدفع، يجعلنا نشك أنه أيضاً عند وقت إبداء الرأى أو الميل لإحدى المجموعات أو الأخرى، كان يوجد تعدد فى وجهات النظر. ظهر هذا الأمر فى إحدى المناسبات، لكن نعتقد أنه إذا لم يكن النقسيس قد اصطدم بشكل مباشر، فإن خلفائه قد اصطدموا بازدياجية السكان القدماء والجدد فى تطوان النامية.

استمر أحمد النقسيس، حاكماً فى تطوان أو لاجئاً فى الجبال، فى كونه دائماً الحاكم ذا المكانة الواضحة بين أتباعه والتأثير الكبير فى شئون البلد.

فى يونيو عام ١٦١٠ فشل ماركيز سان خيرمان بأسطوله وجيشه، المستعد لاحتلال العرائش، التى تنازل عنها الشيخ أو المأمون، لأن النقسيس قد حذر حاكم العرائش وأرسيلة والقصر الكبير، بهدف أن يتجمعوا ويقاوموا هذا التسليم، وقد قاموا بذلك بالفعل (٢٩).

نفذت العملية بعد ذلك بشهور، عندما أرسل السلطان للمقرب إليه، القائد بودبيرا لى ينفذ عملية الانسحاب من الموقع. ذلك التنازل سبب أضراراً أكثر

مما سبب من منافع لقضية السلطان، حيث تسبب في موجة من الاعتراضات وكان بمثابة حجة عادلة لمعارضيه لكي يتصلوا من أى دعم له. لم يسامحه رجال التاريخ والمؤرخون المغاربة، ونقدوا بطريقة قاسية تركه مدينة إسلامية في أيدي العدو المسيحي.

إن المفاجأة في هذا الموقف في النقد الذي حدث حينذاك هو أن النقسيس، وهو واحد من معارضيه الأساسيين، استطاع تنبيه محاربي القصر والعرائش نفسيهما، بفضل التحذير الذي تلقاه من زوجته، التي كانت لاجئة في سبتة ورأت بنفسها الأسطول الإسباني وهو يخرج متجهاً إلى العرائش.

فعندما رأى أحمد النقسيس نفسه عاجزاً عن مقاومة هجوم جيش مولاي الشيخ، اختار المخرج الذي كان في متناول يده، وعلى الجانب الآخر، كان ذلك مألوفاً داخل آلية صراع الحدود ذاته الذي كان يحدث في المنطقة. تفاوض على هدنة مع الحاكم السبتي، حيث أرسل له زوجته وأبنائه لكي يكونوا تحت حمايته.

ضايقت هذه الاستضافة السلطان الذي تسانده إسبانيا، والذي عارض هذا الموقف الذي كان يعنى الحماية المقدمة لبعض أعداء الحلف الإسباني حينئذ. كان لدى قائد سبتة العام، ماركيز بياريال، أسبابه لكي يتصرف بهذه الطريقة، لأن وضع المنطقة وكفاحه المستمر ضد المحيط العدائي، الذي لم يعتمد، في كثير من الأحيان، على وسائل كافية للقيام بذلك، مع ما يلزم ذلك من تضحية بالمحاربين وبالشعب، جعله يضمن السلام مع أرض قادرة جداً كتطوان، عن طريق النقسيس (٢٠).

لم يكن هناك شيء يوقف الحبل الذي كان يخلق الحياة السياسية والمدنية في سبتة. لم تستطع الأسباب أن تكون مقنعة أكثر. ومع ذلك، عندما أرسل الشيخ قائده أمو بودبيرا Amu Budblra ، إلى تطوان، كحاكم للمدينة، ربما يكون قد تفاهم مع زميله من سبتة، لأن النقسيس سحب زوجته وأبنائه من سبتة، وهرب إلى الجبال المجاورة بجانب قائد حزب زيدان. نضيف إلى رؤية الحالة التي انتهينا من الإشارة إليها، أن سبتة لم تكن فقط ملجأ وعزلة للسياسيين المنشقين، وبالأخص لهؤلاء المقيمين في

تطوان، ولكن للكثير من الموريسكيين الذين لم تكن عقيدتهم الإسلامية ثابتة، وجدوا في هذه المنطقة الإسبانية القوية مكاناً للعودة إلى المجتمع المسيحي (*).

وفي عام ١٦١٠ هذا، استفاد بالتأكيد ما لا يقل عن عشرين ساكناً من تطوان، - كانوا بلا شك موريسكيين وصلوا حديثاً - كنتيجة للود الموجود بين سلطات تطوان وسبته وطلبوا نقلهم إلى سبته لكي يرتدوا. وقد أرسل ماركيز بياريال قاريين إلى خور نهر مارتين لكي يأخذهم.

يضيف المؤرخ نفسه الذي قدم لنا الخبر أنهم كانوا مسيحيين مخلصين، الأمر الذي يجعلنا نفترض أن بعضاً منهم قد بقي في سبته.

يقول لنا نفس المؤرخ أن بعد ذلك بقليل ذهب عضو بارز في المجتمع التطواني، حامد مفضل، إلى سبته مع كل أفراد عائلته، وارتد إلى المسيحية و اتخذ اسم رافائيل دي مينسيس **Rafael de Meneses** (٣١) (**).

يحتمل أنها كانت صدمة معنوية وسياسية فظيعة لعائلة مفضل، وهي إحدى العائلات الأكثر وجاهة والتي رافق أسلافها من غرناطة القائد المؤسس ذاته في منفاه وفي إنشاء المدينة. مع ذلك فإن عائلة مفضل، بعد غياب قصير، ظهرت قوية في الحياة العامة التطوانية بعد أعوام قليلة من هروب ذلك الشخص.

لدينا معلومات أكثر مأساوية إلى حد ما تحدثت عن اضطهادات وأيضاً استشهادات للموريسكيين الذين وصلوا إلى تطوان، والذي اعترفوا بأنهم مسيحيون وماتوا وهم كذلك (٣٢).

(*) نستغرب العزف على هذا الوتر من بعض المؤرخين الإسبان ونقول إن النظرة المتأنية تؤكد أن أساس المشكلة الموريسكية ديني، ولو أن الموريسكيين كانوا مسيحيين لظلوا في إسبانيا الكاثوليكية. هناك فرق بين العقيدة الدينية والمصالح السياسية التي قد تؤدي إلى التحالف مع طرف غير مسلم. (المراجع)

(**) أما القصص التي يوردها مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر حول ارتداد قادة مسلمين وتحولهم إلى المسيحية فلنا أن نفند ذلك بالاستشهاد بمقال للزميلة دلورس برامون تهكمت فيه من المبالغة في تصوير الأمر وأبدت شكوكها في القضية برمتها. انظر الجزء الأول من كتاب تكريم الدكتورة سوليداد كراسكو، مؤسسة التمييم للبحث العلمي والمعلومات، (زغوان تونس) ١٩٩٩، ص ٢٦٧ - ٢٧١، (المراجع)

مرت أعوام كثيرة، أكثر من قرن، منذ اختفاء الإسلام في شبه الجزيرة، وكان من النادر جداً أن يُحافظ عليه في كل نقائه، حيث كانوا يتذكرونه أحياناً كثيرة كعلامة على الهوية. كان القمع والعزلة في إسبانيا يمحوان طقوس وصلوات وباقي دلالات العقيدة الإسلامية. لم يكن إسلام التجمعات الموريسكية في شبه الجزيرة يتشابه في شيء مع إسلام القرى التي توقفوا فيها^(*).

عندما وصل الهورناتشيون والأندلسيون إلى وسط البيئة المغربية، لم يكن السكان الأصليون يتعجبون من ملابسهم وعاداتهم فقط، ولكن أيضاً من ديانتهم، لدرجة أنهم كانوا يطلقون عليهم مسيحيي قشتالة.

كان سكان تطوان، بالإضافة إلى ذلك، متأثرين بالمواجهة المستمرة مع مسيحيي سبتة. فإذا أظهر بعض الذين وصلوا عدم حماس للعقيدة أو إشارة ما على عدم الاتفاق مع البيئة، فليس من الغريب، إذن، أن يعانون من بعض المشاكل معهم.

إن التحول إلى المسيحية، كحالة المفضل والعشرين مدنياً الذين رأيناهم من قبل، لم تكن لتفعل أكثر من إغضاب المتعصبين واستثارة كل الباقين.

بعد هروب النقسيس من تطوان بقيت المدينة تحت سلطة الشيخ وحكومة القائد بودبيرا حتى قُتل السلطان في عام ١٦١٣. اختفى لذلك أفراد النقسيس من نطاقات التأثير المغربية في خلال ثلاثة أعوام بسبب الظروف، لأن جذور سيطرتهم كانت تعتمد على القوة التي كانت عشيرتهم المقربة و حلفائهم التطوانيون يعطونهم إياها.

كان أحمد عبد الله بودبيرا أو بوديبيرا هو القائد - الحاكم الذي باع، في عام ١٦١٢، النصيب الأكبر من الأسرى المسيحيين الذي تم تسجيله في مخطوطات ذلك العصر. كانوا عبارة عن ٥٦ أسيراً، كان من بينهم ٣٦ رجلاً و ١٥ امرأة و ٥ أطفال، حصل من بيعهم على ربح قدره ٨٠٠, ٨٦٥, ٣ مرابطى. بالإضافة إلى ذلك، فقد طلب

(*) لا شك في وجود اختلاف بين إسلام الأندلسيين وإسلام أهل المغرب في بعض الجوانب، لكن ذلك لا يشمل المبادئ الأساسية في الدين ولا في طريقة الصلاة والصوم... إلخ. تدل على ذلك مخطوطات موريسكية كتبها المسلمون في إسبانيا في أوج اضطهاد السلطات المسيحية لهم. ربما يكون الفرق بين إسلام الأندلسيين وإسلام أهل المغرب هو عدم قدرة الأندلسيين على أداء الحج مثلاً. (المراجع)

الحاكم التطواني أن يهدوه قطعة من القماش تتكلف في سبتة ١,٧٠٠ ريال ،
أى ٥٧,٨٠٠ مرابطى، بالإضافة إلى ١٠ بارات من المخمل بسعر ٥٨٠ ريال
أى ما يساوى ١٩,٧٢٠ مرابطى، حيث بلغ ثمن تكلفتها الإجمالية تقريباً أربعة
ملايين مرابطى^(٣٣) . وهى ثروة جيدة لخدم الشيخ الذى لم يتمتع بها سوى
قليلاً، حيث أنه عندما دخل النقسييس فى تطوان فى عام ١٦١٢ المذكور، قام بقتل
بوديبيرا .

لم يكن أحمد النقسييس، فى تلك الفترة من هروبه الإجبارى فى جبال هاوس
Haus، رجلاً شاباً، بل على العكس، كانوا يصفونه بأنه، عجوز أصلع، قليل الجسم
وأعور. وهو مظهرٌ يعطى انطباعاً بهيئة فظيعة، لمحارب متصلب، مخيف لأعدائه
ومحترم من حلفائه. كان الأعداء يفضلون أكل أولادهم عن تسليمهم إليه. يستمر
المؤرخ المعاصر فى الإشارة، ويروى كيف أن السلطان، عندما دخل فى تطوان،
أمر بهدم منزل عائلة النقسييس، وسلبهم كل ممتلكاتهم، من بينها، حوالى
أربعمائة بقرة. وهى تعتبر إشارة على الثروة الضخمة التى كانت تمتلكها عشيرة
النقسييس.

لم يستطع السلطان مولاي الشيخ أن يقبض على أى شخص من عائلته، فقد
هربوا جميعاً إلى جبل قريب جداً حيث كانت أنوار المحلة / المعسكر/ تثرى كل ليلة.
لكن سلطة النقسييس، كما قال المؤرخ، كانت كبيرة لدرجة أن البربر كانوا يثقون به
بدرجة كبيرة و يحترمونه ويخافون منه^(٣٤) .

يقول الكاتب، متحدثاً عن تلك الوقائع التى سوف نعلق عليها، إن السلطان قد
فرض ضريبة على الموريسكيين تقدر بمبلغ ١٧,٠٠٠ دوقية من ٢٧,٠٠٠ فرضها على
كل المدينة، الأمر الذى يُقر الأخبار التى قدمها لنا النص اليهودى الذى عرضناه
مسبقاً.

فيما يبدو، وفقاً للنصوص القشتالية أو المغربية، أن الشيخ كان يمارس أعمال
التهب فى المنطقة عندما قُتل.

يقول أحد المؤرخين المغاربة إن أحمد النقسييس، بجانب مقدم آخر من المنطقة، كان هو المتسبب في الجريمة التي ارتكبت في ٢١ أغسطس عام ١٦١٣، عندما كان السلطان بالقرب من تطوان (٣٥).

سوف نرى فيما بعد رواية أخرى للأحداث. ربما أكثر قرباً للحقيقة.

استرد القائد العجوز، عند موت الشيخ، السيطرة أو على الأقل تأثيره الحاسم على مدينته. نجده في منصب المقدم في وثائق الأعوام التالية لمقتل الشيخ، في عامي ١٦١٤ و ١٦١٥. في العام الأول مع القائد مامي Mami والعام التالي مع قائد آخر، يدعى أمو بن عمار Amu Benamar، الذي لا نعرف ما إذا كان هو نفس الشخص وأخطأ الكتاب الإسبان في كتابته (٣٦).

المؤكد هو أن أمو بن عمار، الذي وصف بالقائد الأعلى، قد استقر في القلعة، وحقيقةً كان يظهر كسلطة عليا للمدينة، وكان يجتمع بالوجهاء، و من بينهم أحمد النقسييس، عندما تتطلب الأمور ذلك.

حكم ابن عمار تطوان باسم مولاي عبد الله، المقيم في فاس، وابن الملك المقتول الذي، كما هو طبيعي، لم يكن على وفاق مع النقسييس، ولم يكن النقسييس بالمثل على وفاق معه.

طلب السلطان مولاي عبد الله قائده التطواني بشكل عاجل واجتمع القائد معه وترك مسئولية الشؤون للمقدم النقسييس، بجانب حامد بوردان، وهو فرد آخر من البرجوازية التطوانية يجب أن نتحدث عنه.

بالتأكيد استفاد أحمد النقسييس من فرصة غياب القائد لكي يثير المدينة ضد عبد الله، حيث أنه في نفس وثيقة عام ١٦١٥ التي رُويت فيها هذه الأحداث، في يوم ١٠ مايو، شهد الكاتب العام خوان دي لاكيتغي Juan laquitegui أن تطوان كانت محاصرة من قبل ملك فاس، مولاي عبد الله.

إن الإشارة إلى القادة في الوثائق، إلى جانب المقدم أحمد، تُظهر التاريخ التطواني كشىء غامض. إن أحد الأخبار عن وجود رسالة، كتبها النقسييس إلى قائد

تطوان، يلح فيها على الاتحاد معه فى حربته ضد سبته، قد جعلت داوود يتردد فى أمر حكومة المدينة^(٣٧) .

ربما كان هؤلاء القادة يمثلون السلطات الرسمية التى يعينها مولاي زيدان، الذى يعترف به أحمد النقسيس كملك، بالرغم من أنه فى الواقع لم تكن هناك سلطة أخرى فى تطوان غير سلطته.

فى الواقع، إذا كان فى المدينة قادة يعينهم سلطان لا يبقى بالكاد فى عرشه إلا قليلاً، فلم يكن لأولئك القادة سلطة فعلية بل كان المقدم هو الذى يقترح المبادرات التى كانت تقر مستقبل المنطقة.

يشير أحد المؤرخين التطوانيين إلى أن النقسيس هو الذى صدّ مولاي الشيخ عندما أراد أن ينزل إلى شواطئ تطوان، قادماً من شبه الجزيرة، لى يسترد أراضيه، فى هذه المناسبة لم يهينه فحسب بل منعه من أن يطاء الأرض فى ضواحي المدينة^(٣٨) .
كان يجب على السلطان أن يغير مساره لى يدخل البلد من ميناء بليث.

يقول نفس المؤرخ إنه كان هو أيضاً الذى دخل، على رأس أنصاره، فى تطوان فى يوم ١٣ أغسطس نفسه الذى أعدم فيه مولاي الشيخ، واستولى على المدينة وقتل القائد، حامد بودبيرا الذى عينه الملك، وأباد أتباعه، وسلبهم ممتلكاتهم وسيطر على حكم المنطقة^(٣٩) .

هذا يعنى، أيضاً، أن السلطان المتوفى قد اعتمد على هذه المعارضة التى افترضنا وجودها قبل ذلك داخل الأمة الموريسكية.

هكذا انتقم النقسيس من هدمهم لمساكنه، ومصادرة ممتلكاته وكل الأضرار التى سببها له، فى فترة الأعوام الثلاثة الانتقالية من عهد مولاي الشيخ.

كان يجب كذلك أن يستمر الحاكم العجوز فى حكومته تسعة أعوام أخرى بعد عام ١٦١٣، بالرغم من أنه لم يستطع التمتع بهذه الفترة فى هدوء تام، الأمر الذى كان يُعد معجزة فى هذا البلد الذى تعرض لكل الويلات البشرية الطبيعية.

أراد ابن السلطان المقتول، عبد الله بن الشيخ، الذي خلف والده في حكم فاس، أن يثأر ويعاقب المتسببين في موته، وكان يعرف تماماً أنه سيجد من بينهم القائد التطواني. لم يستطع تنفيذ ذلك بطريقة فورية، فقد كانت لديه مشاكل ضخمة في العاصمة ذاتها، فاس، لم تتركه حتى نهايات عام ١٦١٨ .

قبل ذلك كان يجمع جنوداً، ولكنه بدلاً من أن يوجه كل جهوده ضد هدف واحد، قام بتقسيم جيشه، حيث أرسل جزءاً منه لمحاصرة تطوان وجزءاً آخر لجبي الضرائب^(٤٠). من الممكن أن يكون هذا هو الذي سهل دفاع النقسيس، الذي صد كل الهجمات.

وبالإضافة إلى مصائب عبد الله بن الشيخ، والبلد بوجه عام، فقد ثار أخيه، محمد الشيخ، ضده واستولى على فاس، مؤقتاً، وسبب مشاكل كثيرة للسلطان حتى موته.

لم تظهر بوضوح في مؤلفات المؤرخين المغاربة درجة خضوع أحمد النقسيس لأي من السلطانين عبد الله أو زيدان. يشير أحد المؤرخين المغاربة إلى أحداث الشمال حوالى عام ١٦٢٠، ويقول إن المقدم أحمد النقسيس هو من أدار حركة الثورة في تطوان^(٤١).

رأينا من قبل تلك الفترة التي كان يتعايش فيها المقدم مع القائد الأكبر، وكان يطيع أوامر مولاي عبد الله في عام ١٦١٥ وكيف أنه في نفس شهر مايو من هذا العام كانت تطوان محاصرة من قبل جيوش ملك فاس.

ونظراً لكون الوثيقة نصاً محايداً حقاً من وجهة نظر الخلافات الداخلية المغربية، يمكننا أن نصدق تماماً ما يتعلق بالتاريخ والحدث، أي أن النقسيس قد استفاد من غياب ممثل الملك لكي يعلن نفسه صراحةً أنه ضد ابن مولاي الشيخ. من المفترض أنه إسمياً على الأقل، قد اعترف بمولاي زيدان.

لم يكن لأي من الملوك الحاكمين قوة كافية لكي يظهر سلطته في تطوان، مع مقدم مستمر في وضعه بثبات وتدعمه نخبة محاربة، بعدما أباد أعداءه الداخليين.

لا نملك وثائق أخرى جديدة، بعد عام ١٦١٥، تمدنا بأخبار مؤكدة عن المقدم التطواني، حتى عام ١٦٢١. مع ذلك، نجد في روايات ذلك العصر، بصورة غير مباشرة، الوضع السياسى لأحمد النقسيى منعكساً فى عامى ١٦١٧ و ١٦١٨.

لدينا عن كلا العامين مذكرات الأب بدور أورتيث دى لوياندو، و هو راهب من جمعية السيدة العذراء، كان فى تطوان فى خدمة كنسية، فى عامى ١٦١٧ و ١٦١٨. يقول مشيراً إلى العام الأول إن البلد كانت ثائرة، و بسبب ذلك اتخذ حاكم سبتة، لويس دى نورونيا، سلسلة من الاحتياطات لأمنه لكى يسافر إلى تطوان. فى هذه المدينة كان أول احتياطاته هو الذهاب فى اليوم التالى ليقبّل يد الحاكم، المسمى بن مومين Benmu-nin، و هو رجل ذو عقل جيد و نية حسنة و وديعة. وفى الحال زرنا المقدم الأكبر، الذى يطلقون عليه لقب (كبير) ويدعى النقسيى، و هو رجل ذو حكمة و فطنة كبيرة محب للعدل و رحيم جدا تجاه الأسرى حيث لم يستطع معاناة أن يعاملهم أسيادهم بطريقة سيئة ...

انعزل رجل الدين فى منزل فى حى اليهود، وعندما استيقظ، فى اليوم التالى، وجد حارسين أمام بابه، حيث أنه كان يجب أن يشتري من المقدم الكثير من الأسرى. بعد ذلك بقليل استقبل سكرتير النقسيى، و هو أحد الموريسكيين من إشبيلية و يدعى قاسمى كارديناس، الذى شرح له أنه أولاً يجب أن يشتري عبيد الحاكم، و بعد ذلك عبيد المقدم، و فيما بعد عبيد أبناء المقدم و أخيراً عبيد تجار تطوان، إذا تبقى شىء كان يستطيع التعاقد مع أى تاجر آخر من الجزائر أو من أى مكان آخر.

تفاوض الأب أورتيث عدة أيام مع أحمد النقسيى حول هذه الشروط، حيث أنه إذا كان هكذا سيُنْفذ الافتداء فلن تبقى أموال أو بضائع للمسيحيين الذين لم يكن أسيادهم من السلطات أو من الحكام الرئيسيين.

وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق فى الافتداء، و حكى الأب أورتيث واقعة أن أحد الأسرى وكان لدى بوردان، و لم يكن بوردان يريد إعطائه له، لكن أجبره على ذلك مسلم آخر له نفوذ أكبر، ويدعى بوعلى Bohali.

قبل الذهاب إلى سبتة، ذهبنا لتوديع المقدم الأكبر، الذى أمر بأن يقدموا لنا خروفين وإبريقين من العسل وأمر أيضاً أن ننام تلك الليلة فى المعسكر، ونصبوا لنا خيمتين وسط الطريق حتى نستطيع أن نستريح^(٤٢).

نستطيع أن نستخلص بعض النتائج من الرواية الحية للراهب ونستنتج أو نؤكد البعض الآخر، المعروض كافتراضات، ومن بينها افتراض أن الأسود، المعين كحاكم يحتمل أن يكون قد أرسله مولاي زيدان، ملك المغرب، والذي يمكن أن يكون قد وضع النقسيس تحت وصايته، وكان الموريسكيون أكثر حبا له. كان ذلك بصورة إسمية، كما هو مفترض، لأن الذى كان يحكم الشئون المدنية بالفعل هو المقدم العجوز، الذى كان مشتركاً، فى هذه التاريخ، مع أبنائه ذاتهم.

يمثل الموريسكى الإشبيلي، كارديناس، الأوضاع الجديدة التى حدثت بداية من عام ١٦٠٩. أدار هؤلاء الموريسكيون، كما يمكن تسجيل ذلك فى مخطوطات متعددة، جزءاً مهماً من الاقتصاد وسياسة الشئون العامة. ربما كان أحمد بوردان واحداً منهم. ذكر المؤرخ التطوانى بوردان كحاكم لتطوان فى أواخر القرن السابق. لم نجد أى حاكم بهذا الاسم ولكننا وجدنا اسم بوردان هذا، كتاجر لعدد كبير من العبيد. ربما يكون قد تولى كذلك، مناصب عليا فى البرجوازية التطوانية وكان له تأثير كبير. يمكن إثبات، فى وثيقة عام ١٦١٥، أنه تم وضعه إلى جانب النقسيس فى غياب الحاكم.

إن وصف الراهب لأحمد النقسيس، "رجل فى الأعوام الأخيرة من حياته"، لا يمكن أن يكون أكثر تقریظاً. إن سلوكه الكريم تجاه المفتدى يؤكد ويكمل، بطريقة ما، الصورة المقدمة.

يوجد شخص آخر، بالإضافة إلى الحاكم والمقدم وبوردان، تفوقت سلطته على سلطة بوردان، وفقاً لرواية الأب أورتيث. إنه أبوعلى، الذى يمكن أن نجد أسلافه فى وثائق عامى ١٥٢٣ و ١٥٤٨ أى من زمن المندارى أو زمن قريب منه، ويحتمل أن يكون من مؤسسى تطوان الجديدة والعائلة التى كانت بطلة المواجهات والخلافات، كما قرأنا فى مؤلفات مارمول ويمكننا تأكيده فى وثيقة لاحقة.

عند توديع السلطات، تذكر الأب أورتيث المقدم فقط، الذى كان يجب عليه بالتاكيد أن يعاقب بعض الأسرى ويوقف قائد السجون، بسبب بعض الأحداث التى وقعت عندما كان رجل الدين يمر فى الشارع الذى كانوا فيه، وكانت موجودة فيه أيضاً السجون المظلمة^(٤٣) ، وذلك دليل آخر يؤكد شخصية من كان يحكم المدينة.

لا توجد أخبار مباشرة عن النقسيس ولا عن تطوان، فى رواية المفتدى لعام ١٦١٨، لسبب بسيط هو أن التجارة والإجراءات الأخرى لافتداء الأسرى قد نُفذت هذه المرة، تحت أسوار سبتة، من الممكن جداً أن يكون ذلك بسبب وعورة الأراضى المرتفعة هذه، التى تحدثوا عنها فى العام السابق. أحضرهم سادة العبيد من تطوان لى يتفاوضوا فى الافتداءات. دخل بعض المسلمين الوجهاء فى الموقع، وهو أمر كان يحبه ساكنو سبتة، لأنهم كانوا يقيمون تجارتهم واتفاقاتهم فيما بينهم^(٤٤) .

إن المنظر الفوضى الذى تقدمه لنا نصوص نفس كتاب الأخبار والمؤرخين المفاربة يمكن أن يفسر معلومات الرواية والمذكرات التى كتبها قائد القرصنة الإنجليزى، هنرى مينورينغ Henry Mainwaring فى عام ١٦١٨، ويصف فيها موانئ بلاد البربر الرئيسية، كانت تطوان هى الميناء الأول الذى وجده البحار، حيث يستطيع القرصان أن يتزود بالماء ويشترى أطعمة طازجة، وخزينة من البارود، التى يبيعها فى أغلبيتها التجار الإنجليز والهولنديين، حيث يمكن بيع البضائع تماماً بصورة سريعة بفضل قوارب المدينة، لكن لا توجد حكومة ويجب أن يكونوا فى حراسة. يوجد قليل من النظام والسلطة. يجب الإبحار إذا قامت رياح الشرق، الناس هنا عادلة وموثوق فيها.

هناك شكوك حول ما إذا كان القرصان الإنجليزى قد زار المرسى التطوانى فى أوقات صعبة، كان لاضطرابات البلد فيها إنعكاسها فى الجزء الشمالى منها.

على الجانب الآخر كان شاطئ نهر مارتين نقطة تلاقى القراصنة من كل أنحاء البحر المتوسط الغربى و من المحيط الأطلنطى، مع مغريات الغنائم الممكنة والغنية التى تمخر مياه المضيق، بما فى ذلك السفن القادمة من أمريكا، كما يظهر فى بعض وثائق الافتداء. كانت ثروات القرصنة، كما ذكرنا كثيراً، تشكل الدخول الأساسية التى كانت تغذى الخزائن التطوانية.

ليس غريباً، لذلك، أن يخصص النقسيس نفسه وأقرباؤه جزءاً من رؤوس أموالهم لتأجير السفن للتجارة والقرصنة. كدّر هذا الظرف الأعوام الأخيرة من حياة المقدم أحمد النقسيس الذي واجهته طوارئ جادة سببها له الإنجليز، وتجارتهم وأسطولهم.

نعرف الكثير من الوثائق التي تتحدث عن كل هذا، بعضها جديد يوضح لنا بعض المشاهد المسلسلة، المتصلة بالإنجليز والمقدم الذين عكروا بعض المفاوضات التجارية وغيرها بحيث تكون مثمرة لكلا الجانبين؛ إنجلترا وتطوان.

توضح لنا هذه الوثائق أيضاً التلاعب الذي كان الموريسكيون هدفًا له - وبالتحديد أولئك اللاجئين في تطوان - من جانب الوكلاء الإنجليز.

كان الموريسكيون في وضع ملائم لاستثارة الكره الذي يكتونه للدولة الإسبانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين اختاروا ملجأهم في الشمال المغربي، كانوا يرون أنفسهم غارقين، منذ وصولهم، في البيئة الحربية المعادية لإسبانيا، وخاصة المواقع الحصينة، التي كانت تحاصر فعلياً كل الساحل، دون أن تترك ملجأً آخر للإبحار غير خور تطوان في البحر المتوسط الغربي وخور العرائش في المحيط الأطلنطي.

كان هذا الموقع الأخير، كما نعرف، هو الذي سلّمه مولاي الشيخ لإسبان في عام ١٦١٠. من هنا فإن كل التجارة الممكنة التي كانت تصل إلى شمال المغرب لكي تدخل إلى البلد، كان يجب أن تمر عبر تطوان، وقد استفاد التجار من كل الجنسيات من ذلك، بمن فيهم الإسبان، لكي يعينوا في مدينة المارتين، وكلاء ومستشارين ومبعوثين، إلخ. لم يكن لبعضهم أي هدف تجاري، كما سيمكننا إثبات ذلك^(٤٥).

كان أحمد النقسيس، ذلك العجوز الأصلع والأعور، مقدم تطوان العتيد، يشعر بالرضا، في الأعوام الأخيرة من حياته لكونه المالك المطلق فعلياً للمدينة، والمرج والإقليم الواسع جداً، الذي ربما يشمل مدينة الشاون، المأهولة جداً بالموريسكيين، ولكنه كذلك عانى من التغييرات السيئة التي سببها له وضع البلد ووضع منطقة القرصنة التي كان يحكمها. ربما كان مبعث رضاه الأكبر، دون شك، هو عائلته نفسها. يذكرنا بها أحد النصوص لعام ١٦٢١، عندما أعطوا تأميناً بالإجماع لكي

يستطيع بعض رهبان جمعية الثالوث المقدس المرور إلى تطوان حيث كانوا ينتظرون تنفيذ افتداء في سبتة.

كتب أحمد النقسيس مسبقاً إلى رجال الدين في ٩ مارس من نفس عام ١٦٢١، حيث كان مسروراً جداً بوصولهم، وكان ينتظر زيارتهم ويتمنى أن تكون مفيدة للجميع. قام المفتدون، الذين كانوا يعرفون عدم الاستقرار الدوري في البلاد المجاورة، باستشارة حاكم سبتة، لويس دي نورويا، و انتهى الأمر بالموافقة على تأمين حامد النقسيس، المقدم وسيدى الحاج وسيدى حامد وسيدى عبد الله وسيدى عيسى وسيدى مفضل، صهره^(٤٦).

يعد هذا دليلاً مهماً على أن الحاكم التطواني، على الأقل قبل عامين من موته، قد جمع أبناءه وصهره في حركة التجارة العامة، وعلى الجانب الآخر يؤكد كذلك على وجود العلاقات العائلية الحميمة للسلالة الغرناطية القديمة لعائلة مفضل مع أفراد النقسيس الذين اختفوا، في النهاية المأساوية لتلك الأعوام.

دون أن نسبق الأحداث، نعود إلى عام ١٦٢١ هذا الذي اختلط فيه رضا واستياء المقدم. تنبهنا إحدى رسائله في ديسمبر عام ١٦٢١ إلى سلسلة المشاكل المنبثقة من صفة القرصنة للمرسى التطواني وكيف كانت السفن الإنجليزية تنهب في هذه المياه، سواء كانت سفن قرصنة أو سفن عادية.

عرض النقسيس نفسه ذلك في هذه الرسالة الموجهة إلى السفير الإنجليزي في إسبانيا على هذا النحو:

استولى أحد التجار، ويدعى توتشينغ Touching، على سفينة يملكها أبناء النقسيس في مصب نهر مارتين، وباع بعد ذلك السفينة والموجودين بها. وكرد على هذا الفعل القرصنى، حيث أن توتشينغ كان هناك بتأمين من المقدمين التطوانيين، قام أحمد النقسيس بالقبض على أحد الإنجليز، ويدعى فريسويل Frisuel الذى ذهب للتجارة في تطوان ولم يكن لديه تأمين. وكرد فعل، قام الأمير مانسيل Mansell ، الذى

كان يبحر فى هذه المياه، بسلب أحد المراكب وعلى متنها عدة موريسكيين، وكانوا من أندلوثيا ويعيشون فى جبال تطوان، وكانوا يرغبون فى الانتقال إلى الجزائر^(٤٧).

يقول أحمد النقسيس، فى مكتوب لاحق، إنه طوال فترة حكم إيزابيل وحتى قبل ذلك، كان يوجد سلام وعلاقات طيبة بين الأمة الإنجليزية وبلده وإنه كان مستعداً أن تستمر الأمور كما كانت قبل ذلك^(٤٨).

عرض معاهدة سلام وصداقة تؤمن عدم أسر أى إنجليزى وتموين الأسطول الإنجليزى الذى كان يقترب من أى ميناء أو مرسى من ممتلكاتنا. يجب الأخذ فى الاعتبار أنه فى تلك اللحظات كان للحاكم التطوانى علاقات طيبة مع مولاي عبد الله^(٤٩). استمر الصراع فى مفاوضات طويلة، طوال فترة كبيرة من عام ١٦٢٣. فنحن نعرف، من أخبار داوود، أن أحمد النقسيس مات فى أكتوبر عام ١٦٢٢. لذلك كان هذا هو العام الأخير لنشاط المقدم التطوانى السياسى. كان نشاطاً غير محدد بموجب الوثائق التى سنعرضها فيما بعد و التى توضح، بالإضافة إلى ذلك، درجة الاستقلال الذاتى التى كان يتمتع بها القائد العجوز، عند الاتصال مباشرة مع البلاط الإنجليزى.

فيما يتعلق بهذا البلاط ومقاصده التجارية وعدائه لإسبانيا، فقد كان أسلافه ذوى أثر بالغ، عندما أرسل أحمد النقسيس سفيراً إلى ملكة إنجلترا، إيزابيل، حيث عرض عليها غزو إسبانيا ويقترح عليها الإحتلال الجماعى لبلاد الهند إذا كانت الفكرة ليست مقبولة بالنسبة لها^(٥٠).

تبدى رسالة لاحقة للمنصور إلى الملكة إيزابيل موافقته على وجهة نظر الملكة، التى كانت تفضل غزو بلاد الهند، ولذلك طلبت منه، ليس أقل من ١٠٠,٠٠٠ جنيه بهدف تحمل نفقات الأسطول الإنجليزى^(٥١).

توضح لنا هذه الوثائق التى تحمل تواريخ عامى ١٦٠٠ و ١٦٠١ على التوالى، قبل موت كلا الملكين بأعوام قليلة، المناخ العدائى ضد إسبانيا الذى كان يوجد فى البلدين، حتى قبل طرد الموريسكيين. وعاد هؤلاء ليصعدوه فى المغرب. إنها رسالة مهمة، تلك

التي كتبها السفير الإنجليزي في إسبانيا في عام ١٦١٩، حيث قال إن القراصنة الذين كثر عددهم عبر السواحل المغربية، لم يكونوا يؤذون انجلترا في شيء تقريباً ولكنهم كانوا يؤذون إسبانيا كثيراً، لأنهم كلهم تقريباً موريسكيون أتوا لكي ينتقموا، بالهجوم على ساحل شبه الجزيرة^(٥٢).

كانت خطورة الوجود الإنجليزي بالأخص تتمثل في تهريب الأسلحة، وهو ما أعطى السلاطين والطامعين الوسائل، ليس فقط للدفاع عن أنفسهم والصراع فيما بينهم، لكن لمحاورة المناطق الحصينة التي كانت المملكة الإسبانية تملكها في الموانئ المغربية الرئيسية.

إن كثرة التسلح والمدفعية، التي استعملها عبد الملك في معركة مخازن Melacen والتي سببت الكارثة الفظيعة للملك سبستيان في عام ١٥٧٨، قد شكلت إنذاراً خطيراً جعل كل قادة القلاع الإسبانية في المغرب يقظين. تشير وثيقة غير منشورة إلى هذه المشاكل. في ٩ إبريل عام ١٦٢٢، كتب حاكم طنجة، السيد خورخي ماسكارينياس Jorge Mascarenas، رسالة إلى دوق مدينة سيدونيا الذي نقلها إلى الملك، فأرسل نسخة منها إلى السفير فوق العادة في لندن، السيد كارلوس كولوما Car-los Coloma.

يقول الحاكم " وصلت إلى يدى رسالة من قادش موجهة إلى النقسيس، مقدم تطوان و عندما رأيت الظرف المكتوب بحروف أجنبية، قمت بفتحه. وجدت رسالة من أحد الإنجليز، وهو تاجر في قادش و رسالة أخرى من سفير إنجلترا، الموجود في البلاط، كانت رداً على رسالة أخرى من النقسيس يقول فيها ملك إنجلترا، إن إقامة الإنجليز بيت دعارة في تطوان ... سيكون ذو ضرر عظيم للحدود وسيكون وسيلة كبيرة لسرقتهم وأيضاً لسرقة الجزائر...^(٥٣).

قام الملك الإسباني في الرسالة التي نقلها للسفير، ومرفقاً نسختها، بإعطاءه تعليمات بهذا الصدد :

... أمركم أن تبذلوا كل المساعي الضرورية لفهم وتصحيح ما يُحدث فيه وما يُنوي هناك في هذا الموضوع، بحيث تبعدوها عن طريق التقدم فيها بأي وضع، حيث ترون العوائق التي يمكن أن تنتج عن هذا في حدود هذه الممالك...^(٥٤).

إن فيليبي الرابع، الذي كان قد اعتلى العرش حديثاً والسيد كارلوس كولوما الذي كان جديداً في سفارته، لم يكونوا يتركون مناصبهم لكي ينتبهوا إلى المشاكل المتعددة التي كانت محتدمة حينئذ في الامبرطورية الإسبانية في كل جوانبها. ربما يبدو لهما أن الجانب الجنوبي هو الأقل شغلاً للبال، على الأقل بالنسبة لكولوما الذي صقلته التجارب الأوروبية^(٥٥). هذا ما توضحه الرسالة التي وجهها إلى ملك إسبانيا من لندن، في ٢٨ يونيو عام ١٦٦٢:

اليوم حدثني شخص شريف من هنا ... عن شيء بالرغم من أنني أخذته على محمل الهزل ... أردت أن أحذر عظمتكم منه ...

كان الأمر يتعلق بالهولنديين الذين كانوا يجهزون ١٥٠ سفينة للهجوم على القارة الأمريكية، بعد ذلك يواصل:

... كم كان مخيفاً التصور الذي سببوه لي ، فقد كان الرجل متأكداً مما يقوله، وقد فهمت من أماكن أخرى، ليس على سبيل الهزل، أنهم ضموا أسطولاً من ٤٠ سفينة تحمل مسلمي الجزائر وذهب ٦٠,٠٠٠ موريسكي إلى مملكة فالنسيا، وهم مسلحون ويقال إنهم ينتظرونهم على لسان مياه بلاد البربر، لإشعال الحرب في إسبانيا...^(٥٦).

في الحقيقة لم يتخيل كولوما أي خطر قادم من الجنوب، ليس فقط لأنه لا يعطيه اهتماماً و لكن لأنه كان يجهل الخطر الذي يمثله الوجود البحري الإنجليزي في المياه المغربية. تمثل هذا في وجود بحري لم يقتصر على القوارب التجارية، ولكن، كما رأينا في حالة الاسرى الأندلسيين، أن مراكب الحرب كانت تعمل عندما ترى ذلك ضرورياً وكانت بعض السفن ذات الصفة الحربية، مثل سفن القرصنة الإنجليزية، تبحر من قواعد مغربية. يتضح جهل كولوما في فقرة من المعلومة التي أرسلها من لندن في ٢٦ أغسطس عام ١٦٦٢:

منذ أن حذرتني عظمتكم مما كتب حاكم طنجة، وتم إرسال نسخة من رسالته إلى، حاولت معرفة إذا كان هناك شيء بهذا الخصوص في مصنع تطوان ولم أجد حتى الآن خبراً صغيراً أو كبيراً، ولديّ أصدقاء من التجار قالوا لي ذلك...^(٥٧).

مع ذلك، وكما نعرف من وثائق أخرى، فإن الوجود و التأثير الإنجليزي كان يتزايد، وفي البلاط الإسباني وصلت تحذيرات أخرى مختلفة جداً وليست مطمئنة. هكذا بعث الملك رسالة أخرى إلى سفيره، في ٢٤ أكتوبر من نفس العام : ... بسبب تحذيرات وصلتني من أماكن متعددة، فهمت أن بعض الإنجليز تعاقدوا مع مسلمي إفريقيا وباعوا لهم أسلحة وأشياء أخرى...

اعتقد الملك الإسباني أن هذه المعاملات تقوم دون علم وإرادة الملك الإنجليزي، ولكنه حذر كولوما لكي يعاقب المتمردين. أمر القادة والوزراء أن يحضروهم كقراصنة وقدم للملك الإنجليزي المواقع التي كانت للمملكة الإسبانية في بلاد البربر لكي يتم المتاجرة من هناك فيما يرغبون، مع إعطاء الإنجليز تسهيلات في هذه الموانئ^(٥٨). استعجل كولوما لكي يتصرف ويرد بصورة سريعة. أرسل الرد في رسالة، مؤرخة في لندن في ١٨ ديسمبر عام ١٦٢٢. يقول كولوما، في الفقرتين الأخيرتين من خبر طويل، عن السياسة الخارجية:

بحثت أيضاً مع هذا الملك ما يتعلق بتجارة أتباعه مع المسلمين وكيف أنه زودهم بالأسلحة وبخبرات الحرب ...

أبدى الملك الإنجليزي امتنانه، لعرض فيليب الرابع لاستخدام الموانئ الإفريقية التي كانت في أيدي إسبانية وأشار كولوما أنه سوف يعلن ذلك لكي يعلم الجميع، وبخاصة كل من يصل، من الآن فصاعداً، من هذه المملكة إلى تلك المناطق^(٥٩).

لا تزال هناك رسالتان أخريان عن هذا الأمر، واحدة من الملك الإسباني في ٢٩ يناير عام ١٦٢٣^(٦٠) والأخرى من كولوما، مع وعد من الملك الإنجليزي بإعلان ذهاب أتباعه إلى الموانئ الإسبانية في موانئ بلاد البربر، ومعاقبة المخالفين بعقوبات صارمة.

نعرف سياسة ملوك العصر الإنجليزي، كسياسة ذات وجهين تناقض الأفعال فيها الأقوال. بينما كانوا يقدمون هذه الوعود للسفير الإسباني في لندن، فإن البحارة الإنجليز الذين كانوا يبحرون في المياه المغربية لم يكونوا يحمون تجارهم وقراصنتهم فحسب، بل كانوا يوافقون على معاهدات صداقة وتجارة مع الحكام المحليين والإقليميين، كما كان يقترح أحمد النقسييس لى يصفى الخلافات التى تظهر بسبب أنشطة القرصنة التى يمارسها البحارة الإنجليز، كالقائد توتشينج وأمير البحر مانسيل ذاته^(٦١).

يتحدث المؤرخ التطوانى الشهير داوود، عن موت القائد أحمد النقسييس، فى يوم الإثنين الموافق ٢٤ أكتوبر عام ١٦٢٢، ويقول إن مقبرته هى الوحيدة التى يمكن معرفتها بين المقابر الأخرى لأولاد النقسييس. يشرح للزائر كيف استطاع أن يجد قبر المحارب الكبير، فى الجبانة التطوانية القديمة. هكذا يقول:

من يرغب فى أن يجد مقبرة المقدم، أبى العباس النقسييس، عليه أن يصعد إلى الجزء العالى من جبانة تطوان. ويتوقف عند باب قبة سيدى قاسم بو قريعة Kasem bu Cuare'a، ويوجه نظره تجاه المسجد الكبير. ويمشى مسافة ثلاثين خطوة من هذا الاتجاه. هناك سيجد المقبرة وفيها الشاهد الذى يبلغ طوله ٦٥ سنتيمتر وعرضه ٤٥ سم وسمكه ١٣ سم، وفيه ١٤ سطراً. ظل هذا الشاهد فى هذا المكان حتى يومنا هذا (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م)^(٦٢).

عندما كان داوود فى الجبانة أمام هذه المقبرة، رأى الشاهد المنحوت الموجود فيها وبالرغم من الصعوبة، استطاع قراءة ما هو مكتوب فيه، ونقل هذه القراءة. بالإضافة إلى المديح الجدير برجل فوق العادة، يمكننا الإشارة فى السطرين ١١ و ١٢ إلى التاريخ الدقيق لموته. فى السطر رقم ١٠ ظهر اسم والده الذى كان أيضاً "مجاهداً" محارباً من أجل العقيدة. وبعدما دُفن فى اليوم التالى لموته ذهب إلى الجنازة حشد من أكثر من ١٠,٠٠٠ شخص، بين عجائز ورجال وأطفال، الأمر الذى يعطينا فكرة عن عدد السكان التطوانيين فى هذه الفترة.

فى السطر الأخير يمكن قراءة أن القائد الشهير، كان يحسن استخدام الشيخوخة ويحافظ على الاحترام وينشر الخوف والقلق فى قلوب الظالمين الموجودين فى المواقع الحصينة. سوف يكون مكانه ممتازاً فى العالم الآخر وسيكون التشفع بفضلله، ستكون رحمة وفضل الله سخية معه^(٦٣) .

إذا وجدت شخصية يمكن أن تبارى شخصية أحمد بن عيسى النقسيى فلن تكون غير شخصية مؤسس تطوان ذاته، أبو الحسن على المندارى الغرناطى، فهو محاربٌ لا يقهر، و سياسىٌ ذكى و حاكمٌ قدير و موجهٌ صارم. تلك هى الصفات الأكثر بروزاً فى شخصيته، والتي أستخرجت من النصوص المختلفة التى درسناها والتي تشير إليه أو إلى أعماله.

مثلاً حدث مع المندارى، تنقصنا سيرة ذاتية حقيقية لشخصية النقسيى تساعدنا على الاقتراب من الفرد و من بيئته القريبة أكثر مما استطعنا تحقيقه مع الوثائق الموجودة.

كان لمسار حياته خطان، مرسومان بوضوح فى الأخبار والكتابات. منذ موت السلطان أحمد المنصور فى عام ١٦٠٣ وبعده حتى نهاية أيامه فى عام ١٦٢٢ . تميز فى الجزء الأول من حياته كثيراً بسبب سلوكه المحارب الذى قفز إلى أخبار السلطان نفسه دون أن يكون بالتحديد من محيط بلاطه الملكى.

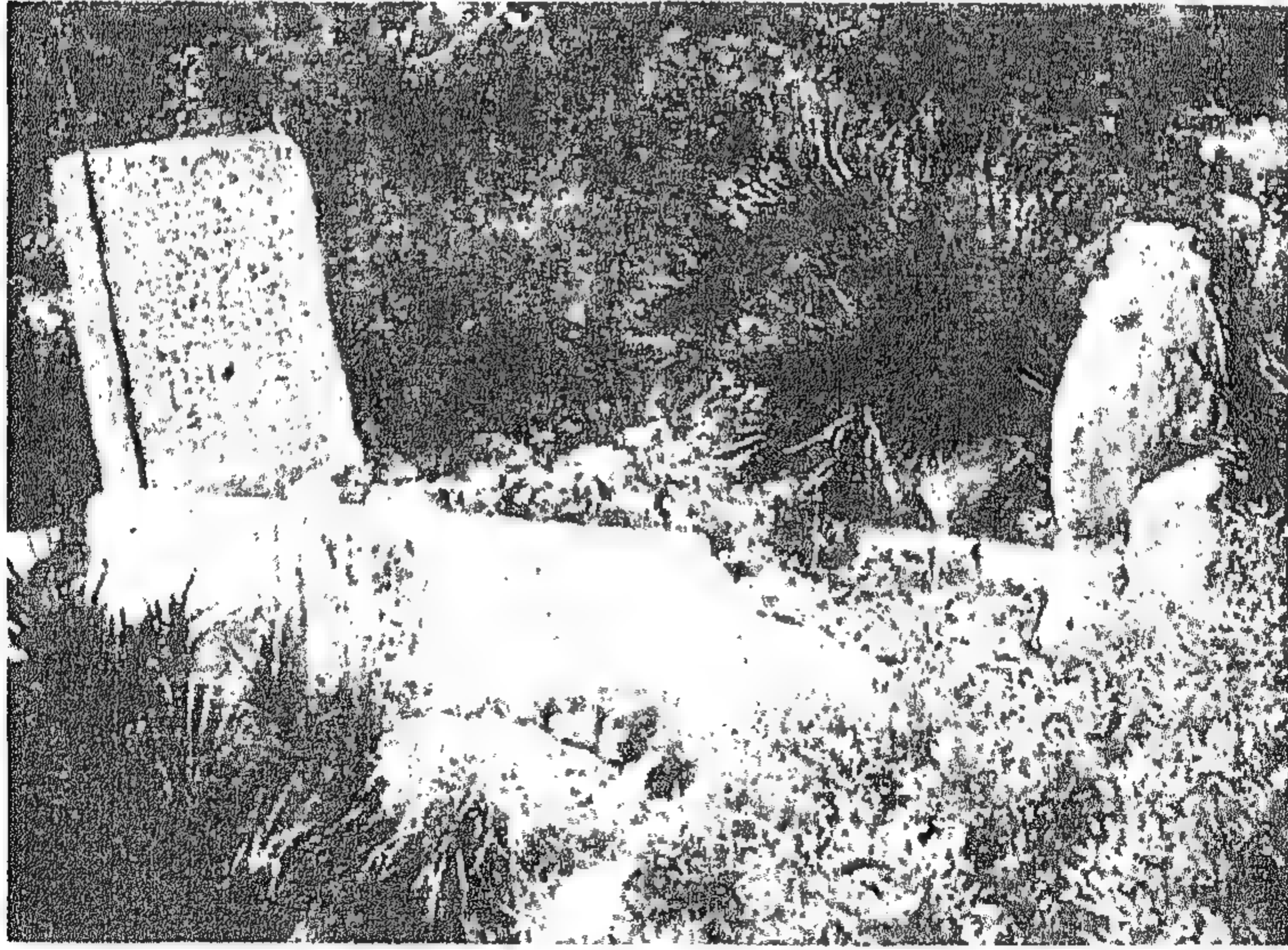
بعد موت المنصور وبداية الخيانة المدنية، اعتقدالنقسيى أن السلطان الذى يجب أن يخلفه هو مولاي زيدان، ابن الزوجة الشرعية للملك المتوفى. ولم يبعده الخوف من فقد مكانه أو حياته عن مسلكه الذى أدى به، فى النهاية، إلى منفى الجبال الموحشة للجنوب التطوانى. بعد ذلك، وكقائد لجماعته، عرف كيف يكسب نفس الإعجاب والاحترام بين جنوده وأتباعه الأكثر إخلاصاً.

يبدو أن ضوئاً يسيراً قد أوحى إليه قتل السلطان مولاي الشيخ فى ضواحي تطوان. لا يبدو أنه كان اليد المنفذة، بالرغم من أنه كان يشكل جزءاً مهماً فى المؤامرة التى انتهت بهذا الموت. على كل الأحوال، فإن موت الشيخ كان نتيجة للكره الذى أشعله

تسليمه العرائش إلى إسبانيا. إن النقسييس، ذلك الشيخ الأصلع والأعور، الشخصية الموثوق بها، النحيل الهزيل، عزاء الضعفاء، الذى يخاف منه أعداؤه، قد مات وشيعته الحشود، وترك خلفه بقية حماس وإعجاب يسر الاستمرار فى السلطة الإقليمية لذريته. من الآن فصاعداً سيستمر أولاد النقسييس فى الحرب والحكم فى تطوان. ستمر أعوام كثيرة وأجيال من عائلة النقسييس، لكن لن يتكرر وجود شخصية، قوية مؤثرة هكذا، كشخصية أحمد بن عيسى النقسييس الأول.

لا نستطيع ولا يجب أن نترك مرحلة أحمد النقسييس دون أن نتحدث عن بعض البقايا الأثرية لذكراه التى يحتمل أنها كانت الأكثر شهرة فى العمارة التطوانية.

تحدثنا قبل ذلك بقليل عن موقع مقبرته الذى تحدث عنه المؤرخ التطوانى الشهير محمد داوود، كذلك عن قراءته ونقله لكلمات الشاهد. فى الصفحة ٢٧٢ من كتاب تاريخ تطوان يقدم صورة لمقبرة النقسييس مع تعليقاته التى نقدم محتواها للقارئ.



صورة (٤٣)

"قبر المجاهد الكبير، بطل تطوان و حاكمها و زعيم مجاهديها، أبى العباس المقدم أحمد بن عيسى النقسي. و هو واقع فى القسم الأعلى من مقابر تطوان، فى سفح جبل درسة الواقع شمال المدينة و قد ظهرت فيه الحجرة التاريخية التى أثبتنا نص الكتابة التى عليها فى صفحة ٢٠١ من هذا الكتاب. و المقدم النقسي هو أكبر و أشهر حاكم تطوانى فى القرن الحادى عشر للهجرة. فلقد كان وطنياً غيوراً، و مجاهداً كبيراً، و بطلاً مغواراً و سياسياً محنكاً، و عهده - الذى كانت شمس الدولة السعدية فيه على أطراف النخيل - لم يكن فيه بالمغرب عاهل كبير قوى الشخصية واسع النفوذ، ممن يرضى أن يخضع له أمثال المقدم النقسي من كبار القادة الأبطال. و زعماء المجاهدين الأحرار، فلذلك تصدر أبو العباس للرئاسة و الجهاد فى تطوان و نواحيها و كان موفقاً فى أعماله ناجحاً فى سياسته و إدارته و جهاده رحمه الله. و هذا المقدم، إليه تنسب زنقة المقدم التى بين السوق الفوقى و الغرسة الكبيرة، و داره و دور أولاده هى التى تحولت لمساكن الأشراف من آل وزان فى درب الشرفاء بالزنقة المذكورة.

و فى مظهر الإهمال المؤسف البادى على قبر المقدم النقسي و أمثاله، عبرة لمن يعتبر من أصحاب السلطة و الجاه و الغطرسة و الجبروت، و البقاء و الدوام لله سبحانه.

توجد صورة أخرى لقبر أحمد النقسي، وهى صورة باهتة موجودة فى كتاب داوود، نشرها كليمنتى ثيرديرا، وهو مترجم شهير للمفوضية العليا الإسبانية فى المغرب، و الذى قدم، بالإضافة إليها، نص شاهد القبر مع ترجمته التى سنوردها فيما بعد.

هى ترجمة قام بها كليمنتى ثيرديرا للكتابة المحفورة الموجودة فى شاهد مقبرة أحمد بن عيسى النقسي. نُشرت فى مقاله "الكتابات العربية المحفورة فى تطوان، شاهد أحمد بن عيسى النقسي". مجلة تروباس كولونيا ليس Tropas Coloniales رقم ١٣ العدد الثانى، يناير ١٩٢٦ .

فى الجزء الداخلى من الشاهد فى الوجه الخارجى تُقرأ عبارة "هذا قبر مجاهد الحرب المقدسة".

- 1 بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله
- 2 هذا ضريح نصيح البلدة التطوانية
- 3 ومن عليه في كل المهمات مدارها من سيفه
- 4 على الاعادي مسلح وحبل عنايته بالتأييد
- 5 الاله موصول الذي لسوله لغفرت طواغيت الكفار
- 6 ابو امها ولا صبحت ملة الاسلام تنادي المنار
- 7 ان طلع شمس الدعه وستن ضجها المسكن روعه
- 8 الشيخ والكهل والولد السالك في جهاده سبيل
- 9 خالد بن الوليد الاسنى المزيه الاحمد المقدم ابي الفارس
- 10 احمد بن المجاهد المجالد الخير الدين الحاج المقدم
- 11 عيسى النفسيس وكانت وفاته يوم الاثنين الثاني عشر
- 12 من الحجة متم احدى وثلاثين والى سنة ودين من الغد هنا
- 13 وضلى عليه جم غفير ينيب على عشرة آلاف مابين شيخ وكهل وصغير
- 14 ومنزلاً كان معجوراً من الخ ز

رقم (٤٤)

شكل الشاهد

خلفاء أحمد بن عيسى النقيس

يوضح لنا شاهد قبر أحمد بن عيسى النقيس أن موته يضع نهاية الجيلين الأول والثاني من المحاربين من عائلة النقيس، حيث أنه ابن مجاهد آخر أو محارب من أجل العقيدة، وهو المقدم، عيسى النقيس.

لدينا هنا، لذلك، صلة بين العصر البطولي والأساسي للمندراى و موريسكي الفترة الأولى من المهاجرين الإسبان المسلمين، وعصر النقيس الآخر هذا ، الذى يعاصر الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية، فترة طردهم الإجبارى من شبه الجزيرة. يوجد، إذن، فى تطوان الموريسكية هذه، بعض السكان، الذين أقاموا أكثر من قرن فى المدينة، والذين حافظوا من أصلهم الإسبانى فقط على الحنين الذى لم يترك ذلك الجيل أبداً، وحتى عصرنا هذا فإن أحفاد الموريسكيين الغرناطيين يشعرون بأنهم مختلفون.

أضيف إلى النواة الأولية سيل ثابت من "الذين كانوا يعبرون إلى الجانب الآخر" ويهجرون الشواطئ الجنوبية الإسبانية، فى المناسبات الخاصة تحول هذا العبور إلى فيض بشرى صغير؛ وهكذا كانت هناك فترات اختفت فيها مجموعات بشرية بأكملها من مملكة بنى نصر القديمة. أيضاً كان يوجد فى نفس البلد نزوح من الريف إلى المدينة، وهو أمر طبيعى فى كل وقت، بعد ذلك، تجمعت أقلية من الغرباء من كل الأنواع، من الخائنين والقراصنة والتجار وحتى ساكنى الجبال والريفيين، صورة شعب كان يختلط، ولكن ببطء، مع عامة البلد، طوال القرن الخامس عشر.

وسريعاً ما بدأت موجات جديدة من الموريسكيين فى الهجرة إلى المدن والقرى، حيث جددوا وأنعشوا الدم الإسبانى فى المغرب، و تُرجم ذلك فى بعض المناطق إلى تجمع أو ارتباط للأمم المسماة "أندلسية". سوف تتسبب هذه التجمعات فى ظاهرة الاستقلال، إزاء الفوضى الشائعة فى كل البلد، انتهت، مع الذين وصلوا حديثاً، من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٤، الهجرات المتواصلة التى حدثت منذ سقوط مملكة غرناطة، لن يكون هناك "عبور إلى الجانب الآخر" ثانية، على العكس وجدت حالات كثيرة من الذين كانوا يعودون، حتى مع معرفتهم باحتمالية سقوطهم فى العبودية. لكن الاختلاف بين هؤلاء السكان الموريسكيين من شبه الجزيرة والسكان الأصليين من البلاد التى

هربوا فيها، كان، أحياناً، ملحوظاً جداً، حيث أدت الصدمة النفسية، وأيضاً الرفض الطبيعى للسكان الأصليين لهم(*)، إلى حنين العودة إلى الوطن الإسباني.

من الممكن أن تكون هذه الهوة المفتوحة بين الحضارتين، الأكثر عمقاً كل مرة، هى السبب فى أن تلك الموجات من المهاجرين قد تأخرت أكثر قليلاً عن سابقاتها فى الذوبان فى قلب المجتمع المغربى. من هنا نرى فى الوثائق، أنه عند الإشارة إلى سكان تطوان فى هذه الفترة، يدعون بلقب "أندلسيين" للموريسكيين الجدد. فى الواقع، وكما قلنا، فإن الموريسكيين القدماء قد اختلطوا، بنسب قليلة جداً، مع عناصر بشرية أخرى، لكنهم حافظوا دائماً على أن يكون النسل الإسباني مسيطرأ فى المدينة التى أعادوا هم إنشاءها فى نهايات القرن الخامس عشر. وبالإضافة إلى تسميتهم موريسكيين أو أندلسيين فقد حافظ المنفيون الجدد، كلهم تقريباً على أسمائهم المقتشلة، التى أضافوا إليها اسم إبراهيم أو على أو قاسم. نرى العديد من الأسماء مثل كانتيليانا Cantillana وسوريا Soria وديثا Deza وتاغارينو Tagarino وموراليس Morales وناربايث Narváez وبيلاسكو Velasco ... فى الوثائق، بداية من العقد الأول للقرن السابع عشر، وطوال هذا القرن. فى الحقيقة، لا تزال تسكن فى تطوان اليوم أكثر من مائة عائلة مع الألقاب التى بقيت من أسلافهم^(٦٤).

عندما مات البطل الكبير لعائلة النقسيس، أحمد، لم تتوافر فى واحد من أبنائه الشخصية الكافية لكى يجمع بمفرده كل صفات الأب. فقد حكم البلد بصورة مطلقة ليس أقل من أربعة منهم، وقد قسموا المناصب، لا نعرف هل كان ذلك يتم بطريقة دورية أو دائمة. كان واحد منهم على رأس طبقة الفرسان، وكان آخر يدير المشاة وآخر ربما كان يقود القوات الحربية، عندما كانوا يتحركون ضد سببة أو طنجة و، أخيراً، كان واحد آخر يبقى دائماً مع إحدى الحاميات لكى يدافع عن المدينة من أى مفاجأة محتملة أو لكى يحافظ على النظام ضد الأعداء الداخليين.

(*) لا ننكر أن السكان الأصليين فى تونس على سبيل المثال قد شعروا بشيء من الغيرة إزاء احتفاء السلطات بالموريسكيين وتقديم التسهيلات لهم. (المراجع)

هكذا، إذن، تدعّم فيما يبدو الاتجاه الحزبي القديم لعائلة النقسيس في هذا الجيل الحديث. نعرف أيضا أنهم كانوا يشتغلون بالقرصنة، لأن إحدى سفنهم، عندما سلبها الإنجليز، قد تسببت، كما رأينا، في أحداث دبلوماسية محددة بين لندن وتطوان. كان الأخوة الأربعة يحلون الشئون الخطيرة مجتمعين وإذا حدثت أحدها، وكان أفراد النقسيس المحاربين في الخارج، كان ينتظرهم من يبقى في المدينة، لكي يتناقشوا ويقرروا معاً.

عمل هذا المجلس العائلي المصغر عدة سنوات. نعتقد من عام ١٦٢٢ إلى عام ١٦٢٦، لأن لدينا أخباراً عديدة من عام ١٦٢٧ عن تغييرات، وإن كانت ليست جوهرية، ولكنها كانت تمثل شيئاً مختلفاً. من الممكن أنه خلال العام الأول فقط لحكومة هؤلاء النقسيس الأربعة كانوا تحت سيادة السلطان مولاي زيدان. فيما بعد، وبسبب عتابهم على قسوته وطغيانه، طردوه شكلاً بعد أن كان مطروداً من الناحية الفعلية وأعلنوا أنفسهم دولة حرة، على نمط فيينا و هولندا، وفقاً لما كانوا يقولونه هم أنفسهم.

من المحتمل جداً أن واحداً من هؤلاء الأخوة قد نال سيطرة أكثر أو كان أكثر حكمة أو حرصاً من الآخرين، لا نعرف ما إذا كانوا أكبر أو أصغر منه. الواقع أن المدعو سيدي عبد الله، قد تميز سريعاً عن الباقيين وسيكون، كما سنرى، هو الذي بقى وظل في السلطة، ما يقرب من عشرين عاماً، مع بعض الانقطاعات.

يوجد، في الواقع، مخطوط يقدم لنا معلومات عن هذا الموضوع. ففي بدايات عام ١٦٢٥ تم تنفيذ افتداء للأسرى في طنجة. وبقي الرهبان من جمعية مريم العذراء في منزل في طنجة، وذهب إلى هناك مفوضو مملكة فاس للتعاقد على الافتداءات. إنها حالة غريبة، داخل هذا النوع من العمليات لأنها، بطبيعة الحال، كانت تُنفذ في سبتة، سواء كقاعدة للدخول إلى تطوان، أو كمحطة محددة في انتظار البائعين والأسرى. ربما ترجع هذه الظروف إلى تدخل رئيس الدير البرتغالي، المقيم في طنجة والذي قام بالمساعي الضرورية لشراء وافتداء بعض المساجين القادمين من سلا، وهو الميناء الكبير الآخر وسوق قرصنة بلاد المغرب في العصر الحديث.

الحقيقة هي أن أحد الموريسكيين (و يدعى قاسمى دى كارديناس ذهب إلى المنزل الطنجى، فى ١ فبراير عام ١٦٢٥، وكان مسلماً من أندلوثيا وسكرتير المقدمين الإخوان النقسييس، حكام تطوان)، و كان معه مسلمون آخرون من تطوان، يقال إن بعضهم من أصل تطوانى والآخرين من أندلوثيا^(٦٥) .

سلم رئيس الدير الذى أشرنا إليه، ٦٩ أسيراً، من ٧٠ الذى اتفق عليهم، لأن أحدهم مات قبل أن يُجرر. لكن لا تهمنا دراسة المسيحيين المحتجزين فى سلا، بل تهمنا دراسة أولئك الذين حملهم كارديناس، من تطوان. لقد تم بيع ٢٧ أسيراً من سوق تطوان، كان ثلثهم أو تسعة منهم ينتمون إلى عائلة النقسييس، وهناك تفصيل يسترعى انتباهنا. كان هناك ٣ من هؤلاء التسعة ينتمون إلى سيدى عبد الله، (ثيود الله Cludala فى النص)، و٦ ينتمون إلى المقدمين مجتمعين. وُصف ثيود الله بالمقدم فى إحدى كشوفات المخطوط لكى يحى عنا أى شك عن انتسابه لأفراد النقسييس، وقد حصل على ١٤,٠٠٠ ريال مقابل هؤلاء الأسرى الثلاثة وباع إخوته ٦ أسرى بمبلغ ٢٣,٠٠٠ ريال، حيث مثلوا نسبة ١٨٪ و ٣٠٪ بالتتابع من الإجمالى المحصل فى هذا الجزء من الافتداء، الأمر الذى كان طبيعياً فى مجموع العمليات من هذا النوع الذى نعرفه. كانت النخبة الحاكمة فى السلطة التطوانية تقتطع دائماً لنفسها نصيب الأسد فى سوق العبيد، من حيث كانت تأتى، كما نعرف، الدخول الأساسية التى كانت تدعم الأمة الموريسكية.

فى هذه الحالة ستكون الأرقام والنسب أكثر لفتاً للنظر إذا أضفنا العبيد الذين باعهم مفضل بمبلغ ٦,٠٠٠ ريال، وهو رقم يتجاوز نسبة ٥٠٪ من كل المبلغ الذى دفعه الآباء المفتدون لافتداء المسيحيين الذين كانوا يعانون فى السجون التطوانية. نذكر أن مفضلاً هذا كان يشكل جزءاً من القبة الحاكمة للمدينة منذ زمن المندارى و كان مرتبطاً بصلات عائلية مع أفراد النقسييس.

أخذ الموريسكيون الجدد يفتحون طريقاً كلما استطاعوا و بالفعل استطاعوا ذلك. نجد هنا كارديناس، الذى كان فى منصب عالٍ فى الحكومة؛ و ذكر فى النص كل من

كابريرا Cabrera وأغيلار Aguilar وأوليباريس Olivares وأبيلا Avila، كسادة للعبيد، حيث توحى لنا كلها بأسماءٍ لموريسكيين وصلوا حديثاً إلى المنفى^(٦٦) .

فى نفس عام ١٦٢٥ وصل إلى تطوان وفد دينى آخر من المفتدين، من جمعية الثالث المقدس.

حصلوا قبل كل شىء على تأمين موقع من الإخوان النقسييس، إنها الوثيقة الوحيدة الموجودة حتى الآن، حيث يظهر توقيع باللغة العربية لأحد أفراد هذه العائلة^(٦٧) .
كتبه، باللغة القشتالية، سكرتيرنا قاسمى كارديناس، فى أول يونيو عام ١٦٢٥ وعنوانه باللغة العربية الحمد لله الواحد الأحد .

أعطى تأميناً إلى كل من الراهب غابرييل دى لا أسونثيون، والراهب سبستيان دى لا مادري دى ديوس من جمعية الثالث المقدس و لويس أوتشوا، الكاتب العام للافتداء وخوسيه ميخياس، الصبى اليهودى، وإلى أى شخص يذهب معهم، لكى يستطيعوا الدخول فى تطوان، دون إكراه أو مضايقة أو نكاية. سيتمكنهم افتداء الأسرى الذين يرونهم مناسبين دون أن يجبرهم أحد على افتداء أسرى محددين.

فى التوقيع نسبوا إلى أنفسهم صفة المقدمين - الحكام.

كانت عائلة اليهودى ميخياس تنحدر من إحدى العائلات الممتدة التى ظهرت من الآباء إلى الأبناء فى مخطوطات الافتداء كسادة للعبيد و كوسطاء ومترجمين، فى إحدى الوثائق يوجد شخص يُدعى ميخياس مقيم فى سبتة. خوسيه ميخياس هذا كان يهودياً من سبتة كذلك ، حسب ما نفهم من التأمين حيث سمحوا له بالدخول فى تطوان مع رجال الدين.

فى ١١ من يونية، ذهب شخص آخر يدعى إسحاق ميخياس، بصفة مترجم مع الراهب سبستيان دى لا مادري دى ديوس لكى يزور المقدم الحاكم، الذى كان فى هذا الوقت هو عيسى النقسييس، الذى استقبله مع سكرتيه قاسمى كارديناس^(٦٨) .

كان كارديناس، بكل تأكيد، السكرتير والمترجم الموريسكى الذى حضر الاجتماع السرى الذى عقده مقدمو تطوان مع الوكيل الإنجليزى، هاريسون، الذى وصل إلى المدينة فى ٣ يونيو من نفس عام ١٦٢٥، لكى يسلم رسالة من الملك الإنجليزى وللتعرف على درجة استعداد السكان للحرب ضد إسبانيا التى كانت انجلترا تفكر فى القيام بها قريباً^(٦٩).

استقبله السكان بفرحة كبيرة، وبخاصة الموريسكيين الذين وصلوا حديثاً، والذين كان عددهم كبيراً جداً فى تطوان وفاس، وكانوا يرغبون أن تحميهم إنجلترا، على حد قول القائد الإنجليزى.

فى هذه الأوقات، كان الموريسكيون المطرودون حديثاً يفضلون الاعتماد على أى عدو للإسبان.

تحرى هاريسون عن إمكانية تجنيد موريسكيين، فقد كانوا، - وفقاً لما سمعه من آراء مخاطبيهم التطوانيين - أفضل جنود اعتمدت عليهم المغرب، عرض المقدمون عليه ١٠,٠٠٠ رجل، إذا كان هذا من أجل الهجوم على سبتة أو أى موقع قريب، بمساعدة الأسطول الإنجليزى.

كانوا سيقدمون له، بالمثل، كل أنواع الخدمات، خاصة تزويد الأسطول بالمؤن الضرورية. وطلبوا منه شيئين فقط: البارود وإصلاح بعض المدافع التى كانت لا ينتفع بها هناك.

وجه الوكيل الإنجليزى لهم سؤالاً رئيسياً: إذا جاءت اللحظة هل سيتمكنهم نقل مقاتلين موريسكيين للحرب فى أماكن أخرى؟ كانت الإجابة بارعة جداً ومقنعة ودبلوماسية؛ فلن يستطيع المقدمون إجبار أحد على ترك مدينته، ولا على هجرها ليكونوا تحت رحمة أعدائهم. غير أنه، إذا أراد أحد الموريسكيين أو اليهود أن يرحل إرادياً، فلن يمنعوه هم، وإذا تعلق الأمر بحملة برية ضد سبتة، فسوف يكون أفراد النقسيس شخصياً، على رأسهم، كان هاريسون، الذى أقام فى أحد المنازل فى الحى

اليهودى، يستقبل فى هذا المنزل موريسكيين ويهود من المدينة كانوا يمطرونه بالأسئلة ويحدثونه عن مفاهيم المرير. شعر الإنجليزى بأنه رسول بروتستانتى ونظم جلسات لقراءة الكتاب المقدس، وترجمه منطقياً إلى اللغة الإسبانية. أكد، بحماس، أن اليهود والموريسكيين هم فى معظمهم مسيحيون طوعاً وإنه يمكنهم أن يلعبوا دوراً عظيماً فى هذه المنطقة إذا قررت إنجلترا احتلال سبتة. يمكن أن يبقى هذا الموقع مع حامية صغيرة، عندما تكون مدينة تطوان ومنطقتها حليفة، وبذلك يمكن للمراكب الإنجليزية التى تعبر المضيق أن تتوقف هنا للتزود بالبارود وبكل ما هو ضرورى^(٧٠).

يجب توقع سلامة نية هاريسون، بالرغم من عدوانيته ضد إسبانيا، لأنه تحول إلى محام للموريسكيين، ليس فقط لأنه جاول حملهم إلى معسكره السياسى، كإنجليزى مخلص، ولكن، لأنه يعلم مأساة هذه الاقلية. اعتقد أنه يحقق عملاً دينياً عظيماً، بتقريبهم إلى الديانة المسيحية التى يعتنقها.

من الغريب أن المنزل، (كان هاريسون يقيم فى تطوان)، كان أيضاً مركزاً للعريضة والسكر الذى يديره أحد أفراد النقسيس حيث كان الناس يشربون الخمر. وقد قتل فى نفس المنزل أحد أفراد عائلة النقسيس.

نملك، بفضل روايات ورسائل هاريسون، أخباراً ليست موجودة فى أى مصدر آخر عن الموريسكيين، سواء من تطوان، أو من نواحيها كمنطقة سلا وأرضها، التى كان يتم التوجه إليها بعد انتهاء العمل المكلف به فى تطوان.

هناك ملحوظتان أكثر أهمية تقدمها لنا رواية هاريسون، فيما يتعلق بالجماعة الموريسكية. الملحوظة الأولى هى استخدام اللغة الإسبانية حيث نُسيت اللغة العربية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، حتى فى كنف العائلات.

الملحوظة الثانية هى مأساة الموريسكيين و مأزقهم، فبمجرد أن يصلوا إلى الضفة الأخرى، كانوا يتأملون أسباب مفاهيم الإجماعى أو الإرادى وهو اهتمامهم بأشكال

الإسلام الدينية و يلاحظون وجود إسلام آخر فى أراضى إفريقيا مختلف اختلافاً مطلقاً عن الإسلام الذى كانوا يمارسونه فى شبه الجزيرة(*) .

ومن جانب آخر، أشكال الحياه المختلفه جدا التى تعودوا عليها كانت مختلفة تماماً عن الأشكال التى وجدوها فى أماكن استقبالهم الجديدة.

يفسر كلا العاملين بصورة كافية أن المنفيين قد بقوا متجمعين خلال وقت طويل، دون التفرق فى أنحاء أمة المغرب، ومن جانب آخر، يفسر الاستقبال الممتاز الذى تلقوه هناك حيث كان يوجد مسبقاً "أندلثيين" أو منحدرين منهم كما فى حالة تطوان والشاون.

وفى الرباط، عندما فرض الهورناتشيون أنفسهم كملاك القصبه أو القلعة، قاموا باستدعاء كل الأندلسيين الذين وجدوهم لتعمير الرباط، النطاق الخارجى للقصبه، وهو أمرٌ تحقق سريعاً.

نجد أخباراً عن النقسيس قدمها لنا هاريسون، عندما مر بتطوان ، سواء فى عام ١٦٢٥ أو فى عام ١٦٢٧ .

ليس عادياً أن نجد أخباراً فى الأعمال التاريخية أو التأريخية المغربية، التى عكرها، فى ذلك العصر، التمرد الدينى الكثير الذى ظهر فى البلد، و الذى سبب ظهور حكام وصلوا، أحياناً، بنفس الطريقة التى وصل بها مؤسسو العائلات الحاكمة، بينما اختفت السلالة الموجودة حينئذ فى السلطة، العاجزة والمنقسمة الآن إلى جزئين، بفعل الصراعات العائلية.

استسلم الشمال لمصيره، مثل مناطق شاسعة أخرى من البلاد المغربية، كما أعلن أفراد النقسيس للوكيل الإنجليزى أنهم قرروا العمل لحسابه، و هو الشىء الذى كانوا معتادين عليه بالفعل منذ القدم. كانت فقط الفترة الطويلة لفترة حكم المنصور من

(*) لا نشك فى وجود اختلافات بين ممارسة الأندلسيين والمغاربة للإسلام، لكننا لا نظن أن تلك الاختلافات كانت جوهرية . (المراجع)

عام ١٥٧٨ إلى عام ١٦٠٣ هي التي جعلت الناس تنسى الحكم الذاتى الذى تم الحصول عليه فى الفترة الوطاسية الأخيرة وبداية السلالة السعدية.

تسلّطت على أفراد النقسييس فكرة، مثل كل الحكام الذين ظهروا هنا وهناك، وهى الحرب ضد المحتل الأجنبى لسواحلهم. ستكون المثابرة فى تحقيق هذا الهدف وراء تغييرات السلالة الحاكمة والقادة.

قام شخصٌ عظيم من أفراد النقسييس- أحمد بن عيسى- بتأسيس شهرته ونفوذه على "الجهاد" ضد سبتة. لا يبدو أن خلفاءه، هذه المجموعة من المقدمين الإخوان الأربعة، كان لديهم نفس الإصرار.

فى ١٤ يونيو عام ١٦٢٤، وقبل عام من وصول هاريسون إلى المدينة، ألحقت حامية سبتة هزيمة قاسية بالفرسان التطوانيين قريباً من الموقع، وفى هذه المناسبة لم يكن أى من أفراد التنقسييس موجوداً هناك لكى يرد على الهجمة أو الكارثة. وقد مات شخص يدعى ماريروس Marreros، وهو موريسكى كما يتضح من اسمه، بسبب تلك الموقعة، التى تم الاحتفال بها كانتصار شهير فى حويليات سبتة.

حاول أفراد النقسييس، رداً على ذلك، أن يعوضوا هذه الخسارة، حيث جمعوا عساكر من أنييرا Anyera وجبل حبيب Yebel Habib ووادى راس Wad Ras، ولكن تم صدهم أيضاً وألحقت بهم خسائر فادحة^(٧١).

يعطينا هذا المشهد الأخير حدود تأثير أفراد النقسييس: أنييرا، وهى أرض بين سبتة وتطوان، وجبل حبيب أو خروب Jarrub بين تطوان وأرسيلة؛ ووادى راس، بين طنجة وتطوان. وهو ما يكون فعلياً الشمال المغربى، حيث أن شاون تُعتبر أيضاً ضمن نطاق السلطة الإقليمية^(٧٢).

إن الأخبار السبتية تذكر الاحتياطات التى اتخذها فيليبى الرابع، فى الأمر الذى أعطاه للسيد مانويل دى غوثمان، دوق مدينة سيدوينا، فى ٢٥ أغسطس عام ١٦٢٥ لكى ينجذ سبتة بأفراد و مؤن وذخائر، بهدف الدفاع عنها ضد الغزو الذى كان يهددها من الأسطول البحرى الإنجليزى^(٧٣).

كان لمساعى هاريسون رد فعل وقائى فى الجانب الإسباني، بالرغم من أن رد الفعل الإسباني كان متأخراً، وفقاً لما أثبتناه. مع ذلك، قطع الإنزال الإنجليزي الفاشل فى قادس فى ١٦٢٥ آمال البعض والبعض الآخر، وأطفاً، بالأخص، الحماس الذى استيقظ بين الموريسكيين، لأنه كانت تجرى بينهم التنبؤات من كل نوع. كانت إحداها هى النبوءة القديمة التى يُقال إنها كتبها أسلافهم فى ألواح من الرصاص، فى جبل سكرومونتى الغرناطى، والتى تنبأت بطردهم من إسبانيا إلى بلاد البربر وأنهم سوف يعودون من جديد فى مراكب مسيحية. كانت المراكب، فى مخيلتهم، هى هذا الأسطول الإنجليزي المجهز للحرب الذى انتظره هاريسون والموريسكيون أنفسهم. تزود الموريسكيون بالموثون والبارود والأسلحة فى انتظار نداء، لم يصل فى النهاية.

نعتقد أن وجود الأسطول الإنجليزي أو وجود هذه البلبلة بين السكان الموريسكيين المجاورين للحدود الإفريقية، كانت أسباباً للإنذار بالخطر الذى أعطاه حاكم سبتة والذى قام الملك الإسباني، على إثره، بالأمر بتدعيم حامية سبتة، بسبل مختلفة.

كلما كانت توجد اتصالات بين الإسبان والإفريقيين والموريسكيين، كانت هناك تعليقات استهزائية من قبل الإسبان إلى الباقين، بمعنى أنه فى إنجلترا لم يعد هناك من هو مثل دريك(*) وأن الإنجليز كلهم كانوا جبناً، مشيرين بذلك إلى الهزيمة الإنجليزية أمام قادش.

وصلتنا أخبار أخرى، عن طريق سبتة، عبر هذا الخبر غير المنشور فى المدينة، ففى فبراير عام ١٦٢٧ وفى إحدى اللقاءات الحربية، سقط مفضل سجيناً، وهو صهر عبد الله النقسيس، قائد تطوان، حيث قام حاكم سبتة بتحريره ببساطة، الأمر الذى تسبب فى إقالته، بسبب استهتاره وحماقته^(٧٤).

هل كان فعلياً، عبد الله النقسيس قائداً بدلاً من مقدم، كما كان أخوته؟ فى الواقع لقد تغير الأمر منذ هذا المجلس المصغر الذى تكون بعد موت أحمد بن عيسى النقسيس. جعل القائد، فى آخر توصياته لأبنائه، واحداً منهم، يدعى عيسى، مسئولاً

(*) كان فرانسيس دريك (١٥٤٠ - ١٥٩٦) Drake قرصاناً إنجليزياً ذائع الصيت فى الشجاعة وكانت له بطولات عديدة فى حروب إنجلترا ضد إسبانيا. (المراجع)

عن إدارة العدل بين الشعب. كان عيسى هذا رجلاً شريراً وقاسياً وفاسداً، حيث لم يجد وسيلة لتطبيق توصيات والده أفضل من استخدام قوته دون تمييز، حيث كان يقتل أى معارضة. بالإضافة الى ذلك، كان يثير حنق الموريسكيين التطوانيين بالاهانات التى كان يلحقهم بها، وكان يغتصب نساءهم وبناتهم كلما حلا له، ووصل الأمر إلى الذروة فى إحدى المناسبات عندما اختطف عروساً فى نفس يوم زفافها. كان هذا هو الانفجار الذى جمع إرادة العائلات المهانة، وأعداءه العديدين و المعارضة السياسية التى كانت موجودة، وفى يوم من الأيام كان يعبر وهو سكيرٌ منزل أحد اليهود، فاجأته مجموعة من المتأمرين وقتلوه، بالإضافة إلى اثنين آخرين من أخوان النقسيس كانوا معه.

كان ابن عليّ على رأس المعارضين، وهو أحد المنحدرين من طبقة النبلاء الغرناطية القديمة التى أعادت إنشاء المدينة. إن عائلة ابن عليّ التى نجدها فى الوثائق القديمة التى تتحدث عن تطوان الغرناطية، على سبيل المثال، فى إحدى افتدات الأسرى لعام ١٥٢٣، قد ظلت من بين العائلات المميزة والثرية فى المدينة، وتصاهرت، بالإضافة إلى ذلك، مع عائلة المندرى.

يذكر مارمول، كاتب عصر النهضة، هذه العائلة كأحدى العائلتين اللتين تنازعتا السلطة فى القرن السادس عشر، مقابل عائلة أبى حسن. مازلنا فى القرن السابع عشر نرى نفس العائلة تلعب دوراً فعالاً فى الأحداث الواقعة فى المجتمع التطوانى.

يوضح لنا هذا البقاء الطويل، مع العائلات الأخرى، كعائلة مفضل، أنه بالرغم من مرور الزمن فقد كان هناك ميل مؤكد للتصاهر، ربما يكون ذلك من ذكريات السلالات القديمة التى استمرت لا شعورياً فى المنفى. يحتمل أن تكون الأحداث التى أشرنا إليها قبل ذلك بقليل قد حدثت بعد عام ١٦٢٥ وقبل عام ١٦٢٧، وهى تواريخ الزيارتين اللتين قام بهما القائد هاريسون إلى تطوان .

استفاد قتلة عيسى وإخوانه بوجود ثلاثة إخوان من عائلة النقسيس خارج المدينة، لكى ينفذوا عقابهم النموذجى دون قلق. اجتمع واحدٌ من الذين بقوا أحياء، ربما كان

أكثرهم حكمة، وهو عبد الله النقسيس، مع أصدقائه والقوات التي استطاع الاعتماد عليها، ربما القوات التي كانت لديه في مواجهة سبته، ودخل في تطوان، وأجبر بن عليّ على الهرب، وأعدم المتآمرين الأساسيين.

ربما كانت المعارضة والكره، الذي تسبب فيهما سلوك عيسى، شائعة جدا بين الموريسكيين، لأن عبد الله وجد نفسه ملزماً بالاجتماع معهم وتخلي عن سلسلة من عمليات الانتقام الأخرى، ورجاهم بكلمات طيبة ألا يهربوا وأن يعودوا إلى منازلهم، حيث يمكنهم الاستمرار في العيش بسلام، مثلما كانوا يعيشون قبل ذلك.

نعتقد أن الأحداث المروية ربما تكون قد حدثت قبل وصول هاريسون في سبتمبر عام ١٦٢٧ بقليل، حيث أنه عندما وصل الوكيل الإنجليزي هناك، خاف سيدي عبد الله وإخوانه من أن يعود ابن علي في أي لحظة ويستولى على المدينة، معتمداً على الموريسكيين المستائين. تحرك أفراد النقسيس على رأس حامية قوية وأرسل سيدي عبد الله ممتلكاته إلى سبته، وعهد بحراستها إلى الإسبان، وهذا ما كان يعتقده احتياطاً وشيكاً لترك البلد لأعدائه^(٧٥).

من الواضح أنه كان هناك حزبان، مختلفان بوضوح، في تطون الموريسكية للقرن السابع عشر، تكون أحدهما من الذين وصلوا حديثاً، أي الموريسكيين الجدد الذين كانت تقودهم واحدة من أنبل وأقدم عائلات المدينة: عائلة ابن علي . وكان أفراد النقسيس يقودون الحزب الآخر الذي كان يجمع التطوانيين الأصليين، وهم الموريسيكيون القدماء الذين بنوا وطوروا المدينة، كعائلة مفضل، المتحدة حينئذ مع عائلة النقسيس.

ستحكم هاتان العائلتان الأخرتان الكثير من الأعوام، طوال القرن السابع عشر، ولكن مع بعض الثورات والانقطاعات التي سوف نوضحها بأفضل صورة ممكنة كلما فحصنا الوثائق القليلة التي وصلت إلى أيدينا. ظهر بجانب عبد الله اسم آخر من إخوة النقسيس في خبر ورد من سبته، في نفس عام ١٦٢٧، يقول إن عبد الكريم وعبد الله النقسيس كانا يحكما في تطوان وقراها^(٧٦).

على ما يبدو فإن خوف أفراد النقسيس أنفسهم من عودة ابن على وحلفائه لم يتأكد، لأننا نجد ذكراً لأفراد النقسيس فى الأعوام التالية ١٦٢٨ و ١٦٢٩ . فى ديسمبر عام ١٦٢٨ وجه القائد العام لسبته، خورخى دى ميندوثا باكانيا، حملة إلى معسكرات تطوان، و أخذ المدافعين على غرة . وفى مناسبة أخرى هزم كلاً من عبد الكريم و مقدمى تطوان و أجبرهم على الفرار فى معسكرات نغرون، وسلبهم غنيمة كبيرة من أسلحة ودواب وأكثر من ألف بقرة، و سبب لهم دماراً عظيماً (٧٧).

ونظراً لأن أهل تطوان كانوا يتهاونون فى مراقبتهم وفى مواقع قواتهم فى مواجهة سبته، فقد تسببت الحامية الإسبانية فى إلحاق خسائر لسكان المنطقة و للفرسان التطوانيين. لكن يجب ملاحظة أن منطقة نغرون Negrón ، و هى نهر وأرض تقع على بعد ١٥ كيلو متراً تقريباً من سبته، كانت فى العصر الذهبى للسيطرة البرتغالية عبارة عن حقل زراعى متسع، حيث كان سكان سبته يزرعون و يحصدون محصولهم ويرعون مواشيهم. لذلك، فإن الوصول إلى منطقة نغرون يعتبر إنتصاراً وتقدماً فى المواقع الهجومية ضد سبته. كانت المعارك تتكرر قريباً جداً من أسوار المدينة نفسها، وفى العام التالى، فى ٧ مايو عام ١٦٢٩، سقط واحدٌ من أفراد النقسيس من على فرسه وأصيب بطعنة رمح، ولا نعرف من هو (٧٨) . لكن بالرغم من شعورنا بأننا نجهل أى الأخوة هو الذى جرح فى تلك المواجهات الحربية، فإننا نشكر للمؤرخ روايته، لأنها تشير إلى استمرارية أفراد النقسيس فى حكومة تطوان، التى استطاعوا أن يبقوا فيها، أحياناً بصورة وقتية، منذ موت والدهم أحمد بن عيسى.

هناك احتمال كبير أن يكون عبد الكريم هو الذى جرح، لأنه هو الذى كان يظهر دائماً فى المعارك التى تقوم ضد سبته. أما عبد الله فكان يُذكر كمسئول رئيسى أو حاكم، فى الشئون الداخلية والدبلوماسية. كان هو من وجهه فى ٣٠ يونيو ١٦٢٩ رسالة إلى الملك كارلوس الأول، ملك إنجلترا، عبّر فيها عن سعادته بالصدقة القائمة بينهما وعن الاستقبال الجيد الذى يُمنح للإنجليز فى الميناء التطوانى (٧٩) .

فى أكتوبر من نفس العام رد عليه الملك الإنجليزى، ووجه له شكراً حاراً بسبب الترحيب الذى "يجده رعايانا فى مينائكم"، و تمنى استمرار وزيادة التعامل الطيب الذى بدأ بالفعل. أعطى أوامر للتجار لكى يترددوا على مينائه وعلى مدينة /تطوان/ كلما استطاعوا، من أجل التجارة أو تبادل البضائع^(٨٠).

كان هذا التعامل دليلاً على استمرار عبد الله النقسييس فى حكومة تطوان، على الأقل حتى عام ١٦٣٠. وقد تم إدراك هذا الاستمرار فى رواية لهاريسون كتبها فى أكتوبر عام ١٦٣٠، ويتعلق أمرها بقطعة صغيرة من المدفعية، سرقها أحد الإنجليز فى تطوان، وطلب مقدم المدينة إعادتها^(٨١).

يقول هاريسون نفسه، فى إحدى مذكراته عن قلعة المعمورة Mamora، فى نفس التاريخ إنه كان هناك عدة "مقدمين أو حكام"^(٨٢) فى المرة الأخرى التى كان فيها فى المدينة.

نستنتج من النصوص التى بُحثت أن أفراد النقسييس لم يفقدوا السيطرة على تطوان و منطقتها طوال عدة أعوام متتالية، منذ موت والدهم فى ١٦٢٢ عام وحتى عام ١٦٣٠، الذى يُسجل فيه نشاط عبد الله كحاكم.

تشتمل هذه الأعوام التسعة على فترة أولى كانت تحكم فيها معاً مجموعة من الإخوة وفترة أخرى تركّز الحكم فيها على شخص واحد، بالرغم من تميز واحد آخر من الإخوة فى اللقاءات الحربية. بالإضافة إلى القرصنة والصراعات الحدودية من المهم ملاحظة أن النشاط التجارى كان يفتح الطريق عبر هذا المخرج إلى البحر الذى يمثل المرسى التطوانى الطبيعى.

إن أخبار التجارة الإنجليزية، التى لا تكون دائماً عبارة عن مقايضة الأسلحة بالمنتجات المغربية، وأسماء التجار من جنسيات مختلفة، و من بينهم إسبان، تقودنا إلى التفكير فى تجارة متزايدة لتطوان كمركز للقوافل القادمة من داخل البلد، التى كانت تمتد حتى سبتة، أحياناً، فى فترات الهدنة أو الفترات السلمية.

نشك في تأثير مصدر الثروة هذا في تنمية المجتمع الموريسكى إذ ليس لدينا، حتى هذا الوقت، نصوصٌ تنعكس فيها هذه الأنشطة التجارية. نحن نفترض، مع ذلك، أن هذه التجارة، قليلة كانت أو كثيرة، لم تخرج عن الأيدي نفسها التي كانت تحتكر سوق العبيد.

في هذه الأثناء، كانت الأمور تسير من سيئٍ إلى أسوأ في كل أنحاء المغرب. لم يوجد فقط سلطان ضد سلطان آخر، في فاس والمغرب، ولكن كثر عدد رؤساء الجمعيات الدينية، التي تحول تأثيرها على مناطق ممتدة من الأرض، بسبب الطاعة العمياء لتابعيها، إلى سلطة دينية، تنافس الجمعيات الأخرى والحكومة السعيدية. في الشمال ظهر محمد العياشى el Laexe , Layasi كبطل للحرب المقدسة ضد عدو الدين في الأخبار الأوروبية، وحصل، بحافز "الجهاد"، على السيطرة المطلقة على مناطق شاسعة وبطبيعة الحال، سعى أن يقوم الشمال المغربى، المستقل فعلياً عن سلطان فاس، بالاعتراف به كسيد.

لم يكن سيدى عبد الله النقسيس يعتمد على قوات كثيرة ولا على بلاد مثل المراتب العياشى، بالرغم من أنه لم يجب عليه أيضاً تشتيتهم كثيراً، ومن هنا قاومت تطوان ضغوط الحاكم الدينى، الذى أصبح عدو الموريسكيين المميت بعدما كان المدافع الأول عنهم. كانت أولى خطته هي الهجوم على المواقع القوية التي كانت المملكة الإسبانية تحتفظ بها في السواحل الشمالية، ومن بينها سبتة و طنجة.

لم يكن أفراد النقسيس يحتاجون أن يعطيهم أى أحد دروساً في الجهاد، بالأخص ضد سبتة أو طنجة التي كانوا يريدون احتلالها منذ فترة طويلة، لكن الامتثال لأوامر شخص بعيد عن اهتمامات الأقلية التطوانية كان شيئاً لا يدخل في الحسابات. نتذكر أنهم في صراعهم ضد أعدائهم السياسيين قد بحثوا، في لحظات الشدة، عن ملجأ نافع حيث آمنوا على ممتلكاتهم في سبتة.

إن حكام سبتة الذين كانوا يتمتعون بقدر من حرية الحركة في الأعمال السياسية والعسكرية، كانوا لا يتلقون أوامر مباشرة من الملك، وكانوا يوقعون اتفاقيات هدنة واتفاقيات وعهود تكتيكية لاستقبال الهاربين من أى حزب، بالأخص عندما كان هؤلاء

اللاجئين يعنون ورقة رابحة تؤمن لهم مستقبلاً أكثر هدوءاً من مستقبل الممارك الحربية المستمرة الخطيرة دائماً على حياة الحامية. يضاف إلى كل هذه الميزات احتياج السكان لكسب قوتهم فى الضواحي دون الخوف من هجمات الكمائن والقرصنة.

حينئذ كان سيدى عبد الله، أمام ضغوط المرباط العياشى، مستمراً فى صلته مع كلا الحاكمين، حاكم سبتة وحاكم طنجة. كانوا يطلعون حاكم طنجة على تحركات العياشى الموجهة إلى الهجوم على هذا الموقع الذى استطاع حاكمه، فرناندو ماسكارينياس، صد كل محاولات المجاهد بنجاح.

كان العياشى، الذى كان يستفيد أيضاً من عداة الموريسكيين فى الرباط فى ذلك العصر، يريد أن يستفيد من كلتا الأمتين المستقلين لمنفعته الذاتية. لذلك حاصر تطوان، دون نتيجة، "لأن تطوان كانت مدعمة جداً بأناس من نار"، وفقاً لرواية مجهولة من ٣١ أكتوبر عام ١٦٣١، وسنتبع حكايتها لى نصل الأحداث.

يقول الغفرانى فى كتابه "نزهة الهادى" أن العياشى عهد إلى الموريسكيين ببعض المواقع و المهام للهجوم على العرائش، لم يكن الموريسكيون يؤخرون فقط تنفيذ المهمة، لكنهم كانوا يخطرون المسيحيين بموقف قوات المرباطى غير المستقرة. طلب العياشى فتوى من علماء المسلمين تجيز الصراع ضد الموريسكيين. كان الموريسكيون يحملون المؤن إلى المسيحيين وكانوا يعلمونهم نقاط الضعف عند المهاجمين. قتل العياشى الكثير منهم (صفحة ٤٤٤).

عندما رأى المرباط أنه لم يكن يستطيع بالقوة إحتلال مدينة تطوان، أمر أحد رجال الدين الذى كان الجميع يوقره و يطيعه لتقواه، و يدعى سيدى بوسالاطيب Bu-salatib، بالدخول فى تطوان لى يتفق مع مسلمى تطوان الوجهاء، ويفتح أبواب المدينة فى يوم محدد، لجيش من ثمانية أو تسعة آلاف رجل، كامن بالقرب من أسوارها. أرسل هذا الجيش مقدم جبل حبيب، الفاروبو Farrobo، وحامد بن على، العدو الكبير لحاكم تطوان، لى يحل مكانه. تحقق كل شىء وفقاً لما هو متوقع وانسحب عبد الله النفسيس، مع أصدقائه وأخوانه إلى ترغة^(٨٣).

هذا التحرك إلى ترعة سبقته فترة إقامة في الشاون، التي كانت ترعة مخرجها الطبيعي إلى البحر. يدهشنا كثيراً الصمت الموجود عن الشاون في كل المصادر، بالرغم من أنها كانت مأهولة أيضاً بالموريسكيين. ربما كان مصيرها مثل مصير تطوان ومنطقتها في تغييرات العصر. مع ذلك ربما لم تلاحظ في الملجأ الجبلي في الشاون الاضطرابات الاجتماعية الدينية بنفس الكثافة الموجودة في تطوان التي، بالإضافة إلى ذلك، استمرت في النمو كمدينة، بينما توقفت الشاون قليلاً بعد لجوء آخر موجة من الموريسكيين إليها.

مرة أخرى نجد أفراد بوعلی في الحكومة التطوانية، بالتأكيد مع تأييد الموريسكيين الجدد، أو الحزب الذي كان يتعارض دائماً مع عائلة النقسيس.

لسنا متأكدين من السلطة التنفيذية التي مارسها ابن علی في تطوان، على الأقل بطريقة مطلقة وشخصية. كانت أحداث تلك الفترة من التاريخ المغربي متشابكة بحيث من السهل فقدانها عند محاولة اتباعها بترتيب زمني.

في الواقع نجد شخصاً غير معروف يدعى بن يوسف، كتب من تطوان رسالة في ٣٠ مارس عام ١٦٣٢ إلى كارلوس الأول ملك إنجلترا، يقول فيها من بين أشياء أخرى:

...لقد استطعت أن أعرف أن عظمتكم كنت متفقاً مع عبد الله النقسيس الذي كان حاكماً لهذه المدينة ... أنا أقدم نفسي وأقول كلمة بهذا الصدد باسم المرباط محمد العياشي، سيدي، بأن نعطيكم إذن المرور بصورة أفضل بكثير مما كان يقدمه لكم عبد الله النقسيس وبأمان أكثر بكثير، في أشخاصكم وممتلكاتكم، التي تأتي إلى هذا الميناء^(٨٤).

وَقَّع بن يوسف كخادم للعياشي بطريقة تجعل من الممكن جداً أن يكون ابن علی حاكماً ويوسف هذا، ممثلاً للمرباط وأن يكون في صورة مراقب عينه سيد البلد لكي يحكم الموقف. تقودنا هذه النتيجة إلى دراسة وثائق ظهر فيها أحد الأشخاص بعض المرات وشخص آخر في مرات أخرى، في قرارات كانت دائماً خاصة بحاكم واحد.

حرر الحاج بو علي، حاكم مدينة تطوان، مكتوباً في شهر أغسطس عام ١٦٣٣،
يصدر فيه تأمينا لكي يستطيع بعض المقتدين القادمين من سبتة الدخول^(٨٥).

في شهر مايو السابق لهذا التاريخ نستطيع أن نسجل ظهور عبد الله النقسييس
في موقع سبتة الحصين، بناءً على ما قرره الملك فيليبي الثالث، في ١١ مايو عام ١٦٣٣
حيث خاطب حاكم سبتة وأفاده بعلمه بالخبر الذي أرسله عن لجوء كل من عبد الله
النقسييس و أوكلاتيه دي أنخيرا Oclate de Angera ومفضل في حدود إفريقيا
الإسبانية^(٨٦).

وأمام ضغط نفس القوات التي احتلت تطوان، والتي وجهها مقدم خروب
أو فاروبو بأوامر العياشي لكي يقبضوا على سيدي عبد الله حياً أو ميتاً، ترك سيدي
عبد الله ترغمة و لجأ إلى سبتة، في ساعات قليلة، عن طريق البحر، الاحتمال الأكثر هو
أنه اصطحب معه كل أقاربه وأصدقائه، وتفرقوا فيما بعد، من سبتة إلى طنجة
والعرائش، وهي المواقع الأخرى ذات الحامية الإسبانية - البرتغالية.

ضمن هذه المغامرات، رأينا عجزاً آخر معروفاً لدينا و هو، مفضل، سليل طبقة
النبلاء الغرناطية القديمة، وصهر عائلة النقسييس، سوف يكون هذا واحداً من آخر
الأخبار، المثبتة وثائقياً، عن هذه العائلة القديمة من المنفيين والتي تتبعنا آثارها منذ
عام ١٥٢٣.

ظلت مدينة تطوان في سلطة العياشي حتى عام ١٦٣٥، على الأقل.

تذكر إحدى وثائق عام ١٦٣٥ شخصاً يدعى إبراهيم بن علي Abrahim Ben Ali،
حاكم تطوان أو نائب للمرابط وشخصاً يدعى سليمان قاديمو Soliman Cadimo قائد
عام ...

لا نعرف إذا كانت الشخصية الأولى المذكورة، إبراهيم، هو نفسه حامد علي الذي
رأيناه في وثيقة سابقة أو أنه قريب له. ليس هناك مجال للشك أن الكاديمو هو مقدم
خروب أو جبل حبيب الذي طرد بجيوشه عبد الله النقسييس في عام ١٦٣١. مرت

أربعة أعوام، إذن، على سيطرة العياشى وأفراد بوعلى فى الشمال المغربى. هل كان سليمان قاديمو هذا هو سليمان يوسف الذى كتب إلى ملك إنجلترا كارلوس الأول وعرض عليه خدمات المدينة باسم المرابط؟ ، بالتأكيد هو كذلك.

نتأمل بالصدفة، فى هذا المخطوط لعام ١٦٣٥، إحدى الثورات الكثيرة التى هزت الحياة التطوانية، فى وقتٍ حافلٍ بها. كان الآباء المفتدون شاهدين على ثورة الأندلسيين(*) الذين طعنوا الحاكم ونائبه. نعتقد أنهم كانوا ابن على وسليمان قاديمو، وكما يقول النص، حمل كل أهالى المدينة السلاح.

توضح كلمة "أندلسيين" أن الموريسكيين الجدد كانوا أبطال هذا الانقلاب و نتأكد من ذلك من كتابات تالية. كان هؤلاء الموريسكيون، بشكل تناقضى ظاهرى، هم أيضاً أعداء عبد الله النقسيس، الأمر الذى يفسر أن العياشى قد فقد حكم المدينة، ولكن لم تتمكن عائلة النقسيس من استعادة السلطة. يُقال فى المخطوط، الذى تجمعت فيه بطريقة عرضية هذه الأحداث التطوانية فى ديسمبر عام ١٦٣٥ ، إن المحرّض الأول على الانقلاب كان أحمد المورال، الذى كان يطلب، بعد الانقلاب، أن يُفتدى له أسراه، الأمر الذى وضع الآباء المفتدين فى مأزق، حيث أنهم أنهوا واستنفذوا بالفعل رأس مال الافتداء^(٨٧).

نعرف فى أى الأيادى سقطت حكومة تطوان، بعد موت ابن على ومقدم خروب، بفضل مذكرات إنجليزى آخر، جيليس بن Giles Pen، الذى كتب ما يلى فى ٣٠ نوفمبر عام ١٦٣٧:

إن الوضع الحالى فى تطوان، فى مضيق جبل طارق، حيثما كنت أعيش لفترة طويلة من الزمن حيث كان يقام هناك تعامل كبير مع رعاية سيادتكم، والتى وجدتها هناك، كان منذ عامين تحت سيطرة حكومة الولى العياشى من سلا القديمة، حتى ثارت

(*) هناك فرق بين "الأندلسيين" وهم أبناء إسبانيا الإسلامية و"الأندلسيين" وهم أبناء الجنوب الإشبانى . (المراجع)

هذه المدينة ضد حاكمها وقتلته. منذ ذلك الوقت ويحكمها مجلس المدينة أو نقابة الرجال، مع رجال المدينة الوجهاء، والذي سموه ديوان، وهكذا استمرت دون الخضوع إلى ملك أو ولى، و كانوا فى إطارها قادرين على الدفاع عن أنفسهم كدولة.

يفسر ما سبق الخبر، المتناقض فيما يبدو، الذى قدمه جيليس بن ذاته، فى العام السابق، بالتحديد فى ديسمبر عام ١٦٣٥ الذى كان يعلن فيه ما يلى،

لقد علمت أن الولى المرابط قد انضم الآن إلى حاكم تطوان القديم، المسمى عبد الله النقسيس، لى يعارض، بقواته، الأندلسيين أو الموريسكيين فى تطوان وقلعة سلا. يريدون الانتقام منهم ولديهم جيش عظيم للقيام بذلك^(٨٨).

أما عن مصير عبد الله النقسيس فى تلك الأثناء فهذا ما نعرفه من خلال خبر من سبته من عام ١٦٣٦ إلى عام ١٦٣٧:

جاء المرابط العياشى إلى تطوان و عاد القائد عبد الله النقسيس إلى سبته لعدم وجود قوات من أجل المقاومة و عاد شيخ أنييرا ومفضل إلى طنجة^(٨٩).

نستنتج من هذا الدليل، غير القابل للشك، ضياع الحكومة التطوانية من يد النقسيس، الذى كانت حياته المضطربة تساوى حياة المغرب فى عصره.

إن الديوان أو المجلس المكون من عشرين حاكماً ، والذى أنشأه الموريسكيون أنفسهم فى عام ١٦٣٥، قد حكم الشئون المدنية حتى أوائل عام ١٦٣٩، على الأقل، هذا العام الذى وقع فيه شخص آخر يدعى إبراهيم بن على تأمينا فى تطوان فى الأول من فبراير من نفس العام، ووقعه كخادم للسيد محمد العياشى. كان محمد بنيخيا أو بن يحيى Mahamed Benegia هو القائد فى نفس هذه الوثيقة^(٩٠).

وفقاً لهذه الوثيقة، فقد استرد العياشى المدينة من جديد وقام الهارب عبر السطوح، ابن على، بوضع نهاية لحكومة الديوان المشتركة، عندما عاد إلى المدينة. لم يكن التحالف بين النقسيس والمرابط قوياً.

لم يظهر أيضاً أى فرد من أفراد النقسييس فى وثائق عام ١٦٤٠، وعلى العكس استمر إبراهيم بن على حاكماً، نظن أنه باسم المرباط^(٩١).

هناك أحداث مهمة فى هذه الأثناء فى تاريخ إسبانيا والمغرب ويهمنا بحثها باختصار.

فى عام ١٦٤٠ حدثت ثورة قطالوينا والبرتغال مع رد الفعل الناتج فى المواقع الحصينة للسلطة البرتغالية القديمة.

اختارت سببة البقاء تحت طاعة فيليبى الرابع الذى عين حاكماً جديداً لكى يؤمن امتلاك الموقع، وفى المغرب كانت زاوية ديلا تتنافس مع كل المرباطين والحكام الذين يقسمون البلد إلى أجزاء.

لجأ الموريسكيون الذين يطاردهم العياشى فى زاوية ديلا التى توصل رئيسها إلى سيدى محمد العياشى لكى يتركهم سالمين. وأمام تشدد العياشى تصادم كلا الحزبين وهُزم المرباط ومات ونقلت رأسه إلى الرباط، حيث حملها الموريسكيون بسعادة بالغة.

فى تلك الزوبعة من الصراعات والانقلابات والتأثيرات الانعكاسية لها، اختفى عبد الله النقسييس، إما فى إحدى المعارك العنيفة التى كانت تحدث باستمرار، أو لأسباب طبيعية. فقدنا أيضاً أثر أخيه عبد الكريم فى أعوام سابقة. مر الجيل الثانى والثالث من عائلة النقسييس، كما شاهدنا، كما مر تاريخ تطوان والمغرب وإسبانيا من مرحلة إلى أخرى.

فى عام ١٦٤٠ هذا كانت هناك سحب كثيفة فى الصراع الذى بدأ فى وسط شبه الجزيرة؛ فى المغرب بدأت عائلة ديلا فى الظهور كسلالة جديدة، وفى تطوان، ظهر نقسييس آخر على رأس الأمة الموريسكية.

قطعنا فى صحبة هذه العائلة، منذ عام ١٥٨٨، نصف قرن من الحياة التطوانية ومن تاريخ المغرب وتاريخنا ذاته. والآن وكّد الكثيرون من الموريسكيين فى أرض غريبة، فى ذلك الشمال المغربى.

الأزمة الاجتماعية - السياسية المغربية

الموريسكيون وعائلة النقسيس.

بعد تعيين السيد خوان فرنانديث دى قرطبة، ماركيز ميراندا، حاكماً لسبتة فى ١٩ فبراير عام ١٦٤١ تولى منصبه فى ١١ من مارس التالى، وكان من أول أعماله توقيع اتفاق مع حاكم تطوان، محمد بن عيسى النقسيس^(٩٢).

وهكذا نبدأ العقد الجديد من القرن السابع عشر، مع نقسيس آخر على رأس المصائر فى تطوان. إنه الجيل الثالث من قادة هذه العائلة فى المنطقة الشمالية وعلى رأسها مدينة تطوان. وفقاً لما يذكره داوود فقد حكم محمد بن عيسى النقسيس من عام ١٦٤٠ إلى عام ١٦٥٣^(٩٣).

كان ابناً لعيسى بن أحمد وحفيداً لأبى العباس أحمد بن عيسى النقسيس، المقدم الأكبر، وقد أكد داوود نفسه أن محمداً هذا كان هو الحاكم الأول بالمفهوم الواسع والمستقل للفظ، حيث كان أسلافه مجرد مقدمين عاديين^(٩٤).

كان لديه دعم مرابط ديلا الذى هزم وقتل المرابط الآخر، العياشى، العدو اللدود للموريسكيين. مع ذلك لا نعرف إذا كان لدى أفراد عائلة ديلا أى شخصية منتدبة فى الموقع تحدد السلطة التى يقوم بها محمد النقسيس، الذى كان من أول اهتماماته إقامة اتفاق، كما رأينا مسبقاً، مع حامية سبتة، يتعلق بأسعار الافتداءات، وبتأمين الشخصيات وبحرية القوافل التجارية بين المدينتين^(٩٥).

ربما دفع الأسرى المشاة ٨٠٩ متسكاليس mitscales أو ١٥٠ باتاكا pataca، والفرسان ١٠٠ متسكاليس أو ٢٠٠ باتاكا. كانت الباتاكا عملة إسبانية تساوى ٨ ريالات دخلت حديثاً في سبته^(٩٦)، لذلك فإن سعر الجنود والفرسان كان يتراوح من ١,٢٠٠ إلى ١,٦٠٠ ريال.

وهي مبالغ أكثر اعتدالاً إلى حدٍ ما من التي كانت تُدفع في الافتداءات العادية.

لم تذكر الأخبار السبتية حركات هجومية للنقسييس هذا على سبته، إما لأن العهد الموقع أقر نوعاً من أسلوب حياة بين ذلك الموقع الحصين وتطوان، وإما لأن محمد بن عيسى النقسييس هذا لم تكن لديه ميول حربية بارزة، أو لأن احتلالاته في أماكن أخرى من البلد قد شغلتها. الأكيد أنه ذكرت فقط حركة مهمة سنراها على الفور نظراً لنتائجها الشهيرة.

وعلى العكس سُجلت هجمات سبتية وصلت حتى معسكرات تطوانية، حيث تم الاستيلاء على غنائم عديدة، على سبيل المثال، في مايو عام ١٦٤٣ وفي أغسطس عام ١٦٤٥، مات أحد القادة الموريسكيين، رادان، وهو يحارب في إحدى هذه المعارك، حيث ذكر الحاكم أو قائد تطوان، ولكن دون ذكر أى اسم^(٩٧).

في ١٦٤٧ تحدث الخبر عن ابن عيسى، قائد تطوان، على أنه رجلٌ ماهرٌ، يستخدم حيلةً كثيرة لخداع المسيحيين^(٩٨).

كانت إحدى هذه الحيل تقوم على وضع أحد المواشى كطعم لكى يجذب طمع المحاربين السبتيين، التواقين دائماً لتموين الموقع بالغنائم المأخوذة من العدو، والانقضاض عليها عندما يكون أعداؤهم أكثر انشغالاً وغير منتبهين. كان هذا يشكل جزءاً من الأكمنة المستمرة أو الأكمنة المضادة التي كان ينصبها البعض والبعض الآخر. لم يكن الموريسكيون يتركون الحامية السبتية في سلام، ولم تكن هذه الحامية تسمح بأن يرعى التطوانيون حقولهم و مواشيتهم في سلام.

باع محمد النقسيس، فى اقتداءٍ للأسرى نفذه الراهب خوسيه دى توليدو والراهب ماتياس دى تريبينيو، فى شهر أبريل عام ١٦٤٥، خمسين عبداً، بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال، وهو ما يعادل ربع مبلغ ٤٠٧,٣٧٢ ريال الذى دُفع لشراء ٢١٠ مسيحي تم افتدائهم فى هذه المناسبة. كانت تمارس الحقوق التقليدية للحكام لبيع غنائمهم مع الامتيازات، حيث كانوا يسمون، بالإضافة إلى ذلك، من هم أكبر سنّاً وأكثر عيباً، كما كان يقول الرهبان. فى هذه الرحلة وُزعت أملاك الرهبان على ٦٧ مالك رقبة، من بينهم الموريسكى على راميريث، سكرتير الحاكم واثنين من اليهود^(٩٩).

يمكن اعتبار المائة ألف ريال التى حصلها محمد النقسيس الآن كالدخل القومى للدولة الإسبانية سنوياً تقريباً. نعرف أنه يوجد اقتداء آخر فى عام ١٦٤٦^(١٠٠).

كان من النادر أيضاً وجود ظروف غير عادية، كالتى سنراها فى الحال. ففى شهر يونيو عام ١٦٤٨ اشترى رهبان جمعية مريم العذراء أسرى آخرين فى تطون، وشهد على ذلك الكاتب خوان ألونسو دى مولينا، حيث افتدوا ٣٥ مسيحياً من الحاكم، ويمثلون نسبة ٤٢٪ من إجمالى المحررين هذه المرة واعتُبر هذا دخلاً مالياً كبيراً آخر للنقسيس. تقاسمت مجموعة كبيرة من الموريسكيين، عددهم ٥٤ شخصاً - ليس عدداً كبيراً كما فى الاقتداء السابق - الأمتعة التى أحضرها رجال الدين^(١٠١).

كانت القرصنة تمثل للحكام مصدراً للثروات، التى ربما تضاف إليها ثروات الغنائم التى كانت تتحقق، من حين إلى آخر، فى المعارك مع حاميات الحدود، وكانت تخصص للحاكم الغنائم الأكثر جودة فيها، مثلما حدث فى الحالة التى سنرونها حالياً.

فى ٩ سبتمبر عام ١٦٤٨ سقط ابن قائد سبته العام، السيد فرانشيسكو سواريث دى ألكون Francisco Suárez de Alarcon سجيناً فى إحدى المعارك الدامية. حينئذ كتب محمد النقسيس إلى الأب وأعلمه بحالة ابنه، بعث الحاكم السبتي بعض الخدم إلى تطوان، وأحد المترجمين، لى يخفف أسر الابن، الذى حصل على الحرية فقط بعد ستة أشهر بمبلغ كبير من المال. رجع الابن المحرر إلى سبته، ممتطياً جواداً أشهباً جميلاً، مزوداً بمعطف و سروال من نسيج قرمزي بعروة من الذهب، مع أكمام قميص طويلة على الطريقة الموريسكية، كان كل هذا هبة من سيده.

وبعد سطور قليلة من رواية هذا المشهد، علم المؤرخ أن عيسى النقسي قد قُتل بعد دخوله إلى سبتة بواسطة أحد الهاربين، ولأنه لم يضع تاريخاً لذلك فلم نعرف إذا كان هناك تناقض أو لا مع تاريخ الوفاة الذي حدده داوود والذي سجلناه بالفعل^(١٠٢).

في حوالى عام ١٦٥٢ قدم محمد النقسي مؤناً للبحار الإنجليزي، الكابتن وليم بن William Penn حيث استمر بذلك فى السياسة المحبة للإنجليز التى بدأها أوائل النقسي. حينئذ كان الأسطول الإنجليزي يراقب المضيق، ضد هولندا. نلاحظ اهتماماً أساسياً لهذا النقسي بتنمية كل أنواع العلاقات التجارية، والاستفادة من كون تطوان، فعلياً، المخرج الوحيد إلى البحر المتوسط، لمملكة فاس^(١٠٣).

لدينا رواية عن استيراد وتصدير، وهى وإن لم تكن مستفيضة، إلا أنها ذات دلالة لعمليات التبادل التجارى التى، كانت تصل إلى سبتة عبر تطوان، أو كانت تخرج من تطوان مباشرة عن الطريق البحرى. هذا التبادل التجارى لم يكن على نطاق واسع، ولكن أيضاً لا يمكن التحدث عن انعدام التجارة بين المغرب والعالم الخارجى.

توجد هنا المواد التى كان يتم تبادلها فى عمليات الشراء والبيع بواسطة التجار العديدين، والذين وردت أسمائهم كثيراً فى المصادر الوثائقية، ومن بينها المؤرخ السبتي، الذى سيذكر أن المواد التى كانت تستورد من المغرب هى التالية: شمع معجون ومنقوش وجلود خام ومدبوغة وسجاد وأبسطة وصقور وريش نعام وتبغ وعنبر وبلح وبياضات، كل هذا بالجملة، أما بالتجزئة فيذكر: برانس وكتان وأقمشة ودجاج وسمن وعسل ولوز ولبن وجبن وخزف. وعقب المؤرخ أنهم كانوا يرفضون دائماً بيع الحبوب والأحصنة والبقر والخرفان.

كانت المواد التى تصدر إلى المغرب هى التالية: الأحجار الكريمة، وخاصة الزمرد والمرجان والخزف والنسيج القرمزى والأعشاب للصبغة وبعض العقاقير وأقمشة من سيفوبيا وقلنسوات سوداء وملونة من مصنع طليطة.

كان المسلمون يقومون بهذه التجارة عن طريق قوافل إلى سبتة. كان التجار المقيمون في سبتة معتادين على استخدام طريق البحر تجاه كاستييجوس Castillejos وريكون المضيق أو تطوان نفسها، في مصب نهر مارتين^(١٠٤).

نستنتج من القائمة المقدمة- حيث نلاحظ مواد قادمة من الجنوب المغربي، ومواد من دول أخرى أكثر بعداً، كريش النعام - أن تطوان كانت فقط مرحلة مرور للتجارة القادمة من داخل البلد ولم يكن لديها مخرج سهل بعدما احتلت البرتغال وإسبانيا كل الموانئ الصالحة لمملكة فاس.

كانت الحبوب والأغنام ضرورية جداً لنفس البلد و لذلك كان طبيعياً ألا يسمح المسئولون عن التجارة بخروجها. ومع ذلك ففي مناسبات عديدة استخدمت لكي تخفف من القحط في شبه الجزيرة.

فيما يتعلق بأسماء التجار، فقد لاحظنا أنه لم تذكر الأسماء الإسبانية التي نراها موجودة في كل الموانئ المهمة، ونجد من بينهم، الذين اتجهوا إلى القرصنة. كانت القرصنة بالتحديد واحدة من مصادر الثروة الرئيسية لسكان هذه الموانئ. احتكر موريسكيو تطوان مبيعات العبيد وتزايد ملاكهم في حكومة محمد النقسييس هذه.

في نهاية يوليو عام ١٦٤٠- عندما لم يكن قد ظهر بعد محمد بن عيسى كحاكم، بل كان الحاكم شخصاً يدعى إبراهيم ياناس Ibrahim Llanas، (لا نعرف ما إذا كان قد ظهر كممثل لديلا)- ذكر في أحد الافتداءات ثمانية عشر اسماً موريسكياً، كلهم تقريباً من بائعي العبيد^(١٠٥).

نرى هذه الاسماء تتكرر سواء في وثائق سابقة أو لاحقة من نفس النوع، اتجه على أراغون Alí Aragon ، وإبراهيم سانتيلانا Brahim Cantillana، مرة أخرى للتجارة منذ عام ١٦٣٥ على الأقل^(١٠٦).

استمر آخرون مثل عمار كارديناس Amar Cardenas وعلى مالدونادو Ali Maldo- nado وعلى بوبري Alí pobre وعلى راميرث Alí Ramírez وحامد كابريرا Hamed Cabrera والحاج ليون Hayy León وعلى موراليس Alí Morales في التجارة في عام

١٦٤٠ (١٠٧). سُجلت آخر ثلاث شخصيات في المبيعات منذ عام ١٦٣٥ وحتى ١٦٤٥ . يبدو أن هذه المعلومات شكلت ظهور برجوازية قادمة من الموريسكيين في الفترة الأخيرة من هجرتهم، وكان بعض عناصرها لا يزال يعتمد على عائلات في تطوان، على سبيل المثال، أراغون أو بوبري أو مواليس. لا نذكر أكثر من الأسماء الموجودة في الوثائق الثلاثة التي ذكرت مؤخراً (١٠٨) .

يبدو أنه تحت حكومة محمد النقسيس قد زاد عدد الموريسكيين المشتغلين بالتجارة القادمة من أنشطة القرصنة. إذا كان عددهم عشرة في عام ١٦٣٣ ، فقد أصبحوا اثني عشر في عام ١٦٣٥ ، وفي عام ١٦٤٠ أصبحوا ستة عشر، ووصل عددهم في عام ١٦٤٥ إلى ما لا يقل عن خمسة وعشرين مالكاً امتلكوا، بشكل كامل تقريباً، كل مجموع العبيد المباعين. في افتداء عام ١٦٤٥ دُفع لمحمد النقسيس، حاكم تطوان، مبالغ كبيرة مقابل أسراه وعددهم ٤٥ تقريباً. في نفس الوثيقة نجد ابن أخيه، عبد الكريم النقسيس، وقد حصل على مبالغ أكثر تواضعاً. يبدو أن الموريسكيين الجدد قد حلوا محل طبقة النبلاء الغرناطية التطوانية القديمة في الانتفاع من مصادر الثروة. ليس هناك مجال للشك في أن محمد بن عيسى كان يحكم معهم. ظهر عنصر آخر في الأفق السياسي المغربي، وأثر بالأخص في شمال البلد، وهو خضر غايلان، حيث كان ينافس أفراد عائلة ديلا في النفوذ والسلطة. كان غايلان، الملقب بغورفيتي الأندلسي Gurfeti، من قبيلة بنى غورفيت القريبة من العرائش، وهي من أصل موريسكي أيضاً.

لقد حارب، وهو شاب، إلى جانب العياشي المرابط، وجمع إرث الأخير وحرّض قبيلته أولاً واستولى على مدينة القصر الكبير، وجعل تلك المدينة مركزاً لنشاطه السياسي والحزبي. عين سكرتيراً له واحداً من أبناء الشخص الذي كان حاكم جمهورية رباط الأندلسية، عبد القادر ثيرون' Abd el Qadir Cerón ، والذي حصل بنصائحه على نجاحات سياسية متميزة. استطاع السيطرة على الرباط و سلا وانتصر على رئيس زاوية ديلا ذاته.

جاء إلى تطوان، وحاصرها وضيق عليها بحيث استسلم له أفراد النقسيس بخضوع، وأقاموا علاقات تصاهر معه (١٠٩) .

من المؤكد أن المؤرخ الذى أعطانا هذا الخبر كان يعلم جيداً أن تطوان لم يكن يحكمها أحد أفراد النقسيس بعينه ولكن العائلة مجتمعة، مثلما حدث عند موت أكثرهم شهرة، أحمد بن عيسى، لا نعلم إذا كانت الأمور قد سارت هكذا. لاحظ المؤرخ نفسه الذى ننقل عنه أنه بعد موت محمد النقسيس، كان هناك جدل كبير بين المسلمين حول من يمكن أن يكون الأفضل لحكومتهم^(١١٠).

يمكننا، من خلال وثيقتين سنراهم فى الحال لعامى ١٦٥٤ و ١٦٥٦ وأيضاً من وثيقة أخرى لاحقة من عام ١٦٦٠، استخلاص أن ابن أخ محمد، المدعو عبد الكريم بن عيسى النقسيس قد خلف عمه فى حكم تطوان.

وفقاً لما يذكره داوود، كان عبد الكريم هذا يحكم منذ ١٦٥٣ حتى ١٦٥٩، الأمر الذى يمكن أن يكون مطابقاً بشكل كبير للحقيقة، لأنه فى عام ١٦٦٤ ظهر حاكمان، هما أحمد بن النقسيس وأحمد بن عبد الكريم النقسيس^(١١١). لا نعرف إذا كانوا إخوة أم أبناء عم. أما فى عام ١٦٦٠ فكان يوجد حاكم واحد فقط.

فى مرحلة حكم عبد الكريم النقسيس وصلت إلينا حسابات عمليتى افتداء نفذهما رهبان جمعية الثلاث المقدس فى تطوان.

كانت أحدهما من عام ١٦٥٤ و الثانية من عام ١٦٥٦. فى عملية الافتداء الأولى اشتروا منه ٣٥ أسيراً، ليس عدداً كبيراً إذا فكرنا أن هذا العام كان هو العام الأول لحكمه وأنه كان يريد الاستفادة من الظروف، يمكن أن تقدم لنا عدة كشوفات تفسيراً لذلك حيث تم امتلاك ٢٢ عبداً من أرملة الحاكم المتوفى. ليس هناك مجال للشك فى أن عبد الكريم قد ترك ثغرة لكى يبيع عبيد عمه ولكى يؤمن للأرملة ثروة طائلة^(١١٢).

يبدو أن هذه التفاصيل تؤكد موت محمد النقسيس فى عام ١٦٥٣، حيث بدأ حينئذ ابن أخيه فى حكم الشئون المدنية.

فى الافتداء الثانى لم يكن هناك كثير من الأسرى الذين عرضهم للبيع، كانوا ٣٧، ربما لأنه ترك مكاناً لكى يبيع ٤٦ من ملاك رقبة آخرين عدد ١٢٨ أسيراً. هذا يعنى أن

كلهم تقريباً باعوا واحداً أو اثنين، ما عدا القائد مؤمن الذى باع ٦ ، وأراكسال الذى باع ١١، و باع الموريسكى كابريرا ٨، و باع ميدينا ٤ أسرى. يوجد نقسيس آخر يدعى الحاج على بن عيسى النقسيس اشترى منه عبداً واحداً. لذلك كانت الأمور متكررة إلى حدٍ ما^(١١٣).

هناك مكتوب لعبد الكريم بن حامد النقسيس، "حاكم تطوان وملحقاتها بفضل الله وممثل الملك سيدى عبد الله الغزوانى"... "أصدر هذا التأمين وجواز المرور..." تنتهى هذه الوثيقة بعبارة "أقر أنا خوسيب ميخياس^(*) أن التوقيع باللغة العربية هو للسيد حاكم تطوان وسيدى عبد الكريم بن حامد النقسيس فى سبقة فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٦٥٦ وهو موقع أيضاً من كاتب افتداء هذا العام، فرانثيسكو غوميث ديل ابيرو^(١١٤)."

يجب أن نوضح أن الغزوانى كان مراقباً فرضه خضر غايلان، حينما كان مسيطراً على المنطقة.

فعل غايلان كل ما هو ممكن لبسط وتأكيد نفوذه فى الشمال المغربى، و بمصاهرته مع عائلة النقسيس - كما عرفنا من المؤرخ السبتي - ضمن دعم هذه العائلة القديرة، التى كانت فى الحقيقة، هى التى تتخذ القرارات الأكثر أهمية فى المدينة وليس ممثل غايلان، الغزوانى الذى يذكره المؤرخ داوود.

كان عبد الكريم النقسيس مستمراً فى تطوان فى سياسة أسلافه المحبة للإنجليز، واستفاد من الوجود الكبير للأسطول الإنجليزى فى مياه المضيق ومن احتياج البحارة الإنجليز للتموين.

عرض أحد التقارير التى قدمها واحد منهم، ويدعى بادلى Badley، فى عام ١٦٥٦، الاحتياج لتعيين ممثل دائم بجوار حاكم تطوان، ليس فقط لكى ينمى علاقات

(*) ورد فى كتاب "بين الإسلام والغرب" تأليف غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس (المشروع القومى للترجمة) ما يفيد أن اليهود كانوا يقلدون توقيع الحكام المسلمين . (المراجع)

الصداقة بين الرجال فى الأسطول و تابعى هذا الحاكم فحسب، ولكن أيضاً بسبب احتياج المراكب للمياه. وبالأخص، " بينما كنا نحن فى حرب مع إسبانيا".

كان هناك تجنبٌ لوقوع البحارة، المقبوض عليهم مرات كثيرة، فى الأسر، عندما كانوا يتزودن بالماء. بالإضافة إلى ذلك، فكان يمكن لموظف دائم أن يمد الأسطول بعدد ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رأس ماشية، وكان نصف هذا العدد أكثر رخصاً عنه فى إنجلترا، بالإضافة إلى مؤن طازجة أخرى. اقترح المبلّغ شخصية ناتانييل لوكى Nataniel Luke كالشخصية الأكثر ملائمة لى يكون مستشاراً دائماً لإنجلترا فى تطوان، بسبب إقامته الطويلة فى هذا المكان و معرفته بالبلد، بالإضافة إلى لياقته ومهارته و نشاطه الواضح^(١١٥).

فى نفس هذا العام ١٦٥٦، عدد أحد قادة الأسطول، مونتاغو، نفس الأهداف لى يطلب من اللورد المنتدب من إيرلندا، تعيين مستشار فى تطوان، الموقع الأساسى فى المضيق، لى تأخذ مراكبنا المياه و تحصل على اللحوم و الأطعمة الأخرى. أضاف أنهم فى الصيف الماضى كان عليهم الانتظار، لى يحصلوا على المياه، حتى يعطى الحاكم إذنًا بذلك. كان هذا الحاكم يريد إقامة اتفاق تجارة حرة معنا.

رأى مونتاغو أن لوكى Luke، " شخصية مناسبة جداً لهذا العمل" ^(١١٦). مع ذلك، فإن جمعية الجنوب، التى شكّلت لهذا الغرض، نصحت بعمل العكس، فى رد وجهته إلى القيادة البحرية العليا الإنجليزية فى ٢٠ فبراير من ١٦٥٧.

يقولون إنه لم يكن لتطوان ميناء ولكن مرسى مفتوحاً لكل الرياح المعاكسة، ولذلك فهى ليس لديها قدرة على القيام بتجارة كبيرة، بل تلك التجارة التى يقوم بها سكانها على ظهر المراكب، حيث يحملون إليهم كل المواد التى يريدونها، ولذلك فنحن "لدينا ميزة عدم دفع جمارك"، كانوا يعتبرون أنه من الأفضل الاستمرار هكذا على أن يحملوا البضائع الى الأرض، "حيث لن يكون لدينا أى سلطة قضائية" و بالتالى لن يكون هناك احتياج الى موظف عام^(١١٧). رغم هذا التقرير السلبي إلا أن مجلس الدولة واللورد

الحامى على رأسهم قد راق لهم تعيين لوكى ليذهب إلى تطوان للتعامل مع الحاكم، "فيما يخص البضائع التى يمكن أن تكون ضرورية لاقامة تجارة حرة بين الكومنويلث وتلك المدينة"^(١١٨) .

فى ٣ مارس عام ١٦٥٦ أعطى مجلس الدولة الإنجليزى التعليمات المناسبة للوكى لكى يقيم فى تطوان، كمتعهد لتموين الأسطول، وفى العام التالى بُعثت له رسالة التعيين من قنصل سلا وأرسيلة وتطوان وصافى Safi وسانتا كروث حيث سمحوا له بتعيين ممثل، خُصصت له نسبة ٢٪ عن كل البضائع التى يستطيعون بيعها على ظهر السفن أو فى البر، فى الموانئ المذكورة، مع كل المزايا المرتبطة بالمنصب^(١١٩) .

وقّع عبد الكريم النقسييس، كحاكم تطوان، فى ٩ أغسطس عام ١٦٥٧، معاهدة سلام مع القائد الأعلى ستواكيس Stoakes باسم أوليبيير Oliver، اللورد الحامى ...

يظهر فى البنود الثمانية لهذه المعاهدة، فى الواقع، حكم ذاتى للمدينة التى كانت تحت السيادة الإسمية لمحمد (بن بكر)، ملك أسويا Asowia وكان عبد الكريم النقسييس يباشر عمله فيها، بالرغم من ظهور القصر الكبير وأرسيلة وملكيات أخرى فى البند الأول، تشير البنود، من الأول إلى السابع، بشكل أساسى، الى أوضاع متعلقة بالبحر، موجودة فى تطوان وسواحلها، وبسبب ذلك فإن المعاهدة كانت تتركز بكل وضوح فى العلاقات بين هذه المدينة والإنجليز.

كان الحكام التطوانيون يبحثون باجتهاد عن مصادر أخرى تبادلية تجلب المال غير القرصنة ومشتقاتها. كانت التجارة، بطبيعة الحال، أحد هذه المصادر. اشتغلت بها واحدة من المجموعات الاجتماعية التى كانت تكون كل المنفى الإسبانى، لكنها، فى ذلك الوقت من القرن السابع عشر كانت مدمجة إلى حدٍ ما فى المجتمع المغربى. نقصد اليهود الذين استعلم عنهم تجار أمستردام فى عام ١٦٤٧ و الذين من خلالهم كانت تقوم أساساً التجارة مع المغرب^(١٢٠) .

فى وثائق افتداء عديدة كثرت مبادلة البضائع الإسبانية أو القلنسوات أو الأقمشة أو المجوهرات أو الحرير التى يحملها رجال الدين المفتدون، وتقاهم هؤلاء بشكل خاص مع اليهود التطوانيين، أسياد العبيد أو بالأحرى ممثلى ملاك آخرين وكُلوهم لهذا الصدد.

ربما كانت التجارة الصغيرة التي نشأت بين الجزائر وتطوان - بالإضافة إلى
تجارة العبيد، المستمرة على طوال القرنين السادس عشر و السابع عشر- كانت تُنفذ
في غالبيتها بواسطة تجار يهود مقيمين في واحد أو آخر من مراكز القرصنة
الكبيرة في البحر المتوسط الغربي^(١٢١) . كانت أسماء أفراد عائلة بيمينتا وباياتشى
Pallache^(*) وميخياس وأسماء أخرى متشابهة تُذكر بتكرار في هذه الوثائق ووثائق
أخرى، لأنه، بالإضافة إلى كونهم تجاراً جيدين فقد اعتادوا أن يكونوا مترجمين عظماء
ودبلوماسيين ذوي نفوذ يحصلون على رضا وثقة السلاطين والحكام المغاربة.

يقول داوود متذكراً ثيرديرا، إنه بعد موت عبد الكريم النقسيس، في عام ١٦٦٠،
خلفه في السلطة التطوانية شخص يدعى غزواني، منتدب عن خضر غايلان، الأمر الذي
يعنى أن المدينة كانت مستمرة حينئذ تحت حماية غايلان السابق ذكره.

لا نعرف شيئاً عن غزواني ولا عن تطوان في فترة حكمه. نعرف فقط أنه كان
قصيراً جداً وأن أحمد بن عبد الكريم النقسيس قد خلف الغزواني في حكم تطوان.

نذكر أن أحمد بن عبد الكريم النقسيس هذا هو واحدٌ من حكام هذه العائلة الذين
أعطوا التأمين لرهبان جمعية الثالوث المقدس الذين ذهبوا لافتداء الأسرى، في
٢٥ يناير عام ١٦٦٤ . يعطينا نفس النص اسم حاكم آخر، سيدى المدن Almuden
الذى حل محل الغزواني، دون شك، كممثل لغايلان حيث أن هذا الأخير هو الذى كان
يملك سلطة اتخاذ القرارات الأخيرة، كما يمكن إثبات ذلك في هذا المخطوط حيث بعث
الرهبان يهودياً، من سبته، يدعى بوتيمير، لكى يذهب إلى أرسيلة، مقر غايلان، لكى
يعطى غايلان أوامر لحاكم تطوان لكى ينفذ الافتداء. بالإضافة إلى ذلك، كان يجب على
رهبان جمعية الثالوث المقدس أن يذهبوا أولاً إلى أرسيلة لافتداء أسرى غايلان
نفسه^(١٢٢) .

(*) نشير إلى قرب الانتهاء من ترجمة كتاب كامل عن نشاط أحد أفراد العائلة وهو صمويل باياتشى
في مجال الترجمة و المفاوضات السرية بين المسلمين والمسيحيين: "بين الإسلام والغرب" ، ترجمة معدوح
البستاوى ، المشروع القومى للترجمة ، (المراجع)

كان هناك، وفقاً لما يرويهِ ثيرديرا، نزاع على الحكم، عند طرد الغزوانى من المدينة، وحيال ذلك عاد غايلان إليها لإخضاعها، ولكن فى النهاية حدث اتفاق بين الطرفين، وبقي النقيس كحاكم، ولكن بشرط استقبال ممثل غايلان، وهو بالتأكيد المدن - Almu-den السابق ذكره. بالنسبة للمؤرخ التطوانى إسكيرى فإن من خلف عبد الكريم النقيس كان هو أخوه وليس ابنه الذى يُجهل اسمه.

قتل أحد أفراد بنى رموز هذا الأخ الذى أراد سلبه بعض الممتلكات (١٢٣) .

ليس هناك فى متناول يدنا معلومات دقيقة عن حكومة أحمد بن عبد الكريم النقيس. إنها الأعوام التى سطع فيها نجم السلالة الملكية الجديدة، الفلالية، الحاكمة بالفعل. استطاع ملكها الأول، مولاي راشد احتلال فاس فى عام ١٦٦٥ . وفى العام التالى، فى ٤ يونيو، كان يجب عليه أن يدخل من جديد فى هذه العاصمة حيث قتل كل الرؤساء، وفقاً للمؤرخ المغربى (١٢٤) . من هنا امتدت سيطرته على البلاد، واستطاع دخول تطوان فى عام ١٦٦٧ . فى هذه المدينة الأخيرة قام بأسر حاكمها، أحمد بن عيسى النقيس وكل الوجهاء وحملهم إلى فاس، حيث أبقاهم سجناء.

تكاملت أخبار من مصادر مختلفة فيما يتعلق بهذا الحدث، ووضحت بعض النقاط بالرغم من أن تفاصيل أخرى قد ظلت مشوشة فى تاريخ تطوان وعائلة النقيس، خلال الفترة الأخيرة من تأثير هذه العائلة.

تبرز يوميات فرانكا استيلاء مولاي راشد على تطوان، ويقدم معلومات كانت مجهولة حتى الآن. على سبيل المثال، أن السلطان أمر بشنق بن عروس، حاكمها، لقتله العبريين، إياكوبا غاباي وإياكوبا ميسياس، سكرتيريه، اللذين كانا قد حاولا فى تطوان أن يتدخلوا لى يقدموا الطاعة لسيدهما ... (١٢٥) .

هكذا يبدو أكيداً أن غايلان قد فرض حاكماً مساعداً للنقيس قائد السلالة التطوانية، وفيه صب الملك الجديد العلوى غضبه.

يوعز إلينا اسم الحاكم التطوانى المشنوق فى ١٦٦٧، بنشأته فى قبيلة قريبة، قبيلة بنى عروس، ربما كانت الأكثر تأييداً لغايلان من سكان جبال تطوان أنفسهم. على الجانب الآخر فإن توظيف مولاي راشد لليهود قد كثر فى النزعة الظاهرة فى

الأخبار والروايات، للسلالة الجديدة، حيث كان هناك تعاطف مع هذه الأقلية المهشمة إلى حدٍ ما أحياناً من قبل السلطات والشعب.

استمر المؤرخ فى الحديث عن نتائج استسلام تطوان لمولاي راشد، بالأخص عن هؤلاء الذين أثروا أكثر على الموقع السبتي، حيث أنه وفقاً لمن وكيف يحكم المدينة المغربية، كان يعتمد اطمئنان حامية وشعب سبتة. لقد تسبب محاربو النقسيس فى أكثر من كارثة للإسبان – البرتغاليين.

لكن على الجانب الآخر، فإن الطمأنينة والسلام كانا يستقران عندما كانت النزاعات المدنية تشتعل فى البلد المجاور. حمل مولاي راشد، أفراد النقسيس محبوسين بالسلاسل، دون الاحتفاظ بنساء أو أطفال. تُظهر هذه المعلومة القسوة، لكنها ببساطة تمثل عدم ثقة فى مناصرى النقسيس من إمكانهم التحكم فى المدينة من جديد، حيث كان أطفال ونساء النقسيس يمثلون حينئذ ضماناً لسلوك تابعيه.

انتهت القصة باعتذار السلطان وعودة أفراد النقسيس إلى منازلهم. ... عندما وصل أفراد النقسيس إلى فاس، اعترضوا وأقسموا على بقاء وحماية تطوان بواسطة مولاي أرثيس Arcis ، الذى تركهم يعودون إلى منازلهم ويستعيدون ممتلكاتهم. تلك الممتلكات التى، فيما يبدو، قد تم سلب بعضها بعد القبض عليهم مباشرة، وفقاً لما يقوله داوود، الذى يقول أيضاً إن مولاي راشد طلب ممتلكات أولاد النقسيس، وأمر ببيعها لمنفعة الأموال العامة.

لم يكن هذا العقاب نزوة من الملك، لكنه نتيجة لشهادة موقّعة من أكثر من أربعين شخصية بارزة فى تطوان، يتهمون فيها أولاد النقسيس بالظلم والاضطهاد والاستيلاء غير المشروع على الممتلكات وباتهامات أخرى.

كانت توجد، لذلك، معارضة سياسية واجتماعية، وكانت القوة فقط هى التى تُسكتها، وكانت تظهر فى أوقات صعبة، كالتى نبحثها الآن.

توضح لنا الأسماء التي وقعت وثيقة الاتهام المذكورة ألقاباً موريسكية، مشهورة جداً مثل خطيب وكاستالى وكارديناس ومارين ومونتورو وميندوثا وتشيبو Chivo (١٢٦) وألقاباً أخرى ذات رنين مقشّتل أقل، ولكن نعرف أنها كانت تنتمى إلى عائلات موريسكية، مثل راتوت Ratut أو تانيا Tania (١٢٧). كان الموريسكيون أنفسهم مقسّمين حسب وصولهم أو عدم وصولهم إلى مصادر الثروة التطوانية. كان من الممكن أن يكون الاستياء والمعارضة السياسية يتناسب مع المشاركة الأكبر أو الأقل فى رؤوس الأموال المشكلة فى الغنائم التى يحصلون عليها وفى التجارة الصغيرة. فى كل هذه الثروات كانت توجد نسبة أعلى من ٤٠٪ من المجموع أحياناً، فى أيدي أولاد النقسيس أو أقربائهم.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يفرض على أفراد النقسيس عقوبة صارمة كهذه، وكانت أيضاً هى المرة الأولى التى يُرون فيها فى وضع حرج. أقسموا على الإخلاص للملك العلوى، ولا نعتقد أن ذلك كان عن اقتناع كبير. أعيدت إليهم ممتلكاتهم، لكن بالتأكيد كان ذلك بشرط "الحفاظ والدفاع عن تطوان نيابة عن مولاي Arcis، الأمر الذى كان يفترض أن القيام به هو بالتأكيد لصالح استقرار السلالة الملكية الجديدة.

كان ما حدث، وفقاً لمصادر العصر، هو أن وفاء أفراد عائلة النقسيس كان ذا أجل قصير، ربما بسبب تعيين الملك أحمد بن يعقوب حاكماً لتطوان؛ ففي ديسمبر من ١٦٦٨ قام السلطان بتهريب غايلان، الذى لجأ فى الجزائر وحينئذ، هرب أفراد النقسيس، لتقصيرهم فى العهد الذى تعهدوا به، إلى سبّقة مع عائلاتهم، وأعانهم الإسبان بعشرة مكايل من القمح وخمسين بيسو شهرياً. بعد ذلك بقليل لجأوا مع غايلان فى الجزائر وبعد حصولهم على عفو مولاي Arcis رجع أولاد النقسيس إلى تطوان (١٢٨). ترك منفى الحكام التطوانيين أثراً وثائقية أخرى، توجد إحدى الرسائل من ملكة إسبانيا فى ٢٩ يناير عام ١٦٦٩، موجهة إلى ماركيز أسيننتار Asentar، قائد سبّقة العام، تفيد باستلام العريضة التى بعثها القائد والخاصة بقيادة

تطوان الستة الموجودين في هذا الموقع، وتخبّره بأنه بالإضافة إلى العشرة
مكايل من القمح شهرياً، والتي أعانواهم بها، فقد أمدوهم بخمسين بيسو منذ يتاير
عام ١٦٦٩ (١٢٩) .

يحتمل أن يكون القادة الستة، مجرد ستة أرباب أسر وأن العشرة مكايل من
القمح شهرياً كانت تُعطى لهم مراعاةً للنساء والأطفال الذين جاءوا معهم. تظل
لدينا الرغبة في معرفة السكن الذي وفره الحاكم السبتي للاجئين. في هذه الأثناء، كان
هناك تغيير للحكام في تطوان، حيث عُين قاسم فارشيش Qasimi Farsis بدلاً من
يعقوب. لقد شيد الأول فقط حصن أmsá وأنشأ الثاني أسوار القصبة في
عام ١٦٧٠ (١٣٠) .

ليس معروفًا الدور الذي كان يقوم به أفراد النقسيس خلال حكومة وكلاء مولاي
راشد هؤلاء. لكنهم لم يختفوا كلياً من المسرح السياسي، بالرغم من أن ظهورهم مرة
أخرى سوف يكلفهم الكثير، حيث انتهت محاولات سيطرتهم الأخيرة بنهاية درامية
دامية.

تكمل لنا بعض التفاصيل الإضافية، الموجودة في مخطوط افتداء عام ١٦٦٨،
رؤية أحداث هذه الفترة تاريخياً. حصل رهبان جمعية الثلاث المقدس في سبتة على
جواز مرور موقع من مولاي أرثيس Arcl، ملك فاس وتطوان.

ألزم مولاي راشد رجال الدين أيضاً أن يذهبوا إلى فاس لكي يتقابلوا معه، على
الأقل كإشارة على السيادة. لا يوجد أي عبد لأولاد النقسيس، ولم يُذكروا أبداً. على
العكس، يوجد ٢٠ مفتد من الديوان، الأمر الذي يمكن أن يعنى سيطرة مجموعة من
المدنيين أو أنه إذا وجد حاكم فلم يكن له دور كبير. يوجد العديد من الموريسكيين
يبيعون عبيداً، من بينهم الكثير من الأسماء المذكورة مسبقاً كمتهمين لأفراد النقسيس،
كارديناس، مونتورو، مارين .، وهو ما يمكن أن يشير إلى مصادر الشكاوى^(١٣١) . كان
الأكثر أهمية في كل وثيقة هو، في رأينا، أن جواز مرور مولاي راشد والاختفاء النهائي
لأفراد النقسيس، يمثل التغير العظيم الذي حدث، ليس فقط في السياسة التطوانية،
ولكن في السياسة العامة للبلد. لقد دخل المغرب عصراً جديداً.

نهاية أفراد النقسيس :

عندما مات مولاي راشد في عام ١٦٧٢، كان يبدو أن المغرب سوف تسقط في الفوضى الكاملة تماماً، حيث كان هناك عدة طامعين يتنافسون على العرش، سواء في المغرب أو في فاس، ولكن أحد أخوته، ويسمى مولاي اسماعيل، والذي كان حاكماً في مكناس قد أقنعه كل من فيرناندو ديل بينو الملقى Fernando del Pino و دومينغو دى أبريو السبتي Domingo de Abreu وعدد من الأسرى المسيحيين بأن ينادى الناس به ملكاً عليهم. وبالفعل كان المسيحيون هم أول من رفعوا أصواتهم بتحيته (١٣٢).

نعتبر ما سبق فضولاً تاريخياً يظهره لنا المؤرخ، وأيضاً اسم قائد تطوان في هذه الأثناء، و هو شخص يدعى بوخييس (١٣٣).

اعتقد غايلان، عند معرفته بموت مولاي راشد، أن اللحظة قد حانت لكي يظهر في أراضى ممتلكاته السابقة ومواجهة الملك الجديد. عاد من الجزائر، وجمع إلى مناصريه جيشاً صغيراً وحارب مولاي اسماعيل الذي هزمه في معسكرات القصر الكبير. لا نعرف ما إذا كان قد قطع رأسه كعقاب، فالرأس هو الجزء الوحيد من جسده المعروف أنه مدفون في مقابر سيدى على بو غالب في القصر.

يواصل نفس المؤرخ وصف الوضع في تطوان في هذه اللحظة:

كان أفراد النقسيس من منازلهم يهتمون بخطوات الملك الجديد مولاي إسماعيل وكانوا يتولون، القيادة المستبدة ومدنها الصغيرة ومضارب خيامها، و يخطرون غايلان بكل الأحداث...

بالإضافة إلى ذلك فإن أفراد النقسيس اتفقوا على هدنة من ستة أشهر مع حاكم سبتة حموا بها التجارة وخروج السبتيين للحقل الخارجى لجمع العلف، حتى وجب وقفها بسبب خشية مناصري مولاي إسماعيل، الذين كانوا ينتقدون هذه الصلات الجيدة مع المسيحيين. حذر أفراد النقسيس أنفسهم الماركيز الحاكم، و رجوه أن ينهى الهدنة (١٣٤).

يحدد الخبر موت غايلان في الأول من سبتمبر ١٦٧٣ (١٣٥) .

... لهذا السبب كان أفراد النقسيس من تطوان و أنييرا يكون الموت المفجع الذي كان يهدد نساءهم وأولادهم وأصدقاءهم وأقاربهم، ولتفادي ذلك تركوا منازلهم وأملاكهم ولجأوا في سبتة في نفس الشهر، واستجدوا حماية ملك إسبانيا: أفراد النقسيس مع ٢٣ مسلماً على ظهر خيل و ٣٧ من المشاه و ٣ نساء و ٧ عبيد مسلمون سود. والخاتى El xate مع ٨ على ظهر خيل و ٢٩ مشاة ، و ١٨ امرأة. وخفف عنهم الماركيز، بلطف وهدايا واستقبلهم استقبلاً حسناً، وصرف لهم مساعدة من الأموال الملكية تقدر بخمسين بيسو في الشهر لأفراد النقسيس و بثلاثين للخاتى والقمح لكل الناس على ظهور الخيل، وعندما علم البلاط بكل شيء قام بشكر الماركيز وطلبوا منه الاستمرار في تقديم المساعدات (١٣٦) .

قدمت هذه المجموعة الكبيرة من الأشخاص، وكانوا أكثر من ١٢٥، مشهداً شجاعاً، عندما دخلوا سبتة، في حرارة أسوار القلعة. من المؤسف أن كوريبا لم يترك لنا في روايته الانطباعات الشخصية عن الحدث، بالإضافة إلى أنه نقل لنا الخبر بشكل مختصر، ربما كان يمكن أن يسمع روايات من شهود مباشرين.

يكتمل الخبر بالمعلومات التي قدمها داوود في مؤلفه عن تطوان، والتي عرفنا من خلالها من هو النقسيس الذي ساند عودة غايلان، وعندما قام بذلك، خاطر بمصير عائلته كلها، وبالإضافة إلى ذلك، سنعرف أيضاً ليس فقط نهاية النقسيس ولكن نهاية عائلة أخرى قامت بدور مؤثر منذ زمن المندارى. كانت هذه العائلة هي عائلة مفضل. في الواقع كان شخص يدعى مفضل النقسيس هو الذي فتح أبواب تطوان وجمع قواتها مع قوات غايلان، عندما حضر الأخير عائداً عبر البحر من الجزائر، إلى المدينة مع مجموعة كبيرة من المنفيين (١٣٧) .

لقد اتحد أفراد مفضل وأفراد النقسيس عائلياً، مع تأكيد ذلك، بأكثر من رابطة زواج، ولذلك نعتقد أنهم كانوا مجموعة قوية من السلطة، سواء اقتصادية أو حربية.

كان أفراد مفضل يمثلون جذور الأرستقراطية الغرناطية، رأينا ذلك في بعض النصوص وكيف أن ثراءهم كان يزداد باطراد، كان أفراد النقسييس قادة الجيش، ورؤساء ومقدمى المحاربين المستعدين دائماً والمعتادين دائماً على الحرب ضد عدو الدين في الحدود القريبة، كانت كلتا المجموعتين تمثلان قوة قادرة ولا يمكن مقاومتها تقريباً، ولو كانوا قد تحالفوا مع مجموعة الموريسكيين الذين وصلوا مؤخراً في بدايات القرن السابع عشر، فعلى الأقل كان يمكنهم أن يرضوا غالبيتهم وربما وجدت مشاكل أقل، ربما كانت المشكلة الأساسية، كما نوهت في مناسبات أخرى، هي عدم وجود الكثير من المؤن تكفى للكثيرين، وعلى الجانب الآخر كانت هناك روح العرق أو النسل التي ظلت كأحد موروثة غرناطة بنى نصر.

تصالح بعض أفراد النقسييس، وتواجه البعض الآخر مع الغالبية الموريسكية، ولن تمر الأمور بشكل جيد جداً، إن الوثيقة الأخيرة والمدرسة مؤخراً، والمتعلقة بمحضر ضد أفراد النقسييس، وقَّعه أربعون من الأعيان التطوانيين كان من بينهم، دون أدنى شك، الحكام الموريسكيون الأكثر شهرة، هي دليل على كراهية البعض والبعض الآخر، لم يكن موريسكيو الهجرة الأخيرة يميلون إلى الفن الحربى، فقد مر وقت طويل وهم يعيشون في شبه الجزيرة في مجموعات ريفية تشتغل بأعمال زراعية، ربما كان منطقياً استقبالهم في ضياع ومدن صغيرة وتوجيههم للاشتغال بزراعة الأرض وتربية الماشية كما فعلوا مع مجموعات كبيرة من المنفيين في تونس.

على العكس، أظهر سكان الريف الأصليين في المغرب رفضاً عاماً لهؤلاء الدخلاء، ولم تكن هناك سلطة قادرة على حمايتهم خارج المدن الكبيرة، كانوا يستطيعون ممارسة بعض الأعمال القليلة من بين تلك التي كانوا يعرفونها، لأن المدن حينئذ كانت مشبعة بأناس متخصصة إلى حد ما، كانت تجارة العبيد تحتكرها السلطة الحاكمة على نطاق واسع، وعلى النطاق الصغير فلم يكن هناك مكان للكثيرين. كانت الكارثة، لذلك، دائمة وعميقة، كانت عبارة عن كارثة بطالة بسبب تكديس الناس في المدن التي لم تستطع أن تمتص مؤقتاً هذا السيل من المنفيين.

كانت الحياة بالنسبة لهم صعبة جدا منذ البداية، وأصبحت أكثر صعوبة عندما كان يتجمع أناس أكثر فى تطوان تلك التى كانوا يحلمون بها، عندما خرجوا من سواحل شبه الجزيرة القريبة.

ففى تجمع عديد كهذا من المحتمل وجود استياء كبير. بطبيعة الحال فإن ذنب كل الأشياء السيئة كان يرجع، فى وجهة نظر المهمشين، إلى أصحاب السلطة. قام أفراد النقسيس المسيطرين على الوضع السياسى، على طول القرن السابع عشر، بوقف غضب وضغينة جزء كبير من السكان التطوانيين، نعتقد، بالأخص، غضب وضغينة هذا الحشد من الموريسكيين الذى كان يريد النجاة من هذه المصيبة ولا يجد مكانا تحت الشمس فى هذا المجتمع الاسترقاقى.

وأخيراً فإن أفراد النقسيس، بعدما اكتسحوا أفراد مفضل والعائلات الأخرى، ودخلوا سبتة، قد سقطوا نهائياً لكى يختفوا، ليس فقط من المسرح التاريخى ولكن من مسرح الحياة. هل ظل أفراد النقسيس وعائلاتهم عدة أعوام فى سبتة؟ هذا يبدو أنه يُستخلص من الرواية التى قدمها لنا كورييا دى فرانكا عن المصير النهائى لهذه العائلة، حيث أنه من عام ١٦٧٣ وحتى عام ١٦٨٧ قد مر ليس أقل من أربعة عشر عاماً. فى هذه الفترة كان الكثير من اللاجئين يهربون كلما استطاعوا.

بعد ذلك بوقت قصير - يكمل الخبر - استطاع الخاتى تدبر أمره وعاد إلى بلده. رحل بعض من أفراد النقسيس إلى الجزائر، وآخرون لا نعرف عددهم دخلوا فى القرى المجاورة لهذا المكان، وظل الباقون فيها حتى مات عيسى عبد الله، الذى كان الرئيس. وعند معرفة هذا الخبر فى بلاد البربر، طلب المقربون من مولاي إسماعيل أن يسمح لعيسى كبير وسيدى عبد الكريم وسيدى حامد، الذين كانوا موجودين فى سبتة، مع بعض الخدم والعبيد، بإمكانية العودة إلى منازلهم ومزارعهم. بعد الحصول على الإذن الملكى، وعندما كان السيد فرانشيسكو دى بيلاسكو يحكم فى سبتة، فى عام ١٦٨٧، أقنعهم أحد أفراد عائلة النقسيس، وذهبوا معا إلى مكتاس لتقيل يد الملك،

الذى استقبلهم بترحاب وأعطاهم جوازات مرور ورسائل لى يعيد إليهم على بن عبد الله، قائد تطوان ممثلكاتهم. وعادوا راضين، لكن نظراً لوجود أوامر أخرى مع القائد فقد أمر بقتل الجميع فى ميدان عام^(١٣٨) .

أكد باحث مغربى أنه فى تارودنت حيث مثل أفراد النقسيس أمام السلطان مولاي إسماعيل، حيث كان الملك مع جيشه، أمر بأن يقاد اثنان منهم إلى تطوان، حيث يُعلقوا علناً فى السور الرئيسى لفندق القاعة. حدث نفس المصير مع أقربائهم الذين كانوا موجودين فى فاس و سجنهم مولاي راشد^(١٣٩) .

جمع داوود، فى فقرة بمفردها عنوانها " نهاية عائلة النقسيس " ، روايات بعض الكتاب المغاربة^(١٤٠) . يوجد هنا باختصار هذه النصوص، وفقاً لداوود:

فى كتاب "الاستقصا" خرج أولاد النقسيس من سبتة، التى كانوا قد وصلوا إليها وقت موت خضر غايلان وذهبوا إلى تارودنت Tarudant، حيث معسكر السلطان، أمر السلطان أن يحملوهم إلى تطوان ويقتلوهم. أمر أيضاً بإعدام من كانوا مسجونين فى فاس، فقتلوا الجميع.

يؤكد ابن الحاج من جانبه أن أولاد النقسيس مثّلوا أمام مولاي إسماعيل عندما كانوا فى تارودنت، بعد وصولهم من سبتة، حيث مات أكبرهم، عيسى بن عبد الله، فى شهر ربيع الأول. طلب الباقون الحماية وأرسلهم الملك إلى تطوان حيث تم إعدامهم. قتلوا فى نفس العام ثلاثة من أفراد عائلة النقسيس فى فاس الجديدة وبعد ذلك بشهور قتلوا أربعة منهم، كانوا مسجونين فى تطوان. يؤكد مخطوط آخر أن أفراد النقسيس قد تم إعدامهم فى باب القاعة فى الغرسة الكبيرة Garsa Quibira . كانوا سبعة ولم يتبق أحد منهم. يقول إسكيرى إنهم علقوا رؤوسهم على أسوار المدينة فى المكان المسمى القاعة فى الغرسة الكبيرة. يوضح هذا الكاتب نفسه أن السلطان أرسل رسولاً، يدعى الحاج على بركة، حيث منح أمانه أو عفوه لأفراد النقسيس وأن هؤلاء عادوا و هم يأملون فى العفو الملكى وماتوا حينئذ فى تطوان.

يعرف ثيرديرا رواية إسكيرى هذه، وقال إن على بركة كان هو الذى طلب من السلطان عفوه لأفراد التقسيس، لكن السلطان بعد منحهم العفو تصرف بطريقة أخرى، كما ذكرنا.

نعرف فقط مخطوطى افتداء قدمهما رهبان جمعية الثالوث المقدس فى عامى ١٦٧٤، ١٦٧٧ . ربما كانت هى الافتداءات الاخيرة التى نُفذت بنفس الأسلوب القديم، نعى بذلك بيع الأفراد لعبيدهم فى سوق تطوان الحرة.

فرض مولاي إسماعيل ليس فقط أن يزوره الرهبان، ولكن أيضاً أن يتم شراء ما يسميه المفتدون "أسرى إجباريين" . فى عام ١٦٧٤ كانوا ١٨ ، بالإضافة إلى الذين باعهم الموريسكى داودار لحسابه.

ظهر ديوان ولم يظهر أى حاكم، بالرغم من ظهور قائدين، كان واحد منهم قائداً للبحر والآخر للبر، كان الأخير يدعى بوئيس Bucis والأول يدعى عبد الرحمن -Abderra-man .

أشادت شخصية سياسية جديدة بالأزمة الجديدة. إنه كبير خدم ملك فاس، وهو موريسكى يدعى خطيب، كانت قائمة أسياد العبيد مليئة بأسماء موريسكية ويهودية^(١٤١) .

يُلاحظ نفس الخط فى مخطوط عام ١٦٧٧ . صاحب الكاتب، أغوسيتن دى سانتياغو، رهبان جمعية الثالوث المقدس إلى فاس. فى هذه المناسبة بقى أربعة من المسلمين كرهائن فى سبتة. فى فاس يحتمل أن يكون قد افتدوا أكثر من أربعة وعشرين من الأسرى الإجباريين.

يستمر الكاتب فى تسجيل أسماء كبير خدم ملك فاس ومناصب قائد البحر والبر ونرى، للمرة الأخيرة فى وثيقة من نفس النوع، الأسماء العديدة للموريسكيين واليهود الذين كانوا يتعايشون فى تطوان^(١٤٢) .

ولم يكن هناك وجود لأفراد النقسييس. نفترض مصداقية المؤرخ الذى تحققنا من أن لديه معلومات جيدة، فى أن أحد أفراد النقسييس هرب إلى الجزائر واستقر هناك. على الجانب الآخر أشار السيد جبور yebbur إلى نقسييس آخر، و أعطاه السلطان سيدى محمد بن عبد الله إقطاعية مدينة أغمات Agmat (١٤٣).

إذا كان هذا الخبر، المؤرخ فى ١٧٦٤، بعد الأحداث المروية بحوالى قرن، أكيداً، فيحتمل أن أولاد النقسييس كان لديهم منفى فى تلك المدينة البعيدة عن المغرب الجنوبى..

نذكر أن أغمات، عبر تاريخ السلالات المغربية الملكية، كانت مكان منفى المعارضين السياسيين أو معارضى السلالة الملكية، مثل المعتمد، على سبيل المثال، فى الواقع بالنسبة لدراستنا هذه فقد انتهى مسار أولاد النقسييس فى اليوم الذى علقت رؤوسهم فى الأسوار التطوانية. إن نهاية أولاد النقسييس هى أيضاً نهاية عصر وبداية عصر آخر. جعلتهم سيطرتهم المضطربة والطويلة على تطوان الموريسكية فى القرن السابع عشر يظهرون فى عيوننا كرمز لتاريخ الموريسكيين فى شمال البلد. لم يكن لمولاي إسماعيل مشاكل أخرى لا مع تطوان ولا مع الموريسكيين. ولم يكن لديه مشاكل أيضاً مع موريسكى رباط - سلا. بل أكثر من هذا، فقد ارتقى الكثير من الموريسكيين إلى مناصب مهمة، وبوجه عام فإن الأمة الموريسكية لا نستطيع أن نقول إنها خرجت متضررة أكثر من باقى البلد بسبب حكومة مولاي إسماعيل الاستبدادية. من الواضح أن الأساليب كانت مختلفة جداً فيما يتعلق بأساليب الحياة الموجودة حينذاك وهى القرصنة، فقد تغير الأمر تماماً.

ربما استمرت القرصنة، ولكن بشكل خاص لمنفعة الملك، الذى كان يملك كل الأسرى ولذلك فقد أهم عامل من عوامل القرصنة وهو اغتناء أصحاب السفن والبحارة من الغنائم والأسرى، واختفت السوق الجاذبة للنشطة لتطوان وسلا التى ملأت خزائن البرجوازيين المهاجرين.

وبعد إقصاء الغنائم، و هي الهدف الأساسي من عمليات القرصنة، دخلت هذه العمليات فى انحدار حتى جعلتها الظروف الخاصة بعالم البحر المتوسط تختفى، عند دخول القرن الثامن عشر، لم تختف شخصيات فقط بل اختفت كذلك عوامل مهمة فى تطور المجتمع الموريسكى. إذا كنا إلى هنا استطعنا أن نتتبع آثارها فى نصوص ووثائق، فبداية من الآن ستمحى الخطوط بشكل محسوس. لقد مر، منذ الطرد النهائى، ثلاثة أرباع قرن، هى الأعوام الكافية كى لا يعيش أحد من الذين خرجوا من قرى وضياح شبه الجزيرة، ولدوا كلهم فى المغرب، والذين كانوا يعيشون فى المدن المستقلة التى كانوا يحكمونها، قد غرقوا فى الكثير من الصراعات الأهلية التى جعلتهم مستنزفين ودون قوات لكى يستمروا فى معارضتهم لكل سلطة مركزية، و خاصة عندما أظهرت السلطة المركزية طاقة كبيرة وقسوة مختلطة بالخيانة، كما يوضح ذلك الموت المروع لأولاد النقسييس.

مازال يتبقى لنا الكثير لبحثه عن الموريسكيين فى المنفى، لكن على الأخص فيما يتعلق بالمغرب، نعتقد أننا أعطينا، بتاريخ أولاد النقسييس فى تطوان، معلومات إيجابية كافية على طريق هذه المعرفة، مثلما نتج كذلك من تأسيس المندارى والعصر التالى، الذى تم عرضه فى مكان آخر.

إن الموريسكيين الإسبان - كبقايا مهمشة من المجموعات الإسبانية التى حاربت حتى آخر الأحداث للحفاظ على حضارتهم - لا يستحقون النسيان الذى أسقطهم فيه تاريخ إسبانيا حتى وقت قريب.

الهوامش

- (1) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán, Granada 1988.
- (2) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La República andaluza de Rabat en el siglo XVII". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. 9-10. Jun. Dicbre. 1974.
- (3) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del. Descripción General de África. Libro 4.* del Reyno de Fez. Granada 1573. Fol. 130v.
- (4) MÁRMOL. Ibid. Fols. 131 y 131 v.
- (5) MOHAMMED ESSEGHUIR BEN EL HADJ ABDALLAH AL OUFRANI. NOZHAT EL HADI...Tr. Fr. O. Houdas. París 1889. Pág. 265.
- (6) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. (En arabe). Tetuán 1959, Tomo I P. 133.
- (7) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Cueta. Biblioteca Nacional. Manuscrito 9741. Fols. 84 y 84v.
- (8) من النادر أن نجد افتداءً للأسرى لا يكون فيه مفضل مالكاً للعديد من العبيد.
- (9) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) France.. 1.a Tom. Tomo I. Pág. 347.
- (10) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. (1597-1673). Tetuan. MCMLV
- (11)
فقرة من العصر من أخبار الملوك النصرين... تقديم و ترجمة ألفردو بستانى وكارلوس كيروس BUSTANI Alferdo y Qiros, Carlos. فى العرائش عام ١٩٤٠ وفقاً لكاتب الفقرة المجهول، ان سكان رونده وباتا وقصر موتشار Muchar وقرية كاردوس Cardox وقصر مارتيل Martil يتوقفون فى تطوان و نواحيها و كان سكان لوخا و ألفاكار Alfacar و جزء من غرناطة و مارشينا Marxena والبشرات يصلون إلى قبيلة غمارة و كان سكان بلاد البربر وبرخا Berja وبولا Bula و أنداراس Andarax يصلون إلى المنطقة الواقعة بين سبتة وتطوان، و كان بعض منهم يصل فيما بعد إلى قبيلة بنى سعيد، : إن الموريسكيون يملكون ليس فقط المدن ولكن أيضاً القرى فى القرن السادس عشر.

(12) ROJAS, José Luis de. Relaciones de algunos sucesos postreros de Berbería... Lisboa 1673. Fols. 30 y 30 v.

(13) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a Tom. II. P. 526.

(14) AZZUA HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuaníes de origen español". Awraq. Volumen IX. 1988. Págs. 101 a 123.

شمل ابن عزوز أفراد النقسييس في قائمته عن الأسماء التطوانية من أصل إسباني، لكنه ذكر اللقب المنقرض في عام ١٦٨٨.

(15) .DAWD. Tarij Titwan, cit. Pág. 175.

(16) B.N. de Madrid. Mss. 2.791. Fol. 48.

(17) B.N. de Madrid. Mss. 2.791. Fol. 54.

(18) TERRASSE, Henri. Histoire du Maroc. Casablanca s/a. Vol. II. Pág. 210.

(19) AL OUFRANI. Op.cit., Pp. 321 y 323.

(20) B.N. Mss. 2.791.

(21) B.N. Mss. 4.390.

(22) S.I.H.M. Pays Bas. 1.a Tom. I. Pág. 299.

(23) PAVON MALDONADO, Basilio. "Arte hispanoamericano en Ceuta y Tetuán" Cuadernos de la Alhambra. 6. Granada 1970. P. 102.

(24) SEBASTIÁN, Santiago. "La arquitectura tetuaní" Archivo Español de Arte. Tomo XXX. 1957. Pág. 59.

تبدولنا نظرية هذا الكاتب الذي يتبع داوود أكثر قبولاً، من نظرية إيرهوني الذي قدم تاريخ عام ١٧٣٨ .

(25).R. Honi, Ahmed. Historia de Tetuán. Tr. Azzuz Hakim, Mohammad Ibn. Tetuán 1953. Pág. 80.

(26)

هنا يختلف المؤرخون المغاربة. فبينما يؤكد إيرهوني أن جامع الجديدة أنشأه مؤسسه في عام ١٠٠٠هـ (١٥٩١-١٥٩٢م)، يشير داوود، على لسان سانتياغو سبستيان، إلى عام ١٦٢٠ كتاريخ تنفيذ الأعمال البنائية. ونحن من جانبنا نعتقد أكثر في رواية داوود لسبب أساسي، ففي عام ١٥٩١ لم يكن حي العيون قد تم إنشاؤه، حيث توسع بداية من عام ١٦٠٩ عندما بدأ المنفيون في الوصول بأعداد كبيرة وكان هناك احتياج لمسجد كبير يستطيع أن يستوعب عدداً كبيراً من المصلين، مثل جامع جديدة الذي به خمسة صحنين. وفي حوالي عام ١٦٢٠، في الواقع، سيصبح حي العيون مكدياً بالناس.

هذه الصورة لياپون مالدونادو، وموجودة في مقاله المذكور مسبقاً من مجلة: (27)

Cuadernos de la Alhambra N.* 6. Pág. 90.

- (28) VADJA, G. Recueil de textes historiques judeo-marocaines. París 1951. P.23.
- (29) S.I.H.M. England 1.a II. Pp. 435 ys.
- (30) ROJAS, José Luis de. Relaciones de algunos sucesos postreros de Berberia... Lisboa 1673. P. 65.
- (31) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9741. Fol. 89 v.
- (32) ROJAS, J. Luis de. Relaciones... P. 67.
- (33) B.N. Mss. 3862.
- (34) ROJAS, Relaciones... Pág. 67.
- (35) AL OUFRANI. Nozhet... Pág 323.
- (36) B.N. Mss. 3.870 y A.H.N. Cod. Libr. 124 B.
- (37) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 177.
- (38) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 179.
- (39) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 184.
- (40) AL OUFRANI. Nozhet... P. 392.
- (41) AL OUFRANI. Nozhet... P. 394.
- (42) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones de cautivos cristianos...por los hijos de la Orden de la Merced. Barcelona 1873. Pp. 280 y 285.
- (43) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 292.
- (44) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 288.
- (45) S.I.H.M. England II. 507.
- (46) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Códices.Lib.126/ B.
- (47) S.I.H.M. England II. P. 523.
- (48) S.I.H.M. England II. P. 528.
- (49) S.I.H.M. England II. P. 536. Es una carta de 10-7-1622.
- (50) S.I.H.M. England II. P. 177.
- (51) S.I.H.M. England II. P. 207.
- (52) S.I.H.M. England II. P. 511.
- (53) Archivo General de Simancas. (A.G.S.) Coleccion Coloma. Libro 3.*. Fol. 42.

نشرت نسخة من هذه الرسالة باللغة الفرنسية في:

S.I.H.M. France. 1.a III Pp. 82 y 83.

أتوجه بالشكر، مرة أخرى، لمديرة أرشيف سيمانكاس العام، لسماعها لي باستخدام مجموعة كولوما

(54) (A.G.S.) Col. Coloma. Libro 2.*. Fol. 19.

بالتأكيد نسي كاتب البلاط نسخة رسالة ماسكارينياس بأمر الملك وأرسلها في رسالة منفردة، وطلب منه إذنًا وعرض عليه مساعداته.

(55) Cfr. Col. Coloma. Cartas. Libro 3.* Fol. 41). Carlos Coloma, Marqués de la Espina.

كارلوس كولوما، ماركيز إسبينا Espina، والمولود في أليكانتي عام ١٥٦٧ والمتوفى في مدريد عام ١٦٢٧، وقد خدم تحت قيادة أفضل قادة في العصر، دوق ألبا وأليخاندرو فارنيسيو وكونت فوينتيس وأرتشيدوق البرتو، ووصل إلى منصب القائد. عينه فيليب الثالث قائداً عاماً لروسيون Rosellon وثيردينيا Cerdana وكونفلينت Conflent وفي عام ١٦١١ أصبح نائب ملك لمايوركا Mallorca. في عام ١٦٢٢ كان سفيراً فوق العادة في لندن. كان كبير خدم فيليب الرابع ومستشار دولة وحرب. أنظر:

Gran Enciclopedia de la Región Valenciana Tom. II Valencia 1973. P. 200. c. 2.

كتب كولوما كتاباً عن حروب فلانديس، حيث قضى بالفعل كل مساره الحربي. ليس غريباً عدم اهتمامه بالجبهة الجنوبية.

(56) A.G.S. Col. Coloma. Minutas de Cartas. Libro I. Fol. 26.

(57) A.G.S. Col. Coloma. Minutas de Cartas. Libro I. Fol. 60 v.

(58) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Cartas. 3 Fol. 80.

(59) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Minutas. I Fol. 110 v.

(60) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Cartas. Libr. 13. Fols. 2 y 3.

(61) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Minutas. 3 Fol. 61.

(62) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 200 n. 1.

(63) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 201.

(64) أشار الأستاذ عزوز إلى وجود ١٠٧ عائلة ذات أصل إسباني في تطوان في أيامنا هذه.

(65) Bibl. Nac. Madrid. Mss. 3.634. Fol. 9.

(66) B.N. Mss. 3.634 Fol. 35 v.

(67) A.H.N. Códices. Libro 127 B. Fols. 34 y 34 v.*

(68) A.H.N. Id. Id. Id. Fol. 11 v.*

(69) S.I.H.M. 1.a II P. 572 y s.

(70) S.I.H.M. England 1.a II. Pp. 573 a 582.

(71) CORREA DE FRANCA. Historia de Ceuta. Ms. 9741. Fol. 98 V.

ظهر مقدمو أنبيرا و الخروب كملأك العبيد فى تطوان فى افتداء عام ١٦٢٥ و الأمر الذى يشير إلى (72)
استقلالهم الضمنى عن أفراد عائلة النقسييس.

(73) CORREA. Historia... Fol. 100.

(74) CORREA. Historia... Fol. 101. V. y 102.

(75) S.I.H.M. England-III-Relacion de Jhon Harrison el 11 de Septiembre de 1627.

(76) CORREA. Historia... Fol. 102 v.

(77) CORREA. Historia... Fol. 103.

(78) CORREA. Historia... Fol. 104.

(79) S.I.H.M. England 1.a III. P. 85.

(80) S.I.H.M. England 1.a III. Pp. 87-88.

(81) S.I.H.M. England 1.a III. P. 112.

(82) S.I.H.M. 1.a III. P. 130.

(83) S.I.H.M. France. 1.a III. Pp. 422-24.

(84) S.I.H.M. England 1.a III. Pp. 182-183.

(85) B.N. Mss. 3.819. Fol. 12 v.

(86) ESAGUY, José de Libro de los Veedores de Ceuta... Tanguer 1939. P. 147.

(87) B.N. Mss. 3628. Fol. 105.

(88) S.I.H.M. England 1.a III. P. 267.

(89) CORREA. Historia... Fol. 107 v.

(90) A.H.N. Códices. Libro 131 B.

(91) B.N. Mss. 6160.

(92) CORREA DE FRANCA. Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9741. Fol. 117.

(93) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 174.

(94) DAWD. Id. P. 233.

(95) CORREA. Historia... Fol. 138.

(96) POSAC MON, Carlos La historia de Ceuta a través de la Numismática. Ceuta 1989. P. 58.

(97) CORREA. Historia... Fol. 123 v.

(98) CORREA. Historia... Fol. 127 v.

- (99) B.N. Mss. 4365.
- (100) A.H.N. Cod. Libro 134 B.
- (101) B.N. Mss. 3631.
- (102) CORREA. Historia... Fol. 129.
- في هذا الخبر يقال إن ثمن افتداء ابن حاكم سبتة كان ٣٢,٠٠٠ بيسو و ١٨ مسلم و مسلمة واحدة، إنها ثروة من ٤٨٠,٠٠٠ ريال للتقسييس، بالإضافة إلى إيرادات الآباء المفتدين.
- (103) S.I.H.M. England 1.a III. Pág. 554.
- (104) CORREA. Historia... Fol. 138.
- (105) B.N. Mss. 6.160.
- (106) B.N. Mss. 3628 y Mss. 6160.
- (107) B.N. Mss. 3628 y Mss. 6160 y Mss. 4365.
- (108) AZZUZ HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuanfes de origen español". Rev. Awraq. Vol. IX. 1988. Pp. 101-123.
- (109) CORREA. Historia... Fol. 138.
- (110) CORREA. Historia... Mss. 9741 Fol. 129.
- (111) A.H.N. Cod. Libr. 140 B.
- (112) A.H.N. Cod. Libr. 137 B.
- (113) A.H.N. Cod. Libr. 136 B.
- (114) A.H.N. Cod. Libr. 136 B.Fol.27.
- يظهر غزواني في مصادر أخرى كمعاون مهم لغايلان في تطوان. عندما هاجم القائد غورفيتى طنجة في مايو ١٦٥٨، أحضر غزواني في تطوان عدداً كبيراً من الجنود حملة البنادق، الذين يُعتبرون من الرماة الممتازين. ظهر أيضاً في هذا اللقاء الحربي كاديمي، قائد خاروب، ربما يكون سليل قائد آخر مات مقتولاً في تطوان عام ١٦٢٥، أنظر:
- MENEZES, F. Historia de Tángere. Lisboa 1732. Págs. 225-226.
- (115) S.I.H.M. England 1.a III. P. 576.
- (116) S.I.H.M. England 1.a P. 578.
- (117) S.I.H.M. England 1.a P. 580.
- (118) S.I.H.M. England 1.a III. P. 582.
- (119) S.I.H.M. England. III. P. 586.
- (120) S.I.H.M. Pays Bas. V. P. 132.

- (121) S.I.H.M. Pays Bas. V. P. 115.
- (122) A.H.N. Cod. Libr. 140 B.
- (123) DAWD. Tarij... Pág. 234.
- (124) AL OUFRANI. Nozhet... Pág 501.
- (125) AL OUFRANI. Nozhet... Fol. 140.
- (126) DAWD. Tarij... Pág. 238 y s.
- (127) AZZUZ. "Apellidos...
- (128) CORREA. Historia... Fol. 141.
- (129) ESAGUY, José de Libro de los Veedores de Ceuta. Tánger 1939. P. 501.
- (130) DAWD. Tarij... Pág. 242.
- (131) A.H.N. Cod. Libr. 1542 B.
- (132) CORREA. Historia... Fol. 143.
- (133) CORREA. Historia... Fol. 144 y s.
- (134) CORREA. Historia... Fol. 145.
- (135) DAWD. Tarij... Pág. 243.. يقدم لنا هذا المؤرخ تواريخ مختلفة
- (136) CORREA. Historia... Fol. 145 v.
- (137) DAWD. Tarij... Pág. 242.
- (138) CORREA. Historia... Fol. 146.
- (139) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. Tetuán 1955. P. 21. MCMLV
- (140) DAWD. Tarij... P. 273.
- (141) A.H.N. Cod. Libr. 143 B.
- (142) A.H.N. Cod. Libr. 144 B.
- (143) YEBBUR. Op. cit. P. 21.

الفصل الثامن

ردود فعل فى أندلوثيا على لحظة مخففة: غزو مملكة فاس (القرنان السادس عشر والسابع عشر)(*)

عند انتهاء استرداد مملكة غرناطة، كان الهدف العاجل للملوك الكاثوليك هو امتداد هذا الاستراد فى أراضٍ إفريقية.

كان هؤلاء الملوك مكروهين بعض الشيء بسبب معاهداتهم مع البرتغال، تركوا مملكة فاس جانباً واحتلوا مواقع حصينة فى السواحل الشمالية الإفريقية، كمفاتيح للسيطرة على الأراضى. لكن لم تكن تلك المواقع، فى الحقيقة، أكثر من نقاط دعم، أو إلغاء لبؤرة القرصنة، أو على الأكثر أداة لوضع حكومات محلية. كان الهدف المطلوب تحقيقه هو احتلال مملكة فاس هذه، التى كانت سواحلها القريبة جداً من شبه الجزيرة تشكل مشكلة سياسية وحربية ذات أهمية كبيرة.

كانت الضفة الأخرى من المضيق، حيث وضعت البرتغال أقدامها منذ بدايات القرن الخامس عشر، محل اهتمام السياسة الإفريقية للملوك الكاثوليك التى تحدثت عنها الملكة فى وصيتها الشهيرة، وتحدث عنها الملك فى محاولته، التى عُرقلت قبل موته بخمسة أعوام، بسبب تقلبات السياسة الأوربية.

فيما بعد، عندما كان حفيده غارقاً فى آلية مختلفة للقوة الإسبانية الموجهة إلى الشمال والغرب، لم يهتم بالضفة الأخرى من مضيق جبل طارق، المتروك حينئذٍ بالكامل فى أيدي برتغالية، و بقت مملكة فاس فقط فى ذكرى بعض العقول.

(*) عُرِضَ فى المؤتمر الثانى لتاريخ أندلوثيا، قرطبة، أبريل ١٩٩١ .

سوف نشير فى هذه الدراسة، فى المقام الأول، إلى محاولة الملك فرناندو الفاشلة لغزو مملكة فاس، وفى المقام الثانى إلى أحلام شخصية غريبة، الأب كونترايراس، فى العصر الإمبراطورى، وأخيراً إلى دخول كل هذا فى تاريخ أندلوثيا.

إن المعالجة بعمق للموضوعات الثلاثة التى انتهينا من ذكرها غير ممكنة بسبب الطبيعة الخاصة لبحث يلقى فى مؤتمر، ولذلك فسوف نقتصر فيها على وضع الخطوط الأولية لكى يمكنها أن تخدمنا كقاعدة فى دراسات مستقبلية.

فرناندو الكاثوليكي ومملكة فاس:

ليس جديداً أن يركّز الملوك الكاثوليك اهتمامهم السياسى على شمال إفريقيا^(١). كانت المعاهدات تقيّد الملوك فى هذا الصدد، وخاصة فيما يتعلق بمملكة فاس، التى تُركت للبرتغال.

كان معروفاً أيضاً قلق الحكام القشتاليين بسبب الهجوم البحرى الذى كان يبرز باستمرار ضد مياه المضيق والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة، من واجهة البحر المتوسط لمملكة فاس.

ولكن كان معروفاً بصورة أقل أن للملك فرناندو تعاملات وعلاقة مع القادة المغاربة لمملكة فاس، وأنه بالرغم من تأخر ذلك فقد عزم على احتلال فاس بمساعدتهم، بالرغم من المعاهدات وبالرغم من معارضة البرتغال.

قبل وبعد تسليم العاصمة الغرناطية توجد إشارات أكيدة على العلاقات السابق ذكرها. وقد قُمت ببحثها فى عدة دراسات منشورة بالفعل^(٢)، لكن جمع هذه الدراسات هنا والآن ليس عديم الجدوى.

ذكر فرناندو دى ثارا Fernando de Zarra فى كتابه "رواية الهدايا التى قدمت للمسلمين" "relación de regalos hechos a moros"، فى ١٤٩١، شخصاً يدعى حامد الكرياف Hamet Alcriaf، سفيراً فى باراكس Barrax، تكلفت هديته مبلغ

٨,٣٥٠ مرابطة^(٣)، من مايو إلى يونيو عام ١٤٩٢ نعرف وثيقتين تتحدثان، مباشرةً إلى حد ما، عن علي باراكس المذكور و سيدى علي بن راشد، مع الملوك الكاثوليك. الوثيقة الأولى هي محضر توثيقى يتحدث فيها عن مدينة ترغة، "إقطاعية على باراكس"^(٤)، و الوثيقة الثانية هي وصية ملكية تذكر ببساطة حاكم ترغة^(٥).

إن سيدى علي بن راشد المالك فعلياً للشمال المغربى، ذى التأثير الملحوظ على العديد من المنفيين الغرناطيين كان يمثل قطعة أساسية فى لعبة التأثيرات التى كان ينمىها فرناندو الكاثوليكى من خلال إسهاماته العميقة لكى يحقق سياسته الخارجية. لم يكن لثافرا وتنديا صلات مع بن راشد فحسب، لكن أيضاً كان الثانى يصفه "بأخ وصديق"، وكان يرمى اهتماماته فى شبه الجزيرة كما لو كانت تخصه^(٦). اتصل تنديا أيضاً بالقائد المحارب الآخر للشمال المغربى، سيدى علي المندارى، الغرناطى، القائد السابق لبينيار، وصهر بن راشد وقائد المهاجرين من مملكة بنى نصر الوافدين إلى هذا الجزء من الأرض المغربية^(٧).

ليس هناك شك فى أن الملك الإسباني، المشغول للغاية بالواجهة الجنوبية والمقتنع بعدم جدوى الجار البرتغالى للحفاظ على السيطرة، كان يقرر التدخل بصورة فعالة وقاطعة فى مملكة فاس. منعت الظروف حتى عام ١٥١١ الذى تجمعت فيه الاستعدادات الحربية للقيام بالمحاولة. تم توثيق هذه الاستعدادات بكثرة فى مصادر قشتالية وبرتغالية^(٨).

مع ذلك فإن واحداً فقط من هذه المصادر هو الذى يتحدث بوضوح عن مملكة فاس كهدف للإجراءات التى اتخذها الملك فرناندو للهجوم على شمال إفريقيا بنفسه على رأس جيش قوى.

يؤكد دامياو دى غويس Damalao de Gois، (١٥٠٢ - ١٥٧٤)، مؤرخ العديد من الملوك البرتغاليين المعاصرين له، أنه كانت هناك محادثات بين الملك فرناندو وعلي بن راشد، كان الثانى يتعهد فيها بمساعدة الأول عندما يذهب إلى مملكة فاس، بشرط أن يجعله ملكها، وأن يبقى كجانبى ضرائب فى قشتالة. أرسل فرناندو إنذاراً نهائياً إلى سلطان فاس، مع سلسلة من المتطلبات الصعبة، إن لم تكن مستحيلة

التنفيذ. كانت هذه المتطلبات بالنسبة لغويس مجرد تبرير لكى تقوم الحرب على السلطان. فى رسالة أخرى لحاكم الشمال المغربى مولاي ألباراكس، كان يشير إليه لكى يجهز كل أتباعه وحلفائه وأصدقائه حتى- عندما يغزو هو مملكة فاس - يجد مساندات وسهولة أكثر فى خلع السلطان الحاكم، مولاي محمد. سينصب بن راشد ملكاً محله، وسيحوّله إلى تابعه^(٩).

لم يكن للحدث تأثير بسبب الضغط الفرنسى على إيطاليا، التى يعتبرها الملك الكاثولىكى خطيرة، لدرجة أنه هجر بالكامل محاولته التى صرف من أجلها نفقات كبيرة وجه لها عنايته الفائقة. كانت الموانى الجنوبية ترى مكتظة بالتجهيزات والجيوش والمراكب المتوجهة إلى القيام بالعملية. لم يسعفه الوقت، أيضاً، لمحاولة ذلك من جديد وبقت مملكة فاس كهدف لا يستطيع الوصول إليه وحلماً لأهل إقليم أندلوثيا، فهم الذين كانوا سيعانون مستقبلاً من جوارهم لذلك العدو.

مملكة فاس فى ذهن الأب كونترايراس

لم تمر أعوام كثيرة عندما ذكرنا أحد الأندلسيين، ذو نزعة صوفية، لكن ذو جذور واقعية، "بغزو مملكة فاس"، هذه المرة فى فترة حكم خليفة الملوك الكاثوليك، الإمبراطور كارلوس الأول. يتعلق الأمر بالأب فرناندو دى كونترايراس، الإشبيلي الذى قمت برسم أولى عن حياته وأعماله فى دراسة أخرى حديثة عنه^(١٠).

أنهى الأب كونترايراس حياته كمفتدى للأسرى، ومنذ عام ١٥٣٩ حتى عام ١٥٤٨، تاريخ وفاته، حقق عمله فى مملكة فاس وبالتحديد قضى فترات طويلة فى تطوان، حيث عقد علاقات خاصة وحميمة مع سلطات المدينة، خاصة مع القادة: أولاً مع مؤسس المدينة الغرناطى، على المندارى وثانياً مع خليفته، البسطى، أحمد حسن. كانت المدينة مليئة بالأندلوثيين كما سنرى فيما بعد. كان بعضهم مهاجراً من المملكة الغرناطية قبل سقوطها النهائى والبعض الآخر منفيّاً بعد ذلك. إن تطور الأحداث فى المملكة الإسلامية الإسبانية القديمة قد أطلق موجات متتابعة من الأندلسيين تجاه

سواحل الشمال الإفريقي. كانت الموجات الأخيرة تصل مع أسماء مقشلة بسبب عمليات التنصير الإجباري، بداية من عام ١٥٠٢. تقابل الأب كونترايراس مع أناس مختلفة عنه دينياً كما التقى بمشاعر كره وضيغينة في بلاد المنفى.

أقام صداقة مع المنداري جعلته يحاول تحويل القائد العجوز إلى المسيحية قبل موته بقليل في بدايات عام ١٥٤١ (١١)(*) .

استطاع خليفته، أحمد حسن، تقديم نفسه كتابع للإمبراطور، و ألح على كونترايراس لكي يسرع من الاستعدادات بهدف تسليم تطوان إلى إسبانيا وهذا كمدخل لغزو مملكة فاس.

اعتقد الإشبيلي أن كل شيء يمكن تحقيقه. تهمس وكتب للبعض والبعض الآخر، وبدأ بالأمير فيليبى (١٢)، وانتهى بكردينال طليطلة (١٣). تعاقبت الكتابات دون أن يرى الراهب الطيب الصبور أى حل.

كتب كونترايراس: "آه يا سادة، أيها السادة المسيحيون، المتحمسون لنصر عقيدتنا الكاثوليكية، تحفزوا لذلك جيداً....." (١٤). في نفس المکتوب لم يتوقف الأب في فاس، حيث أنه أطلق لخياله العنان فتحدث عن بيليث ومراكش وأيضاً الصحراء، "وهي من حيث يأتي التبر الذي يأخذونه من الرمال بدون حفر". أعطى تعليمات من أجل حكومة مستقبلية جيدة مكونة من "مسلمين ويهود"، ويرغبون بكل حب في مجيئنا؛ يكفي، وفقاً له، معاملتهم بصورة جيدة وبذلك سيحرثون ويرعون الأرض لانتاج ما يكفي، ليس فقط من أجلهم، لكن لإمداد قشتالة. "... هذا أكثر من وهران"، يؤكد، وهو يمزج خطأً تبدو واقعية، مع أخرى لها مظهر خادع، واعترف أن لديه عصا يمكنه بها أن يكتشف كنوزاً مختبئة، يعرف بالفعل أين تُوجد (**).

(*) نعيد التذكير بدراسة زميلتنا برامون التي تسخر فيها من الوثيقة التي نتحدث عن تنصير قائد تركي، (المراجع)

(**) هل بعد كل هذا الخيال الجامع يمكننا تصديق روايته عن تنصير على المنداري؟ . (المراجع)

طلب منه القائد أن يأتي أمير قشتالة، السيد برناردينو دي ميندوثا، (عند مصب نهر مارتين، أي عند شاطئ تطوان، أو عند المونييكار، ركن المضيق الحالى، فى منتصف الطريق، تقريباً بين سبتة وتطوان) لى يتفق معه.

أكد كونتيريراس أنه يوجد خمسة آلاف أسير وأنه أحصى مجموع افتدائهم وسيغطى نفقات أى عملية. على العكس، كان المسلمون يمكنهم بهذه النقود التسليح بسفن أكثر وإحضار أسرى جدد. قال إنه ظل ثلاثة أعوام منتظراً رداً لكل كتاباته، دون إجابة. كان قائد تطوان يمكنه خلال هذه الأعوام الثلاثة أن يلح، أكثر فأكثر، على صدور قرار بخصوص هذه النوايا التى عرضت على الراهب بوضوح جداً. ربما كان يرغب فى الوصول إلى اتفاق مع ميندوثا، مثلما فعل والد الأخير، كونت تنديا، مع والده حسن، قائد باثا. ظل الأب كونتيريراس دون رد، أو عنفه رؤساؤه.

إن غزو مملكة فاس، كما تبين لنا، لم يكن فقط مجرد فكرة تراود خياله، بل ظلت أيضاً فى أحلام قائد بسطى، كان يتحكم فى مصائر تطوان، وراهب إشبيلية، مفتدٍ للأسرى^(١٥). إن كاردينال طليطلة، فى رسالة إلى رئيس ليون، يعلمه فيها بكل أخبار الأب عن مملكة فاس وقائد تطوان، لى يعرضها على مجلس الدولة، فى ٨ مايو عام ١٥٤٥، ويحدد رأيه حول هذه الأحلام فى جملة يقول فيها: "الأشياء التى يقولها لها - فى رأى - أساس ضعيف"^(١٦).

أسرى مملكة فاس:

يقودنا الأب كونتيريراس إلى واحدة من المظاهر الأكثر إيلاماً فى الوضع القائم كنتيجة لإهمال التاج الإشباني للواجهة الجنوبية. سوف تصبح أندلوثيا هى التى تدفع الضرائب الأكثر فى الأرواح والثروات. من الممكن أن يكون ذلك أصل انحدارها الدينى. فمن ناحية كان هناك الاستنزاف البشرى المستمر الذى كان يمثله منفيو المملكة الإسلامية الإشبانية. ومن ناحية أخرى كان هناك الافتقار لمنطقة ساحلية للجنوب الأندلسى، المهجورة بسبب الهجمات والأضرار المستمرة. وأخيراً، الأسر، الذى كان

يؤدي إلى نقص الأيدي العاملة ونقل رؤس الأموال التي كانت تُنفق على الافتداءات، من إسبانيا إلى المغرب.

تلك المظاهر الثلاثة التي كانت لها نتائج سلبية في إسبانيا، كانت لها نتائج إيجابية في المغرب، أحيا المنفى والقرصنة والافتداءات تلك المدن المغربية، وتحول بعض منها، مثل تطوان والشاون، التي أسسها الغرناطيون، إلى نواة مدنية ذات أهمية كبرى.

أسهمت أموال الافتداءات، في بعض الحالات المحددة، مثل تطوان نفسها على سبيل المثال، في خلق سلطة حاكمة محلية، ودعم بعض البنى الاجتماعية، التي اعتمدت بشكل كامل تقريباً على أنشطة القرصنة (١٧).

سوف يمتد في الزمن مظهر الأسير، الكلاسيكي في إسبانيا القرن السادس عشر، في مساحة من الوقت تصل إلى أكثر من ثلاثة قرون، حيث تعطى صفة الاستمرارية للمواجهة الإسلامية - المسيحية، وتمنع التقريب بين شعبين جارين. كانت هناك ألقاب متشابهة تتطابق في بعض الأحيان يحملها الأسياد في بعض الأحيان، ويحملها العبيد في أحيان أخرى.

نجد بين أسماء ملاك العبيد للافتداء، على كاستيو وعلى بيرالتا وبراهيم (سانتيانا) وعبد الرحمن ليون وعلى موراليس وعلى أراغون وأمين بالنتويلا، وقاسم كابريرا وعبد الكريم ليون وعلى سوريا وحامد بلانكو وحاج مونتيل وعلى ميندوثا وآخرون، وهي أسماء ظهرت في وثيقة افتداء واحدة (١٨).

القائمة لا تنتهي، لكن يمكننا أن نكمل ونتجاوز أيضاً القائمة التي قدمناها في دراسة سابقة، التي كانت تصل إلى مائة وتسعة وستين لقباً للمنفيين الأندلسيين لها اشتقاق قشتالي، في تطوان فقط (١٩). لا يزال الكثير منها موجوداً في أيامنا هذه. لم نشمل كل هؤلاء، الذين - سواء بسبب الكراهية أو بسبب شعور ديني بسيط - كانوا يتخلون عن الألقاب المأخوذة في شبه الجزيرة بشكل كامل، عند الدخول في العالم الإسلامي، وكانوا يتحولون إلى مفضل أو أبوعلى، كما وجدنا في وثائق كثيرة. إنها ألقاب يمكن أن نرجعها إلى رفقاء محتملين لمنفى المندراي، حيث أن واحداً منهم

ظهر فى وضع عبد مسيحى لمدة ثلاثة وعشرين عاماً كاملة، فى افتداء عام ١٥٢٣ فى تطوان (٢٠) .

كم من أذرع مفقودة، خسرتها الزراعة، و الصناعة الناشئة والتجارة والصيد، وأى نشاط إنتاجى، إذا أضفنا المنفى والعبودية! وكان إقليم أندلوثيا هو الذى يعانى الجزء الأكبر من الخسائر الموجودة لسبب أو لآخر. يكفى مراجعة المخطوطات العديدة للافتدائات المنفذة فى مملكة فاس، أو كما يقولون إحصاء الكثير منها، فى مملكة فاس والمغرب وتطوان. كانت هذه المدينة الأخيرة تعتبر بؤرة أساسية لبيع العبيد المسيحيين.

إلى جانب الألقاب الموريسكية نجد ألقاب عبيدهم التابعين لهم، والتي يذكر مصدرها فى بعض الأحيان. بهذه الطريقة نستطيع رؤية الإشبيلي سبستيان هيرنانديث "أسير أمادور ميخيا، مسلم أندلسى"، و بدور دياث من ليبي Lepe عبد عمار نامياس والقرطبي امبروسيو دى هيريرا فى سلطة اليهودى صامويل بيمينتا، -حيث أن المنفيين اليهود كانوا يشتغلون أيضاً بتجارة العبيد،- والولبي غاسبار بيبوسو أسير خوسيه أنشويلا مسلم، والمالقي سبستيان كاستيانو، والغرناطى خوان هيريرا، بدرو بيتكاينو من بالوس، الذى كان تعيس الحظ، حيث أنه، لسوء حظه، مات فى تطوان بعد افتدائه. كانت كل هذه المعلومات من سجل افتداء واحد فقط. يمكننا التقاط أسماء أندلسيين كثيرين جداً، حيث أننا أخذنا فقط عينة من أقاليم مختلفة، لكن يمكننا ذكر مدن وقرى أندلسية، من كارمونا حتى جبل طارق، من المرية حتى أيامونتيه، كى نملأ صفحات كتاب. من المؤكد أنه كانت هناك أسيرة من المرية مع طفلة عمرها شهران "كانت تحملها على صدرها" ! يالسوء الحظ! (٢١) .

لن نستطيع نسيان أموال الافتداء فى حد ذاتها. توجد إحدى عمليات الافتداء، ربما الأكثر تكلفة فى التاريخ، أخذنا منها المعلومات المذكورة سلفاً، حيث بلغت تكلفتها ليس أقل من سبعة ملايين مرابطى؛ بالتحديد ٢٥١, ٤٦٣, ٧ مرابطياً لكى نكون دقيقين.

بالرغم من هذه التكلفة الضخمة، الكافية لإنشاء وامتلاك أسطول من ثلاثة سفن فى مضيق جبل طارق، فقد كانت استثنائية، حيث إنها تحققت فى افتداء عام ١٥٧٩،

أو في عام معركة القصر الكبير، وحدثت افتدائات أخرى بمبالغ كبيرة، مثل افتداء عام ١٦٠٩، على سبيل المثال، الذي ارتفع إلى أكثر من ثلاثة ملايين، بالتحديد ٣,٩٠٥,٦٨٠ مرابطة، أي ما يقرب من أربعة ملايين^(٢٢). قبل ذلك بعامين تم تسجيل افتدائات قيمة لحكام تطوان. إن مقدم المدينة، أحد أفراد النقسيس، والذي كان عبده، بجانب عبيد القائد، هم أول من يباع، لم يكن يطلب أقل من ٢,٠٠٠ ريال فدية للشخص، أي ٦٨,٠٠٠ مرابطة، فيما عدا حالات استثنائية نادرة^(٢٣).

عند الاستيلاء على الغنائم كان القراصنة يحملونها للبيع في تطوان، حيث تشتريها هذه الشخصيات ذات القدرة المالية الواسعة والذين كانوا يستطيعون تخزينهم "كبضائع" في السجون الكثيرة المشهورة. كانوا يتركزون في أيدي قليلة، وبوجه عام، في أيدي البرجوازية المحلية، وكان العبيد يتم اقتناؤهم بأسعار منخفضة ويعاد بيعهم بعد ذلك لرجال الدين المفتدين وتحقيق مكاسب كبيرة. كانت هذه المكاسب الكبيرة تدعم القوة الاقتصادية لمدينة أكملها. شكلت الافتدائات "في ممالك فاس والمغرب وتطوان" نزيفاً ضخماً للممتلكات والعائلات المسيحية في شبه الجزيرة، كان ذلك تدعيماً مفيداً للمصادر المغربية الفقيرة. يمكننا زيادة المعلومات الاقتصادية في اثني عشر افتداءً تم بحثهم، لكن ليس هذا هو موضوع هذه الدراسة. أعتقد أنه يكفي، ما أظهرناه في السطور السابقة، لكي ندرك التكلفة الباهظة في الأرواح والثروات التي أدى إليها تحول السياسة الإسبانية عند اختفاء الملوك الكاثوليك.

سنقدم بعض الملاحظات الأخيرة لإنهاء هذه الدراسة.

في المقام الأول، إن تاريخ الأندلس، كتاريخ إسبانيا لا يمكن كتابته بانفراد دون معرفة تاريخ المغرب ودون ربطه به.

في المقام الثاني، من الممكن أن نجد أن بعض أصول التخلف في أندلوثيا في بعض مظاهر تاريخها لم تبحث بصورة كافية.

وأخيراً، داخل تاريخ المغرب المجهول، ما زالنا نجهل النتائج التي أدى إليها تخلي إسبانيا عن الجبهة الجنوبية و أثر انعزال المغرب - من ناحية - وفرض العزلة عليه - من ناحية أخرى - على تطور الحياة فيه^(٢٤).

الهوامش

- (1) SUÁREZ FERNÁNDEZ, Luis, en "La España de los Reyes Católicos" de la Col. De H.a de España de M. Pidal. Tomo XVII, vol. II. Pp. 307-8 y ss.
- (2) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada 1988. Cpts. VI y VII. V.

أنظر كذلك دراستي عن:

"Alí ben Rasid Intenta ocupar Ceuta en 1490". Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta. Año I. N.º 3 1988. Pág. 74.

(3) GARRIDO ATIENZA, Miguel. Las capitulaciones para la entrega de Granada. Granada. 1910. P. 207.

(4) LADERO QUESADA, Miguel A. Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel I. Valladolid. 1969.

(5) Archivo Catedral de Malaga. P. 62. Pág. 44.

يوجد حديث عن تافرا و على بن راشد في

C.O.D.O.I.N. vol. LI Pp. 51, 67, 72, 99.

(7) MENESES, Emilio. Correspondencia del Conde de Tendilla Madrid, 1974. III-36.

يمكن الإشارة إلى الدراسة السابقة كملخص لها:

DOUSSINAGUE, José M. La política internacional de Fernando el Católico, en el Capt. XXVII, Pp. 453 a 465 y el Apéndice 54, Pp. 647 y ss.

(9) GOIS, Daniao de. Chronica d'el Rei D. Manuel. Lisboa 1909. 3.a parte Capt. XXIII y vol. XII. Pp. 73 y s. V. también el Cap. VII de mi "Al Mandari..." ya citado.

(10) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "El P. Contreras en Ceuta". Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta. n.º 8. En prensa.

(11) ARANDA, Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692; P. 536.

(12) Sources Inédites pour l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.) Espagne 1.a Serie. Tome I. París- Madrid-1921 Pp. 95 y 99.

- (13) S.I.H.M. id. Id. P. 101.
- (14) S.I.H.M. id. Id. P. 110.
- (15) S.I.H.M. id. Id. Pp. 107 y s.
- (16) S.I.H.M. id. Id. P. 119.
- (17) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La sociedad granadina- nasrí en el exilio". Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su reino. Segunda época. n.º 3, Granada 1989.
- (18) Biblioteca Nacional. Madrid. Manuscrito n.º 3.628, folios 24 y s.
- (19) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "Notas sobre la tradición oral morisca en Tetuán". Anales del Colegio Universitario de Almería. Año 1982. Letras. P. 102. En este mismo libro Antroponimia morisca en Marruecos.
- (20) Archivo Histórico Nacional. Osuna. Leg. 422-9.
- (21) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito 6.569.Fol.
- (22) 18 V.
- (23) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito n.º 4.390.
- (24) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito n.º 2.791.

الفصل التاسع

صفحات من التاريخ

تأمين أولاد النقسيس:

تحت عنوان "صفحات من التاريخ"، نجمع، حرفياً، بعض الوصايا المباشرة، نقلها كتاب عموميون من مدينة تطوان نفسها، حينما كانوا يرافقون إجبارياً الافتداءات التي تنفذها الجمعيات الدينية في المدينة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. هناك وثائق أخرى ستكمل الرؤية العامة.

في بعض الأحيان لا يقدم نفس الكتاب الوثائق، ولكن يدمجونها مع مجموع الكتابات والكشوف، التي كانت تكون حصيلة الافتداء، كما هو على سبيل المثال، المكتوب الذي نعرضه في مقدمة هذه الصفحات التاريخية.

تتعلق الوثيقة بتأمين أو بجواز المرور، الذي أعطاه إخوان النقسيس، المسئولون عن السلطة السياسية في تطوان، في اليوميات الخاصة برجال الدين من جمعية الثلاث المقدس الذين ذهبوا لافتداء أسرى في يونيو عام ١٦٢٥. سنقتصر باختصار على اللحظة التاريخية التي حررت فيها هذه الوثيقة.

عندما مات القائد العظيم أحمد بن عيسى النقسيس، في أكتوبر عام ١٦٢٢، خلفه أبناؤه في حكومة تطوان. سيخلف هؤلاء في السلطة أبناء آخرون بالتوالي، حتى الربع الثالث من القرن، والذي قرب نهايته قام الملك العلوي الثاني، مولاي اسماعيل بإبادة العائلة. هكذا، إذن، منذ نهايات القرن السادس عشر، بدأ تأثير ونفوذ أفراد عائلة

النقسييس على الحياة التطوانية، واستمر وجودهم وجاذبيتهم فى أعمال المدنية ما يقرب من قرن أطلقنا عليه "قرن عائلة النقسييس" وهو يلى قرن المندارى، مؤسس تطوان.

يجب ملاحظة أن التأثير الذى طبعه أفراد عائلة النقسييس فى سير عجلة السياسة فى الشمال المغربى كان دون شك ذا أهمية حيوية لباقى البلد، لدرجة أنه دون الموريسكيين وأفراد النقسييس، فإن تاريخ المغرب، خلال القرن السابع عشر، كان سيكتب بطريقة أخرى. فى نهاية الوثيقة التى نقلناها، وبعد ذكر المناصب الخاصة بكل منهم، نستطيع أن نرى التوقيعات، باللغة العربية، لإخوان النقسييس الأربعة، الذين كانوا يحكمون المدنية معاً وهم، من اليمين اليسار، كما هو مكتوب بالعربية، أحمد بن أحمد النقسييس والحاج بن أحمد النقسييس، وعبد الله بن أحمد النقسييس وعبد الله عيسى بن أحمد النقسييس.

إن هذه الآثار الحقيقية لأفراد النقسييس تجعل من هذه الوثيقة، بالنسبة لنا، واحدة من الوثائق الأكثر قيمة من بين كل الوثائق التى رجعنا إليها.

فيما يلى نقل للتأمين الموجود فى مخطوط ١٢٧ب، قسم المخطوطات القديمة للأرشيف التاريخى الوطنى.

فى المقدمة بحروف عربية، وفيما يبدو، بنفس خط كارديناس الجميل:

الحمد لله وحده

على اليسار بحروف صغيرة ومختلفة:

جواز مرور من تطوان

فى جسم نفس الورقة رقم ٣٤:

نحن المقدمون الموقعون بالأسفل، نعطى تأميئاً إلى الآباء المفتدين: الراهب غرابيل دى لا أسونثيون Graviel de la Asunción والراهب سبستيان دى لا مادري دى ديوس Sevastián de la madre de Dios، رجال الدين الفقراء من جمعية الثالوث المقدس لافتداء الأسرى، وإلى لويس أوتشوا Luis Ochoa، كاتب هذا الافتداء وإلى

جوزيف ميخياس Joseph Melías، الصبى اليهودى، و إلى أى أشخاص آخرين يُحضرهم هؤلاء المقتدون فى صحبتهم، لكى يستطيعوا كلهم أو أى منهم الدخول فى مدينة تطوان، للقيام باقتداء الأسرى المسيحيين دون أن يلحق بهم ضرر، أو مضايقة، لأى سبب من الأسباب، أو أى حدث وقع من قبل أو بعد تأميننا هذا.

ونعطيهم تأميناً آخر لا يلزمهم بحمل أسرى بالقوة، بل من يرغبون فيهم، هكذا من جانبهم، أو من جانبنا. تحت الاتفاق الجيد. ولا نلزمهم بالقيام بأى مجهود، أو أى شىء ضد إرادتهم، ولكن سنتعامل بكل بساطة فيما سنتفق عليه. ولن نعتقلهم ولكن سنعيدهم بالتأكيد إلى مدينة سبتة، بعد القيام بالافتداء أو إذا رغبوا فى العودة، دون الضغط عليهم أو مضايقتهم أو تكديرهم، هذا يتعلق بهم كلهم مجتمعين أو بأى منهم، بوجه خاص، سيعاملون معاملة جيدة، ولذلك نوقع، ما قيل سلفاً، // نهاية الورقة ٣٤//، بأسمائنا باللغة العربية. وهذا التأمين سيكون باللغة القشتالية، وسيصدق عليه سكرتيرنا، قاسم كارديناس Casim Cardenas، الذى قام به فى تطوان فى الأول من يوليو عام ١٦٢٥. المقدمون، أولاد النقسيس، الحاج وحامد وعبد الله وعيسى النقسيس، المقدمين، حكام تطوان.

يلى ذلك توقيعات الإخوان الأربعة، باللغة العربية، حتى منتصف ظهر الورقة رقم ٣٤.

يتبع هذا التأمين لأولاد النقسيس نموذج التأمينات التى تنتمى إلى نفس النوع، ويشتمل على كل نوع من الضمانات، المقدمة لرجال الدين، سواء على أرواحهم أو على أملاكهم، وعلى حسن المعاملة الشخصية. كان هناك شىء آخر بوجه عام، وهو تنفيذ الفقرات الموجودة فى هذا التأمين، الذى يؤدى عدم الحفاظ عليها إلى شكوى الرهبان، الذين كانوا يُجبرون، فى أكثر الأحيان، على شراء أسرى غير مرغوب فيهم وغير مطلوبين. كان يوجد من بين الأسرى الغير مرغوب فيهم من يسمون "بالمرحب بهم"، وهم الهاربون من حاميات الحدود، والذين كان يتم افتدائهم، كوسيلة للرجوع إلى إسبانيا، هاربين من ظروف الحياة القاسية من إقاماتهم المجاورة للحدود(*).

(*) هكذا يرد تعريف "المرحب بهم" bienvenidos وهم يختلفون عن الأسرى كما نرى. (المراجع)

وكان من بين الأسرى غير المطلوبين أجانب، مع وجود أوامر صارمة للآباء المفتدين بافتداء الإسبان فقط. يشمل التأمين بالإضافة إلى الرهبان والكاتب، اليهودي خوسيه ميخياس الذى، بالرغم من عدم ذكر ذلك، كان يقوم بوظيفة المترجم أو بوظيفة السمسار وأيضاً سيد أو مالك للعبيد. وصل ميخياس أو نسله، إلى أعلى المناصب الإدارية التطوانية، فكان سكرتير الحكام النقسييس فى أعوام ١٦٥٦ و ١٦٦٠ و ١٦٦٤ . كانت هذه العائلة اليهودية تقيم فى سبتة، بالرغم من احتمال معيشتها بين المدينتين، بسبب موقعها السياسى فى تطوان. فى الحقيقة، نفكر، أنه بالنسبة له لم يكن يحتاج لتأمين السلطات، لأنه كان يتحرك فى هذا المعسكر كالسمكة فى الماء. إن الموافقة من جانب موظفى الطرف المسيحى أو الإسلامى، على إقامتهم الازدواجية، تفرض اهتماماً كبيراً من الجميع بسبب الخدمات التى كان يقدمها أفراد ميخياس. ولأنهم كانوا فى خدمة أولاد النقسييس، فقد استمروا فعلياً طالما استمر هؤلاء.

٤٥

Nos. Los f. Inocentes de Basso. Limados. Damos
 Seguro Mos. Padres Redemptores fray. Ornel de la anuñon
 y fray. Sebastian Delamora de dios. Relisiosos de cal
 Vos. De la Orden. De la S. Trinidad Redencion de cautivos
 Ya sus Ochoa S. ciuano De la S. Redencion de Joseph
 Melias El mozo Judio Vastros. quales. Quier persona
 q. Injeren Los. Hos. Redemptores En su compania
 Para que Puedan. Todos. O qualquiera Dillo. En
 Tras. En el aguiro de Tchern a Basser. El Recate
 Delos. Inuitos Xpianos Siquierean agraviados ni
 Amolehados Por ningun. Caso ni a conuencimiento. q.
 Oya. Abido. Ante. ni Desfuer. a este nuestro seguro. y
 Otro si nose les obligara. a llebar. Cautivos. El
 Por fuerza Sino. aquellos que. Ayen. Por bien
 Sino. Desparte. como De la S. De Basso de la S.
 Cautivo ni les. obligaremos. a Basser ninguna fuerza
 ni coha Contra sus voluntades Sino. Tratando llano
 y libre. En lo quieros. Conseruemos. Pro se
 van. Detenidos. Sino les. bolveremos a poner
 segura. Tiene. En la ciudad Decueta Conredendon
 decha o Por Basser. Cada y Quando. quier. que
 Atri. Boller. sin. Ha. Siles. fuerza ni molesta
 ni Bofacion alguna. a todos. Juntos o a
 qualquiera de ellos En particular. Sin. Siles.
 Hasta. Ven. Comdo. V. Pasate. Por lo.
 cual Lo firmamos. Lo sobre. Dicho. Denuetor.

شكل الوثيقة

رقم (٤٥)

Nombres en Arabe y en Griego de la Enciclopedia
 de Herodoto. Por el Sr. Secretario de Estado
 y Lo Sico en Tetuan. aprim de Junio de
 mil y seiscientos y ochenta y cinco.

Los Almaceneros. Hijos de Alvarado el Grande
 y Juan. y Abad Salas. an. Passis. a
 morados. de Tetuan.

وكتبه علي الله سبحانه وادع انفسه بكتبه
 وكتبه علي الله سبحانه وادع انفسه بكتبه

وكتبه علي الله سبحانه وادع انفسه بكتبه
 وكتبه علي الله سبحانه وادع انفسه بكتبه

(تابع) شكل الوثيقة

رقم (٤٥)

إذن ملكى

توضح الصفحة التالية من التاريخ الإجراءات البيروقراطية الحذرة الذى كانت الجمعيات الدينية، المسؤولة عن افتداد الأسرى ، تحتاج أن تتبعها .

كانت تبدأ بتدخل الملك نفسه، فيليبى الرابع، الذى بدونه لم يمكن حتى البدء فى أى عملية من هذا النوع. يعطينا هذا فكرة عن الوضع المتردى الذى استطاع الأسرى الوصول إليه فى شمال إفريقيا فى المجتمع الإشباني، حيث كان تحريرهم يعتبر هدفاً للدولة، ومن جانب آخر، كان هناك اهتمامٌ بالآ تحول الافتداءات إلى تجارة مستترة أو إلى خروج العملة أو أى حركة أخرى غير شرعية. بالإضافة إلى منع الغش والصعلة المتعددة فى إسبانيا. كان عالم الضفة الأخرى من المضيق، هو عالم "عدو الدين، عدو عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة"، كما تقول النصوص، وبالإضافة إلى ذلك، كانت تظهر منه الحركات العدائية التى كانت تجتاح سواحل وبحار إسبانيا، وتشيع جواً من العداء لم ينطفى منذ العصور الوسطى.

لم تكن هناك رغبة فى إقامة أى علاقة مع "أرض أعداء الدين" هذه التى - من ناحية أخرى - كانت مليئة بالمنفيين الإشباني المسلمين، وهم بالتحديد الذين كانوا يوجهون الهجمات إلى وطنهم القديم.

كان الملك الشاب فيليبى الرابع قد قضى ثلاثة أعوام فى الحكم، عندما وقع وثيقة المرور الإعفائى، ننقل جزءاً منها، وبمقتضاها كان يسمح بحمل ١٦,٠٠٠ دوقية إلى الرهبان، بينابيدس Benavides ونونييث Núñez، أو قيمتها فى صورة بضائع، بهدف افتداء عدة أسرى مسيحيين فى طنجة.

كان مبلغ ١٦,٠٠٠ دوقية أو ٦,٦٨٤,٠٠٠ مرابطى يشكل مبلغاً كبيراً من المال. كان كافياً للإنفاق على أسطول مكون من أكثر من عشرين سفينة، ربما كانت تستطيع الحفاظ على المضيق ومياهه المتاخمة، خلال فترة من الزمن. إذا أخذنا فى الاعتبار أنه فى نفس هذا العام ١٦٢٥، كان رهبان جمعية الثالوث المقدس فى تطوان ينفذون شراء آخر للعبيد وأنه كان نادراً العام الذى لا تقوم فيه سواء إحدى الجمعيات الدينية

أو أخرى بسفريات من هذا النوع، إلى المغرب أو الجزائر، فسوف يمكن للفرد أن يندهش كثيراً من الثروات التي كانت تخرج من إسبانيا لهذه الأغراض في فترة محددة، ولا نستغرب أن يكون هناك من نادى - فى ذلك الوقت - بتغيير النظام والقضاء على الافتداءات والشروع فى دفاع نشط عن البحار والسواحل بالأموال التي كانت تُنفق فى افتداءات الأسرى. يمكن أن تكون المعلومة بمثابة مرجع حيث تقول إنه فى القرن السابع عشر كان هناك العديد من مخطوطات الافتداءات سواء إلى تطوان أو إلى الجزائر العاصمة، وكان يجب على الرهبان أن يعتنوا عنايةً شديدة بالتدقيق فى حساب ووزن وعدد الصناديق التي يذهب فيها المال و عرضها على موظفى الجمارك وبعض الشروط الأخرى، أعطى الملك الإذن الحالى إلى مدينة طنجة، وكانت موقعا نادرا للافتداء.

فى هذه المنطقة المتاخمة للحدود كان يقيم رئيس الدير مارتين دومينغيث، المسئول عن افتداء بعض الاسرى فى سلا، وهو المكان الذى كان الرهبان يذهبون إليه لتسديد الديون المستحقة للرئيس المذكور، وينتفعون بالرحلة لافتداء بعض الأسرى الذين حملوهم إلى تطوان.

فيما يلى نقل الإذن الملكى :

و هو منقول من الوثيقة الحقيقية، التي كتبها الكاتب سالبادور دى سيثيليا، من مدينة لوخا، وجاء النص فى ظهر الصفحة الأولى من المخطوط رقم ٣٦٣٤ فى مكتبة مدريد القومية.

السيد فيليبي، بفضل الرب، ملك قشتالة.. إلخ إلى كل رؤساء البلدية والمساعدين والحكام والقادة الرئيسيين والعاديين والقضاة الآخرون والقضاء أياً كانوا من كل المدن والقرى وأماكن ممالكنا وسيادتنا، وإلى كل واحد وأى منهم فى تلك الأماكن والولايات القضائية، وإلى قادة المسئولين عن الممنوعات وموظفى الجمارك والموانئ والحراس وإلى أى أشخاص آخرين موجودين فى حراسة أى ميناء موجود فى ممالك قشتالة

وملقة وقرطاجة وجبل طارق وقادش وإشبيلية وإلى أى أشخاص آخرين يكونون فى هذه الحراسة، وإلى كل من تظهر له رسالتى هذه، أتمنى الصحة وأهدى الشكر.

إعلموا أن الآباء المفتدين، الراهب فرانتيسكو دى بينابيدس والاب الراهب غاسبار نونييث من جمعية السيدة مريم العذراء، وهم المفتدون المعينون من قبل قائد هذه الجمعية الراهب فرانتيسكو دى بينابيدس من إقليم قشتالة والاب الراهب غاسبار نونييث من قبل إقليم أندلوثيا، قد قالوا إنهم معينون من قبل حضرتكم، لكى يذهبوا لافتياء الأسرى، ومن جهتنا أعطيناهم أمراً لكى يذهبوا إلى مدينة طنجة لكى يحصلوا من رئيس الدير مارتين دومنيغيث بوانييه على سبعين أسيراً مسيحياً، كانوا فى ممالك إفريقيا هناك مجاورين وأن يدفعوا فى مقابلهم ستة عشر ألف دوقية، أوضحتها الاتفاقيات، ولكى يذهبوا للقيام بافتداء هؤلاء الأسرى والحصول على الستة عشر ألف دوقية هذه كانوا يحتاجون إلى إذن منا للحصول عليها من ممالكنا للقيام بهذا الافتداء ولعدم دفع أى رسوم فى الجمارك والموانئ التى يمرون عبرها. وقد نظر رجال مجلسنا فى ما سبق واتفقوا على أنه يجب أن نأمر بإرسال رسالتنا هذه إليكم، وقد رأينا أن نرسلها بالفعل، لذلك نطلب بعد عرضها عليكم ونقلها الموقع من أحد الكتّاب العموميين، أن تتركوا وتسمحوا لهؤلاء الآباء، الراهب فرانتيسكو دى بينابيدس والراهب غاسبار نونييث أن يذهبوا بأمر منا لافتياء هؤلاء الأسرى، وأخذ هذه النقود الستة عشر ألف دوقية، فى صورة ذهب وفضة وجواهر وأى بضائع أخرى، يحملونها معهم إلى مدينة طنجة هذه، على ألا تكون ممنوعة بقوانين (نهاية الصفحة رقم ٢) ممالكنا، وألا تتجاوز المبالغ التى يحملونها لهذا الغرض، سواء بالمرابطة، أو فى صورة بضائع، الستة عشر ألف دوقية هذه، ويجب تحميلهم فى أى ميناء أو موقع، لكى يحملوهم إلى هذه المدينة، للقيام بها بهذا الافتداء، ونطلب أن يُعرض هذا المال أولاً أمام رجال القضاء والقادة المكلفين بمراقبة الخروج من الميناء أو الموانئ التى يجب أخذها عن طريقها، وفى حضور كل كتّابنا، وإذا لم يكن الكتّاب من ممالكنا، فأى كتّاب يكونون معينين من قبلنا، على أن يُقسّموا أولاً حسب الأصول، وأن ينظروا ويقوموا بما هو موجود فى الرسالة بصورة جيدة ومخلصة. ويجب على رجال الدين المذكورين وسالبادور

دى سيثيليا، كاتبتنا، معاً، وليس واحد دون الآخر، أن يحضروا ويزنوا العملات المرباطية هذه والبضائع ويضعوها فى الصندوق أو الصناديق، حسبما يجب أن يذهبوا، وتُغلق هذه الصناديق، وتُحمل وتدون وتُعد. ويجب أن يكتب دائماً عدد العملات الموجودة فى كل صندوق وما يزنه كل واحد وما يحمله، وأن تراجع البضائع، وتُسجل السفينة التى يجب أن تذهب، ويكتب ذلك دائماً فى ظهر رسالتنا الأصلية وفى نسختها هذه، موقعة منكم ومن قضاتنا ورجال الجمارك والضرائب والقادة //نهاية ظهر الصفحة رقم ٢// وأن يشهدوا، مع توقيعهم، على الطريقة التى أخذوها بها وبأى مبالغ أو بضائع وما يحمل فى كل صندوق، وكيف تم إغلاق الصناديق وتدوين المبالغ وعدها. وما يزنه كل صندوق وكيف تم إدخالهم فى هذه السفينة، وكم عدد الصناديق التى تحوى هذه البضائع، ويجب على رجال الدين الذين يحملونها أن يحضروا أو يرسلوا شهادة أو دليلاً كافياً إلى بلاطنا، فى غضون ستة أشهر من وقت الحصول على هذه البضائع، وكيف تم توظيفها فى العملية، وفى غضون ثلاثين يوماً، اعتباراً من يوم الحصول على هذه العملات المرباطية والبضائع، وهم ملزمون أيضاً بإحضار أو إرسال رسالتنا الأصلية هذه أو نسختها هذه إلى بلاطنا، ويدفع المخالف غرامة قدرها ألفى بوقية إذا لم يقوموا بالأمر بهذه الطريقة، وبهذه الشروط المذكورة وليس بطريقة أخرى نعطى هذا الإذن الذى لا تعوقه أية موانع أو حظر موجود حتى لا يمكن أخذ نقود من ممالكنا هذه، ونحن نغفو عن كل شئ بالنسبة لهذا الأمر ونطلب أن تستمر رسالتنا لسحب هذه النقود والبضائع من ممالكنا ولاياتنا خلال فترة تشمل أول ستين يوم تالية، اعتباراً من هذا اليوم، تاريخ الرسالة فصاعداً و أن تكون صالحة بالرغم من عدم كونها موقعة من محاسبينا الرئيسيين، ومن يخالف ذلك يعاقب بدفع مبلغ // نهاية الصفحة رقم ٣// خمسين ألف مرابطى. كُتب فى مدريد فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٢٤. أنا الملك، توقيع كل من السيد فرانتيسكو دى كونتريراس و بدرو دى تابيا، السيد ألونسو دى كابريرا و دون بيرينغير دى أوراث و السيد بدرو مارموليخو والسيد غارثيا دى أبيانيدا و السيد سبستيان أنطونيو دى كونتريراس، سكرتير المملكة جعلنى أكتبها بأمره، سجلها مارتين دى ميندييتا.

أحمد النقسيس يثور على السلطان :

فى نهاية عام ١٦١٤ أرسلت جمعية مريم العذراء بعثة إلى سبتة، لكن ليس من أجل افتداء مسيحيين من تطوان، بل من أجل التفاوض بشأن ذلك مع الذين كانوا موجودين فى الجزائر، فقد منع ملك إسبانيا السفر إلى الجزائر، لكون هذه السلطات غير جادة.

حينئذ انصرفت سفينة يملكها أحد الفرنسيين، الذى وصل إلى الميناء السبتى فى هذه الأيام وتعهد بالذهاب والعودة من الجزائر، بأسرى من هناك.

رحل الآباء المفتدون، مع الكاتب لاكيتيغى، إلى تطوان فى ١٧ من ديسمبر لطلب مساندة حكامهم فى العملية التى يفكرون فى القيام بها. كان هؤلاء الحكام، وفقاً للدليل الواضح للمخطوط الذى سننقله، هم أمو بن عمار، القائد الأكبر، الذى كان يحكم باسم مولاي عبد الله، ملك فاس، وأحمد النقسيس، المقدم.

عرضنا المعلومات التاريخية فى مكان آخر من هذه الدراسة، لكن من الضرورى تلخيصها، لأننا هنا نتقابل مع صفحة أخرى حية من التاريخ التطوانى.

كان مولاي عبد الله ابناً للسلطان مولاي الشيخ، الذى قتله أحمد النقسيس أو حرّض على قتله فى ضواحي تطوان. حدثت الواقعة فى عام ١٦١٣، عندما حاك النقسيس، وهو هاربٌ فى الجبال المجاورة للموقع، مؤامرة مع قادة آخرين ودخلوا فى تطوان، وأعدموا القائد، بودبيرا، الذى عينه الشيخ، الذى أعدموه أيضاً.

ومع ذلك أصبح ابن الشيخ، لا نعرف كيف، مسيطراً على المدينة، بالرغم من سماحه بوجود المقدم أحمد النقسيس فيها. هكذا كما سنرى فى النص الذى حرره الكاتب لاكيتيغى، فى الصفحات من ظهر الصفحة ١٧ إلى الصفحة ٢٤ من المخطوط رقم ٢٨٧٠ فى مكتبة مدريد الوطنية. سوف تكون المعاشية، فى هذه الأيام من نهايات عام ١٦١٤ وبدايات عام ١٦١٥، بين القائد الأكبر، أمو بن عمار، نائب مولاي عبد الله

مع الحاكم التطواني العجوز، المقدم النقسييس، كان يجب على أمو بن عمار إزاء استدعاء من ملكه، مولاي عبد الله، أن يخرج بسرعة من تطوان، ويترك المقدم كنائب لسلطته.

ما حدث هو أن أحمد النقسييس، استغل غياب أمو بن عمار، وأثار المدينة ضد مولاي عبد الله.

يعرض هذا الحدث بدقة كشف حساب الكاتب العام، الشاهد على الأحداث. إنه يحدد ويوضح التاريخ الزمني والأشخاص، بكل وضوح، وهو شيء كان مجهولاً حتى الآن في تاريخ المدينة.

هذا هو ظهر الصفحة رقم ١٧ من المخطوط رقم ٣٨٧٠ في المكتبة الوطنية .

في مدينة سبتة في اليوم العاشر من شهر ديسمبر من عام ١٦١٤، أمامي، كاتب الافتداء، والآباء المفتدين وأرودييل بينيسى، فرنسى الجنسية، ربان السفينة، المشار إليها من قبل، في حضوري، أشهد أنهم تعاقدوا واتفقوا على الرحلة التي طلب الآباء المفتدون من الربان أن يقوم بها، وذلك وفقاً للشروط التالية. أولاً، أن يلتزم الآباء بدفع مبلغ أربعة آلاف ريال للمذكور رينيال بينيتي، لعمله خلال الشهرين اللذين سيقوم خلالهما بهذه الرحلة، من ذهاب وإقامة وعودة، بواقع ألفي ريال للشهر. وما يزيد عن هذين الشهرين يُقسم بالكمية، مع إحضار شهادة من الأب الراهب برناردو دي مونروي، مفتدى جمعية الثالث المقدس، الموجود في مدينة الجزائر، تفيد بكيفية تأخير هذا الربان منتظراً عند سلطات وإذن جمارك الجزائر. يُحسب هذان الشهران منذ اليوم الأخير لهذا الشهر والعام. بالإضافة إلى ذلك، كان شرطاً أن يحمل الربان - ويدعى رينيل بينيتي - الآباء المفتدين من ميناء سبتة إلى مدينة الجزائر وأن يحضر منها أمراً لهذه المدينة، في الوقت الذين يناسب الآباء المفتدين للسفر، سواء للأشخاص الأحرار، أو الأسرى والبضائع، والذين كان ضرورياً إحضارهم وحملهم من هنا ومن هناك، ولا يجب دفع أى مرابطة عنهم كأجرة شحن، على أن توزع أى بضائع يشحنها هذا الربان، من أشخاص أو أفراد، في هذه السفينة في الذهاب والإياب بين هؤلاء الآباء المفتدين وبين الربان بالتساوي. وكذلك فيجب على الآباء أن يسلموا هذا الربان

تأميناً ملكياً من ملكنا صاحب كل المعازل والقوات وسفن إسبانيا، وتأميناً من جمارك ملك الجزائر، صدرت (الوثيقة) بناءً على طلب ماركيز بياريال لنفسه // نهاية ظهر الصفحة رقم ١٧ // الهدف. كل ما أشهد به حدث في وجودي كما هو ثابت في الاتفاقيات الأصلية الموجودة مع الرهبان المذكورين. توقيع: خوان دي لاكيتيغي.

في مدينة سبته، يوم الجمعة، السادس عشر من يناير عام ١٦١٥، قام الآباء المفتدون الراهب إسيدرو دي بالكارتيل، مفتدى إقليم قشتالة والراهب خينيس دي أرييتا، مفتدى إقليم أندلوثيا والراهب بدرو دي ميدينا، الوكيل العام لجمعية سيدتنا العذراء والآباء الراهب توماس سانت، مفتدى إقليم فالنسيا والراهب خوان كابيرو، من مملكة أراغون، كلهم معاً ومجتمعين، رغبة في أداء ما كان أكثر ملائمة لخدمة الرب والأسرى المسيحيين، الموجودين في سجون مدينة تطوان، تحت سلطة عدو الدين، قاموا بالاتفاق على دخول الآباء، الراهب إسيدرو دي بالكاثير والراهب خوان كابيرو، إلى مدينة تطوان، لمقابلة قائد ومقدم هذه المدينة للاتفاق على افتداء الأسرى المسيحيين، الموجودين في هذه المدينة، برضا ورغبة ماركيز بياريال وبتأمين من القائد والمقدم، وقد ذهب فرانتيسكو مارتين لإحضار هذا التأمين، وهو فارس من جمعية يسوع، ولتنفيذ المهمة اتفق الآباء على الاستعداد للقيام بهذه الرحلة، وأنا بصحبتهم، أشهد على كل ما سبق. في حضوري، خوان دي لاكيتيغي.

في مدينة سبته، اليوم السبت، السابع عشر من هذا الشهر والعام، لتنفيذ ما هو متفق عليه عليه، رحل الآباء المفتدون إلى مدينة تطوان، بصحبة ثلاثة فرسان مسلمين وفرانتيسكو مارتين، وفارس من جمعية يسوع، كان يقوم بمهمة المقدم، وأنا في صحبتهم ووصلنا عند حلول الليل، ونزل الآباء في قلعة هذه المدينة، حيث كان أمي بن عامر القائد الأكبر لهذه المدينة موجوداً، وبعد نزولهم قبلوا يديه وأعطوه فكرة عن سبب مجيئهم، واستقبلهم القائد بسرور وامتنان وأظهر حماساً في طريقته في الحديث وقال إنه سوف يقدم لهم كل المساعدات التي يستطيع القيام بها، وبهذا ودعهم، واتفق معهم على العودة في يوم آخر للحديث عن الأشياء والتجارة المتعلقة بالافتداء، وطلب منهم أن يذهبوا للراحة وأن يقيموا في منزل خوداساس اليهودي، في حي اليهود في نفس المدينة. وذلك حدث في حضوري، وأشهد على ذلك. في حضوري، خوان دي لاكيتيغي.

فى مدينة تطوان، يوم الأحد، الثامن عشر من شهر يناير عام ١٦١٥، ذهب هؤلاء الآباء المفتدون، فى صحبة فرانتيسكو مارتينيث، فارس جمعية يسوع، وفى حضورى أنا الكاتب، إلى القلعة حيث كان أمو بن عامر موجوداً، و هو القائد الأكبر لهذه المدينة. وبعد تقبيلهم يديه وبعدما قاموا بتعريف أنفسهم لبعضهم البعض، أعطاه الآباء فكرة عن سبب مجيئهم. وبعد ما تحدثوا وشرحوا له كل شىء، أجابهم بأن خدمتهم هى من دواعى سروره، سواء بالأفراد أو بالملكات وأن كل ما فى المدينة سيكون فى خدمتهم. وأنهم يستطيعون تنظيم كل ما يريدونه. وشكر الآباء له تصرفه، وعرضوا عليه خدماتهم مرة أخرى وبعد ذلك تحدثوا فى موضوعات أخرى، متعلقة بأمر إرسال سفينة إلى الجزائر، لإحضار الأسرى المسيحيين الموجودين فى هذه المدينة، حيث أحضروا معهم التوصيات و المساعدات للقيام بافتدائهم، وإنه ما لم يحدث ذلك فإنه لن يكون بإمكانهم افتداء أى مسيحى. وعندما نظر السيد القائد فى هذا القرار (نهاية ظهر الصفحة رقم ١٨).

أجابهم أن يقرروا من أى طريق يجب أن يذهبوا وعن طريق أى شخص ومن الذى يريدون الالتقاء به فى الجزائر وإنه من جانبه سوف يسهل ذلك ويُسجّع الشخص الذى سيقوم بالرحلة. وقال الآباء، لثقتهم فى المساعدات الطيبة التى يعرضها القائد، إن حامد بوردان، المسلم من هذه المدينة، كان قد اتفق معهم على أنه سيرسل هذه السفينة لحسابه، لأن له، كما قال، علاقة فى مدينة الجزائر مع على بيتشيلين ومع الأب الراهب برناردو دى مونروى، ولكى تنفذ هذه العملية يجب أن يكون موسى ميخياس، اليهودى، موجوداً لكى يظل كضامن لأى مبلغ يُسلم إلى حامد بوردان نظير المسيحيين الذين سيأتون وأنه لهذا الغرض كان ضرورياً الانتظار لليوم التالى، الاثنين القادم، حتى يصل إلى هذه المدينة، من مدينة سبتة حيث يقيم، للاتفاق على هذا الأمر مع هذا اليهودى وهؤلاء الآباء. وبذلك، ودع الآباء هذا القائد وذهبوا إلى منزل المقدم النقسيس للحديث والتباحث معه كشخص تجب مجاملته وأخبروه بكل ما هو مشار إليه عاليه ورأى أنه ملزم بأن يعرض عليهم المساعدة و استقبلهم استقبالاً جيداً. حدث كل ذلك فى وجودى وأشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، يوم الإثنين، التاسع عشر من هذا الشهر والعام، عاد الآباء من القلعة، بصحبة فرانتيسكو مارتينيث وبصحبتي أنا الكاتب، وبعد تحية أمو بن عمار، القائد (نهاية الصفحة رقم ١٩)

أمر بعد ذلك أحد المسلمين، فجأة، أن يستدعى حامد النقسيس، مقدم هذه المدينة وحامد بوردان وخوسيه باربانى وحامد بنساكور ومامى توريس وبعض المسلمين الآخرين، ملاك العبيد المسيحيين. وبعد حضورهم كلهم، وفى وجود القائد، عرض الأب الراهب إيسيدرو دى بالكارثير، مفتدى مقاطعة قشتالة، ما يلى:

رغبةً منا فى خدمة الملك فى تقديم العون للأسرى المسيحيين، أولاً وبشكل أساسى أن يطلب السادة القائد و المقدم النقسيس برسائلهم أن يذهب شخصٌ إلى الجزائر بالسفينة المتعاقد عليها فى سببة لإحضار عدد من العبيد ترد أسمائهم فى رسالة موجهة إلى على بيتشيلين والراهب برناردو دى مونروى، مفتدى جمعية الثلاث المقدس، الموجود فى الجزائر، وإذا لم يتم تنفيذ ذلك، فلن يكون لديه أمر بافتداء الأسرى الموجودين فى هذه المدينة، من رفقاتهم الموجودين فى سببة. وثانياً، بعد رحيل هذه السفينة، مع رسائلهم، أن يؤمن لهم افتداء حتى عشرين مسيحياً من الأسرى الموجودين فى هذه المدينة، بشرط أن يكونوا أسرى شرعيين، مأسورين فى حروب وإيسوا هاربين من معاقل عظمة الملك فيليبى، ولا من الموريسكين المطرودين من إسبانيا، وأن يأمر عظمتة ملاك هؤلاء الأسرى أن يخفضوا من صدقة الألفى ريال العادية، حيث كان يرى بوضوح أن هذا الرقم مبالغ فيه وذلك حتى يتمكنوا من الاتفاق على افتداء الأسرى و العودة إلى ميناء مدينة تطوان ويقلعوا عن الذهاب إلى ميناء فالنسيا وإلى موانئ (نهاية ظهر الصفحة رقم ١٩) إسبانيا الأخرى، فلم يكن هناك قرار بافتداء الأسرى و ليس لديه إذن من رؤسائه. قال هذا القائد، بعدما تحدث فيما هو معروض من الأب مع هؤلاء المسلمين الذين كانوا موجودين، باسم كل من سبق ذكرهم، إنهم عند رحيل هذه السفينة إلى الجزائر، سوف يكونوا مسئولين عن ترحيلها وإعطاء رسائل توصياتهم للأشخاص الذين يقولون إنهم لهم صلة بهم، وسيطلبون منهم أن يتعاونوا مع الشخص الذى يذهب بأمر من الآباء المفتدين فى هذه السفينة للتفاوض على حرية الأسرى، وذلك وفقاً للمذكرات التى أعطوه إياها، وأن يطمئن

الآباء إلى ذلك فبإمكانهم البدء فى افتداء المائة أسير، الذين يقول إنه سيأخذهم من هذه المدينة، و أنهم سيقدمون له أسرى شرعيين و كذلك فسوف يكون على حسابه إذا مات بعض من هؤلاء الأسرى المائة بعد تنفيذ افتدائهم وأنه رأى أنه إذا لم يتم افتداء المائة أسير فلن يتم تنفيذ طلب الراهب باستئجار سفينة الجزائر، من حيث طلب تخفيض الألفى ريال/ نهاية الصفحة ٢٠/ فلن يناقش، إذ أن المسلمين غضبوا و قالوا إن ذلك شيء استقر العمل عليه منذ سنوات و لا يجب تغييره و إنه لا يجب عرض الأمر مرة أخرى فهم يفضلون أن يموت المسيحيون فى الأسر قبل أن يخفضوا ريالاً واحداً وذكروا أسباباً أخرى تنم عن طباعهم السيئة و المحبة للكذب. فلما رأى الآباء ذلك قرروا عدم افتداء الأسرى بالمبالغ المعتادة قبل الرجوع إلى زملائهم و إلى ماركيز بياريال. ونظراً لكل ما أُشير إليه ولأسباب أخرى كثيرة انتقلوا من مكان إلى آخر. عاد الآباء المفتدون إلى المسكن، حيث كتبوا إلى سبتة و أرسلوا ساعى بريد على أن يعود فى اليوم التالى، الثلاثاء، فى المساء، ومعه الرد، لأن السيد القائد كان متعجلاً لأنه لديه، كما قال، رسائل خطيرة من الملك مولاي عبد الله، سيده، و كنتُ موجوداً أثناء كل هذا، وأشهد عليه، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، الأربعاء، الحادى و العشرين من نفس الشهر و العام، رحل أمو بن عمار، القائد الأكبر لهذه المدينة، بسبب الرسائل الخطيرة و الكثيرة التى تلقاها من هذا الملك، و ترك مسئولية رعاية الآباء المفتدين إلى حامد النقسيس مقدم المدينة لى يواصل الآباء عملهم، و بعدما حصلوا على رد من عظمة ماركيز بياريال من باقى الآباء المفتدين، مع ساعى البريد الذى أرسلوه، فى حضورى، يوم الاثنين، التاسع عشر من نفس الشهر و العام، ذهبوا إلى منزل هذا المقدم، حيث اتبعوا فى كل شيء التعليمات التى كانت لديهم و التى وصلتهم من جديد مع ساعى البريد من الماركيز ورفقائه. و قد عرضوها على المقدم على أنه أفضل افتداء تم فى الجزائر و أن ذلك أمر واجب. رد عليهم المقدم أنه سوف ينفذ وعده الذى أعطاه و أنه فى الحال يمكنه أن يقوم بعقد الصفقة جنباً إلى جنب مع حامد بوردان و مع كل الآخرين الضروريين و أن الآباء المفتدين، تحت هذا الوعد و التأمين، يمكنهم العودة إلى سبتة، و يحملوا معهم هذه الصفقات، لى تستطيع هذه السفينة الرحيل من هذه المدينة، و تترك فى مدينة

تطوان هذه وثيقة موقعة بأسمائهم، تقول إن فدية الأسرى فى المدينة تصل إلى مبلغ ستة عشر ألف دوقية، من التى يقدمها الآباء، بشرط انه إذا احتاج إلى مبلغ خمسمائة أو ألف دوقية فسيقوم المذكور بإرسال أطفال أسرى. و تحت هذا الاتفاق ودع الآباء المقدم وعادوا إلى مسكنهم. حدث كل ذلك فى حضورى، و أشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، الخميس، الثانى و العشرين من نفس الشهر و العام، صباحاً استدعى المقدم فرانتيسكو مارتينيث، فارس جمعية يسوع، و موسى ميخياس، يهودى و مترجم، و قال لهم إنه يريد أن تتم الأمور بحذق، دون أن يستطيع القائد أو أى شخصية من الشعب أن تقوم بتدليس فى الصفقة، و هكذا يبدو له من الأفضل أن يحمل الآباء المفتدون الصفقات و الشخص إلى الجزائر، دون ترك الوثيقة التى أُشيرَ إليها من قبل، حتى لا يقول القائد إنه بينما كان هو موجوداً فى المدينة لم يُناقش شىء حتى لا يحصل على مقابل وأنه لما غادر المدينة تم التوصل إلى اتفاق. و قد أرسل هذا إلى الآباء المفتدين مع الأشخاص المذكورين فى حضورى، و قد قرر الآباء أنهم كانوا فى طريق العودة إلى سبتة و كانت الطرق تغمرها مياه الأمطار. حدث كل ذلك فى حضورى، و أشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى. و بعد ذلك فوراً، فى نفس اليوم و الشهر و العام، قام المقدم فى الثانية مساءً، قبل أو بعد ذلك بقليل، باستدعاء فرانتيسكو مارتينيث، و موسى ميخياس، يهودى، فى حضورى، و قال لهم، بأسى إنه تلقى رسالتين من أمو بن عمار، القائد، واحدة تلو الأخرى، يلومه فيهما كثيراً على الانتقال إلى الجزائر، دون التفاوض أولاً فى هذه المدينة، وإنَّ أبناءه و المدنيين، ملاك الأسرى، لاموه معاً على نفس الشىء، و أنه لا يجب عليه أن تكون صورته سيئة أمام الملك أو أمام سكان مدينته، و لا أن يعطى فرصة لأى شغب فيها و هكذا قال للآباء المفتدين من جانبه، إنه يخجل من رؤيتهم، حيث أنه لا يستطيع أن يوفى بوعده الذى أعطاه لهم، وأنه يرى أن يسامحوه و يقولوا له ما إذا كانوا يريدون التفاوض فى هذه المدينة أولاً ثم ينتقلوا إلى الجزائر وإلا فإن بإمكانهم العودة إلى سبتة إذا أرادوا ذلك بنفس التأمين. وهذا ما كتبه فى رسالتين إلى الآباء، إحداهما باللغة العربية و الثانية بالإسبانية و ردَّ فيهما استغراب الآباء من المعاملة السيئة و الكذب أثناء التعامل معهم

محاولاً خداعهم وإتمام الصفقة. حدث ذلك في حضوري، وأشهد عليه. في حضوري،
خوان دي لاكيتيغي.

في مدينة تطوان، السبت، الرابع و العشرين من نفس الشهر و العام، ودع الآباء
المفتدون حامد النقسيس المقدم و المسلمين الوجهاء، و توجهوا إلى سبتة، في صحبة
فرانثيسكو مارتينيث، وثلاثة مسلمين آخرين على ظهور الخيل أرسلهم المقدم مع الآباء
المفتدين. ووصلوا إلى سبتة بعد ساعتين من شروق الشمس دون التفاوض في أي أمر،
وأنا في صحبتهم، أشهد على ذلك. في حضوري، خوان دي لاكيتيغي.

في مدينة سبتة، الثامن و العشرين من نفس الشهر و العام، قرر الآباء المفتدون
معاً و مجتمعين، متفقين على رأي واحد، أن يرسلوا السفينة، تحت/نهاية الصفحة رقم
٢٢/ الاتفاق السابق، بعد أن استعرضوا المشاكل. و قد رأوا أن المسلمين في تطوان
قد أساءوا معاملتهم. و كان ماركيز بياريال يرى نفس الرأي. و كنت حاضراً أثناء كل
هذا، وأشهد عليه. في حضوري، خوان دي لاكيتيغي.

نظراً لرفض المقدم في يوم الثلاثاء، ١٠ فبراير عام ١٦١٥، أقلت السفينة
المتعاقد عليها إلى الجزائر في الساعة العاشرة مساءً، وحمل قائدتها تصاريح الآباء
المفتدين، بالإضافة إلى أمر ملكي لكل الموانئ والمعازل الإسبانية لتسهيل مرورها،
وجواز مرور من الجمرک الجزائري. كان يحمل كذلك رسائل ماركيز بياريال إلى على
باتشيلين 'Ali Pachillin' وهو تاجر عبيد ثرى ذو تأثير كبير في مدينته.

عادت السفينة في ٨ إبريل التالي، دون أسرى، لأن على باتشيلين كان متذمراً من
شكوك الماركيز فيه، حيث كان مديناً له بالكثير من الأسرى الذين قدمهم له سلفاً من
باب الثقة. وأمام هذا الفشل تكرر افتداء المسيحيين الذين كانوا في تطوان وبدأت
المفاوضات في هذا الأمر. كُتب إلى تطوان في ٢٠ إبريل وطلب من سادة الأسرى
المسيحيين أن يحضروهم إلى سبتة للتعاقد على الافتداءات على أبواب المدينة.

وبعد ذلك بعشرين يوماً، لم يكن الافتداء قد انتهى، وقد ظهرت أسباب ذلك في
كشف حساب الكاتب التالي.

فى سبته فى العاشر من مايو عام ١٦١٥، وفى حضورى أنا كاتب الافتداء، كان الآباء المقتدون مستمرين فى هذا الافتداء، وكانوا يطلبون افتداء المزيد من الأسرى من تطوان. كان السبب فى أن الآباء المقتدين لم ينهوا عملهم منذ اليوم الأول الذى أحضر المسلمون فيه الأسرى من تطوان، هو مجىء مولاي عبد الله، ملك فاس وتطوان، وحصاره لمدينة تطوان، لأن مسلمى هذه المدينة كانوا ثائرين ومتمردين عليه ولم يعترفوا به كملك. وظلت المدينة محاصرة مدة خمسة عشر يوماً، كما هو مشهور فى هذه المدينة، بسبب الرسائل والأخبار التى أرسلها هذا الملك إلى ماركيز بياريال، ولهذا السبب قُطعت الطرق الموجودة من هذه المدينة إلى مدينة تطوان ولم يكن فى الإمكان خروج أى مسلم مع أى مسيحى، الأمر الذى كان يعرضنا لخطر وطوارئ كثيرة. وإحضار المسيحيين الأسرى ولكى يؤدى الآباء المقتدون واجبهم فقد التقوا بشخص مسلم و سلموه رسائل إلى حامد بوردان لكى يرسل الأسرى الذين بحوزته. وأشهد على كل ما كنت حاضراً فيه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيفى.

عن افتداء الأسرى

تقدم الأوراق الأربع الأولى من المخطوط رقم ٤٣٦٥، فى مكتبة مدريد القومية، التعليمات أو سلسلة التعليمات التى أعطاها المجلس الملكى، فى هذا العام ١٦٤٥، إلى الآباء الرهبان المقتدين الذين ذهبوا إلى تطوان لافتداء الأسرى.

أمام المجلس نفسه كان يجب على الرهبان أن يقدموا كشوفاً، عندما تنتهى عملية الافتداء المعقدة والطويلة فى أحيان كثيرة، فى مدة ثلاثين يوماً. يوضح كل هذا التوثيق والإجراءات البيروقراطية، المفروضة منذ فترة حكم فيليبى الثانى، حماس السلطات بالألا تخرج الافتداءات عن الطريق السليم، ويظهر كيف كان المجتمع الإسباني متشرباً بموضوع الأسرى .

تقريباً فى منتصف القرن السابع عشر وبعد ثلاثين عاماً من قرار طرد الموريسكيين الأخير، يمكن القول إن القرصنة كانت تستثمر حدود إمكانياتها وإن مدن

القرصنة فى شمال إفريقيا، خاصة الجزائر وسلا وتطوان، المليئة بالمورسيكيين، كانت تعيش من - ولأجل - القرصنة. يظهر فى تعليمات المجلس الملكى العمق الذى كانت تتحرك فيه عمليات التجارة، بين المجتمع الموريسكى، المستقر فى تطوان والمجتمع الإشبانى، الذى أسر أفرادَه وحملوا إلى السوق التطوانية. من أحد الجوانب؛ الجانب الموريسكى، احتياج رؤوس الأموال، وعلى الجانب الآخر، الجانب المسيحى، الشوق إلى حريتهم، وترك بعض ظروف الحياة غير الأدمية، لكن مع سلطات كانت تحاول عدم الوصول إلى التجاوز. كانت السلطات تبدو وكأنها تفهم القرصنة على أنها وباء لا يمكن منعه وأن الافتداء يعتبر ضرراً أقل.

إن المبالغ الموجهة لافتداء أسير معين، كانت يجب أن تظل فى السر، لأنه إذا كان الأسير نفسه يعلم بالأمر، كان يمكن أن يستدين، معتمداً على المال الذى سوف يحضروه له، هذا يعنى أنه كان يوجد تبادل عروض وطلبات، بين المسيحيين المسجونين وملاكهم. كان يتم التوصل أحياناً إلى الإتفاق على أسعار عن طريق الأسرى أنفسهم مع ملاكهم، حيث يجد رجال الدين، عند وصولهم، أنه يجب عليهم الالتزام بالكلمة التى أعطاهم العبد، الذى اعتاد، فى ضيقه، أن يرفع من المبلغ العادى لدفع الافتداء، بهدف أن يُعامل بصورة أفضل وأن يظل لديه أمل أكبر فى التحرير.

وصى المجلس بأن يُفضل النساء والأطفال، وهو أمر كان يعلمه الموريسكيون جيداً، حيث كانوا يرفعون أسعار بعضهن. كانت نسبة النساء والأطفال الذين يتم افتدائهم قليلة جداً، كما يُلاحظ فى النصوص العديدة المعروفة. كانت النساء أكثر قدرة على أعمال الحقول وإذا كن شابات، كن يدخلن ضمن حريم ملاكهم. اعتاد الأطفال أن يكونوا منفصلين عن آبائهم وأن يتعلموا عقيدة الإسلام، وبذلك كان يُفقد الكثير منهم فى العالم الذى أسرههم.

كانت هناك توصية أخرى من أعلى سلطة فى الدولة الإشبانية هى ألا تستخدم البضائع، كوسيلة للمبادلة بالأسرى أو بالعملة الإفريقية. إن خبرة الأعوام الكثيرة فيما يبدو قد أظهرت أن التاجر الجيد كان مختلفاً شيئاً ما عن رجل الدين الورع.

كان يُسمح باستخدام بعض المنتجات ذات القيمة العالية فقط كعملة مبادلة، من المحتمل أن تكون تلك المنتجات هي التي أثبتت المزاولة أنها الأكثر نفعاً لتجارة الافتداء.

أمر المجلس أن الاموال التي يجمعها الرهبان من أجل القرصنة، العملات والبضائع، تظل في سببة لتفادي خطر الفقد أو الاستيلاء عليها، فهذا حدث في الجزائر أكثر مما حدث في تطوان، حيث كان يتم انتهاك التأمينات وجوازات المرور بتكرار. كان الآباء المفتدون يُكزمون في كثير من الأحيان بتحرير أسرى غير مرغوب فيهم أو بدفع مبالغ باهظة فيهم حيث يستفيد حاكم مدن القرصنة من بقاء الممتلكات التي كان يحضرها رجال الدين في الحراسة، لكي يقهروا رغباتهم. حتى هذه الدرجة وصل العنف في الجزائر، حيث حُرِم في إسبانيا سفر الجمعيات المفتدية إلى هذه المدينة خلال بعض السنوات، ولأن سببة كانت قريبة جدا من السوق التطواني، فقد حل المجلس الملكي هذه المشكلة: الاتفاق على سعر الأسير في تطوان ودفعه في سببة. بهذه الطريقة، كان يمكن لراهب من سببة وآخر من تطوان القيام بمجهود لرفض أى بضاعة غير مرغوب فيها.

وفي أعوام أخرى، بعد صدور قرارات الطرد، طلب رجال المجلس توخي الحذر وعدم افتداء الموريسكيين على ما يبدو لأن الكثير من الموريسكيين يدعون أنهم مسيحيون قدامى حتى يعودوا إلى إسبانيا بعد افتدائهم وهو أمر نجحوا فيه عدة مرات كما يفهم من هذا التحذير، و كان أعضاء المجلس يدققون جدا في أمر الصدقات و يحرصون على أن تنفق في وجهها الصحيح، وربما كانوا يحاولون بذلك تجنب تصرفات خاطئة حدثت قبل ذلك.

ربما كان استخدام ثلاث سجلات، كوسيلة لمراقبة التفتيش، من إحدى التوصيات أو التعليمات التي يجب أن نحمدها نحن باحثي اليوم، لأنه بفضل ذلك نجد في متناول يدنا نسخاً، حيث فقدت الأصول أو العكس، و مع ذلك فإننا نعتقد في وجود جزء مهم من سجلات الافتداءات في أرشيفات خاصة وفي أديرة ومكتبات، ونظن أن هذه السجلات ستسد فراغات موجودة في تاريخ الافتداءات.

وسوف تقدم عقب ذلك نص نسخة التعليمات المعطاة للرهبان الذين ذهبوا إلى تطوان في عام ١٦٤٥، من قِبَل المجلس التابع للملك فيليب الرابع.

هذه هي نسخة منقولة بأمانة، لإحدى التعليمات التي أعطاه رجال المجلس الملكي إلى الآباء المفتدين، من أجل هذا الافتداء الذي سوف يقومون به في ممالك إفريقيا، في هذا العام ١٦٤٥، وفحواها كما يلي. ما يجب أن تفعلوه سيادتكم أيها الراهب خوسيه توليدو والراهب ماتيئاس دي ترينبويو، مقتدو الأسرى من جمعية سيدتنا العذراء لمقاطعة قشتالة وأندلوثيا، فيما يتعلق بافتداء الأسرى الذي يجب أن تقوموا به في مدن تطوان وفاس والمغرب هو ما يلي:

أولاً، وفي حضور ألونسو دي كاريون، الكاتب الذي تم تعيينه من أجل هذا الافتداء، ستحصلون على كل العملات المرابطية وكل النقود بأي صورة، لافتداء أسرى من أصل هذه الممالك، ولن يسمح بافتداء أى أسير من أى مناطق أخرى غير تلك المشار إليها. ولذلك يوجد هنا ثلاثة كتب، تُسجل فيهم، في حضور الكاتب المذكور، العملات المرابطية التي ستحصلون عليها من أجل هذه الافتداء، وكذلك ستسجل الصدقات والمذكرات والوصايا الخاصة، بأي طريقة، ستحملون الكتاب الأول وسيبقى الكتاب الثانى مع المفوض العام لجمعية السيدة العذراء. وسوف يسلم الكاتب الآخر إلى الشخص الذي يعينه المجلس، لكي يعرف المبلغ الموجود في حوزتكم، وسيُخصص لهذا الافتداء، الذي يجب تنفيذه في المناطق المذكورة. وإذا استلمتم بعض العملات المرابطية كصدقات عامة أو خاصة من اشخاص مشهورين بأي طريقة، في المدن والقرى والأماكن الموجودة في هذه المناطق التي تمر بها هذه الرحلة، يجب أن تُسجل في هذا الكتاب، في حضور الكاتب، لكي تُعرف المبالغ الأخرى التي جُمعت من أجل هذا العمل غير ما تسلمتموه هنا. وسنأمر بضرورة وجود إيصال وكشف لهذه المبالغ التي وصلتكم في هذه القرى والأماكن التي تمرّون عليها، على سبيل الصدقة، في وجود الكاتب لكي يشهد على التسليم ويسجله في هذا الكتاب بنفس النظام والشكل اللذين حصلتم فيهما على المبالغ. ويجب أن توقعوا كلكم عليه، في نهاية هذا الكشف وتحديدون، كل على انفراد، المبلغ والشخص الذي أعطاه، ولأى سبب أعطاه لكم، والوقت الذي قضيتموه في الميناء الذي تبحرون منه. ويجب أن ترسلوا إلى المجلس نسخة،

موقعة بأسمائكم وموقعة من الكاتب المذكور، من كل كشوفات العملات المرباطية والذهب والفضة والجواهر والنفائس وأى شىء حصلتم عليه من أجل الافتداء، ويجب تسجيلهم فى كتابكم. دون نسيان أى شىء، وذلك لكى يتم تسجيلهم فى الكتب الموجودة فى حوزة المفوض العام المذكور، والشخص الذى عينه المجلس، لكى تُعرف المبالغ التى دخلت إليكم من هذه الصدقات والوصايا.

وبالنسبة لاستخدام هذه المبالغ فى شراء البضائع وأشياء أخرى، يمكن حملها إلى مدينة تطوان أو إلى الأماكن الأخرى المشار إليها، كما حدث فى مراتٍ أخرى، لكى تتم مبادلتها وإرسالها إلى هؤلاء الأسرى، فإن هذا يبدو ضرره أكبر من نفعه، حيث أنهم لا يعرفون كيف يتصرفون فيها، ونظراً لتكلفتها العالية ولأسبابٍ أخرى، سيكون من الملائم عدم صرف هذه المبالغ على أى بضائع أو أشياء ولكن يُفضل حملها كلها فى صورة قطع نقدية من ثمانى أو أربع ريالات ولكن مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى هذه المناطق المذكورة يوجد نقص فى القلنسوات و الأحجار الكريمة والأقمشة الذهبية، ويمكنكم استخدام المبلغ الذى يناسبكم، فى مدينة طليطلة أو فى أماكن أخرى، إذا رأيتم أن ذلك يمكنه أن يدر بعض المكاسب. ويجب أن تكونوا موجودين كلكم مجتمعين، ليس واحداً دون الآخر، وأن يحدث كل هذا فى حضور الكاتب المذكور، لتوضيح كل ذلك. يجب أن يتم افتداء المسيحيين قبل كل شىء بالمبالغ المخصصة لهم، وبالنسبة للأفراد الموصى بهم، يجب أن تولوهم عناية وأن تنفذوا إرادة الأشخاص الذين قدموا لكم هذه الصدقات والوصايا. وبالنسبة للأشخاص الذين يحملون وصايا من أجل افتدائهم ممن ربما يكونوا قد ارتدوا، والرب لا يسمح بذلك، أو ماتوا، أو لم يستطيعوا التواجد للانتفاع بهذا الافتداء فيجب أن يسجل الكاتب ذلك، حتى يصل إلى الأشخاص الذين قدموا أموالهم من أجل هذا الهدف ويعرفون كيفية ارتداد هؤلاء أو وفاتهم أو عدم تواجدهم، وإرجاع أموالهم إليهم، إلا إذا سمحوا لكم بافتداء أسرى آخرين إذا لم تجدوا هؤلاء الأسرى، أو إذا ماتوا.

فى هاتين الحالتين يمكنكم أن توظفوا الأموال فى افتداء مسيحيين آخرين موجودين، أو أسرى آخرين، مع الأخذ فى الاعتبار أنه يفضل افتداء الأشخاص الأكثر احتياجاً، على أن يكونوا من مدينة أو قرية من أعطوكم هذه الصدقة.

وإذا لم تجدوا أسرى فى الأماكن السابقة فيجب أن تواصلوا افتداء أشخاص فقراء من أماكن قريبة من القرى الموجودة فيها هؤلاء الأشخاص الذين قدموا الصدقات المذكورة.

أما الأموال الباقية من الصدقات العامة المخصصة لهذا الافتداء، فيمكنكم توظيفها فى افتداء كل الأسرى الآخرين الذين تستطيعون افتداءهم، مع الأخذ فى الاعتبار أن يكون هؤلاء الأسرى من أصل ممالك قشتالة، ويُفضل أن يكونوا من الأطفال أو النساء على أن يكونوا من كبار السن، لوجود خطر أكبر عليهم، ويفضل كذلك من هم من أصل المكان الذى صدرت منه الصدقة على الذين ليسوا من نفس الأصل، وإذا كانت هناك توصية خاصة بافتداء بعض الأشخاص الأجانب، فيجب تنفيذ ذلك واحترام رغبة من يعطون الصدقات، ولا تُخرجوا الأسرى الذى تفتدوهم من بيوت مالكيهم إلا عند إبحار السفينة، فهم فى أمان عند مالكيهم. ويجب أن يتم افتداء هؤلاء الأسرى فى حضور الكاتب، وأن يشهد عليه، وأن يُسجل الأشخاص الذين يتم افتداؤهم والعلامات الموجودة فيهم ويسجل أصلهم ومن يكون أبناؤهم... وضمن افتدائهم والمكان الذى أسروا منه والزمن الذى ظلوا فيه أسرى ويتم توضيح ذلك ويسجل فى هذه الشهادة، ويوقعها رجال الدين المذكورين، ويجب أن يُحضر كل شيء مسجلاً لكى يتم إثبات كل ما هو موجود فى الكتاب، وحاولوا ألا تكون التوصية التى تحملونها لافتداء أسير ما مفهومة، فإذا علم المسلمون بالتوصية فسيرفعون ثمن افتداء الأسير وسيدعون أن هؤلاء الأسرى مدينون، واعلموا أن من المعتاد أن تكون هناك قضايا تثار فى لحظة إبحار السفينة وأن الإبحار قد تأخر فى بعض الأحيان بسبب ذلك، ويجب أن تتحدثوا مع الملك حتى لا يسمح أو يقبل أن يستدين هؤلاء الأسرى الذين تم افتداؤهم بالفعل أو أن يبيع لهم أحد شيئاً كدين. وعند دخولكم أرض المسلمين، مع المال والأشياء التى تحملونها، يمكن أن يحدث لكم ضرر أو خطر، ولتفادى ذلك ولتنفيذ الافتداء بصورة أفضل، يجب أن يبقى أحدكم، مع كل هذه الأشياء، فى الموانئ والأماكن التى تقومون فيها بهذا الافتداء، وأن يذهب الآخر مع الكاتب إلى الأماكن المشار إليها أو إلى أقاليمها الأخرى، وأن يقوم بافتداء الأسرى وأن يبعث لمن يبقى فى سببته أمر صرف الأسعار التى يتكلفها الافتداء، موقَّعاً باسمه وباسم الكاتب المذكور،

ويقبلها هذا الشخص ويدفعها ويسجل حساب ذلك فى كتابٍ يبقى فى حوزته، ويسجل ذلك أيضاً من يذهب للقيام بهذا الافتداء أمام الكاتب الذى يشهد على ذلك.

وبالنسبة لطريقة وشكل تحدثكم مع الملك أو مع كل الباقيين الذين تتعاملون معهم فى الفنادق، نوصيكم بالحذر والانتباه اللازم لكى تتفادوا خبث ومكر المسلمين، حتى لا يصيبكم من ذلك أى ضرر أو عائق. وعند الإنتهاء من هذا الافتداء، احضروا الأسرى الذين تم افتداؤهم إلى الميناء حيث يجب عليهم أن يصعدوا الى السفينة، وفيها يجب أن تعيدوا عمل قائمة بهم، وتضعوها فى الكتاب المذكور بعد صعودهم، وأن يشهد على ذلك الكاتب، ويجب أن تسجلوا اسم وأصل كل أسير وكم تكلف افتداؤه وبأى الأموال تم افتداؤه، وذلك فى الميناء الذى تصلون إليه فى هذه الممالك، وعندما تقومون بذلك اتركوا كل واحد يذهب بحرية واحضروا إلى مجلسنا، فى غضون ثلاثين يوماً بعد نزولكم من السفينة، للحساب و النظر فيما قمتم به، وفى التكاليف التى أنفقتموها خلال هذا الافتداء، وعليكم تسجيل ما تنفقونه على أنفسكم وكذلك كل باقى المصاريف، على أن تكون معتدلة، ويُسجل هذا فى كتاب آخر لكى نعرف المصروفات التى أنفقتموها وفى أى الأشياء صرفت. وبالنسبة لكل العملات المرابطية التى كانت فى حوزتكم أو وصلتكم عن طريق التوصيات أو عن طريق الصدقات، والتى حصلتكم عليها فى وجود ألونسو دى كاريون كاتب هذا الافتداء قبل صعودكم السفينة للقيام بهذه الرحلة، فيجب أن تسجلوا كل هذا فى كتاب الافتداء وترسلوه الى ماركوس دى برادو، وأن تفيدوه عما استلمتموه وحصلتم عليه لكى يوضع ويسجل فى الكتب التى تظل فى حوزة رئيس إقليم الرهبانية والشخص الذى عينه المجلس. كتبت هذه التعليمات فى مدريد فى اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ألف وستمائة وأربعة وأربعين، بأمر أعضاء المجلس، ماركوس دى برادو وبيلاسكو.

إن ما سبق نقله تم نقله بصورة صحيحة وأكيدة تتفق مع الأصل الذى أخذتها منه، أنا ألونسو دى كاريون، كاتب عظمة الملك وهذا الافتداء، وقد قمت بتصحيحه والتأكد من تطابقه. لقد تم نقل ما سبق بصورة صحيحة وفى التعليمات الأصلية يوجد توقيع، كما يظهر، لبعض أعضاء المجلس، وقد أعدتها إلى الأب الراهب خوسيه دى توليدو، المفتدى الذى سلمنى إياها وشهدت على ذلك ووقعت فى مدينة إشبيلية فى

اليوم السابع من شهر مارس عام الف و ستمائة و خمسة و أربعين، فى وجود الشهود: ماتياس دى بايخو و ثيليدونيو دياث، المقيمين فى هذه المدينة. يشهد على ذلك: ألونسو دى كاريون (توقيع).

ثورة فى تطوان

فى الثلث الأخير من عام ١٦٣٥، بالتحديد فى ٢٥ أكتوبر من ذلك العام، وصل إلى سبتة رهبان جمعية مريم العذراء: الراهب ديبغو دى بيلاسكو والراهب بالتاسار دى فيغيروا، أصحابهم كاتب الملك، خوان بيلتران دى نانكلاريس. كانوا يشكلون المجموعة الرئيسية من المفتدين الذين كانوا يرغبون فى تنفيذ عملهم وهو افتداء أكبر عدد ممكن من المسيحيين، المقبوض عليهم كعبيد فى تطوان. فى ٣٠ أكتوبر خرجوا من سبتة متوجهين إلى تطوان ووصلوا إليها فى نفس اليوم. ليس هدفنا التوقف، ولا حتى عند الخطوط العريضة، فى عمل الافتداء فى حد ذاته الذى يشغل أكثر من ١٠٠ صفحة من المخطوط رقم ٣٦٢٨ من مكتبة مدريد الوطنية. ما سوف نحاول عرضه، ونقله حرفياً هو عدة صفحات، الصفحات الأخيرة من المخطوط المذكور، الذى يظهر فيه أحد الأحداث التاريخية المهمة لذلك الزمن ولذلك البلد، ولكنه يشكل صفحة مجهولة فى تفاصيله، جديرة بالنشر، للمعرفة الصحيحة لتاريخ المغرب بوجه عام، وتاريخ تطوان، بوجه خاص.

نلخص، فى سطور قليلة، الموقف السياسى المغربى لهذه اللحظة، لكى نفهم الأحداث التى نرويها بصورة أفضل. كان هناك، بالإضافة إلى سلطان فاس و سلطان مراكش، طامعون فى العرش ذوو صفات سياسية دينية، و يتنافسون على التأثير والسلطة. قام واحد منهم، العياشى، Al Ayasi - الذى جذب عدة أنصار إلى "الجهاد" أو الحرب المقدسة ضد الحدود - بالسيطرة على منطقة كبيرة من الأرض، التى يوجد بها الجزء الأكبر من الشمال المغربى. ومع ذلك لم تشأ مدينة تطوان، التى تحكمها عائلة النقسيس، أن تخضع له. حينئذ حاك المرابط، كما كانوا يسمونه أيضاً، مؤامرة

مع معارض النقسيس السياسى، داخل تطوان نفسها، ومع قائد جبل حبيب أو الخاروب، الذى كان يمكنه أن يسهم بقوة عسكرية من عدة آلاف محارب.

واستطاع كل من ابن على، العدو الرئيسى لعائلة النقسيس، من داخل البلد، وسليمان كاديمى، قائد خاروب، من خارج البلد، مع تسعة آلاف محارب، أن يجعلوا عائلة النقسيس تهرب إلى سبتة، حدث ذلك فى نهايات أو فى الثلث الأخير من عام ١٦٣١. ومنذ ذلك التاريخ، أبقى كل من أبو على أو ابن على مساعد الم رابط، وسليمان كاديمى، القائد العام، السلطة فى ملك الم رابط. وبهذه الطريقة كانت موارد الشمال تحت تصرف العياشى لى يستمر فى مهاجمة الحدود المسيحية الموجودة فى أيدي المملكة الإسبانية.

يخبرنا السيد فرناندو دى مينيثيس، فى كتابه "تاريخ طنجة"، المنشور فى لشبونة فى عام ١٧٣٢، أن الم رابط شن هجوماً فى عام ١٦٣٢ ضد سكان طنجة، وفى هذا الهجوم شارك ٤٠٠ جندي من حملة البنادق من تطوان، والذين كان لهم شهرة كقناصين جيدين. إن الموريسكيين الذين حاول العياشى استمالتهم فى بداية طريقة السياسى لم يكونوا يطيعوه، ربما بلا تبصر كما يرغب "المجاهد"، فهم لم يعارضوا أوامره فى مناسبات متعددة فحسب، بل وضعوا أنفسهم فى مواجهته علناً. ولذلك فإن الم رابط لم يتمتع فى تطوان، البلد التى كان أكثر سكانها من الموريسكيين، بتعاطف كبير، وإذا كان بعض الموريسكيين ضد عائلة النقسيس، فلم يكونوا يرغبون أيضاً فى سيطرة العياشى.

وفى المدن التى تعمل بالقرصنة، مثل تطوان، كانت الأمور تتعقد بسبب تقسيم الثروات التى تجلبها القرصنة. كانت السلطات تجمع العبيد، وبالتالي تجمع ثروات كبيرة، وكانت تطلب من المفتدين، الذين يصلون مع أموالهم، أن يفتدوا أولاً وإجبارياً أسراهم، على حساب العديد من المدنيين الذين كانوا يرون تبخر الثروات التى يجلبها رجال الدين المفتدون، فى أيدٍ قليلة. إن هذا، إلى جانب الاستياء السياسى، سوف يكون سبباً فى حدوث ثورة مدنية فى تطوان سوف يشهد عليها ويكون بطلاً إجبارياً فيها كل من الراهب ديفغو دى بيلاسكو وخوان بيلتران دى نانكلاريس، الكاتب، الذى سيشهد

على الأحداث، دون أن يعرف، بالطبع، أنه شخصية مهمة في إحدى الصفحات التاريخية. تلك هي الرواية التي نقدمها والموجودة في الصفحات من ١٠ إلى ظهر الورقة ١٠٦ من المخطوط المذكور رقم ٣٦٢٨ من مكتبة مدريد الوطنية:

المساعي التي نفذها في مدينة تطوان، الأب ديفغو دي بيلاسكو، مفتدى مقاطعة قشتالة، في فترة الافتداء الذي قام به في شهر ديسمبر من العام الحالي ألف وستمئة وخمسة وثلاثين.

في مدينة تطوان في اليوم الواحد والثلاثين من شهر أكتوبر عام ألف وستمئة وخمسة وثلاثين، دخل في هذه المدينة الأب الراهب ديفغو دي بيلاسكو، مفتدى مقاطعة قشتالة والراهب بالتاسار دي فيغيروا، وهو كذلك مفتدى مقاطعة أندلوثيا، لمناقشة أمر افتداء المسيحيين الموجودين كأسرى في هذه المدينة.

في هذه المدينة في اليوم الثالث من شهر نوفمبر من هذا العام، زار الآباء المفتدون السادة الحكام ومسئولى حكومة هذه المدينة وطلبوا مذكرات الأسرى وملاك العبيد، وبعد إحضارها، رأوا أن هناك ما يقرب من ستمئة أسير موجودين في فاس وسلا وأماكن أخرى. في هذه المدينة في اليوم الثامن من نوفمبر عام ألف وستمئة وخمس وثلاثين، قام الآباء المفتدون، في حضور الحكام، بزيارة التجار الأساسيين لهذه المدينة، للتحديث عن أسعار الافتداء، وبعد الكثير من المناقشات والاختلافات حول هذا الموضوع مع الأب الراهب ديفغو دي بيلاسكو، اتفق معهم أن القلنسوات لا يجب أن يقل ثمن الدسنة منها عن مبلغ ١٢٠ ريال، وهكذا أيضاً اتفق الأب بيلاسكو المذكور مع التجار المسلمين على //نهاية الورقة ١٠١// أن يكون ثمن الرطل تسعين ريالاً دون أن يلتزم مالكو العبيد بالبيع بهذا السعر، وكذلك اتفق على سعر أقمشة قرطبة والأقمشة الأخرى التي أحضرها كمقابل للافتداء. وبعد رؤية الألوان والإعلان عن شرائهم لكثرتهم ولرخص الأسعار عرضوا سعر ٢٢ ريالاً فأقل لأقمشة قرطبة وعُرضت الأقمشة من سيفوبيا بسعر ٥٠ ريالاً للمتر. وعُرضت الأقمشة من بايثا حتى سعر ٣٣ ريالاً للمتر ولم يضعوا سعراً لأقمشة إنجلترا لأن أحداً لا يرغب فيها وليس لها سعر في هذه المدينة، وهكذا تحددت الأسعار على النحو المذكور.

فى اليوم التاسع من نفس الشهر ذهب الآباء المفتدون، فى صحبة خوان بيلتران دى نانكلاريس، كاتب الافتداء، إلى منزل الحكام للتفاوض //نهاية ظهر الصفحة ١٠١// على بيع المسيحيين ورؤية المذكرات، وعرضوا على ابراهيم بن على، مساعد المرابط، ثلاثين مسيحياً تابعين للمرابط ولإبراهيم بن على المذكور وثمانية مسيحيين تابعين لسى لاتشى غوالى وعشرة تابعين لسليمان قاديمى، القائد العام، ووجدت اختلافات كبيرة فى ثمانية أيام حول الاعتدال فى السعر، نظراً لقصر مدة الافتداء ولوجود الكثير من الأسرى، وبالرغم من وجود اختلافات كبيرة حول ذلك أصر الآباء على الرغبة فى إتمام الافتداء والعودة، و لم يكف هذا لكى يعدل الحكام عن رغبتهم، وقالوا إنه من العادة القديمة افتداء أسرى الحكام قبل أى أسرى آخرين، سواء كانوا قليلين أو كثيرين، كما كان يفعل عبد الله النقسيس وآخرون كانوا حكماً قبل ذلك. وبعد عشرة أيام من هذه الخلافات، اتفقوا على أن يشتروا من المرابط و الحاكم خمسة وعشرين أسيراً بالإضافة إلى ثمانية موجودين بين الأسرى، وبعد التشاجر كثيراً فى هذه النقطة، اتفق الأب بيلاسكو، الذى قام بالتسوية، على أن يدخل اثنان فقط من المُرحب بهم (*) bienvenidos // نهاية الصفحة ١٠٢// وقد رأى الحاكم سليمان قاديمى من ناحيته أن يعطى ثمانية أسرى من جانبه، بشرط عدم دخول أى "مُرحب به" bienvenido، سواء فرنسى أو انجليزى، ورأى الحاج بوعلى أن يدخل سبعة أسرى، بشرط عدم دخول أى "مُرحب به" bienvenido فرنسى أو انجليزى. وهكذا أيضاً مع سيدى على سوريا، سكرتير حكومة هذه البلد، الذى رأى أن يعطى ستة أسرى وتم تنفيذ اتفاقيات هؤلاء السابقين. وهكذا طلبوا من الآباء المفتدين أن يفتدوا باقى الأسرى من سكان المدينة وعدم شراء أى أجنبى، هكذا من الذين وصلوا من الجزائر (العاصمة) فى سفينة كالذين وصلوا من سلا. ورد الآباء المفتدون على ذلك، أنه بين الأجانب يوجد البعض من الذين يطلبهم دير إشبيلية، ورد الحكام على ذلك ومن جديد نفوا قدرتهم على بيعهم. ورأى الآباء المفتدون أن هذا المنع يعارض الحرية التى

(*) من الواضح أن "المرحب به" شخص مسيحى يتمتع بنوع من الأسر يختلف عن الأسير العادى. نحن نجهل التفاصيل ونأمل أن يفيدنا المتخصصون عن هذا الموضوع الذى لم يتحدث عنه أحد كثيراً. (المراجع)

يتضمنها التأمين فيما يخص //نهاية ظهر الصفحة ١٠٢// شراء الأشخاص الذين يريدونهم الآباء المفتدون، ولذلك تظلموا مرة أخرى من الإجبار الذي يتعرضون له ، وطلبوا أن يصدر أمر يمكنهم من شراء من يريدون من الأسرى وحاولوا شراء بعض الأسرى من كارسول دي مورتا، وفي اليوم الثامن عشر من نفس الشهر ثارت المدينة واجتمع وجهاء المدينة، في منزل سى براهيم بن على، وهو واحد من الحكام الذي اشتكى من أن هذا الافتداء كان فقط من أجل هؤلاء الحكام وليس أكثر من ذلك، وطلبوا أن يتم الاتفاق بحيث يستفيد عوام الناس من عملية الافتداء، وحدث صخب كبير، وهكذا اتفق الآباء المفتدون والكاتب على أن يرسلوا على مالدونادو - وهو من أبناء هذه المدينة - إلى الم رابط لإتمام الاتفاق وإخراج الأسرى من المدينة.

في نفس اليوم رحل الراهب فيغيروا غاضباً إلى سبتة، واصطحب معه السيد بدرو خيرون الأسير، دون إذن من مالكة، وترك داميان لوبيث، على أبواب هذه المدينة.

طلب الكاتب إذنًا من الحاكم لكي يذهب الأب بيلاسكو إلى سبتة، وقد طلب ذلك الإذن لتأمينه، لأنه كان يعرف الخطر الذي يتعرض له هذا الأسير المهم عند خروجه من هذه المدينة، هو وآخرون. وبعدها قليل، وبعدها رأى مالك العبد //نهاية الورقة ١٠٣// - وهو السيد، بدرو خيرون- أنه خرج دون إذنه وإذن حكومته، وأنه يمكن أن يُفقد، حاول إعادته، إلى جانب الأب الآخر، بعدما وصل أمر من سليمان قاديمي، القائد العام، بعدم قبول خروج الرهبان إلى سبتة، ونظراً للمشاكل التي مروا بها، والتي لم يعلم بها الأب الراهب ديفغو بيلاسكو، فقد ذهب لمقابلة الحكام - الحاج بن على وسيدى بن على- واستصدر قراراً بإلغاء الأمر السابق والسماح بخروج الرهبان تجنباً للأضرار التي قد تلحق بهم.

في الثاني والعشرين من نفس الشهر، عاد على مالدونادو، ومعه رد الم رابط، الذي أمر فيه بالاهتمام بأن يبيع سكان تلك المدينة أسراهم أولاً قبل أسراه وأسرى باقى الحكام، وهكذا رد الم رابط على الأب بيلاسكو، على رسالة كتبها له، حيث طلب منه أن يقدم له معروف إعطاء الحرية للرقيب نيكولاس بيرنال، بكل اللطف، وأمر الحكام أن يعاملوه معاملة حسنة ويعطوه إذن مرور.

وبعد ما سبق، وبعد أن رأى هؤلاء الحكام رسالة المرباط التي يطلب فيها شراء بعض العبيد من السكان //نهاية الصفحة ١٠٣// قرروا - من حيث المبدأ - عدم تخفيض مبلغ الفداء، وبعد النظر في الحل السابق فإن الأب بيلاسكو، في صحبة الأب رئيس دير جبل طارق، والكاتب و موثين بينيتاي، اليهودي، الذي كان يعمل مترجماً في هذا الفداء، ذهب إلى الحاكم، سليمان قادي، ووصف له الأضرار التي تعرض لها في هذا الفداء وأنهم خالفوا كل شيء في التأمينات التي أعطاه لها لكي يدخل و يقوم بالفداء، أو يتركوه يعود إلى سبتة، مع رفقائه، دون القيام بالفداء أو أن يحملوه إلى المرباط، مع الحماية الضرورية، فكان من الممكن أن يكون راضياً، إذا حدث أي من هذه الأمور الثلاثة، وأنهم خالفوا كل ذلك فليسمحوا له بالخروج دون اتفاق أو الذهاب إلى سبتة أو أن يذهبوا به إلى المرباط تحت الحماية الضرورية وأنه سيكون سعيداً بتنفيذ أحد هذه المطالب الثلاثة، ولما قال الراهب ديفغو دي بيلاسكو - في وجود الكاتب - كل ذلك للحاكم طلب منه أن يعدل عن هذا الاقتراح وأنه سيحاول أن يعالج //نهاية صفحة ١٠٤// الأمور.

في الأيام الثلاثة التالية، كان سكان المدينة يتفاوضون حول شراء هؤلاء الأسرى وأن يتمتع الجميع بفوائد الفداء، و ضغطوا على الأب بيلاسكو بكل السبل لكي يتخلى عن بعض الأسرى الذين افتداهم لكي يشتري أسرى من السكان.

دافع الأب عن نفسه بشدة وقال للشعب إنه لا يستطيع ترك توصياته. كان الأسرى المفتدون من الحكام والقادة حوالى خمسين أسيراً، وقد أعطوه أسرى في حالة سيئة و غير مفيدين و لهذا فليس بإمكانه الاستجابة لطلبات السكان. ولما اقتنع السكان بالحجج القوية التي ذكرها الأب بيلاسكو تجمعوا للحديث مع سليمان قادي، الحاكم والقائد العام لكي يتخذ قراراً بتنفيذ طلباتهم خلال نصف ساعة و قد سيطر السكان على الشارع و تسلل أربعة رجال إلى بيته و قتلوه طعنًا بالخناجر، ثم توجهوا إلى بيت الحاكم الثاني إبراهيم بن علي لكي يفعلوا نفس الشيء.

بعدما جرح هذا الحاكم أحد وجهاء المسلمين، عند دخوله المنزل، هرب من سطح منزله ودافع عن رجل أندلسي حتى لا يقتلوه وبهذا هاجت المدينة كلها و ماجت.

فى اليوم التالى تجمعت كل المدينة، وهى مسلحة، فى المعسكر واستدعوا عشرين حاكماً، وبذلك أعلنوا طاعتهم للمرابط.

فى ذلك اليوم أرسل الحكام رسالة إلى الأب بيلاسكو يقولون له فيها ألا ينزعج من الأحداث المذكورة لأن اتفاقية الافتداء بالشكل الذى تم التوصل إليه قبل اندلاع الأحداث//نهاية صفحة ١٠٥// ستنفذ كما هى لأن المدينة تحتاج إلى تنفيذ الاتفاقية والحصول على الأموال لدفع رواتب الجند، ورغم أن الأب بيلاسكو قد تناقش معهم من أجل افتداء بعض الأسرى الموصى عليهم إلا إن ذلك لم يكن ممكناً ولم يتركوه يخرج من المدينة لا راجلاً ولا راكباً ولا تركوا له فرصة لكى يكتب إلى قائد سبته لكى يعالج الموضوع.

فى يوم ٣ ديسمبر من نفس العام، دخل أمى ديل مورال، القاتل الرئيسى، إلى حجرة الأب بيلاسكو والكاتب التى كانوا ينامون فيها، ومعه آخرين مسلحين، وطلبوا افتداء أسراهم. ورد الأب //نهاية ظهر الصفحة رقم ١٠٥// بيلاسكو أنه مر على الافتداء خمسة عشر يوماً وأنه ليس لديه أى مال أو بضائع لافتداء أسرى آخرين. رد عليه بأنه لن يخرج أى أسير من تطوان حياً، إذا لم يوقع له على وثيقته، ولهذا أجبر الأب بيلاسكو على توقيعها.

فى يوم ٦ ديسمبر من نفس العام، عندما رأى الأب بيلاسكو، مع الأب رئيس دير جبل طارق والكاتب، أنه لا يمكن إعادة النظر فى الافتداء فى أى شىء، وأنهم لن يسمحوا لهم بالخروج بأى شكل واتفقوا على تقديم طلب لدى خروجهم والوعد بإتمام اتفاق الافتداء بالشكل الذى يراود منهم. وكان فصل الشتاء قد دخل وكانت المدينة مضطربة تنتظر المرباط والعرب لعدة ساعات وقد قرروا أن يخرج عن طريق النهر والبحر حتى لا يقابلنا أعداء فى الطرق البرية فنخسر.

فى ٨ من نفس الشهر، وصلنا إلى سبته مع عشرين أسيراً، وقد حدثت له كُرب كثيرة، ولذلك فرح سكان سبته برؤية الآباء والرفقاء فى أرض المسيحيين لأنهم عرفوا الصراعات الكبيرة التى واجهوها.

أشهد أنا، خوان بيلتران دى نانكلاريس، كاتب جلالة الملك و هذا الافتداء، على أن كل ما حُكى فى هذه الورقات الست حقيقى و مؤكد، و لكى أثبت ذلك، و بطلب من الأب بيلاسكو، أعطيت هذه الشهادة فى مدينة تطوان، فى ٨ من شهر ديسمبر عام ألف وستمائة و خمس و ثلاثين، خوان بيلتران دى نانكلاريس، توقيع.

من المهم أن نركز اهتمامنا فى المعلومات التى قدمتها لنا التحقيقات التى وقعها بيلتران دى نانكلاريس فى تطوان، فى شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٦٣٥ . كان أحد اهتمامات الرهبان الأولى هو طلب بيانات الأسرى وأسيادهم، أى قائمة المسيحيين مع أسيادهم، ويفترض أنه يقدم مع ذلك، بعض البيانات الأخرى، كالنوع والعمر وغير ذلك، لأن هذا يمكنه أن يفيد الرهبان فى أن يجدوا من بينهم من يهتمهم. كان المفتدون يحضرون أموالاً مخصصة بالتحديد لأسرى بعينهم، وكان يطلق على هذه المبالغ وصف "مساعدات".

وكذلك كانت هذه البيانات عن النوع والعمر تساعد فى الحالات الضرورية لتفصيل من يتم افتداؤه. فى المذكرات التى عرضوها على الآباء المفتدين، فى عام ١٦٣٥، لم يتم تفصيل شىء، فقد كانت تشير فقط إلى وجود ما يقرب من ستمائة أسير. وهو عدد أكبر بكثير، دون شك، من الذى كان الراهب ديفو دى بيلاسكو ورفيقه يستطيعان تحريره وعلى ضوء ذلك بالتأكيد كان رجال الدين يمكنهم اختيار البضاعة التى يحملونها معهم بشكل مناسب.

كان هناك ٦٠٠ أسير من فاس وسلا ومن أماكن أخرى، الأمر الذى يشير إلى أن تطوان كانت سوقاً مركزياً للعبيد، حيث يمكن أن يرد إليها أسرى من مناطق أخرى.

كانت المهارات التى كانت لدى الراهب ديفو دى بيلاسكو غير عادية، وقد مارسها لكى يضع أسعاراً للبضائع التى كانوا يحملونها، وتقضى بدفع جزء من قيمة الافتداء. كان يمكن أن يُطلب منهم رسمياً أن يكون ثلثا الافتداء فى صورة عينية والثلث الآخر فى صورة عملة، ليس هدفنا توضيح هذا الجانب فى عملية الافتداء، ولكننا فقط نشير إلى أن المفتدين كانوا يحصلون على مكاسب جوهريّة، من فارق

السعر الذى كانوا يشترون به المواد فى إسبانيا وذلك السعر الذى كانوا يبيعونها به فى شمال إفريقيا. ومع ذلك، نظن أن سكان شمال إفريقيا، الذين يفهمون ذلك جيداً، كانوا يرفعون أسعارهم حيث كانوا يأخذون هذه الظروف فى اعتبارهم.

كانت مدن القرصنة تعيش فعلياً من القرصنة ومن التجارة البسيطة التى تسمح لهم بالعيش. تشكلت الخطوة التالية، بعد تحديد أسعار البضائع، فى الوصول إلى اتفاق على الأسرى "الإجباريين"، وهم هؤلاء الأسرى الذين تفرضهم السلطات. فى المقام الأول كان عددهم يقلل من احتمالات تحرير هؤلاء الذين تخصصت لهم أموال بالفعل لافتدائهم وتحرير عامة العبيد من الموجودين فى تطوان، ذلك أن هذا العدد كان ينفق الجزء الأكبر من الممتلكات (هذا العام ارتفع عدد الأسرى إلى ٤٨).

كانت هناك مناقشات، بالمثل، على وجود عدد من "الموجودين" أو "المرحب بهم" bi-envenidos غير المرغوب فيهم (*). داخل هذه الحصص الإجبارية، وكان عددهم كبيراً فى كل وقت، وكذلك كان هناك عدد من الأجانب غير المرغوب فيهم، الأمر الذى كان يتعدى على حقوق الأسرى الإسبان.

ولكن على عكس أعوام أخرى، فمن الغريب أن الآباء المفتدين كانوا يُحضرون توصيات لافتداء الأجانب، ولذلك اعترضوا على عدم حرية الشراء التى يتضمنها التأمين.

وصلت هذه المفاوضات، بشكلٍ ما، إلى المواطنين، بالأخص إلى هؤلاء المهتمين بعمليات شراء وبيع العبيد، و الذين كانوا مستائين من عدم وصول فائدة البضائع والأموال إليهم، كانوا يشتكون من اقتصار الافتداء على الحكام فقط.

(*) ليس هناك تناقض فى النص، فهم "مرحب بهم" من قبل المغاربة، و"غير مرغوب فيهم" أى غير مرغوب فى تحريرهم من قبل الإسبان، ربما لأن وضعهم يختلف. هذا ما يمكن أن توضحه لنا دراسات المتخصصين. (المراجع)

ولأن هؤلاء الحكام كانوا يحكمون المنطقة باسم العياشى، فقد أرسلوا له أحد المورييسكيين لى يحاول التدخل فى القضية.

إن الرسالة و الرسول يعنيان تبعية الشعب والحكام لسلطة المرابط، وهو الأمر الذى زاد من الاستياء.

يُظهر قرار القائد ومعارضة الراهب كم كان يجب على رجل الدين أن يحارب لى يقوم بعمله بنجاح، فصبر الآباء المفتدين كان موضع اختبار طوال فترة الرحلة.

إن مواجهة أشخاص من أماكن مختلفة، وموجودين فى مناصب أعلى من وسطهم الاجتماعى و الدفاع عن مصالح اقتصادية، كل ذلك كان يتطلب قوة تحمل تدعمها القيم الأخلاقية و الدينية.

إن تحمل الأحداث، كالتى سنرويها فى الحال فى النص، قد أوضحت وجود حالة من الشجاعة غير معتادة. لم يكن الجميع يعرفون أو يستطيعون احتواء اندفاعهم. تم الإشارة فى هذه المساعى إلى أن أحد المفتدين رحل إلى سبتة، غاضباً، وترك زملاء المشاق فى وضع غير مريح.

نستطيع أن نناقش الآن - كما نوقش سابقاً- جدول عمليات الافتداء، لكننا لا يمكن أن نستهيىن أبداً بشجاعة الرجال الذين كانوا يقومون بعمليات الافتداء.

وثيقة محمد النقسيس

نفلق هذه السلسلة من الصفحات التاريخية بتأمين منحه واحد من آخر أفراد عائلة النقسيس التطوانيين، محمد بن عيسى. يظهر التأمين فى الصفحة رقم ٢١ من المخطوط، المسجل تحت رقم "Cod. Libr. 134B" من أرشيف مدريد التاريخى القومى. لقد عرضنا ما نعرفه عن محمد النقسيس فى هذه الدراسة، داخل التسلسل الزمنى المخصص له. هو ابن عيسى بن أحمد، وحفيد المقدم الأكبر أحمد النقسيس، وكان، وفقاً لداوود، أول حاكم مستقل لتطوان بالمفهوم الواسع. لم يكن مستقلاً بشكل كامل،

هذا ما نفهمه على الأقل من الألقاب التي كان يحملها و التي تُذكر في جواز المرور. مع ذلك، فمن الممكن أنه كان كذلك في الواقع ولم يكن أبو بكر، سيد ديلا، يحكم في تطوان مباشرة.

لم يكن محمد النقسيس حاكماً لتطوان وقائداً عاماً فقط، لكنه كان يستأثر بالسيادة على قبائل الشمال المغربي.

يحتمل أن تحوى هذه التسمية شيئاً من الحقيقة عندما استطاع أن يجمع جيشاً صغيراً من ٩٠٠ فارس والكثير من جنود المشاة وذهب به إلى طنجة عام ١٦٤٧، وفقاً لما يقوله الكاتب فرناندو دي مينيثيس في كتابه "تاريخ طنجة".

يدخل محتوى التأمين، الذي وقعه الموريسكي راميريث باسم محمد النقسيس، داخل نموذج نمطي، كما يمكننا إثباته بالنص الذي أعدنا تقديمه، والخاص بوالد وأعمام هذا النقسيس، في عام ١٦٢٥ .

كان يقدم لرجال الدين الذين كانوا يذهبون إلى تطوان للافتداء، كل الضمانات والتأمينات. كانت تنفذ أحياناً، وأحياناً أخرى لم تكن تنفذ. والسبب في هذا هو أن الكل، حاكماً ومدنيين، كانوا ينتظرون الافتداءات للتخفيف من حدة الأحوال الاقتصادية السيئة، ولأن الأموال التي يحملها الرهبان لم تكن تغطي احتياجات الكل.

المقدم محمد بن عيسى النقسيس، القائد العام وحاكم مدينة تطوان ونواحيها، سيد قبائل حابيت، بفضل سيدي محمد الحاج بن بكر، القائم على مسجد إيديالا المقدس وأراضيه، عاهل مملكة فاس وكل أقاليمها، حفظه الله طويلاً.

أعطى تأميناً للآباء: الراهب مارتين غاليندو ولكل من في صحبته من جمعية الثالوث المقدس، لكي يستطيعوا القدوم إلى مدينة تطوان هذه، للتعاقد والتفاوض في الالتزام الذي لديهم لافتداء الأسرى، وهكذا، يمكنهم التواجد في مدينة تطوان خلال كل الفترة التي يرغبون فيها وكذلك العودة إلى مدينة سبتة، على ألا يتم الافتداء في حالة عدم الاتفاق، وللآباء الرهبان افتداء من يرغبون فيهم من سكان هذه المدينة أو من أي مكان آخر، دون أن يكونوا ملزمين بحمل أي شخصية إلا الأسرى الذين يريد الآباء

افتداءهم، و للآباء حرية الذهاب إلى مدينة سبته والعودة منها كلما شاءوا ذلك دون أن يتعرض لهم أحد بسوء، بل ستقدم لهم كل أنواع الرعاية التي قُدمت لهم دائماً، وأتعهد أن ألتزم بذلك و لهذا أمرتُ بإصدار جواز المرور هذا، وقد وقَّعته باسمي بأحرف عربية في العاشر- بل في الثاني عشر- من شهر نوفمبر عام ألف ستمائة وستة و أربعين. سيد محمد بن عيسى النقسييس. بأمر من السيد الموقع أعلاه، على راميريث.

أشكال و صور الكتاب

- شكل (أ) ص ١٠٠: افتداء عام ١٥٢٣
- شكل (ب) ص ١٢٢: مقبرة اليهود الغرناطيين من النصف الأول للقرن السادس عشر فى القصر الكبير (صورة الكاتب).
- شكل (ج) ص ١٢٣: مقبرة اليهود الغرناطيين فى القصر الكبير من النصف الأول للقرن السادس عشر (صورة الكاتب).
- شكل (د) ص ١٢٥: مقبرة أحد الإسبان اليهود من القرن السادس عشر، فى مدافن كاستييا فى تطوان.
- (صورة الكاتب).
- شكل (هـ) ص ١٣٩: مقابر اليهود من القرن السابع عشر فى جبانة كاستييا فى تطوان (صورة الكاتب).
- شكل (و) ص ١٥٣: شكل الصحن الأوسط. يوجد فى المنتصف سلم مهيا للهبوط.
- شكل (ز) ص ١٥٣: يُستنتج من هذه الصورة أبعاد السجون. نحصل مع الأقواس ذات الاتصال المنخفض على مقاومة كبرى فى الدعامات التى تسند القباب.
- شكل (ح) ص ١٥٤: خريطة شارع ميتامار.
- شكل (ط) ص ١٥٥: مخطط لسجون تطوان (مقياس ١ : ١٠٠).
- شكل (ى) ص ١٥٨: مدخل إلى كنيسة السجون، يُنظر إليه من المذبح الأكبر.
- شكل (ك) ص ١٦٠: المذبح الأكبر للسجون يُنظر إليه من باب المدخل.

شكل (ل) ص ١٦٣: المذبح الأكبر لكنيسة السجون (صورة موجودة في الأرشيف التصويرى فى مكتبة تطوان العامة).

صورة رقم (١) ص ١٨٦: عن خريطة لتطوان عام ١٨٦٠، المستطيل يشير إلى مدينة المندارى الأولية. ١ قصبة؛ ٢ سيدى مصباح؛ ٣ سيدى تبين؛ ٤ باب سيثة؛ ٥ باب سيده؛ ٦ باب عقلة؛ ٧ باب نوادر؛ ٨ القصبة؛ ٩ الجبانة.

صورة رقم (٢) ص ١٨٧: رسم للمكتبة العامة و أرشيف تطوان.

صورة رقم (٣) ص ١٨٨: الفدان.

صورة رقم (٤) ص ١٨٨: باب نوادر.

صورة رقم (٥) ص ١٩٠: باب رموز.

صورة رقم (٦) ص ١٩٠: مقبرة تبين.

صورة رقم (٧) ص ١٩١: قلعة المندارى

صورة رقم (٨) ص ١٩١: الأسوار التطوانية. وفقاً لبابون مالدونادو.

صورة رقم (٩ أ و ٩ ب) ص ١٩٣: لالا فريا.

صورة رقم (١٠) ص ١٩٣: جامع قصبة.

صورة رقم (١١) ص ١٩٣: شارع صغير يؤدي إلى مدخل بيت المندارى.

صورة رقم (١٢) ص ١٩٥: منارة جامع قصبة.

صورة رقم (١٣) ص ١٩٥: جامع ربطة.

صورة رقم (١٤) ص ١٩٥: جامع ربطة.

- صورة رقم (١٥) ص ١٩٥: يوسف الفاسى.
- صورة رقم (١٦) ص ١٩٦: الترنگات.
- صورة رقم (١٧) ص ١٩٦: سيدى سعدى.
- صورة رقم (١٨) ص ١٩٧: سيدى سعدى.
- صورة رقم (١٩) ص ١٩٧: أسوار و باب سعيدة.
- صورة رقم (٢٠) ص ١٩٨: جامع ميسيمدى.
- صورة رقم (٢١) ص ١٩٨: ميسيمدى.
- صورة رقم (٢٢) ص ١٩٨: جامع العيون.
- صورة رقم (٢٣) ص ١٩٨: العيون.
- صورة رقم (٢٤) ص ٢٠٠: جامع جديدة.
- صورة رقم (٢٥) ص ٢٠٠: سوق الفوقى.
- صورة رقم (٢٦) ص ٢٠١: القبور الأندلسية وفقاً لبابون مالدوتادو.
- صورة رقم (٢٧) ص ٢٠٢: منظر لتطوان.
- صورة رقم (٢٨) ص ٢٠٢: قبة أندلسية.
- صورة رقم (٢٩) ص ٢٠٣: أبواب المدينة (Nuader نوادر، Tut توت، Ramuz رموز، Ukla عقلة، Sa'lda سعيدة، Yiaf جياف، Maqablr مقابر).
- صورة رقم (٣٠) ص ٢٠٤: باب سبتة.
- صورة رقم (٣١) ص ٢٠٤: باب سبتة (من الداخل).
- صورة رقم (٣٢) ص ٢٠٥: باب جياف.

صورة رقم (٣٣) ص ٢٠٦: باب سيدة.
صورة رقم (٣٤) ص ٢٠٦: باب سيدة.
صورة رقم (٣٥) ص ٢٠٧: باب عقلة.
صورة رقم (٣٦) ص ٢٠٧: باب لونيتا.
صورة رقم (٣٧) ص ٢٠٩: باب رموز (من الداخل).
صورة رقم (٣٨) ص ٢٠٩: باب رموز (من الخارج).
صورة رقم (٣٩) ص ٢١٠: باب توت.
صورة رقم (٤٠) ص ٢١٠: باب توت.
صورة رقم (٤١) ص ٢١١: باب نوادر.
صورة رقم (٤٢) ص ٢١١: شارع العيون.

صورة رقم (٤٣) ص ٢٢٤: قبر المجاهد الكبير، بطل تطوان وحاكمها وزعيم مجاهديها، أبى العباس المقدم أحمد بن عيسى النقسي، وهو واقع فى القسم الأعلى من مقابر تطوان، فى سفح جبل درسة الواقع شمال المدينة وقد ظهرت فيه الحجرة التاريخية التى أثبتنا نص الكتابة التى عليها فى صفحة ٢٠١ من هذا الكتاب، و المقدم النقسي هو أكبر وأشهر حاكم تطوانى فى القرن الحادى عشر للهجرة. فلقد كان وطنيا غيوراً، ومجاهداً كبيراً، وبطلاً مغواراً وسياسياً محنكاً، وعهده - الذى كانت شمس الدولة السعودية فيه على أطراف النخيا - لم يكن فيه بالمغرب عاهل كبير قوى الشخصية واسع النفوذ، ممن يرضى أن يخضع له أمثال المقدم النقسي من كبار القادة الأبطال، وزعماء المجاهدين الأحرار، فلذلك تصدر أبو العباس

للرئاسة و الجهاد فى تطوان و نواحيها و كان موفقاً فى
أعماله ناجحاً فى سياسته و إدارته و جهاده رحمه الله.
وهذا المقدم، إليه تنسب زنقة المقدم التى بين السوق
الفوقى و الغرسة الكبيرة، و داره و دور أولاده هى التى
تحولت لمساكن الأشراف من آل وزان فى درب الشرفاء
بالزنقة المذكورة.

وفى مظهر الإهمال المؤسف البادى على قبر المقدم
النقسيى وأمثاله، عبرة لمن يعتبر من أصحاب السلطة
والجاه، والغرسة والجبروت، والبقاء والدوام لله سبحانه.

شكل رقم (٤٤) ص ٢٢٦:

شكل رقم (٤٥) ص ٢٦٩ و ٢٧٠: توقيعات أصلية لأولاد النقسيى فى: Mss. del:

. A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 34 r. y v.

المؤلف فى سطور :

غيرمو غوثاليس بوستو

- أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة.

- له العديد من الكتب والأبحاث حول تاريخ المغرب العربى وعلاقته بإسبانيا .

- شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية التى عقدت حول تاريخ العصور

الوسطى والموريسكيين .

المتريمة فى سطور :

مروة محمد إبراهيم

- ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير عام جيد جدا - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

- ماجستير فى أدب أمريكا اللاتينية عام ٢٠٠٢ .

- دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (كلية الألسن ، جامعة عين شمس)

عام ٢٠٠٥

المراجع فى سطور :

جمال عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف - كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر (١٩٧٩).
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا و مدريد.
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإشباني والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهور باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إقيتش	سعد مصلوح ووقاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان فولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١- مختارات شعرية	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عقيقي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يأشرف أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيوردج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	يأشرف: جابر عصفور
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهور باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيرة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتايفو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ديننا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعى	ب. توفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	ا . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المهبرة (مسرحية)	كارلوس مونيث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد .
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد هشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميغيل	ميغيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور العلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد قتمى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محبى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	اساليب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب طلوع
٩٤-	مسرحيتنا الحب الأول والصحة	سمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بوينو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مسألة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدود
١٠٧-	سرقة اللدائى لى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنه بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	قرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانٹ	أحمد حسان
١١٤-	مسرحتا حصاد كرنجى وسكان المستقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ليس النقاش
١١٩-	النساء والاسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	ياشراق؛ روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جرائى	أحمد فؤاد بليغ
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفجانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحي	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندرو فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيغال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرؤف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالقفار مكابى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوي	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	إشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دلبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التلفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنري ترويا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسننت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألقين كرنان	بدر الديب

- ١٨٩- المسمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر پول دى مان
١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراغى
١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث مجموعة من النقاد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالتين راسبوتين
١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨- الاتصال الجماهيري إديون إمري وآخرون
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية يعقوب لاندائو
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل جيرمي سيبروك
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤) رينيه ويليك
٢٠٣- الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى- سفورزا
٢٠٦- الهبولية تصنع علماء جديداً جيمس جلايك
٢٠٧- ليل أفريقي (رواية) رامون خوتاسنديز
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي دان أوريان
٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠- مثليات حكيم سنائى (شعر) سنائى الغزنوى
٢١١- فردينان دوسوسير جوناثان كلر
٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣- مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر ريمون فلادر
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع أنتونى جيندز
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧- مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خوليو كورتاثان
٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشجورو
٢٢٠- الهبولية في الكون بارى باركر
٢٢١- شعرية كفافى جريجورى جوزدانيس
٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراى
٢٢٣- العلم في مجتمع حر باول قيرابند
٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس
٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابرييل جارتيا ماركيت
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هريت لورانس
- سعيد الغانمى
محسن سيد فرجاني
مصطفى حجازى السيد
محمود علاوى
محمد عبد الواحد محمد
ماهر شفيق فريد
محمد علاء الدين منصور
أشرف الصباغ
جلال السعيد الحفناوى
إبراهيم سلامة إبراهيم
جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
فخرى لبيب
أحمد الانصارى
مجاهد عبد المنعم مجاهد
جلال السعيد الحفناوى
أحمد هويدى
أحمد مستجير
على يوسف على
محمد أبو العطا
محمد أحمد صالح
أشرف الصباغ
يوسف عبد الفتاح فرج
محمود حمدى عبد الفنى
يوسف عبد الفتاح فرج
سيد أحمد على الناصرى
محمد محيى الدين
محمود علاوى
أشرف الصباغ
نادية البنهاوى
على إبراهيم منوفى
طلعت الشايب
على يوسف على
رفعت سلام
نسيم مجلى
السيد محمد نفاذى
منى عبدالظاهر إبراهيم
السيد عبدالظاهر السيد
طاهر محمد على البربرى

السيّد عبدالظاهر عبدالله	خوسيه ماريّا ديث بوركي	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	٢٢٧-
مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	جانيت وولف	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمرى	نورمان كيغان	مأزق البطل الوحيد	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	عن الذباب والفئران والبشر	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	الرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستونير	ما بعد المعلومات	٢٣٢-
طلعت الشايب	أرثر هيرمان	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربى	٢٣٣-
فؤاد محمد عكرد	ج. سبنسر تريمنجهام	الإسلام في السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	ديوان شمس تبريزى (ج-١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل شوكيفيتش	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روبين فيدين	مصر أرض الوادى	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربى مذبولى أحمد	تقرير لمنظمة الانتكاد	العولة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلا راماز - رايوخ	العربى في الأدب الإسرائيلى	٢٣٩-
صلاح محبوب إدريس	كاى حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ابتهسام عبدالله	ج . م. كوتزى	في انتظار البرابرة (رواية)	٢٤١-
صبرى محمد حسن	وليام إمبسون	سبعة أنماط من الغموض	٢٤٢-
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لورا إسكييل	الفليان (رواية)	٢٤٤-
توفيق على منصور	إليزابيتا أديس وآخرون	نساء مقاتلات	٢٤٥-
على إبراهيم منوفى	جابريل جارتيا ماركيت	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوى	والتر أرمبرست	الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر	٢٤٧-
عبدالمطيف عبدالحليم	أنطونيو جالا	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	٢٤٨-
رفعت سلام	دراجو شتامبوك	لغة التمزق (شعر)	٢٤٩-
ماجدة محسن أبانلة	دومنيك فينك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج-٢)	٢٥١-
على بدوان	مارجو بدوان	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومى	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودى جروفز	أقدم لك: الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودى جروفز	أقدم لك: أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وكريس جارات	أقدم لك: ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلن رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	نخبة	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج-٣)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكى نجيب محمود	رحلة في فكر زكى نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدواردو مندوتا	مدينة المعجزات (رواية)	٢٦٢-
على يوسف على	جون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشللى	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروذكى	٢٦٧-
ديوان شمس تبريزى (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزير العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال	٢٧١-
الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الامسل الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى	٢٧٣-
السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى	٢٧٤-
ت. س. إليوت شامراً وثائقاً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التمسانى	٢٧٦-
الجيئات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى	٢٧٧-
البدایات	إسحاق عظيموف	خليف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى	٢٨١-
طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرزاق البمبى	٢٨٣-
هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المرازى	محمود علوى	٢٨٦-
الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنطوان كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى	٢٨٨-
ديوان متوجهى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	جودج مونا	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كاميل وبيل موريز	بدر الديب	٢٩٥-
مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى	٢٩٦-
فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد	٢٩٨-
ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
أسطورة برومثيرس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جامين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
أسطورة برومثيرس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى	٣٠١-
أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجوى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورن فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كوانجود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أى، ف، ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلاغد	س، شير لايموفا- س، زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الادب الروسى فى السنوات العشر الاخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ١)	ليفى بروفنسال	باشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباور	خالد مقلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود جلاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٦٨٥-١٥٥٨	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الطلو
٣٤٨-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علاوي
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شوبول	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	هبري محمد حسن
٣٦٤-	هدائة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبد الهادي رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كلير لا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو الميزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوي وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٣٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادى	بهاء الدين محمد إسفنديار	٣٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد على بهزادراد	٣٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى
بهاء جاهين	چون دن	٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٣٩١- الحافلة الليكسية (رواية)
عبداللطيف عبدالحليم	فرناندو دى لاجرانجا	٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٣٩٥- الام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٣٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٣٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٣٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميرفتش وآلن كوركس	٣٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياودن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبد المنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتوديم وجوتفرد كوار	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغودة	كارل بوبر	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيغر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأداب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردن	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العشانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميخاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاروس إلى فرج	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر واثت وأندزجى كليوفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	ترجمات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فرديريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المراسى (رواية)	صدر الدين غينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروسناد	محمد طارق الشبراوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاني
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستينج	محمد طارق الشبراوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس المتطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وقواد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المورييسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتز جانشتز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكأن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزمى إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصه إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض العباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية)	لاوشه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الاساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسُرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء البيغاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والنوع في الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودن	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طغولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جلبنارلى	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدوني	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرتفع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريغان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطن ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسي بمصر من العلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وايم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرويل ووايم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرفاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيقرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	سمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبد الغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلز	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وملابس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبين وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميچيل دى ثربانتس	على عبد الرؤوف البعبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	اناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس ونوردان جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زويدين ساردانوبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساچان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خائيننتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خائيننتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرديد	ريتشارد ايجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرؤف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وچودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	جون فيزر وبول سيجرز	باشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بونز	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاج (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدى
٥٨٨-	أمنوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجبية (رواية)	فيلكس ديوبا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وسلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزنبرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كركبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	معرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم ى، آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبد الرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادير جحا الإيرانية	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	هكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أهل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فانسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيث والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولنده	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف، روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدراياپادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية بمصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوون	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض العمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	هبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	هبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنور	داسو سالدبيار	هبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كلين	جمال عبد الناصر ومحدث الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الازمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألغن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	ول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، مج١)	مارتن برنال	ياشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، مج٢)	مارتن برنال	ياشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	ول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى قش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	هبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأمال القصصية الكاملة (المصراع) (ج٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتاين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أيجانسى وأوسكار زاريت	حمدي الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حائيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدي الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندريجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحدائق	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيلىان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مذكور
٧٠٦-	الشجرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رؤف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	أيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حناء صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (ج١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (ج٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (ج٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين

ن : 10515 تاريخ استلام : 7/2/2008

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفريدى	بول روبنسون	عبدہ الرئيس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	المويسكيون فى المغرب	غيرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٤١٠ / ٢٠٠٥



لماذا يتخصص باحث إسباني مثل غوثالبيس بوستو في تاريخ المغرب العربي؟ المؤلف نفسه يجيب عن هذا التساؤل في أكثر من مناسبة. إن قراءة تاريخ ضفتي مضيق جبل طارق في القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربي - من قبل الباحث الإسباني - ليست من باب التعرف على الآخر، بل هي ضرورة للتعرف على الذات.

ويلفت النظر في كتابات المؤرخين الإسبان رجوعهم إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون، بالإضافة إلى ما خلفه الكتاب الإسبان المعاصرون لهما، وقد اعتمد غوثالبيس بوستو على وثائق كتبها مؤرخون عرب، لكنه اعتمد كذلك على بعض ما كتبه مؤرخون إسبان في القرن السادس عشر، وهو يعلم أنها كتابات دعائية لا يمكن الاعتماد بها كثيراً، ومن ثم كان عليه أن يوضح ذلك للقارئ غير المتخصص. على أن هذا لا يعفي المؤرخ العربي المعاصر للأحداث من المسؤولية، فمؤلف الكتاب يلجأ إلى المصادر الإسبانية وحدها عندما لا يجد بديلاً عربياً!.

الموريسكيون في المغرب - المغرب

Price: 25.00 L.E.

